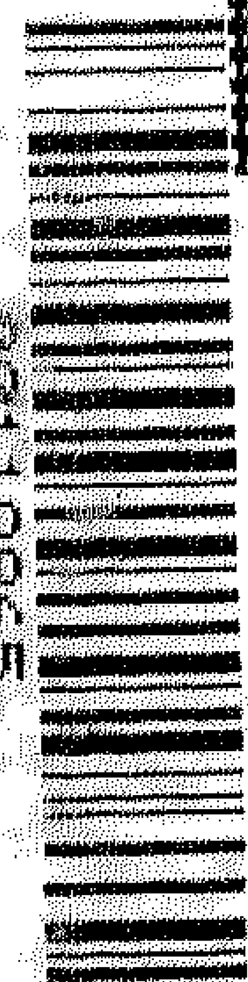
التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

٢

المجلد الثاني

سميح عاطف الزين



دار الكتاب اللبناني • دار الكتاب المصري

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

إن هذا التفسير لا يتناولُ الآياتِ القرآنية، آيةً آيةً، كما هي الحالُ مع التفسير التجزيئيّ. ولكنه يتناول موضوعاً معيناً من مواضيع الحياة العامة، ويحاولُ دراسته من خلال النصوص القرآنية.

وهذا النوعُ من التفسير - أي التفسير الموضوعيّ - يُعدُّ رائداً في تفسيراتِ القرآنِ الكريم.

من الأمثلةِ التي يتناولها التفسيرُ الموضوعيّ: عقيدةُ التوحيد، البحثُ عن النبوة، المذهبُ الاقتصادي، السننُ التاريخية، العلاقةُ بين الرجل والمرأة.. وغيرُ ذلك من المواضيعِ المتنوعةِ الواردِ ذكرُها في القرآن الكريم.

فوظيفةُ التفسير الموضوعيّ - إذن - أن يبحثَ أفكارَ عصره، وما احتوى التراثُ البشريُّ قبل هذا العصر، ليضعَها جميعَها على بساطِ البحث، وليستخرجَ صحيحها من باطلها، على هدي القرآنِ المبين، وما يمكن أن يستشفَّ أو يتبيّنَ من نصوص آياته البيّنات.. مع الاستعانةِ بالأحاديثِ الشريفة في معالجة المسألةِ المطروحةِ التي هي موضوعُ البحث.

وبمثلِ هذه العمليةِ المتكاملةِ يمكنُ للتفسير الموضوعيّ أن يحدّدَ الاتجاهاتِ الربانيةَ في معالجةِ شؤون الحياة - من خلال القرآنِ الكريم - باعتبار أن خالق هذا الكون - سبحانه وتعالى - هو القيّمُ على جميع هذه الشؤون.

من هنا، فإنَّ التفسيرَ الموضوعيَّ يُبرزُ شموليّةَ القرآنِ الكريم كمصدرِ عطاءٍ مستمرّ، وإبداعٍ متجدّد، ومواكبةٍ دائمةٍ لتطوّر شؤون الحياة.

وهكذا، فكلّما نضج الفكرُ البشريُّ وجد في مضامينِ القرآن المجيدِ مجالاتٍ رحبةً لهذا النضوج أو آفاقاً لا تُحدّ في التكيفِ مع وقائعِ الحياةِ وحقائقِ الكون.

المؤلف

مجمع البيان الحديث
قصص الأنبياء
في القرآن الكريم

قصص الأنبياء في القرآن الكريم

طبع في لبنان

عاطف الزين، سميح

قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سميح عاطف الزين

الطبعة الخامسة / مزيدة ومنقحة، مجلد فني

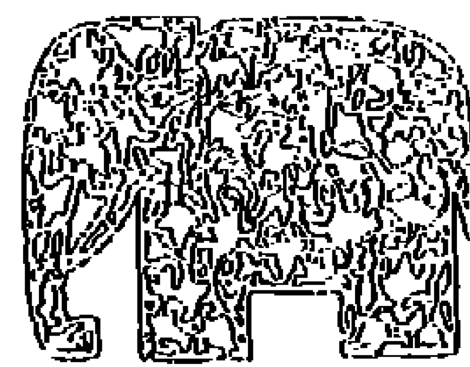
ISBN 1-894040-31-7

سميح عاطف الزين

مجمع البيان الحديث

قصص الأنبياء

في القرآن الكريم



الدار الأفريقية العربية

«إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ .»

آل عمران ٦٢

✡✡✡✡✡✡

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .»

سورة يوسف ٣

✡✡✡✡✡✡

« فَاقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .»

سورة الاعراف ١٧٦

عَدَدُ الأنبياءِ الذينَ خصَّهُم اللهُ بالذِكرِ في القُرآنِ الكَريمِ خمسةٌ وعشرُون نبيًّا وَهُم :

آدم	إدْريسْ	نوح	هُود	صَالِح
إبرَاهيمْ	لُوط	إسْمَاعيْل	إسْحٰق	يَعقوبْ
يُوسُف	أيّوبْ	شعَيبْ	مُوسَى	هَارُون
ذُوالكِفل	دَاوُد	سُليمَان	اليَاسْ	اليسَع
يُونسْ	زكريَا	يَحيٰى	عيسَى	محمّد

سَلامُ اللهِ عَليهِمْ أجمَعِينْ

وَلَكِنّ عَدَدَ جَمِيع الأنبِيَاء لا يَعلَمه إلاّ الله سُبْحَانَه وتعَالى لِقولهِ عزّ وَجَلّ :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عليكَ » سورة غافر ٧٨

وَقوله تعَالىٰ : « وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ . » سُورَة النسَاء ١٦٤



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يشعر الإنسان دوماً أنَّ في أعماقه فراغاً لا يمكنه أن يملأه. . . ويحسّ أن في داخله سرّاً خفيّاً لا يستطيع كشفه أو الاهتداء إليه. . .

هذه المشاعر والأحاسيس هي من مقوّمات حياتنا نحن بني البشر، فنظلّ مشدودين إلى غيبيّات أو أسرار تعتبر بمثابة دوافع لنا وآمال، حتى يكون لحياتنا قيمة ومعنى، ولوجودنا فلسفة ومغزىً. . . وإلاَّ لو استطاع الإنسان بلوغ كل ما يريد، وتحقيق كل ما يصبو إليه، لأصبحت الحياة لديه رتيبة، سهلة، يغلّفها الفراغ. ويموت لديه الشعور بالدوافع التي تقضّ عليه مضاجع فكره، ويخبو عنده التطلّع إلى الأماني والآمال التي تضغط على قلبه وعقله. .

ومن الثابت أن الإنسان كلما أمعنَ فكراً في جوانب حياته جذبته هذه الحياة كي يفهمها، ويتعرف على ما في كنهها من جَلَلِ الأمور وعظيمها. وإنه في كل مرحلة يصل فيها إلى علم أو معرفة، أو في كل مرةٍ يكتشف فيها سرّاً أو خفيَّة، ليوقن أن هنَالك أيضاً الكثير مما يجهله، ولم يُدركْه بعد. . .

ولقد تحقّق حتى الآن من العلوم والمعارف في حياتنا بنتيجة البحث والتفكير فوق ما يعجز عنه الوصف. . . إنه الإنسان. . كبيرٌ في

خلقه، عظيمٌ في تكوينه.. وهذه الصفات تجعله دائبَ البحث والتنقيب، دائمَ القلق والتطلُّع، شاعراً دوماً أنّه قادرٌ على أن يعطيَ المزيد، فلا يقف عند حدّ... وعلى الرغم من ذلك كله يظلّ يحسُّ في أعماقه بهذا الفراغ، وتبقى تعتلج في بواطن نفسه تلك الأسرار.

أمور جسام تشدّه إليها، ولكنه لا ينفكُّ عن النظر في الماضي السحيق، متقصياً أخبار الأمم السالفة، منقّباً في معالم الحضارات الغابرة، يقتبس خبراتٍ وتجارب، ويغترف علوماً ومعارف، يستعين بها للوصول إلى ما يريد. ولكنه في كل ما يفعل، وفي جميع ما يعطي، يظلّ مقصِّراً عن معرفة نفسه، وعمّا هي عليه هذه النفس في خلقها وكيانها، وطاقتها وعطائها.

والنفس هي ـ ولا ريب ـ من صنع الله تعالى، وقد أرادها ـ سبحانه ـ أن تكون على ما زرعه فيها من المقوّمات والملكات. فإن نحن حقَّقنا في حياتنا ما يمكن اعتباره بمثابة معجزات دون أن ندرك ماهية النفس وحقيقتها، فكأنما لم نحقّق شيئاً، لأن المدار في الأصل يقوم على معرفة النفس، والاهتداء إلى الذات.

ثُمَّ إن الله سبحانه وتعالى، بَعَثَ أنبياءه ورسله إلى الخلق، ووضع على عواتقهم تربية الإنسان تربيةً من شأنها أن تقوده لمعرفة نفسه، ومن خلالها للاهتداء إلى حقيقة وجود الله تعالى، والغايةِ الساميةِ من وجود الإنسان خليفةً لله ـ تعالى ـ على هذه الأرض... ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْۗ﴾.

ولقد جسّد الأنبياء والرسل، وهم الصفوة المختارة من بني البشر، تلك الحقيقة بإعلانهم الإيمان المطلق بالله تعالى، ونهجوا

على الصراط المستقيم، فكانت سِيَرهم مثلاً أعلى للذات البشرية، وتعبيراً أسمى للنفس الإنسانية. .

ولعلَّ معرفة سير الأنبياء والرسل، من خلال الاطِّلاع على قصص حياتهم، وما حفلت به من أحداث، أو ما اشتملت عليه من أعمال، أو ما هدفت إليه من العِبَرِ والعِظات. . إنما هي خير دليل لنا للوصول إلى معرفة الحقيقة التي ننشد. إذ يبرز في تلك القصص النموذجُ الكاملُ للحياة البشريَّة، وهي تتدرج مع الزمن، وتنتقل من طور إلى طور حتى تبلغ النهاية التي يجب أن تقف عندها. صحيح أن آلاف السنين قد غبرت، وأن قوافل الملايين من الناس قد ذهبت، وصحيح أيضاً أن حضاراتٍ كثيرة من العمران والبنيان، في مختلف الأقطار والأمصار قد اندثرت، إلاَّ أن القرآن الكريم قد احتواها بمجملها، ففصَّل منها ما أوجب التفصيل، وأوجز ما اقتضى الإيجاز، حتى يعطيَ للحياة البشرية الصورةَ المتكاملة في تواصلها واستمرارها.

وإذا كانت تلك المعاني والدلائل، قد جاءت في السُّوَر القرآنية متفرقةً في مواضع شتّى، فإنها وردت على هذا النحو كي تلازمَ الظروف والأحداث، وتبيّنَ الخطوط والأهداف، وتعطيَ الأثر الذي شاءه الله العليّ العظيم مؤثراً وهادياً للناس.

والقرآن الكريم في متناول أيدي الملايين من الناس، ويمكنهم قراءته في كل حين، إلاّ أنه قد يصعب على الكثيرين منهم أن يصرف وقتاً طويلاً في الاستقصاء والاستقراء، كي يربط بين تلك المواضيع، ويستخلص الفائدة التي يرجوها.

لذلك كانت الغايةُ من هذا العمل، الذي نضعه بين أيدي القراء الكرام، هي اجتناءَ أكبر قدر ممكن من الفائدة التي يتوخّون. وقد رأينا

أن نعتمدَ طريقةً سهلة، تقوم على جمع كل الآيات التي أتت على ذكر نبيّ من الأنبياء، وفي سائر المواضيع التي وردت فيها، ثم نصوغها قصة واحدة جامعة، تمكّن من معرفة كل ما يتعلّق بجوانب حياة هذا النبيّ وما حفلتْ به من مآثر. .

وعلى هذا النحو، تكون القصةُ الواحدة، التي وردت في أكثرَ من سورة، وفي عدد من الآيات، قد جُمعت مستقلةً تامةً موحدة، في أسلوب جديد، يعبِّر عن نزعة مستحدثة إلى معرفة حقيقة وجود الله تعالى التي لولاها لما كان لبني البشر من حياة، ولما كان للكون من وجود. ولعل هذه النزعة تكون سبيلاً من السبل التي تهدي الإنسان إلى الإيمان الحقيقيّ، وإلى سموّ النفس الإنسانية نحو المشارف التي أرادها لها خالقها سبحانه وتعالى.

القصص

يقال في اللغة: قصَّ الأمر قصّاً وقصَصاً: تتبَّعه (وهو أصل المعنى) وقصَّ الخبرَ: أعلَمَ به وحدَّث.

والقَصَصُ: الخبرُ المقصوص، والقِصَصُ جمع القصة التي تكتب، وجمع الجمع أقاصيص.

والقصة: الحديث والخبر والأمر، فيقال في رأسه قصَّة أي جملة من الكلام، ويقال اقتصصتُ الحديثَ أي رويتُه على وجهه، وقصصتُ الرؤيا على فلان إذا أخبرته بها.

ويقال: استقصَّ فلاناً أي سألهُ أن يَقُصَّهُ خبراً أو أثراً، والقصَّاص هو الذي يعمل بالقصّة، أي محترف القصة.

والقاصُّ: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيَها وألفاظَها، وجمع القاصّ قُصَّاص.

وفي الحديث: «لا يقُصُّ إلا أميرٌ أو مأمورٌ أو مختال». أي لا يقوم بذلك إلاّ أميرٌ يعظُ الناسَ ويُخْبرهم بما مضى ليعتبروا، أو مأمورٌ فيكون حكمُهُ حكمَ الأمير، أو مختالٌ يفعل ذلك تكبّراً على الناس بقوله وعمله بحيث لا يكون وعظُه وكلامُه حقيقةً.

وفي الحديث: «إن بني إسرائيل لما قصُّوا هلكوا». وفي الحديث أيضاً: «القاصُّ ينتظِر المقتَ»، وذلك لما يعرض في قِصَصِهِ من الزيادة والنقصان.

الإعجاز

الإعجاز أنْ تضعفَ القُدرَةُ الإنسانيةُ في محاولةِ إتيان المعجزة فلا تؤتيها، واستمرار هذا الضعفِ على تراخي الزَّمنِ وتقدّمهِ، فكأن العالمَ كلَّهُ في العجزِ إنسانٌ واحدٌ، ليس له غيرُ قدرتِهِ ومدّتهِ المحدودة، بالغةً ما بلَغَتْ.

الإعجاز القصَصيّ

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾(1) صدق الله العظيم.

أنْ نقلِّبَ صفحات التاريخ ونقرأ أخبار الماضي فهذا شيء مفيد ندركُ به كثيراً مما سلف، ونتعلّمُ منه تجربة لما قد يحدثُ. ولكنَّ ذلك يقتضينا العديد من المؤلفات وكتب التاريخ. أما أن نُقَلِّبَ صفحات الزمن، ونقع على كثير مما حدث ووقع منذ بدء الخلق، وضمن كتابٍ واحدٍ، فهذا إعجاز بذاته في القرآن الكريم.

وإعجاز القرآن ليس آتياً من حيث إنه احتوى أروع القصص وأحسنها لبلوغه النهاية في الفصاحةِ وحسن المعاني وعذوبة الألفاظ، مع التلاؤم المنافي للتنافر، والتشاكل بين المقاطع والفواصل وحسب، بل ولأنه قد أتى على ذكر الأمم الماضية، وأخبار الكائنات الآتية،

---

(1) سورة يوسف، الآية ٣.

وجميع ما يحتاج إليه العباد إلى يوم القيامة من المعارف والمنافع، بأعذب لفظ وتهذيب، وفي أحسن نظم وترتيب. وهذه القصص القرآنية تتضمّنُ من الإعلام والدلائل، والمعارفِ واللطائف، والمواعظ والعِبَر، ما لا تتضمنه قصصُ العالم بأسره، بحيث لو تتبَّعتَ أيها القارىء الكريمُ ما جرى في هذه القصص من أحداثٍ ووقائع، وما تخلّلها من حوارٍ ونقاش، وما تضمنته من ظروفٍ وملابسات، لوجدتَ أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعطيك الصورةَ الإنسانية الكاملة، مختاراً ثُلّةً من عباده الصالحين، وذلك بتدرج وتطور متناسقين، حابكاً ما جرى معهم خلال عصور متباعدة بنسج بلاغيٍّ فريد، مخرجاً للبشرية دقائقَ الأحداث التي كان لها الأثر الكبير على استمرارية الوجود الإنسانيِّ بأسمى وأروع وأحسن القصص.

ويتجلى الإعجازُ القصصيُّ للقرآن الكريم بدءاً بأبينا آدم عليه السلام، وانتهاءً بسيدنا محمد ﷺ حين يُرينا كيف بدأ الوجودُ الإنسانيُّ وكيف تمَّ تكوينُهُ على سطح الكرة الأرضية، بأسلوبٍ هو بحدّ ذاته معجزة المعجزات، إذ وضعَ الإنسانَ أمام الخيار المطلق، فإمّا أنْ ينصاعَ لأوامر خالقه ويبقى في الجنّة ولا يأكلُ الثمرَةَ المحرَّمةَ، وإمّا أن يَسْتَغْوِيَهُ مخلوقٌ آخر فيغفلَ عن الأمر الذي أوصاه الله به فيهبط من الجنة، حيث تدور قصة الصراع بين الخير والشرّ. . تلك القصة التي رافقت الحياة على كوكبنا الأرضيّ، وما تزال، إلى يومنا هذا وحتى قيام الساعة.

وفي خضم هذا الصراع يقصُّ علينا القرآن الكريم:

بناءَ السفينة وفوران التنور، وبَدْءَ الطوفان، مع نوحٍ عليه السلام.

وسلبَ النار خاصيتها لتكونَ برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

وانحباسَ عيون الماء، وانفلاقَ البحر حتى أصبح كل فِرْقٍ كالطود العظيم أمام موسى عليه السلام.

وتسخيرَ الجبال والطيور والأشجار للترتيل والتسبيح مع داود عليه السلام.

وتسخيرَ الجان والريح، وفهمَ أصوات الطيور والحشرات وغيرها من المخلوقات لسليمان عليه السلام.

والقدرةَ على إحياء الموتى، وشفاء الأبرص والأكمه بإذن الله تعالى للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

وشمولية الرسالة للناس كافة، وبلوغ النضوج البشريّ كماله، وإعجاز القرآن للثقلين مع سيّد المرسلين وخاتم النّبيين محمد ﷺ.

وبعد هذا الكمال المطلق الذي صوَّره القرآن الكريم للوقائع فأبدع في التصوير وكان ما قصَّهُ من أروع الحقائق، ماذا تروم أيها الإنسان بعد الذي جاءك من قويّ البرهان في أجلى بيان؟. وكيف تريد أن تتصوَّر نفسك؟.

لا إخالك مستطيعاً أن تضفيَ شيئاً من تصوراتك يزيد في روعة ما جاء به القرآن الكريم، حتى ولو كان تصورك في عالم الخيال!..

ماذا تريد؟

أتريد أن تتصوَّر نفسك مقيماً في الجنّة فهذا هو سيّدنا آدم عليه السلام فيه المثل على تلك الإقامة.

أم ماذا؟

أتقول أنا إنسانٌ واقعيٌّ وحياتنا الحاضرة بعيدة عن الخوارق والمعجزات، وإنسانيتنا تقوم على المثل العليا للوصول إلى تحقيق

أعلى المستويات. فهذا هو سيّدنا يوسف عليه السلام تآمر عليه إخوته، فأبعدوه عن أمّه وأبيه بالتضليل، ورمَوْه في بئر، فأنقذته قافلة مرّت به وضمَّته إلى متاعها، وباعوه بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودة! فقضى الله له أن يعايش أهل القصور ويرى ما هم عليه من مهانةٍ وفجور، ثم دُعي للتخلي عن المُثُل العليا فتشبَّث بها فأدخل السجن ولبث فيه عدة سنين لا لشيء إلاّ لأنه أبى عيش الفسق والفجور، وانتهاك حرمات الآخرين مع أنه كان في ريعان الشباب، ومن أجمل خلق الله تعالى في عصره حتى ضُرب المثل في حُسنِ يوسف وجماله. وأوتي من العلم والحكمة شيئاً كثيراً... ومع ذلك فلم يستغلَّ مواهبه لتحقيق مآرب خاصة، أو إشباع شهوات فانية كما يحاول أن يفعل الكثيرون في كل زمان ومكان، بل إنه أخضع كل ما حباه ربه به من مزايا وإمكانيات لرفع القيم الإنسانية والمحافظة على المُثُل، فوصل إلى أعلى المراتب في هذه الحياة، وفي الآخرة هو عند الله من المكرمين.

أم تتوخّى أيها الإنسان أن تكون قائداً منقذاً، أو مصلحاً اجتماعياً، أو ثائراً على الظلم والاستعباد، فهذا موسى عليه السلام قد رحل بقومه بني إسرائيل عن الفراعنة المتربّبين، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن العبودية إلى الحريّة.

أم تريد أن تقف موقف من يعمل لإنقاذ الإنسانية المعذبة. فهذا سيّدنا محمد ﷺ، خاتم الأنبياء، قد بُعث ليحمل لواء الإنسانية كلها كي يخلّصها من عبادة الأوثان، ومن جميع الأدران والشوائب التي علقت بها، ومن ثمَّ ليرسيَ قواعد الإسلام على أسس المحبة والأخوة والسلام.

ومن إعجاز القصص في القرآن الكريم ترى أيها القارىء الكريم

قصةً كاملة تامة الفصول ضمن سورة واحدة كقصة يوسف عليه السلام، ثم ترى قصة أخرى في عدد من السور القرآنية كقصة موسى عليه السلام، فتكون قصة يوسف ذات طابع فريد من نوعه ضمن القرآن الكريم، لأن قصص الأنبياء ترد في حلقات تناسب كلٌّ حلقة منها موضوعَ السورة وظروفَها. وبعبارة أخرى فإنَّ القرآن الكريم حين يكرر أخبار محاجحات الرسل مع أقوامهم يذكر في كل مرة جانباً من تلك المحاجحات بما يتناسب مع أجواء السورة التي وردت فيها من توجيه فكريّ وإرشاد ربانيّ، ومعالجة نفسانية، وتربية إنسانية، ومآلها جميعها نيل رضوان الله تعالى. . .

ويبرز المثال الصارخ على ابتعاد البشر عن المقاصد والمشاكل التي يعالجها القصص القرآنيّ في ما كان يدور في البيئة العربية من عداوات ومناقشات بين اليهود والنصارى، ثم بين أهل الكتاب والمشركين، وبين المسلمين وأهل الكتاب من ناحية وبينهم وبين المشركين من ناحية أخرى، لا بل وبين المسلمين أنفسهم في فهم التنزيل والعمل به. . مما يجعل القرآن الكريم، وعلى الرغم مما ورد فيه من أخبار الأمم الغابرة والقرون السابقة، وما احتواه من قصصهم وعبرهم، كتاباً ربانياً وإنسانياً في آن معاً. ولذلك لا يمكن اعتباره بحال من الأحوال كتابَ تاريخ كي يورد الخبر مسلسلاً، أو الوقائع متتابعة، ولا كتابَ علوم يدَّعي النظريات ويحاول إثباتها بالتجربة، ولا كتاباً من نتاج الفكر البشريّ في أي وجهٍ من وجوهه العديدة والمتنوعة. إنه كتاب فريد من ناحيتي المبنى والمعنى، ومن ناحية الصِّيَغ التي أرادها الله تعالى لقصصه على النحو الذي وردت فيه. وبمقتضى هذا الطابع الخاص فإن معظم القصص التي وردت كاملة في

كثير من سور القرآن الكريم كقصص لوط وعاد وثمود فإنها وردت مختصرة مجملة، إلا قصة يوسف عليه السلام فإنها وردت مفصَّلة بتمامها في سورة واحدة اختصَّت بها دون غيرها، ودون أية إشارة لكل ما وقع مع يوسف عليه السلام في أية سورة أخرى من القرآن الكريم. وهذا هو الإعجاز العظيم في الكتاب المبين بحيث يروي قصة مفصلة كاملة في سورة واحدة، ومن ثمَّ يروي قصة أخرى واحدة في عدة سور، مفهومةً في كل مكان وردت فيه، ومُصِيبَةً الهدفَ الذي أُنزلت من أجله.

ونحن نبغي التسهيل واختصار الوقت. لذلك فإن جهدنا سوف ينصبُّ على محاولة التنسيق فقط: فالنبيّ نوح عليه السلام مثلاً، تجد في القرآن الكريم سورة باسمه (سورة نوح) تتحدث عنه فقط، ولكنك تكتشف أن جوانب كثيرة من حياته وردت في سُورٍ أخرى، ولذا فإن قراءة سورة نوح عليه السلام لا تعني أننا عرفنا كل ما أورده القرآن الكريم عن النبيّ نوح عليه السلام كما هو الحال في سورة يوسف عليه السلام . . . وقد وجدنا ـ من أجل التسهيل على القارىء ـ أن نجمع وننسّق كل ما ذكر عن أنبياء الله في القرآن الكريم مخصِّصين مكاناً لكل نبيّ على حدة، مقتصرين على الأحاديث النبوية وما رواه بعض الصحابة الكرام الذين كانوا يدورون في فلك النبوَّة، لأن رسول الله ﷺ جاء مبيّناً للقرآن الكريم، مبعدين الإسرائيليات التي تربَّعت على عرش القصَّة القرآنية أمداً طويلاً من قبل بعض المفسرين. ولذلك كان لا بد من التساؤل، وأنت تتساءل معي أيها القارىء الكريم: ألم يَأْنِ للإسرائيليات أن تزولَ من رؤوس المسلمين وسائر العلماء المفكّرين؟

وهذا الكتاب هو محاولةٌ جادةٌ للرد على هذا التساؤل بغية إرضاء الله العليّ العظيم ربِّي وربِّ العالمين أجمعين.

القصّـــة

القصة قديمة قِدَمَ التاريخ، وقد اتخذتْ على مرّ العصور، أشكالاً وأنواعاً مختلفة، من حيث المبنى والمعنى، حتى غدت أحدَ المصادر الرئيسية التي يقوم عليها التراث الحضاريّ لجميع الشعوب، وذلك على الرغم مما احتوت من مبالغةٍ في النسج، أو تزييفٍ في الواقع، أو مجافاةٍ لحقيقة الأمور التي تدور في حياة الناس، أو تباعدٍ عن الغايات التي يرومون. . .

وقد اتّسمت القصّة بهذا الطابع لدى بعض الشعوب أكثر من غيرها، لأنها قامت في باديء الأمر على الأفكار الدينية وعلى الإِيمان، وهما المعبّران الحقيقيان عن التوق النفسيّ للتعلّق بأمور الغيب.

أمّا أول الشعوب التي شهدت ولادة القصة فكانت الشعوب الوثنية الأولى. إذ ظهرت القصص عندها على شكل أساطير تمجّد الآلهة التي هي مصدر النور والظلام والمطر والجفاف والغلال والقحط، وغيرها من الضرورات والمؤثرات في حياة الناس. . .

وقد شكّلت تلك الأساطير العقائدَ الدينية وغيرَ الدينية لدى تلك الشعوب. . . وكان يرافق إعلانَها ونشرَها اختلاقٌ ودسٌّ وتدجيلٌ،

بحدودٍ لا تُوصف، حتى يكونَ تأثيرها على النفوس أفعل، ووقعُها على الأذهان أقوى. . . وحتى يمكن فيما بعد تكييفُها على النحو الذي يحقق مطامعَ ذوي الشأن وأصحاب السيادة والنفوذ في تلك العهود. . وبذلك صارت تلك الأساطير مصدراً للقوَّة التي تمتَّعت بها فئةٌ معيَّنةٌ من الأشخاص، برزتْ في الجماعات وراحت تؤسس حكماً قوامه النفوذ الشخصيّ، ووسيلته البطش والاستبداد حيناً، والخداع والدهاءُ حيناً آخر، حتى شادت الملك وصارتْ صاحبةَ السلطان المطلق في كل شيء. . تفرضُ الضرائبَ، وتُنزلُ العقوبات، وتوقعُ المغارمَ على الناس، ولا وازعَ ولا رادعَ إلا ما تمليه المصلحة الشخصية. . أما الفئة الثانية، التي كان تمهّد للأولى، وتُساعدها على بسط سيطرتها وإحكام جبروتها، فهي جماعة العرّافين والكهّان الذين يتولَّوْن التبشيرَ بالخرافات، ونشرَها بالوسائل الملتوية التي تحمل في طيّاتها الكذبَ والاختلاق، الأمر الذي يجعل العامة من الناس مسلوبةَ الإرادة فاقدةَ الوعي والإدراك، غيرَ قادرةٍ على التمييز بين ما يجب أن يكون عليه الإيمانُ، وبين ما تحمله تلك الدعواتُ، من السطوةِ على الناس والتأثير فيهم، بما يحقّق الغايةَ المطلوبةَ من تدعيم الملكِ وتقوية نفوذِ خدّام الهيكل، حتى باتت الشعوب نهباً موزعاً بين سلطتين ظالمتين، اصْطُلِحَ على تسميتهما بالسلطان الزمنيّ والسلطان الروحيّ.

ووَيلٌ لشعبٍ إذا اتفق حكامُه وكهانُه على إذلاله، إذ يصبح مطيّةً لهم، مسلوبَ الإرادة قاصراً عن التعبير، خاضعاً للأوامر والنواهي بما يشبع المطامع ويحقق المآرب لأهل الحكم، وحَمَلَة الدين المزيَّف، ولمن حولهم من الأعوان. . . يسومونه سوء العذاب، ويسخّرونه لبناء الأبراج العاجيّة والقصور المنيفة، أو لإقامة القلاع والحصون المنيعة،

أو يستخدمونه في العمالة والتشغيل بما يمكنهم من تكديس الذهب الرنّان، واقتناء الحلى وأدوات الزينة، وامتلاك الخيول والمطايا. . . أو قد يفرضون عليه الحرب ساعة يشاؤون، للتخلص من عدد أبنائه تارة، أو لتوسيع رقعة النفوذ والسلطان تارة أخرى. . . بل ولِمَ لا تكون الغايةُ القضاءَ على أكبر عدد من أبناء الشعب حتى لا يشكلوا الأخطار على مستقبلهم في الحكم والنفوذ؟! . وبكلمة أخرى، أليست الغايةُ من الحروب، عادةً، الاستغلالَ والاستعبادَ وسرقةَ مواد الرفاهية من الأمم الضعيفة؟ ففي السابق كانت تلك المواد تشتمل على الحبوب والقمح والبخور، وعلى الذهب والفضة، واليوم هي، بالإضافة إلى ذلك، تشتمل على الموارد الطبيعية والثرواتِ الوطنية وفي طليعتها البترول. وهي في عصرنا الحاضر، كما في العصور السابقة، المصدرُ الأولُ والرئيسيُّ للنفوذ والسيطرة، ولتكديس الثروات الطائلة، ولتأمين الاستهلاك حتى التخمة لفئات محدودة في كل بلد من بلدان العالم.

ومن عجبٍ أن تلك الأوقات التي كان فيها الحكّام، ومن ورائهم خدّام الهياكل، يستغلّون الشعوبَ بأبشعِ الطرقِ والوسائل، ويسيطرون على الأمصار والبلدان بالدم والنار. . . أجل من عجبٍ أن تُسمّى تلك الأزمنة بالعصور الذهبية أو العهود الزاهرة في تاريخ الأمم. . .

ومن المؤكد أن في ما عاشه الشرق من أساطيرَ عشَّشت في ذهنه، يكمن السبب فيما آل إليه من مصائر، وما ترتَّبَ عليه من نتائج، أقلها القضاءُ على الوعي كلما تفتح لديه، أو حشوُ عقله بالتشويش كلما أدرك الوصول إلى الصفاء، أو تعبئةُ نفسيته بالاضطراب والتعقيد كلما عرف الهدوء والاستقرار. . . لقد كانت الخرافاتُ والأوهامُ أقصرَ

الطرق وأوثقَها إلى ذلك كله. . . فهي تفحُّ بالمبالغة والتهويل فحيح الأفعى عندما تنفث سمومها، وهي تحبل بالشعوذة واصطناع الخوارق حَبَلَ نفوسِ أصحابها بالأباطيل. . فليس غريباً إذن أن يدّعيَ الكهّانُ بأنّهم حَمَلَةُ الأسرار، وبأن يستخدموا الرموز والسحر، والعزائم والطلاسم لاجتذاب الناس، واستمالتهم إلى الاستكانة والخضوع. . .

وعلى هذا النحو كانت القصةُ أقوى الأسلحة وأخطرَها بين أيدي الحكام والكهان، لا فرق بين عصر وعصر، ولا بين شعب وشعب. لم ينجُ من ذلك إلاّ شعبٌ واحدٌ، هم العرب. فقد عاش هذا الشعب على التفاخر في قِرى الضيف، وتمجيد البطولة التي تفرضها حياة الصحراء القاسية، ولذا لم تستهوه الأساطير كسواه، ولم تشُدّهُ الغيبيات مثلَ غيره، حتى أنَّ ذلك كان صارفاً لمعظم رجاله عن الاستماع إلى القرآن إبّان نزوله، فقد وقرَ في أذهانهم، وهم أميّون لا كتب لديهم، أن الأساطير لا تكون في بطون الكتب، فهم إذن لا يستمعون إليها، ولا يأبهون إلاّ بما تتناقله الألسن من أخبار آتية من البعيد. . فلما نزل القرآن الكريم، ورأوا أنه قرآنٌ عربيٌّ مبينٌ آمنوا به، وركنوا إليه، وأقبلوا على سماعه سراً وجهراً، فاهتدوا، واستجابوا لنداء الحق الصريح فيه، لا يشذُّ عن ذلك إلاّ من تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

مما تقدم تظهر لنا حقيقةٌ بسيطةٌ، ربما لم يُغفلها الناسُ ولكنها ما تزال غيرَ واضحة المعالم بعد، وهي أن أساطير الشعوب الشرقية،

---

(١) سورة المطففين، الآيتان: ١٢ و١٣.

وقصصها الدينية لا تتنوّع في موضوعاتها، ولا تتباينُ في غاياتها ومقاصدها، بل تتقارب رغم اختلاف الأزمنة وتعاقب العصور. فهي في الجملة نماذجُ متشابهة، وخيالاتٌ مرددة، وتصوراتٌ مكررة. والاختلافُ فيما بينها طفيف، قد يكون سببه اختلافَ البيئة والمحيط، أو تمايزَ العادات والتقاليد، أو تنوعَ المعطيات والمسمّيات... وليس في ذلك عجبٌ ما دام الغرضُ من القصص الدينية يكاد يكون واحداً، وما زالت أساليبُ تصويره متشابهة، وطرقُ إخراجه متماثلة إلى حد بعيد، حتى ليجد المدقِّقُ أنَّ القصص الدينية في بلاد الشرق تكاد تكون على نمطٍ واحد، أو نموذج واحد، اختلفت ترجماته باختلاف اللغات واللهجات. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾(١).

وتعتني القصة الدينية، على وجه العموم، بإبراز القيمة الكبيرة للأشخاص الذين يضطلعون بدور البطولة فيها، أحياءً كانوا أم أمواتاً، فَيُنْسَبُ لهؤلاء القدرةُ على جلب المنافع، ودفع المضار، وتحقيق المستحيل الذي يفوق طاقة البشر، حتى لتنحني لأسمائهم الرؤوسُ، وتخشَع لذكرهِمُ النفوسُ... وإذ ذاك يتحققُ الغرضُ أو تتأمّنُ الغاية المنشودةُ، وهي إسدالُ حجابٍ بين الله تعالى وعباده، عن طريق واسطةٍ يضرعُ إليها الناس، ويرجون على يديها الخير الذي يتشوّقون إليه. وبذلك تتعدّدُ الوسائطُ، أي تتعدّد الأوثان، وبالتالي تتعدد الآلهة.

وما الأوثان والأصنام إلاّ رموز للآلهة أو لبعضها سواء فيما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

تخيّله الإنسان أو فيما صنعته يداه على شكلٍ أو آخرَ من الأشكال المصطنعة، عابسةً كانت أم ضاحكةً، جميلةً أم قبيحةً، وفق النزعات والميول، والأهواء والرغائب والتطلعات.

وهل الوثنية بهذا المفهوم إلاّ الوقوف بين الفطرة وطريقها، وبين النفس وخالقها؟

خرق النواميس

خرقُ الناموس معناهُ الخروجُ على المألوفِ من التصرّفِ، أو المعهودِ من القواعد، بما لا يتوافقُ والعقلَ، ولا يأتلفُ والمنطقَ، حتى يأتيَ الفعلُ وكأنهُ خارقٌ للطبيعة، أي فوق الممكن والمستطاع . . .

ولقد راجت حكاياتُ خرق النواميس عن «الدجالين» ـ وهم الكاذبون المخادعون ـ في العصور القديمة كافة. فنُسبَ إلى هؤلاء من إتيان عجيب الفعل، أو غريب العملِ، ما ينطبق عليه وصف المعجزات . . .

ومن أقدم الأمثلة على ذلك النوع من القصص ما ذكره المؤرخ «باجت» في قصة الكاهن «أمكنخ»، نقلاً عن «أوراق البردي»، عندما روى أن أحد ملوك مصر القديمة رأى مناماً أفزعه وتملّكه منه القلق والهلع حتى ضاق بكل ما حوله، أمام عجز الكهان عن تأويله بما يطيّب نفسه، وتقصير المقرَّبين إليه بإيجاد الوسيلة التي تُزيل من فكرِهِ وقلبِهِ ذلك الكابوس الذي جثم على صدره لا يفارقه في أيامه ولياليه، وذلك على الرغمِ من جميع المحاولات للتخفيف عنه وتسليته، وعلى

الرغمِ من كل التفسيرات والتمنيات والاقتراحات التي قيلت في المنام الذي رآه الملك وأدى به إلى ذلك الضيق والحزن.

وأخيراً ينجح أحد المقرَّبين في إقناع الملك بالذهاب إلى حفل كبير، حيث أُعِدّت له أعظم احتفالات البهجة والانشراح، وأقصى وسائل اللهو والإمتاع، على مركبٍ في النيل، يتهادى به وئيداً بين عرس الطبيعة واستعراض الراقصين والموسيقيين والفنانين..

وانفرجت أساريرُ الملك من الانقباض وسط هذا الابتهاج الكبير، وانسالت نفسُهُ مع اللحن الشجيّ، وارتعشت عواطفه مع الملمس الناعم، فارتاح... وراح الوقت ينساب مع الليل، والملكُ غارقٌ في النشوة إلى جانب إحدى الفاتنات، وفجأةً وفيما هو يهيم في تلك السعادة العارمة إذا بالمرأة تشهق ويتجهّمُ وجهها بالحزن، لأن سوارها سقط في النهر وهي تحاول أن ترفع يدها على حافة المركب، مما جعل فرعون يعود إلى انقباضِهِ ووجومِهِ.. وكان الكاهن «أمكنخ» موجوداً في الحفل، فلما انتهى إليه الخبر طلب الرجوع بالسفينة إلى حيث وقع السوار. وهناك مدّ يده للبحث عنه في قاع النيل، وما هي إلاّ لحظات حتى أتى به، فعادَ البِشرُ إلى وجه فرعون، وامتلأ قلبه بالفرح والسرور.

ومن هذا النوع من قصص الغرائب والعجائب، نوعٌ يتحقق فيه اجتماع الضدَّين والتقاءِ النقيضين. وقد جرت من قبل ذلك حكايات كثيرة، منها قصة «الملاح الغريق» الذي تتقاذفه الأمواج بعد غرق سفينته حتى تصل به إلى شاطىء إحدى الجزر، فتقوم بينه وبين ثعبان هائل خرافيّ مودةٌ وصحبة، ويعيشان سويّةً أمداً طويلاً. وهذه

الخرافة من أشهر أنواع القصص الدينية عند قدماء المصريين. ومثالها أيضاً ما يروى في المجالس وتتناقله الأجيال عن زجر الرياح أو أمواج البحر حتى تسكن. إلا أن أكثرها رواجاً وانتشاراً كانت، وما تزال، قصص شفاء الأمراض المزمنة بقراءةٍ أو بطلسم. وقد بالغ الناس في مثل هذه الحكايات إلى حدّ إحياء الموتى، وهو أمرٌ اخْتصَّ به الله تعالى، لأنه وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يمكن لبشر أو مخلوق أن يملك سرّ الحياة والموت أبداً. وإنَّ المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قد أحيا الموتى بإذن الله، لتكون في هذه المعجزة آيةٌ كبرى تدل على حقيقة وجود الله تعالى، وكرامة أنبيائه ورسله.

المنامات والرُّؤى

وتدخلُ في باب القصص الدينية أيضاً المناماتُ والأحلام. وهي شائعة حتى يومنا الحاضر. ورجالُ الدين كما يعتقد عامة الناس، هم بالضرورة المرجعُ الأكثر ثقةً وقدرةً على تفسيرها وتأويلها. حتى تصل في كثيرٍ من الأحيان إلى حدّ إلباسها ثوبَ الحكايات المنمَّقة، والروايات المسلّية من أجل أغراضٍ كثيرةٍ ومتنوعة. . .

ففي البيئة الوثنية كانت الأحلام عبارةً عن وسيلةٍ من الوسائل التي يستعملها الحكامُ أو بطانتُهم لتحقيق الأغراض والغايات التي كانوا يرومونها. وقصة «فتاة النيل» أو «عروس النيل» هي المثال على ذلك. فهي تحكي لنا كيف تُنتزع الصبية البريئة، الجميلة، من كنفها العائليّ، ثم تُزانُ بالحلى ليُلقى بها، بعد ذلك، في وسط نهر النيل الكبير، عند فيضانه، قرباناً للآلهة. أما في حقيقتها فهي تدل على الحقد الذي يستشري في النفس حتى يصل إلى حد الانتقام، ولو أدّى إلى سلب الأبَوَين ابنتهما، وحرمانها هي من العيش والحياة، تماماً كما فعلَ رئيس الكهنة في مصر القديمة عندما أراد أن ينتقم من أحد مُنافسيه في الحكم، فلم يرَ أقرَبَ إلى غرضه ذاك من الاحتيال على الملك عن طريق تأويل حُلمٍ رآه، فأقنعه بأن جلاء المكروه الذي رافق حُلْمَهُ في

النوم، لا يكون إلا بضحيةٍ يبتلعها النيل، ويذهب معها الشرّ. وكانت ابنة الكاهن الذي يكرهه هي الضحية، فزينوها وألقَوها في النهر. وقد صار ذلك التأويل الكاذب سبباً لما جرى عليه تقليدُ «عروس النيل»، وذلك بإلقاء إحدى الفتياتِ فيه كل سنة، للتعبير عن شكرهم لآلهة الخصْب..

وفي الشرق، تكثُرُ، عادةً، حكاياتُ الصالحين وما يتحملون من آلام، وما يلاقون من مصاعبَ ومشاقّ وأهوالٍ، وهم يكافحون ويناضلون في سبيل الإصلاح وخير الناس. وهذا النوع من القَصصِ الدينيّ غالباً ما يكون من نسج خيالاتِ فئةٍ معيّنةٍ تتخذُهُ مورداً للارتزاق، فتُشيع بين الناس أنها من «الأخيار» أو من «الصالحين» الذين نَدَبوا أنفسهم لهداية الناس عن طريق إخبارهم بما قامَ به أسلافُهم من عمل الخير ونشرِ المحبة والوفاق والوئام، ومما يجعل مآثرهم سبيلاً للتبرّك وترسيخ الإيمان... فيصير هذا العمل لديهم مهنةً متقنةً للتكسّب عن طريق الحكايات ورواية الأخبار. يدل على ذلك ما نجده في القصص الهندية من حكاية الكاهن الذي نَذَر أن يقف تسعة أشهر على ساقٍ واحدةٍ تزلُّفاً وتقرُّباً في عبادته... ومثلها أيضاً قصةُ راهبِ الصومعة وقد لبثَ فيها مائة عامٍ لا يخرج، خوفاً من مطاردة الشيطان له!.

التاريخ والقصص الدينيّ

لو طُلِبَ إلى بضعةِ أشخاص شهدوا واقعةً معينةً أن يكتبوا مشاهداتهم عنها، لما جاءت الصورة التي يُعطيها كلٌّ واحدٍ منهم متفقةً تماماً معِ الصورة التي يعطيها الآخر، ولكان في كتاباتهم تباينٌ واختلافٌ بقدر ما يختلفون فيما بينهم من حيث القدرة الفكرية، أو النمط في التعبير، أو الاتجاه في الميول والأهواء، لأن كل واحد منهم يرى تلك الواقعةَ بمنظارٍ مختلف عن منظار الآخرين.

ولأمر ما لم يتعرّضِ القرآن الكريم للقصةِ بأكثرَ مما قصد منها موعظةً أو تربيةً، بعيداً عن التفاصيل التي لا تزيدُ في جوهرها أو تُنقصُ منه شيئاً، فتأتي لتُصيبَ الهدفَ المقصودَ أو لتوضّح الغايةَ المرجُوَّة... ولعلَّ الغايةَ القرآنيةَ من ذلك هي الابتعادُ عن القصص الاسطوريِّ، الذي طبعَ عقولَ الناس ورسَّخ في أذهانهم كثيراً من الأمور والقضايا التي لا تتوافقُ والإيمان بأبعادِهِ التربويّة والخلقيّة والدينية والإنسانية. وقد كان الأنبياء مرسلين لإرشاد الناس إلى الإيمان الصحيح بأبعاده المذكورة. وكانوا يَرَونَ الأساطيرَ قد عشّشت في الأذهان على نحو عقيدةٍ دينيةٍ يتوارثُها الأبناءُ عن الآباء، وغدت التراثَ الفلسفيَّ والحضاريَّ الذي تحفظُهُ الأجيالُ المتلاحقة أكثر مما

تحافظ على غيره من العادات والتقاليد.. وهذا يفسِّر ذلك الزَّيف الزائد على أخبار الأنبياء وأعمالهم، وما أُضيف إليها مما هو غريبٌ عنها، أو ما أدخل عليها مما ليس منها، أو ما غُيِّرَ فيها مما لا يأتلف معها. وهذا كله قد أخرجَ القِصَص النبويّة عن حقيقتها وعن الغايات التي جاءت من أجلها. فبعض الكتب الدينية تتحدث عن الأنبياء بما يحمل زياداتٍ كثيرة لا مبرر لها. والمثلُ على ذلك تصوير النبيّ داود عليه السلام وكأنّه ذاك الملكُ الشرقيُّ الذي يعيشُ حياةَ البذخ والترف، وتَحفُّ به الزوجات والجواري، وتتجاذبُهُ نزاعاتُهُنَّ وعواطفُهُنَّ، مع أنّه جلَّ عن ذلك الوصف الرخيص، وعلا عن أن تتحكم به الغرائز والميول. وهيهات أن يعرف غيرِ العاقل الحكيم أن هذا الدسّ الرخيص اختلاقٌ دخيلٌ على الحقيقة ومخالفٌ للواقع، على الرغم من أنه عند عامة الناس يُعْتَبَرُ ثابتاً باعتباره مصدراً من مصادر التعلّق بالحياة المادية والتهافت على مسراتها... وبهذا الشكل من الدس والتزييف تصبح الطرقُ إلى إخضاع الجماعات، والأساليبُ إلى استغلالها أسهلَ وأيسَرَ، ما دامتْ مطبوعةً بالفكرة الدينية. وبمثل هذا الاختلاق، وعلى هذا النحو من الإدخال والاصطناع، كَثُرَتِ التفاسيرُ في القصص القرآنيّ الكريم. فحيكت حوله الخرافات، وتداخلت فيه الأساطير بما اصْطُلِحَ على تسميتِهِ بالإسرائيليات. وأخبار كعب ووهب بن منبه، وغيرهما من يهود المسلمين، هي الدليلُ على هذا الطابعِ الإسرائيليّ في التفسير للقرآن الكريم.

ولكن ما الغاية من هذا المنحى في الاختلاق؟!.

من المسلمات التي لا تقبل الجدل أن اليهود هم شعب ذو نوازعَ مادية. وكان هذا الشعب يسعى دوماً وراء الكسب الماديّ الذي يمكنّه

من تحقيق الثروات الطائلة، والتحكّم في الاقتصاد، بُغية التأثير على الحكام، كي يصل إلى الغاية البعيدةِ وهي السيطرةُ الكاملة على كل الأمور، وعلى من بيده مقاليدُ الحكم، وإخضاعُ الشعوب، حتى تتحقّق لليهود كامل الأهداف التي يسعون وراءها!.

ولما كان الناس في الغالبية الساحقة، يميلون بالطبع إلى الحياة المترفة، وينساقون وراءَ الشهوات والنزوات، فإنهم بلا شكٍّ سوف يُؤْثِرونَ الوسائلَ التي تُؤمّن لهم الإمكانياتِ للحصول على الثروات.

وإذْ عرفَ الشعبُ اليهوديُّ كيف يستطيعُ السيطَرةَ على رؤوس الأموال كما قلنا، فقد باتَ سهلاً عليه أن يستغلَّ حبّ الناس للمال، وبالتالي اختراعُ الوسائلِ الكفيلةِ بنشرِ مختلف ضروب الغوايةِ والاستهواءِ للتعلّق بالماديات. وليس أكثر تأثيراً في النفوس من القصص التي تروي غرائب المتعة وتصور أفانين الملذات، سيما إذا كانت تلك القصص ممزوجة بالطابع الدينيّ...

وهكذا برزَ هذا الأثر في نسيان الأساس الذي قامت عليه القصص الدينية في الأصل، وفي الانحراف وراءَ الصور الخرافية المليئة بالأباطيل والتُّرهات، الحافلة بالميول والأهواء... ومن مظاهر تلك الترّهاتِ والأباطيل الاعتقاد بما يسمّى الطيرة أو التشاؤم، أو بما يعرف بالفأل أو بالتفاؤل...

ومن قبيلِه أنَّ الصَّابئة كانت تُعلّق أيامَ النَّحس أو السعد على الكواكب، وتعتمد على الأبراج في اكتشاف المستقبل... وقد لاقت هذه الخزعبلات دعماً عن طريق بعض المصادفات التي كانت تحصل وتُحدِثُ أثراً معيَّناً في حالة من الحالات أو في مجالٍ من المجالات: كأن يحصل حدثٌ سعيد، أو تحلّ كارثة معيَّنة بظهور نجم أو

كوكب. . ولذا رأينا بعض المسلمين في عهد الرسالة قد ربطوا بين كسوفِ الشمس وبين وفاة إبراهيم ابن الرسول عليهما السلام، وقالوا: كُسِفت الشمسُ لموتِ إبراهيم!. . فعرفَ النبيّ ﷺ بالشائعة فعقد اجتماعاً وخطب فيهم قائلاً: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان ولا تنخسفان لموت أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة**».

والغاية التي نريد الوصول إليها مما تقدم هي أن الأمم الشرقية قد تأثرت بالأساطير التي انطوت على حبّ الماديات، والركض وراء المسرّات، والهروب من «الجدّيات» التي تصنع المستقبل بأفضلَ من الماضي، فقضى الله أمره بأن تظل غالبية هذه الأمم تَرسُفُ في قيود الأساطير التي كبّلَتها، وتُحتَجَزُ في الأُطُر التي أحاطت بها. ويزيدُ في سوءِ طالِعِها أن أخذت القصصُ التي أُخرجت في أطوار انتقالها من مرحلة إلى مرحلة منحىً جديداً، فلم تعُدْ مقصورةً على الغيبيات والأمور الدينية بل امتلأت بطون الكتب، في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديّين، المتوافقين مع القرنَين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، بأفكار جديدة ومتنوعة تتناول مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. . . وازدهرت من خلالها المسارحُ، والسينما، والتلفزيون، ومختلف الوسائل السمعية والبصرية، وكلها تفعل فعلها العجيب في انحراف تربية الناشئة، وفي التأثير على العقول والنفوس، بما يتوافقُ والاتجاهات المادية التي أبعدت الإنسانَ عن حقيقةِ وجودهِ، وعن معرفة الدور الذي هيّأه له الله سبحانه وتعالى في هذه الحياة. ولعلَّ أبرزَ الأدلة على شيوع تلك الأفكار، نوعٌ من القصص البوليسيّ الذي توسع الغرب فيه كثيراً، مظهراً نزعة القساوة وحِدَّة الشر

عند الإنسان. وقد تفنَّن الكتَّابُ في سرد الوقائع والأحداث، وتصوير أشخاصها، وملاحقة مرتكبيها، على نحوٍ يجعل القارىء أو المشاهدَ يؤخذ بها، وينفعِلُ بتفاصيلها ونتائجها، مع ما يترتب على ذلك من الانطباعات التي تترَسَّخ في نفس الإِنسان بلا وعي منه ولا إدراك. وإن في أفلام العنف التي تسيطر على الإنتاج السينمائي الأميركي - بصورة خاصة - ما يؤكد هذا الواقع حتى اليوم. .

وهذه الأنواع من القصص، وعلى الرغم من تأثيرها السيء على صفاء الأنفس، إلاَّ أن أخطر منها تلك القصصُ، أو الحلقاتُ التلفزيونية التي تصوّرُ أبطال القصةِ أو الحادثة، أشخاصاً ذوي قدرات خارقة يستطيعون بها مواجهة أعتى القوى ومجابهتها على نحوٍ يُعيدُها إلى عوالم تلك الأساطير التي ظُنَّ أنها اندثرت إلى غير رجعة. . . وهذا لعمري أسوأ ما أنتجه الفكر البشريّ، ناهيك عن الانفعالات التي يُحدثها هذا النوع في نفوس الأطفال والناشئة بما يُخالف أبسط قواعدِ التربية، والسلوكِ الإِنسانيّ الصحيح. . . وربما كانت هذه القصص هي ما يستهوي الشبابَ بالذات، لما تُثِيرُ فيهم من الاندفاع وراء حبّ المغامرة. ولعلها كانت وراء ما يسمّى «بظاهرة الرفض» عند الشباب، إذ يحاولون التخلّص من كل أساليب العيش القديمة التي عرفها آباؤهم وأجدادهم، ويَسنُّونَ لأنفسهم أنماطاً جديدةً من العيش تتوافق في رأيهم مع التقدم والتطوّر الذي يرافق استمرار الحياة حتى ولو كان ذلك على حساب نظام الحياة، واستقامتها، بما تحمل تلك الأنماط من تحللٍ واستهتار بالقيم الأخلاقية والمُثُل العليا، والمبادىء السامية. وهو ما نعايشه اليوم من المظاهر التي باتت واقعاً لا يمكن إنكاره. ومن الأدلة على هذا التحلّل إقامة العلاقات الجنسية بين الشباب

والفتيات بلا زواج، أو التهافت على المسكرات، أو الانجراف في بُؤَرِ المخدّرات، ناهيك عن الركض وراء المال، وعقدِ صفقات غير مشروعة بقصد الربح السريع. وإن فشلَ أحدهُم في إحدى الصفقات، فإنه يعزو ذلك لسوء الحظ الذي منعه من تحقيق آماله.. فبئست الطرق الملتوية التي يسلكها هؤلاء الفاسدون لصناعة الحياة «الشريفة»!.

وهكذا يظهر لنا جلياً أثرُ الأفكارِ في حياة الإنسان، خاصةً إذا ما حيكت تلك الأفكار بأسلوبٍ قصصيّ يستسيغهُ الذوقُ المنحرف، وتألفُه النفسُ المائلة إلى الهوى، فيفعل إذ ذاك فعله فيها، ويطبعُها بطابعٍ يتوقفُ عليه مستقبلُ الإنسان كله.. فإذا قُدِّر للإنسان أن يشهد سيلاً جارفاً من الكتب التي نزعت نحو المادة والجريمة، فمن الطبيعيّ أن يؤدِّيَ ذلك إلى إبعاده عن الطريق القويم الذي يوصله إلى شاطىء السلامة والكرامة.. وهذا كله يجري ـ عن عمدٍ وسابق تصوّر وتصميم ـ بخلاف ما جاء به القرآن الكريم.

فعطاءات الله وأوامره لا تتعلقان بعمارة الدنيا فقط، بل تنبّه إلى طاعة الله عزّ وجلّ، لأن الإنسان غيرُ مخلّدٍ في هذه الحياة، ولا بدّ من الرجعة إلى الله عز وجل، لأنها هي المعاد والمصير، كما نبَّه إليها هود عليه السلام بني قومه بالقول الحق: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾[1].

فتبارك الله تعالى، الذي حثَّ الإنسان على السعي، وعلى أخذ

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٢٨ ـ ١٣١.

الأسباب بالمسبّبات حتى يتمكّن من غرس الأرض وعمارتها، ونيل الرزق الحلال، ونشر الخير العام، ولكن بشرط أن يضع نُصب عينيه ذكر أيام الله عزّ وجلّ.

أيها الإنسان! . . . إنَّ لك رجعةً إلى الله سبحانه وتعالى. ونحن ندعوك للنظر والتأمّل والتفكير في مضامين القصص القرآنية التي نضعها بين يديك. . فقارن بينها وبين ما قُدِّم من قصص، قديمةٍ وحديثة، حتى تصل إلى الحكم اليقين. وإنّك لواجدٌ، بإذن الله، أن قصَص القرآن، بما تقدّمه من تصوّرات ومعانٍ جليلة، وبما تحتوي من أدلّة وبراهين، إنما تهدف إلى نشر الخير للإنسانية جمعاء. وهي بلا ريب من أسمى القِصَص وأروعها منذ الأزل وحتى يومنا الحاضر، وستظل كذلك إلى قيام الساعة. .

التكوين

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾(1).

١ ـ كانت السمٰوات والأرض ملتصقتين منسدتين، ففتق الخالق العظيم السمٰوات فجعلها سبعاً وجعل الأرض التي نعيش عليها واحدة وفقاً لما يهدينا إليه القرآن الكريم. وكانت السماء لا تمطر وبعد فتقها بدأت تمطر، وكانت الأرض لا تُنبت فبدأت تنبت وصارت صالحة للحياة.

٢ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾(2).

المراد بخلق السمٰوات والأرض هو جمعُ أجزائها وفصلُها وفتقُها في ستة أيام أولها الأحد وآخرها الجمعة.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي أن المادة الأولى التي كان

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٧.

يتألف منها الكون يومئذ هي الماء. وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾(١) فيعني احتواءه السمٰوات والأرض علماً وتدبيراً، وإحاطة علمه سبحانه وتعالى بكل ما فيهما.

وأما قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢) فمعناه ولا يعجزه حفظهما وهو العليّ في مكانته، العظيم في خلقه.

٣ ـ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾(٣).

ومعنى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾، أي بقوّة.

٤ ـ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾(٤).

بنيناها بغير عمد ترونها، وزيّناها بالكواكب، ومالها من فروج أي شقوق تعيبها.

٥ ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٤٧ ـ ٥٠.

(٤) سورة ق، الآيات: ٦ ـ ٨.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[1].

«**طباقاً**»: بعضها فوق بعض من غير مماسة.

«**ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت**» أي من تباين وعدم تناسب. «**فارجع البصر**» أي أعده إلى السماء. «**هل ترى من فطور**» أي هل ترى من صدوع وشقوق. «**ثم ارجع البصر كرّتين**» أي مرّة بعد مرّة. «**ينقلب إليك البصر خاسئاً**» أي ذليلاً لعدم إدراك الخلل. «**وهو حسير**» أي وهو كليل منقطع عن رؤية الخلل.

نحن لا نريد البحث في العوالم السماوية، وما خلق الله فيها، وما هي عليه من إحكام وتنظيم، بل نترك هذا لمن يريد أن يعرف ما في هذا الكون من اتساع وشمول ودقة وانتظام فيعود إلى علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات العالية ونظرياتها، وخاصة علم الفلك، ليرى في الحقائق التي اكتشفتها هذه العلوم ما يدهش العقول، ويرمي النفوس في الذهول.

وإذا كان موضوعنا هو خلق الإنسان وتكوينه، فإنا نكتفي إذن بالإشارة فقط إلى ما له علاقة بهذا الموضوع، وبإعطاء صورة ولو جزئية ومبسطة، عن هذا الكون الفسيح.

فإذا ما تصورنا الكون كالمحيط الضخم، كانت المجرات ـ وفقاً للرأي الفلكيّ الحديث ـ كالجزائر الكبيرة، ومجرتنا إحداها. وكانت

---

(١) سورة الملك، الآيات: ١ ـ ٤.

مجموعتنا الشمسية رقعة صغيرة في هذه المجرة، وأرضنا جزءاً صغيراً من هذه الرقعة.

وبتعبير آخر، وبأكثر من التفصيل، يمكن القول بأن العِلْمَ قد توصل إلى التقرير بأن الشمس التي ترسل أشعتها إلى الأرض هي واحدة من شموس عديدة متباينة الأوصاف والأقدار والتكاوين، تؤلف في مجموعها نظاماً نجمياً ضخماً أطلق عليه اسم «المجرة». وهي تبلغ من الضخامة مبلغاً يذهل الخيال، وتبدو للعين المجردة في ليلة صافية الأديم كأنها نهر، أو نطاق مضيء، غبش الضياء، مقوس فوق الرأس، ومن هنا سميت الطريق اللبنية أو درب التبانة. وقد وصفها هرشل ـ في أول العقد التاسع من القرن الثامن عشر ـ للجمعية الملكية بقوله: «إنها طبقة ممتدة من النجوم وليست شمسنا ومجموعتنا الشمسية سوى جزء منها».

ويشبِّهُ العلماء هذه المجرة أي «درب التبانة» بعجلة أو بحبة عدس، يبلغ قطرها مئة ألف سنة ضوئية(١) وهي تدور على مركز فيها، فتتم الدورة في مئتين وعشرين مليون سنة، وتنشىء في دورانها أذرعاً منحنية على جسمها الرئيسيّ، فتصير كأنها حلزون، وفي إحدى هذه الأذرع يقع نظامنا الشمسيّ على خمسة وعشرين ألف سنة ضوئية من المركز. ومجرتنا هذه تحتوي على مئة ألف مليون شمس أو نجم تقع أكثرها في الوسط، والمسافات بينها شاسعة، حتى ليمكن القول إن معظم الحيّز الذي تشغله المجرة هو فراغ أو قريب من الفراغ، لأنّه

(١) يقطع الضوء في الثانية ٣٠٠ ألف كلم.

يحوي سُحُباً لطيفة من مادة غازية كونية أو غبار، أو من ذرات سائبة، وبخاصة ذرات الايدروجين.

وقد أظهر علم الفلك والعلوم المتآزرة معه، أنَّ هنالك ألوفَ الملايين من المجرات، مثل مجرتنا، تبعد عنا ملايين السنين الضوئية، وهي تتباعد عنا، وبعضها يتباعد عن بعض، بسرعة عظيمة. وإن أقرب مجرة إلى مجرتنا تبعد عنها نحو مليوني سنة ضوئية، ودراستها تبين أنها على شبه كبير بمجرتنا، شكلاً وقدراً وتكويناً. أما المجرة التي تبدو في صورة الدب الأكبر فتبعد ثمانية ملايين سنة ضوئية. وهنالك أيضاً من المجرات ما يبعد أكثر بكثير حتى يبلغ بضعة ألوف الملايين من سنيِّ الضوء.

هذا وقد دلَّت الأبحاث، في وسيط التاريخ وحديثه، على وجود بقع من الضياء السديمي[1] «لطخ سحابية» وهي تقابل لفظ «نيبولا» (Nebula)، وبتقدم البحث، بدأ يتضح أن تلك البقع التي تسمى «السدم» هي عوالم نجمية ضخمة واقعة خارج مجرتنا، وأن منها مجرة قائمة بذاتها، وتضم ألوف الملايين من النجوم، فأطلقوا عليها أوصافاً مختلفة كقولهم: «السدم الواقعة خارج المجرة» أو «العوالم الجزرية» على اعتبارها جزراً في خضم الكون.

وهكذا تبدو الأرض، في هذا التصوير الجزئيّ للكون الفسيح، كوكباً سيَّاراً يدور حول الشمس، وتجاريها في ذلك كواكب سيارة أخرى، وأجرام متعددة الأشكال والأوصاف فتؤلف في جملتها ما وقع الاصطلاح على تسميته بالمجموعة الشمسية أو «النظام الشمسيّ».

---

(١) وهذا ما جعل كلمة «سديم» هي الشائعة في علم الفلك. ومعناها الضباب أو الغيم.

وهذا النظام الشمسيّ مركزه الشمس، وحولها تدور تسعة كواكب سيارة، وهي بحسب ترتيبها في بعدها عن الشمس: عطارد (أقربها)، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون، بلوطو (أبعدها). ولبعض هذه الكواكب أقمار تدور حولها: فللأرض قمر، وللمريخ قمران، وللمشتري اثنا عشر قمراً، ولزحل تسعة، ولأورانوس خمسة، ولنبتون قمران. وليس لعطارد، أو الزهرة، ولا لبلوطو قمر ـ فيما نعلم ـ.

وهكذا يتبين أن في النظام الشمسيّ عدداً من الكواكب السيارة، منها ما هو أكبر من الأرض، ومنها ما هو أصغر، ومنها ما هو أسرع دوراناً من الأرض حول الشمس وحول محوره، ومنها ما هو أقل منها سرعة في دورانه.

ويضم أيضاً النظام الشمسيّ أجراماً عديدة، كبيرة وصغيرة، لا تكاد تحصى. منها الكويكبات، وهي تعد بالألوف، ويغلب الظنّ على أنها نثار كوكب قديم سطت عليه القوى الكونية فتفتت، فبقيت شظاياه تدور في فلكه بين المريخ والمشتري. ومنها ذوات الأذناب أو المذنبات، التي يدور كثير منها في مدارات إهليليجية مستطيلة. ثم هناك الشهب التي تشق الفضاء فرادى، كخيوط من الضياء، أو تنهمر أحياناً في زخَّاتٍ تتبدى للعين حين تدخل جو الأرض، فيحصل الاحتكاك وترتفع الحرارة، فتومض حتى ينتهي أمرها أو تتفرقع فتسمى عندئذ النيازك، وتبقى منها بقية قليلة تبلغ الأرض فهي الرجم، كما حصل في سيبيريا وأريزونا منذ عشرات السنين.

وجميع هذه الكواكب السيارة، والأجرام الأخرى، في النظام

الشمسيّ، متفتقة عن السماء، كما يقول القرآن الكريم، أو منفصلة عن الشمس أو عن كوكب آخر قديم، كما يقول العلماء. والمعنى واحد. . .

والسؤال الهام: هل إن الأرض دون غيرها من أجرام الكون ـ وبالتحديد من كواكب النظام الشمسيّ ـ صالحة للحياة، أو ثمّة كواكبُ أخرى في نظامنا الشمسيّ، أو حول شموس أخرى في مجرتنا، أو في المجرات الخارجية، تتوافر في بعضها أحوال مؤاتية لنشأة الحياة واستمرارها وتطورها؟.

ليس في الوسع الرد على هذا السؤال المترامي تراميَ الكون نفسه، ولكن من الثابت، أنه لم يتم حتى الآن اكتشاف مقومات للحياة، على الأقل في أي من الكواكب الأخرى، على غرار الحياة التي تعرفها الأرض. وإذا حصرنا البحث في الكواكب السيارة التي يشتمل عليها نظامنا الشمسيّ، فإن مقومات الحياة على هذه الكواكب غير موجودة، باستثناء المريخ الذي يذهب البعض إلى القول باحتمال وجود أحياء على سطحه، ولكن من طبقة الأحياء النباتية الدنيا وحسب، وهذا ما يفضي إلى الاستنتاج بأن الأرض وحدها هي الصالحة للحياة من دون الكواكب السيارة الأخرى في النظام الشمسيّ. وقد أدى الاكتشاف العلميّ إلى تقرير استبعاد مقومات الحياة على هذه الكواكب نظراً لتكوين كل منها، وما ينطوي عليه هذا التكوين من انعدام بيئة مؤاتية للحياة. ويبدو ذلك في إظهار بعض خصائص كل كوكب من كواكب النظام الشمسيّ، على النحو التالي:

فعطارد: أقرب هذه الكواكب إلى الشمس وإن كان معدل بعده عنها ستة وثلاثين مليوناً من الأميال. وهو صغير الحجم لا يزيد على

حجم قمر الأرض، ويدور حول الشمس أربع مراتٍ في السنة أي أن سنته هي ربع سنة الأرض. الجاذبية فيه قليلة. ليس فيه هواء... ولهذه الأسباب فهو لا يصلح للحياة.

الزهرة: تتلألأ كالماسة الصافية بعد الغروب أو قبل الشروق، وتكاد تكون هي والأرض من حيث الحجم أختين توأمين. وتدور على نفسها في نفس المدة التي تدور فيها حول الشمس أي خلال ٢٢٥ يوماً. وهي مثل القمر، تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس، بحيث تبلغ الحرارة فيها(٩٠) درجة. بينما تكون حرارة الوجه الثاني (٢٠) درجة تحت الصفر. ليس فيها هواء ولا ماء. بل فيها بخار سميك. وهذه المزايا تجعلها غير صالحة للحياة.

المريخ: يدور حول نفسه مرّة كل ٢٤ ساعة تماماً كالأرض. ولكنه يدور حول الشمس مرة كل (٦٨٧) يوماً. ويبعد عن الشمس حوالي ١٤٢ مليون ميل. وحرارته في النهار بضع درجات فوق الصفر، ولكنها في الليل تنزل إلى (٧٠) درجة تحت الصفر. سطحه برّ لا بحر فيه ولا ماء، وإن توهَّم بعض الباحثين، في النصف الأول من هذا القرن، أن على سطحه أحياء..

هواؤه مؤلف من غاز أثقل من الأوكسجين. جاذبيته ١/٣ جاذبية الأرض فلا تكفي إذن لحفظ الأوكسجين في هوائه. ولهذه الأسباب فهو لا يصلح أبداً للحياة، على رأي غالبية المحققين من العلماء.

المشتري: هو كالجبار بين كواكب الشمس يفوق حجمه حجم الأرض ألفاً وثلاثمائة مرة، وتفوق كتلته كتلة الكواكب السيارة مجتمعة. ويتم دورته حول الشمس في ١٢ سنة، ويدور على محوره

في كل (١٠) ساعات. يبعد عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل تقريباً. درجة الحرارة فيه (١٣٠) درجة تحت الصفر. كثافته (١/٤) كثافة الأرض. ويرجح العلماء أنه كتلة من الغاز والمواد الذائبة التي تجمعت في هذه الكتلة، فمن البديهي ألاّ يكون صالحاً للحياة.

زحل: يتم دورته حول الشمس في ٢٩ سنة ونصف السنة تقريباً. ودورته على محوره في (١٠) ساعات. وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء من (٩٠) جزءاً مما يصل إلى الأرض، وهو متفرد بوجود حلقات مضيئة حوله، علاوة على تسعة أقمار...

كثافته أقل من (١/٤) كثافة الأرض. ويظهر أن مادة سطحه مائعة متحركة. فمن الطبيعي أنه لا يصلح للحياة.

أما أورانوس ونبتون وبلوطو: فعدم صلاحها للحياة أظهر لأسباب كثيرة، ولا سيما أن الأول يتم دورته حول الشمس كل (٤٨) سنة و٧ أيام، ويدور على محوره في (١٠) ساعات، وبُعده عن الشمس (١٧٢) مليون ميل. والثاني (نبتون) يتم دورته حول الشمس في (١٦٩) سنة تقريباً، ويدور على محوره في (١٠) ساعات، وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل. وبلوطو يتم دورته حول الشمس في (٢٤٧) سنة، وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل تقريباً... فهل تصلح الحياة إذن على كوكب سيّار، الشتاء فيه (٤٢) سنة أو (٨٤) سنة أو (١٢٣) سنة، والصيف فيه كذلك. ونهاره خمس ساعات، وليله خمس ساعات أيضاً؟!.

ولنترك نحن هذا الكون لخالقه، يديره كما يشاء، ولنترك للعلماء

أن يكتشفوا، ويزيدوا اكتشافاً كلما تقدمت الخبرات والوسائل التي تتيح لهم مجالاً أوسع في الاكتشاف، ثم نقف البحث أو نقصره على أحد أجزاء هذا الكون، نظراً لما له من علاقة وثيقة بالإنسان وحياته، ونعني بهذا الجزء أرضَنا التي نحيا على ظهرها، وتضمُّنا بين جوانحها.

فأرضنا التي منَّ الله تعالى علينا بخلقها في آيات كثيرة من كتابه المجيد، وذكَّرنا بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام، هي السيّار الوحيد الذي جعله الله صالحاً للحياة: فقربها من الشمس معتدل. والحرارة التي تصل إليها معتدلة. ودورتها اليومية معتدلة وكافية لإحداث نهار وليل معتدلين صالحين للسعي والراحة. ودورتها السنوية معتدلة وكافية لإحداث فصول معتدلة صالحة لإرواء الزروع وإنضاجها. وهي تمتاز بالماء والهواء وسائر العناصر الأخرى التي بها قوام الحياة.

أجل إن هذه المزايا هي التي تجعل الأرض صالحة للحياة. ذلك أن حجمها أصغر من حجم الشمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة. وأن كتلتها أي وزنها أقل من الشمس بـ ٣٣٢ ألف مرة تقريباً، وأنها أكثف السيارات جميعاً، بل أكثف من الشمس نفسها لأن كثافة الشمس هي ربع كثافة الأرض. فالثقل النوعيّ لكل جسم في الشمس أخفّ من الثقل النوعيّ للجسم نفسه وهو على الأرض.

هذا، وإنّ بُعدها عن الشمس يبلغ حوالي (٩٣) مليون ميل، وإن دورتها اليومية حول نفسها تتم في ٢٤ ساعة. ودورتها السنوية حول الشمس تتم في ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. وشكل مدارها حول الشمس إهليليجيّ. وإن سرعة دورانها حول نفسها تبلغ حوالي ألف

ميل في الساعة. وسرعة دورانها حول الشمس تجري بمعدل (١٨) ميل في الثانية أي نحو (٥٥) ألف ميل في الساعة. ووضعها على مدارها مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة.

ويقول العلماء لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر، أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر، لاختلَّ أمر الحياة أو تغيَّرَ أو تشوَّه. لأن حجمها متناسب مع سرعتها، ومع دورتها وثقلها، ومتناسب مع قوّة جذبها. فلو زاد الحجم أو نقص لتغيَّرت السرعة والمدّة. ولو قلَّ جذبها لأفْلَتَ الأوكسجين منها. ولولا الدورة اليومية لما كان الليلُ والنهارُ دائبين ثابتين.

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل في الساعة أو قلَّت، كما هو الحال في بقيَّة السيارات، فكانت مثلاً مئة ميل في الساعة لأصبح طول النهار (١٢٠) ساعة، أو لاحترقت زروعنا في لهيب النار وذوت في زمهرير الليل، ولاختلَّ ميزان العمل في النهار، والراحة والنوم في الليل. ولكنَّ هذه السرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبديل في ثانية واحدة منذ أن خلقها الله الحكيم الخبير. ولولا الجاذبية التي تربطنا بالأرض، بل لولا التعادل الدقيق بين الجاذبية التي تلصقنا بالأرض وقوَّة البعد عن المركز (Force centrifuge) التي تطردنا عن سطحها لطرنا وطارت بيوتنا، وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين... فسبحان الذي قدَّر كل شيء بدقة وإتقان، حتى جعل الأرض صالحة للحياة...

وبعدُ، إذا ما تأمَّلنا في تلك العوامل والأسباب التي جعلت الأرض وحدها في النظام الشمسيّ، صالحةً للحياة، دون السيارات الأخرى في هذا النظام، فإننا ندهش متسائلين:

ولِمَ كانت الأرض وحدها هكذا؟ . .

والجواب: من أجل أن تكون فيها الحياة. .

ولمن تكون هذه الحياة؟

لمن شاء الله الحكيم العليم أن يجعله خليفة في الأرض.

ومن هو هذا الخليفة؟

إنَّه الإِنسان. . .

وممَّ خلق الإنسان؟

من تراب الأرض وطينها، أي من الأرض نفسها. .

وماذا يعني ذلك؟

يعني أن الله سبحانه وتعالى عندما جعل الأرض وحدها صالحة للحياة، فقد أراد لمن يعمّر هذه الأرض، أن يتكوّن منها، وأن تظل حياته منها، ثم يعود إلى أصله من التراب، فكما بدأ من تراب فإنه يعود إلى تراب. . وهذه دلالة الله العظمى، وآيته الكبرى في تكوين الإنسان وفي خلقه. فقد شاء أن يجبل الإنسان الأول (آدم عليه السلام) من طين الأرض وصلصالها، ويخلطه بمائها، ثم يعجنه حتى تتكوَّن الصورة التي أراده عليها، وما إن يلفحها الهواء، وتصلها حرارة الشمس حتى تصلب، وتشتد، وتأتيها الروح بإذنه تعالى، فتستوي بشراً سوياً. . .

وهكذا يكون أصل الإنسان من الأرض، وقد خصَّها الله بالحياة، فمن الطبيعيّ أن يكون الإنسان كائناً حيّاً، وحياته تستمرّ من الأرض الحيَّة، لأن هذه الأرض هي التي تعطيه الغذاء والماء، وبدونهما لا حياة له، فكل ما يأكله الإنسان إنما أصله من الأرض

سواء كان لحماً أو خضاراً أو فواكه، أو حبوباً، وما ينتج عنها من ضروب الطعام والشراب وأنواعه وأشكاله... حتى إذا امتنع عليه طعام أو شراب مما تعطيه الأرض، فقد الحياة... وحتى بعد فقدان حياته، فإنه إلى الأرض يعود، إلى الطين والتراب، أي إلى الأرض التي خلق منها في الأصل.

وبعد، أيها القارىء الكريم، فهل من عجب، بعد الذي عرفناه، أن يخصّ الله سبحانه وتعالى، الأرض وحدها بالحياة من دون سائر الكواكب السيارة حول الشمس؟ وأن يعطيها من المزايا والخصائص ما يكفل تأمين هذه الحياة؟! ثم يخصّ الإنسان من بين كل الخلائق عليها بنفخ من روحه، بعد أن كوَّن له الخلْقَ الجسميّ والنفسيّ كاملين، ويطلق عليه اسم التراب تبييناً لصحة خلقه منه، وذلك أن الإنسان الأول، إنما كان خلقُهُ من أدمة الأرض: «لأن اشتقاق آدم إنما يأتي لكونه مخلوقاً من تراب باعتبار أنَّ الأدمة في اللغة إنما هي مشبهة بلون التراب. وآدَمَ أدماً بين القوم: «أصلح وألَّف ووفَّق بينهم» مما يدل على أن اسم «آدم» إنما يعني الإصلاح والتأليف بين عناصر تكوينه. وهي خصيصة اختص بها آدم عليه السلام، وقد شاءَ الله تعالى أن يجعل لها معنىً جوهرياً للدلالة على أهم خواص الخلق وهي الفكر والإرادة والنطق، وهي فعلاً الخصائص التي يتصف بها الإنسان عن سائر المخلوقات. وهنا السرّ الذي أودعه الخالق في هذا المخلوق البشريّ إذ جعل اسم الإنسان الأول يقترن بأصله، وجعل فيه المزايا والصفات التي لا تكون إلا له وحده من دون سائر مخلوقاته على سطح الأرض. وفي ذلك ما يكفي من الأدلة والبراهين للتأكيد على الخلق الإنسانيّ

المميز، والعناية الخاصة التي أولاه إياها خالقه العليّ العظيم.

ولو سأل سائل:

هل لجسم ترابيّ أن تستقرّ فيه الروح ويستوي بشراً؟

والجواب سهل وبسيط للغاية: إن الله تعالى الذي جعل هذا الكون على هذا المدى من الاتساع بحيث لم يقدر العقل البشريّ أن يحدّه بعد، وجعل فيه هذا النظام الخارق في الدقة والإتقان، بحيث تَسْبَحُ المجرَّاتُ، والأفلاك، والكواكب، التي لا تعد ولا تحصى، كل في نطاق محدد، معيّن، ثابت لا يحيد عنه، ومثاله كما رأينا الأرض التي ما تزال على نفس السرعة الثابتة لم تتغيَّر منذ وجودها. . أجل إن الخالق العظيم الذي سنَّ للكون كله مثل هذا الانتظام الشامل الكامل، يقدر بكلمة «كن» أن يمنح لأي كائن ما يشاء أن يمنحه من القدرة والحركة. وهكذا فإنه عزّ وجلّ عندما نفخ في الإنسان من روحه فإن هذه النفخة قد فعلت فعلها في الجسم الترابيّ، فاستوى بشراً سوياً أي ذا قدرات خارقة تكمن جميعها في ما انطوى عليه تكوينه الروحيّ والجسديّ، فكان حرياً به أن يصل إلى ما وصل إليه. وها نحن نشاهد من أفعاله وصنع عجائبه ما يذهل العقول ويدهش النفوس. . .

ثم إن العصر الحديث، قد أثبت بعد كثير من التجارب والاختبارات أن مادة هذا الكون تتكوّن من ذرات العناصر الأربعة (التراب والماء والنار والهواء)، وأن هذه العناصر الأربعة تتكوَّن هي نفسها من عناصر وعناصر أخرى، وأن هذه العناصر الكثيرة تتكوَّن من أجزاء صغيرة، وأن تلك الأجزاء الصغيرة مكوَّنة من أجزاء أصغر منها بكثير، هي الذرات (Atomes) التي تبلغ من الصغر حداً كبيراً، إذ قدّر

قطر الذرّة الواحدة بجزء من خمسين مليون جزء من (البوصة)، ووزنها يتراوح على اختلاف العناصر بين جزءين و٣٩٥ جزءاً من مليون مليار مليار جزء من الغرام.

وهذا الحجم يراه العلماء عظيماً بالنسبة لحجم الإلكترونات والبروتونات التي تتألف منها الذرة. وللتدليل على ذلك يمكن القول بأن الفرق بين حجم الذرّة كلها وبين حجم الإلكترون الذي هو فيها كالفرق بين ذرّة الغبار وغرفة في منزل...

ومن الطبيعي أن يكون لكل ذرّة جوف وأجزاء... فللذرّة غلاف تدور فيه نواة واحدة أو نوّى كثيرة... أما الغلاف فهو مؤلّف من إلكترون (Electron) واحد أو إلكترونات بحسب العناصر، وأما النواة فهي مؤلفة من بروتون (Proton) واحد أو من بروتونات كثيرة، ومن نوترون (Neutron) واحد أو نوترونات كثيرة، إلاّ في الهيدروجين فلا نوترون فيه.

والإلكترون عبارة عن وحدة كهربائية سالبة، والبروتون عبارة عن وحدة كهربائية موجبة، والنوترون عبارة عن وحدة كهربائية محايدة (Neutre) لا سالبة ولا موجبة.

وهكذا تكون المادة والعالم كله ونحن معه عبارة عن وحدات أو شحنات كهربائية. فالمادة التي يتألف منها العالم، ونحن معه، عبارة عن طاقات كهربائية متجمعة على شكل ذرات وعناصر. وقد كان العالم آنشتين أول من جاء بنظرية النسبية التي تقول بأن «المادة والقوّة هي شيء واحد» وقد صدق رأيه، وصحّت نظريته، عندما أمكن فلق الذرّة وتحويل مادتها إلى قوّة. وما دام أن المادة والقوّة شيء واحد،

وقد أمكن أن تتحوَّل المادة إلى قوة، كما ثبت علمياً بتحطيم الذرّة، فلا مانع من أن يثبت يوماً إمكان تحويل القوّة إلى مادة. وهذا ليس ببعيد، وهو أقرب إلى الإيمان بإمكان خلق مادة العالم من العدم.

وبذلك يكون آنشتين قد وضع أساس العلم الحديث الذي يقول بالوحدة ما بين المادة والقوّة، ويتحوّل المادة إلى طاقة وفنائها. وقد استنتج من خلال نظريته النسبية التي أوجدها مفهومي «الخلق والفناء» ـ على حد ما أمكنه التعبير عنهما ـ وهذا خلافاً للنظرية القائلة أن «**لا شيء في الطبيعة يخلق ولا بشيءٍ يفنى**». وبذلك كان آنشتين من أكثر الناس إيماناً بالله في محيطه. فقد كان يرى أنه ما من عالِم ينفذ إلى بعض أسرار الحكمة والنظام في الخلق إلا ويكون إيمانه بالله عظيماً. بل كان يرى أن العلم لا يستقيم في سيره بلا إيمان، وأن الإيمان لا يستنير بغير العلم، وفي هذا كله يقول:

«إن أجمل هزّة نفسية نشعر بها هي تلك الهزّة التي تَعْرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب. إنها النواة لمعرفة الحق في كل فنٍّ وكل علم. وإنه لميْتٌ ذلك الذي يكون غريباً عن هذا الشعور، فيعيش مستغلقاً رُعْبَاً، من غير أن تجد روعةُ التعجب إلى نفسه سبيلاً. إن جوهر الشعور الدينيّ في صميمه هو أن نعلم بأن ذلك الذي لا سبيل إلى معرفة كُنه ذاته موجود حقّاً، ويتجلى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال، التي لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أن تدرك منها إلا صورها الجِبِلِّيّة في السطح دون الدقائق في الأعماق».

ثم يهتف آنشتين بإيمان العالم الذي يدرك ما بين الإيمان بوجود الله ـ تعالى ـ وبين المعرفة من صلةٍ وثيقة، فيقول: «أيّ إيمان عميق بالحكمة التي بُنيَ عليها هذا الكون، كان إيمان كبلر ونيوتن؟ وأيّ

شوق لهّاب كان شوقهما لأنْ يريا أضأل شعاعٍ من نور العقل المتجلّي في هذا الكون؟. . . إنني لا أستطيع أن أتصوّر عالماً حقاً لا يدرك أن المبادىء الصحيحة لعالم الوجود مبنيّة على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل. إن العلمَ بلا إيمان ليمشي مشية الأعرج، وإن الإيمان بلا علم ليتلمَّس تلمّس الأعمى». وكأننا به يهتف من عمق إيمانه:

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1).

هذه هي القوّة النورانية التي نفخها الله في الإنسان حتى تجعل عقله هادياً له، فيريه قوّة الله تعالى في كونه، وفي خلقه: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. فلا تسأل يا صاح بعد: كيف يقول الله للشيء: كن فيكون. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(2) وهذا هو أمر التكوين وأمر الخلق.

والربط القرآنيّ بين أول خلق وبين تتابع هذا الخلق واضح وصريح. فهو القائل عزَّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾(3).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إيجاداً وإبداعاً مع عدم سبق المادة الأصلية.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ الصفو الذي يُسلُّ من الأرض، إشارة إلى أن

---

(1) سورة الزمر، الآية: ٩.
(2) سورة يس، الآية: ٨٢.
(3) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.

المواليد كلها أصول للإنسان وأنَّه المقصود بالذات، الجامع لطباع أولئك المواليد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ بالإنضاج والتخليص الصادر عن القوى المعدة لذلك، أي أنَّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾ تحقيقاً لما صار إليه الماء من خلق الصور البعيدة، وقوله: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ يعني الرحم. «ومكين» تعني أن الرحم مجهّز ـ كما ثبت ـ في تكوينه وفي خصائصه بما يمكّن أشدّ التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح. حيث إنَّ فيه مخابىءَ للجرثومة عجيبة قد خلقت خصّيصاً لذلك، ثم إنَّ فيه موادَّ منفرزة لوقايتها وحفظ الحياة لها والدفاع عنها.

أما الطور الثالث فهو ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي صيَّرناها دماً قابلاً للتمدّد والتخلّق باللزوجة والتماسك. فقد ثبت في آخر ما انتهى إليه علم تكوين الجنين أن الجرثومة التي يكون منها اللقاح في منيٍّ الرجل، تعلو برأسها نازعة كالسنان فتهاجم البويضة في الرحم، وتخرقها بسلاحها لتعلق بها ولذا سميّت علقة، فإذا هما قد امتزجتا. وهذا هو التحوّل الأول من نطفةٍ إلى علقة. ولما كان بين هذه المراتب مهلةٌ أو بُعدٌ، فقد عطف بـ «ثم» المقتضية للمهلة ما بين هذا الدور والأدوار الأخرى..

وبعد انقضاء المهلة المحددة يأتي الدور الثاني وهو تحويل ﴿ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي تحويل الدّم جسماً صُلباً قابلاً للتفصيل والتخليط والتصوير والحفظ. وجعل مركبة المضغة في الوسط وقبلها ثلاث حالات وبعدها كذلك، لأنها الواسطة بين الرطوبة السيّالة والجسم الحافظ للصور. ثم يأتي دور العظام بقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ أي صلّبنا تلك الأجسام بالحرارة والشدّة حتى قبلت

التوثيق والربط والإحكام والضبط، وذلك بعدما تتخلّق الأعضاء المشاكلة للعظام ويتحوّل دم المحيض مغذياً. وقوله: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ يعني حال تحويل الدم إلى لحم وشحم والدور الذي يكون فيه الإنسان كالنبات: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[1] فتكون أطوار الخلق سبعة تقابل الكواكب السبعة السيّارة. وقد ربط بعض المفكّرين بينها وبين المراحل السبع التي يتكوّن منها الإنسان. فهل من الصدف أو من العبث أن يكون عدد مراحل خلق الإنسان سبعاً، والسموات سبعاً، وعدد الأيام التي يتكوّن منها الزمن سبعاً، وتسمية القرآن بالسبع المثاني والقرآن العظيم؟!

وبعدما أخذ المخلوق يشتدّ، ويفيض بالحياة والحركة من نفخ الروح فيه، استوى بشراً إنساناً فيه من دقة الصنع ما يثير التعجّب كما يشير إلى ذلك سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ ومعنى: خلقاً آخر، تكوينه على صورة الإنسان، بعدما كان خلقه في أطواره الأولى متشابهاً مع خلق الحيوانات الأخرى كما يؤكّد ذلك العلم الحديث. فهذا العالم (فون بير) يجمع أجنّةَ حيواناتٍ مختلفةٍ في مرحلة خاصة من مراحلِ تطوّرها، ويحتفظ بها في وعاء زجاجيّ فيه مطهر حافظ من التعفّن والتمصُّل. ولثقته بنفسه لم يضع على كل جنين ما يوضّح هويته أو نوعه. وعندما عاد إليها فيما بعد ليدرسها، لم يستطع أن يرجع معظمها إلى أصولها التي جاءت منها. ولذا نراه يكتب في مذكراته:

«إنني لا أستطيع أن أحدد إطلاقاً إلى أيّة فصيلة أو رتبة تنتمي

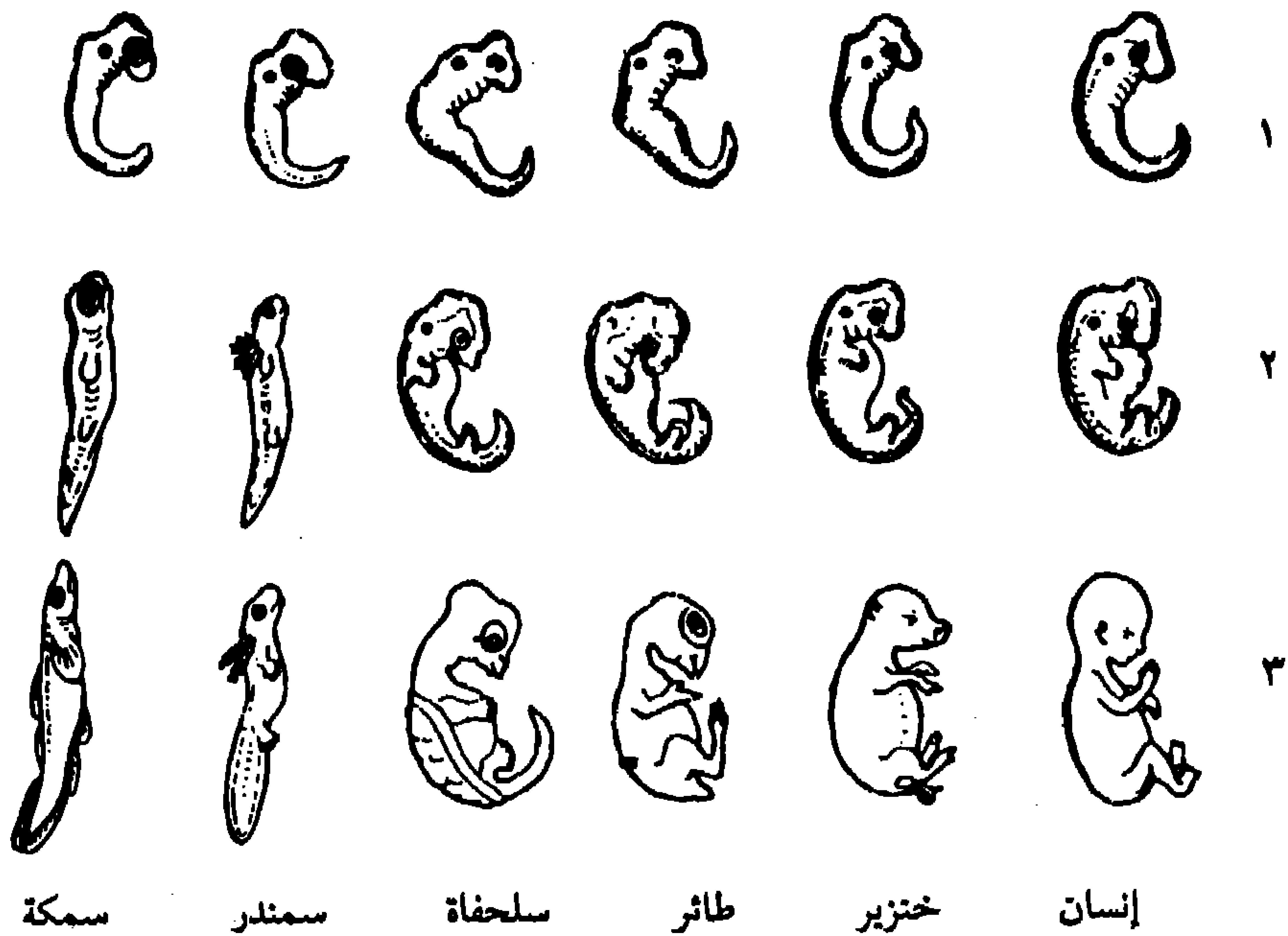
---

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٧ و١٨.

هذه الأجنة . . . فقد تكون لسحالى أو لطيورٍ صغيرة أو لحيوانات ثدييّة في مراحل نموّها المبكّر . . . فكم هي متشابهة في أشكالها وتكوينها هذه البدايات لأجنة تلك الحيوانات؟! . . »

ومما لا شك فيه أن هذا التكوين للمخلوقات إنما هو نتاج لنظام الزوجية، هذا النظام الذي يقول العلماء بأنه مطرد وشامل لجميع الأحياء من الحيوانات والنباتات كلها بطريقة واحدة، ونسق واحد، وأعضاء تكون متماثلة، ولقاح يكاد يكون متماثلاً، ويتساءلون كيف اتفق هذا الاطّراد والشمول والتماثل في كل حيّ؟ .

هذه صورة بيانية لمراحل الخلق.

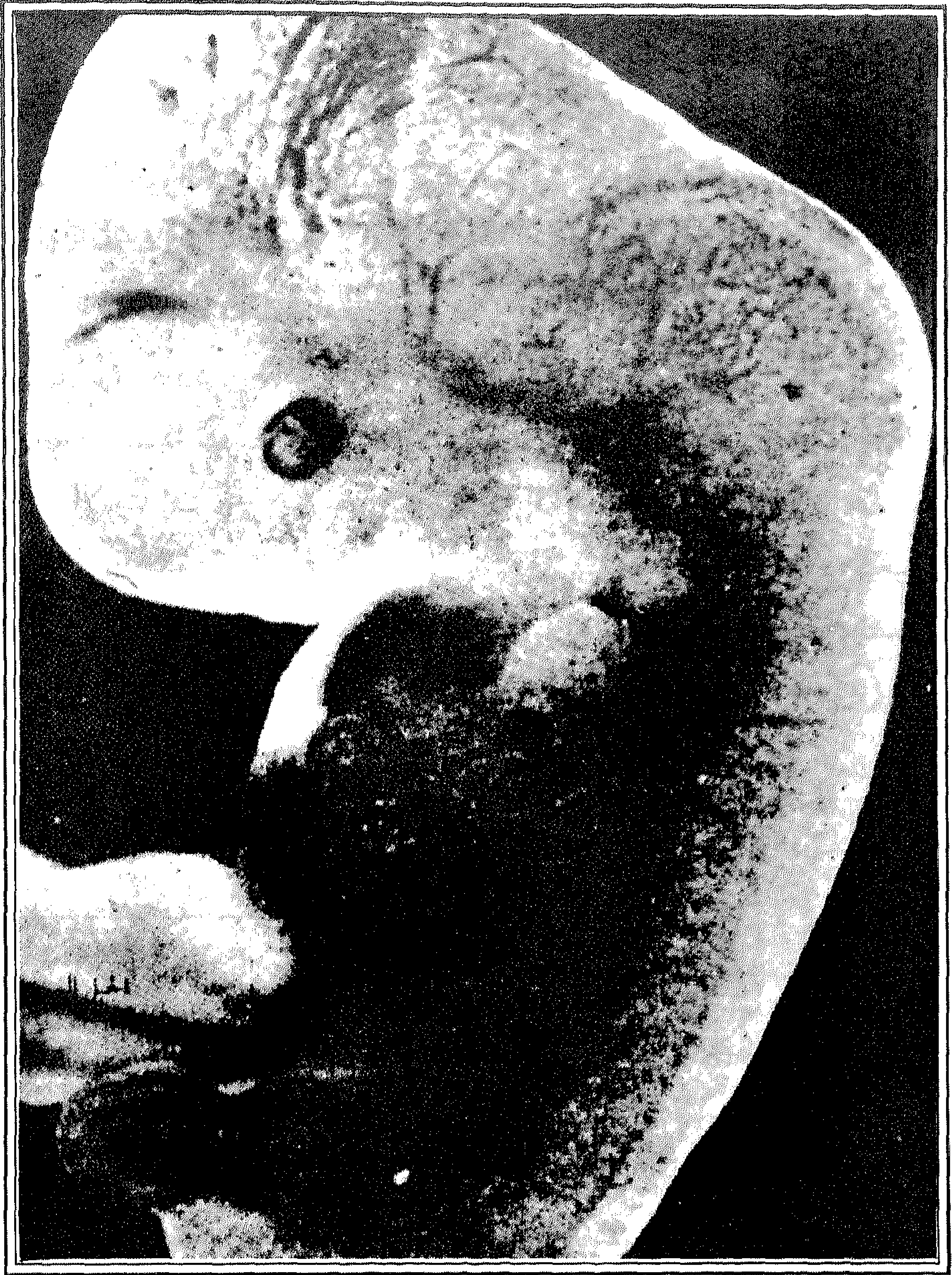


كم هي متشابهة هذه البدايات لأجنة الحيوانات المختلفة إذ كلما عدنا إلى الوراء في الزمن (الصورة ١). كان من الصعب تمييزها، ثم يبدأ التمييز بين أجنة السمكة والسمندر (حيوان برمائي). في حين أن الحيوانات الفقرية يصعب تمييزها (الصورة رقم ٢) ومن مراحل متأخرة نسبياً يمكن تمييز الطائر والخنزير والإنسان (الصورة رقم ٣).

لقد لفت هذا الاطراد نظر الفيلسوف هنري برغسون. فبعد أن تكلّم عن حاسة الإبصار، واستبعد أن يكون اطّرادها في الإنسان وفي جميع الحيوانات على نسق واحد، وتركيب مماثل، أثراً من آثار المصادفة قال:

«وإذا سلّمنا بأن هذه المصادفة جائزة الحدوث في تكوين حاسة إبصار واحدة في جميع الحيوانات، وقلنا إن الحيوانات ترجع إلى نوع واحد، فماذا نقول في النبات، وهو نوع آخر يسير في طريق مختلفة كل الاختلاف عن طريق الحيوان، إذا نحن رأيناهما يسيران على طريقة واحدة في عملية التناسل[١]؟ فكيف اتفق أن اخترع الحيوان الذكورة والأنوثة، ووفق النبات إلى الطريقة نفسها وبالمصادفة نفسها؟.

(١) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ سورة الإنسان.
المسافة بين النطفة في خصية الرجل وبويضة المرأة حتى يجتمعا معاً مسافة بعيدة. ففي الأنثى تتكوّن البويضة منذ كانت هي جنيناً في بطن أمّها.. وتنمو ببطء شديد، ثم تتوقف فترة طويلة من الزمان... ثم يبدأ نموّها مرة أخرى بعد البلوغ.
وتنزل الأنثى بويضة واحدة كل شهر لا تتوقف منذ البلوغ إلى سنّ اليأس إلا عند حدوث الحمل. أمّا في الذّكرَ فإن خلايا الخصيّة تظلّ هامدة حتى سن البلوغ. عندها تستيقظ من رقدتها وهجعتها الطويلة وتبدأ في إخراج ملايين الحيوانات المنويّة. وتحتاج الخصية إلى ستّة أسابيع تقريباً حتى يكتمل فيها نمو الحيوان المنويّ. فإذا ما التقى الحيوان المنويّ (نطفة الذكر) بالبويضة (نطفة الأنثى) ولقّحها بأمر الله.. تكوّنت عندئذ النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة. وتحتاج إلى أسبوع تقريباً حتى تبدأ في العلوق في جدار الرحم، ويتم علوقها وانغرازها في يومين. فتكون مرحلة استقرار النطفة الأمشاج أربعين يوماً كاملة.

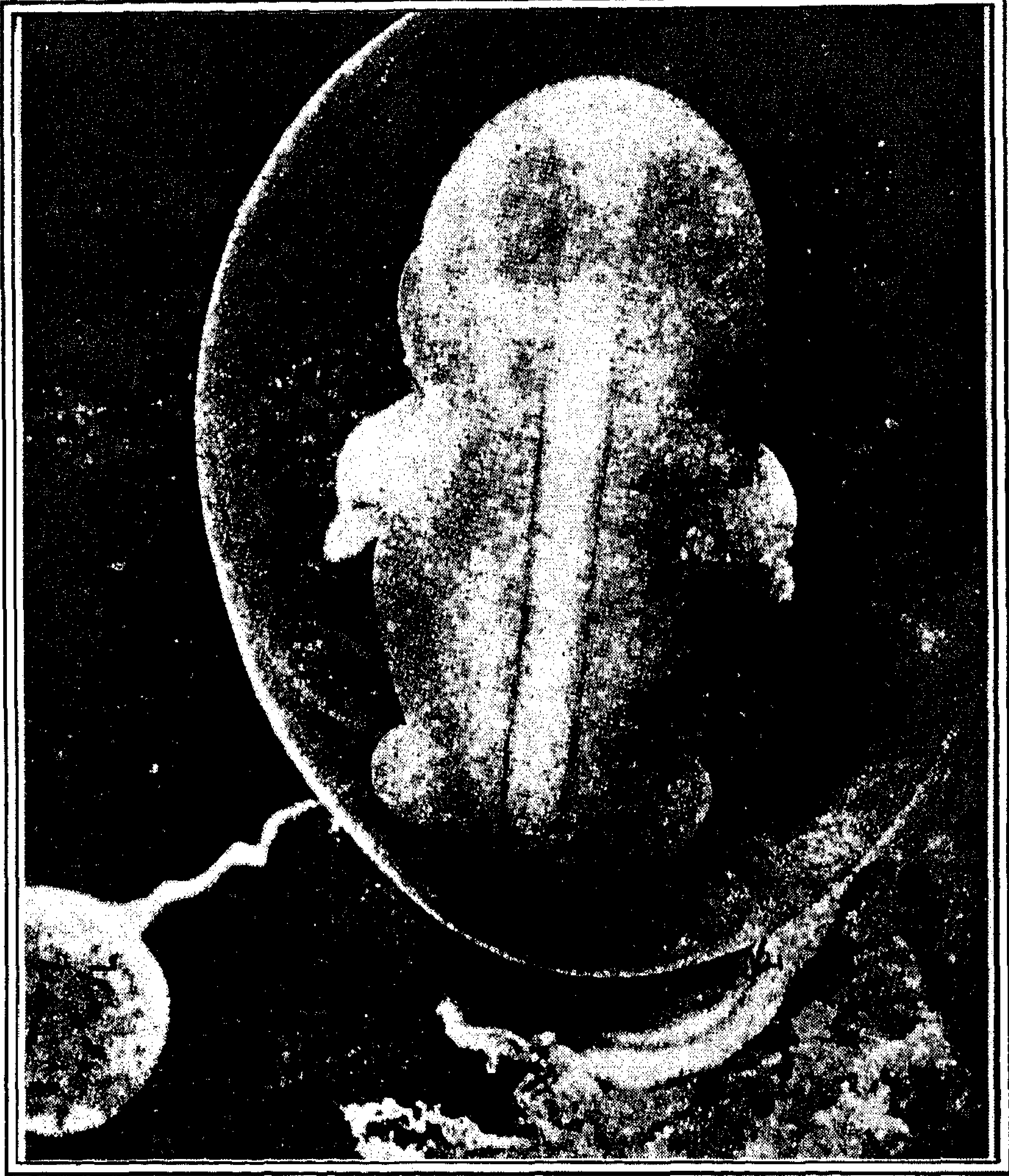


جنين في الأسبوع الخامس (٣٥ يوماً من بدء التلقيح) الرأس والعين واضحا المعالم.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [سورة النمل، الآية ٨٨].

(إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فصوّرها وخلقَ سمعها وبصرها وجلدها وعظامها).

حديث شريف أخرجه مسلم.



صورة: لجنين يبلغ طوله سنتيمتراً واحداً ونصف السنتيمتر وهو في كيس السّلى بعد أن أزيلت أغشية المشيمة. يبلغ عمر هذا الجنين اثنين وأربعين يوماً (منذ بدء التلقيح).

نظام الزوجية

من البديهي أن التناسل عبر نظام التزاوج هو الوسيلة لبقاء الحياة التي شاء الله تعالى بقاءها واستمرارها على هذه الأرض. ونظام التزواج بين الذكر والأنثى هو الدليل الثابت على ما في اطّراد الزوجية في النبات والحيوان من القصد، ونفي المصادفة. ويظل التكوينُ الجنينيُّ للإنسان في تصويره، وخلقته، من بويضته ونطفته، وعلقته ومضغته، وعظامه وكسوتها، وقراره المكين إلى قدره ومدته، أعظمَ دليل على ما أراده الخالق العظيم كما يبيّنه في قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[1].

ويكون الخلق في هذه الظلمات الثلاث على النحو التالي: تتكوَّن عند المرأة بويضة مثل بيضة الدجاجة، ولكنها أصغر منها بكثير. قطرها يتراوح بين جزء وجزءين من (١٠) أجزاء من المليمتر. ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام. وفيها محّ (Cytoplasme) وفي المحّ (الحويصلة الجرثومية Noyau) التي يبلغ قطرها جزءاً من (٧٠٠) جزء من القيراط. وفي الحويصلة تكمن (النطفة الجرثومية Nucléole)

(١) سورة الزمر، الآية: ٦.

التي يبلغ قطرها جزءاً من (٣٠٠٠) جزء من القيراط. فتلك البويضة، وبالمقادير التي رأينا تتكوّن في داخل المبيض المظلم ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني. فإذا نمت هذه الحويصلة وازداد السائل الذي في باطنها يتمدّد غشاؤها ويرقّ ثم ينفجر وتخرج البويضة منها ومن المبيض كله.

وتسير البويضة إلى فم البوق، وهو عبارة عن طريق ضيّق ضيّق، دقيق دقيق، قطره قطر شعرة، يختبىء وراء الرحم ويمتدّ منه إلى المبيض. ويدخل الحيوان المنَوي الذكر من الرحم حتى يصل إلى البوق، حيث يلتقي البويضة. ولكن هذا الحيوان صغير جداً جداً، بالنسبة إلى البويضة، فطوله عبارة عن ٦٠ جزءاً من ألف جزء من المليمتر، يسبح بسرعة هائلة في السائل الذي يقذف به، وسباحته تتم في حركة لولبيّة، حتى تؤتيَ السرعة المطلوبة. وجوهر هذا الحيوان المنَويّ في رأسه لا في ذنبه، ولذلك جعل له رأس مكوز، وجُعل برأسه عنق لولبيّ، وجُعل لعنقه ذنب طويل يضرب به الماء الذي يسبح فيه ويقذف بنفسه، وجُعل هذا الذيل معقوداً بأنشوطة لينفك عنه إذا دخل البويضة.

أما عدد الحيوانات المنوية الذكرية فيربو على (٢٠٠) مليون، ولكنه لا يصل إلى البويضة إلا ما كان أقواها وأسرعها، حتى يمكنه اختراق الباب الخاصّ الذي يوصله إلى البويضة، وهو الباب المسمّى: (باب الجاذبية Cône D'attraction). فعندما يدخل الحيوان المنويّ ينغلق هذا الباب، وتنقطع الجاذبية فتموت بعد إغلاقه جميع الحيوانات المنوية الأخرى.

وهكذا فإن الرحم يستقبل كل شهر البويضةَ التي تستقر فيه،

فتنفتح خلايا غشائه المخاطيّ، وتتسع الشعيرات الدموية فيه، وتنشط الغدد. فإذا لم يتم التزاوج بين البويضة والسائل المنَويّ، كانت الدورة الشهرية في موعدها لدى المرأة، أما إذا تم التزاوج فإنه يبدأ العمل المشترك ما بين الحيوان المنَويّ والبويضة في بناء الإنسان الجديد.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾(١)!!

فيمشج الشريكان: كل شريك ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النوويّ (الكروموزمات Chromosomes) وما فيها من الخِلَق المخلّقة (الجينات Gênes) التي خطّها وخلّقها وسوّاها القادر المقدّر بأقلام الإرث المتحدّر، عبر الأجيال، من الجدود والآباء إلى الأبناء وأبناء الأبناء (سلالة من طين) ثم (سلالة من ماء مهين) ومن هذا الاختلاط تتكوَّن النطفة الأمشاج التي دلَّ عليها أحسن الخالقين بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾(٢).. وعناصر التخطيط والتخليق والتسوية التي يخلّق الله بها المضغة لتكون بشراً سويّاً فرداً يتميَّز عن غيره من الناس بكل صفاته الجسدية والعقلية من شكلٍ وقدٍّ ولونٍ، وذكورةٍ وأنوثةٍ وجمالٍ، وقوة حواسّ وذكاء وأخلاق، ترسم كلها للفرد الخطوط الأولى من حظه في الحياة.

وهكذا فإن البويضة النطفة الأمشاج، التي تحمل في نواتها عناصر التخطيط النوويّ، تسير سيراً رهواً بطيئاً في البوق فلا تنتهي منه إلى الرحم إلا بعد ٨ أيام أو عشرة تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم لكي تهيىء كل قسم وتعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين

---

(١) سورة النمل، الآية ٨٨.

(٢) سورة الإنسان، الآية ٢.

الجنين الجديد، أو في حفظه وحمايته ووقايته، أو في تغذيته.

وعندما تصل البويضة النطفة إلى الرحم تلتصق بجداره، وتبدأ خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم، فتجعل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف . . .

فالغلاف الأول الظاهر الذي يحيط بجميع الأغشية ويسمى (السَّلى Chorion) فهو المعدّ في جانبه الملتصق بجدار الرحم كوسيلة للتغذية الأولية ثم لتكوين المشيمة العجيبة، وفي جانبه الظاهر غير الملتصق بجدار الرحم كوسيلة لوقاية الجنين وحفظه.

والغلاف الثاني تقوم البويضة النطفة بنسجه تحت (السلى) ليحيط بالجنين إحاطة كاملة من وراء غلاف مائي يحيط بالجنين إحاطة مباشرة ليقيه مع الغلافين الأولين كل صدمة أو رجّة تأتي من الخارج.

وتبدأ في الوقت نفسه، الخلايا الجرثومية (المخلَّقة)، التي تُكوِّن الجنين، سيرها في تطوّرها من نطفة إلى علقة إلى مضغة، على الترتيب الذي ذكره القرآن الكريم . .

ومن هذه المضغة المخططة المخلّقة بكروموزماتها المتخالطة وجنيناتها يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء، كما بدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا المحّيَّة غير المخلّقة. فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادىء القلب، بينما يقوم قسم آخر منها بتكوين مبادىء المخ ومبادىء العمود الفقريّ، إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين مبادىء الأحشاء من الجهاز الهضميّ والتنفسيّ والتناسليّ، إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين العظام، كلٌّ في دائرة اختصاصه. فلا ينتهي الشهر الثاني إلا وتصبح المضغة إنساناً كاملاً

بجميع أعضائه وأحشائه وأعصابه. وهنا السرّ في الخلق، إذ إن هذه الخلايا قد وضع فيها الخالقُ الفطرةَ التي تُعطيها القدرةَ على أن تسوّيَ إنساناً كاملاً، ولكنها تصير عاجزةً حين تصبح هي نفسُها إنساناً كاملاً عن أن تخلق ذبابة. ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

أما الوظيفة التي تقوم بها المشيمة فهي آية أخرى من آيات الإعجاز. فخلايا السلى وخلايا جدار الرحم تشترك كما قلنا في صنع المشيمة للجنين. . وهذا الجنين الجديد، يحتاج إذا صار مضغة وتكوّنت أعضاؤه، إلى طريقة من التغذية غير الطريقة الامتصاصية الارتشاحية الساذجة التي تحصل بين حمل السلى وبين جيوب الدم الرحمية، لأن حاجة الجنين إلى الدم إذا كبر ستكون أكبر، وحاجة الدم إلى التصفية إذا كثر ستكون أكثر. ولما كان لا يجوز أن يدخل دم الأم بذاته إلى الجنين، وأن دم الجنين يجب أن يتخلّص من أقذاره وسمومه كما يتخلّص كل حيوان، فلا بد من وجود آلة كبرى تتولى هذا الترشيح والتوريد والتصدير بين دم الأم الوارد المطهّر ودم الجنين الصادر القذر، فكانت المشيمة العجيبة التي بنتها الخلايا من خمل الكوريون وأهدابه ومن جيوب الدم الرحمية، وجعلتها موصولة بسرّة الجنين بحبل يحمل منها إليه عناصر الغذاء والأوكسجين التي تستخلصها المشيمة من دم الأم، ثم يحمل الحبل من الجنين إلى المشيمة، في وريد آخر، ما يتكوّن في جسم الجنين من سموم وأقذار حتى إذا خرج الجنين إلى عالم النور والهواء والثدي، وأصبح قادراً على تنفس الهواء برئتيه وامتصاص الغذاء بشفتيه، وقادراً على حرق

(١) سورة ، الآية: ٥٠.

قمامته في سَحْره (رئته)، ولفظها من نحره، قطعت المشيمة عن الولد وسُدَّ باب السرَّة إلى الأبد.

إن هذا النظام العجيب، والتصميم الغريب من خلق الإنسان في أصلاب الرجال وبويضات النساء، ووجوده في الأجنة في بطون النساء لهو الآية الكبرى على قدرة الله في الخلْق.. ولو تأمّل الإنسان وتفكَّر، لوعى وتبصّر.

هذا هو الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وجعل أصله من طين الأرض وترابها.

آدم عليه السلام

آدم عليه السلام

يحكي القرآن الكريم قصة عمارة الأرض بعد أن أتمّ الله تعالى خلقها وخاطب الملائكة بقوله العزيز: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

ومن الطبيعي ألاّ تعلم الملائكة حكمة الخالق من هذا الاستخلاف كما لم تعرف سبب الخلق أصلاً. . . وقد بدا لهم بعدما تأكدوا أن آدم عليه السلام وذرّيّته سوف يكونون مخيّرين بين الفجور والتقوى، أن يسألوا الخالق القادر مستفسرين ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٢).

فقد حصل هذا الاستشفاف للغيب من قبل الملائكة وتكلّموا بما سوف يكون عليه الإنسان وما تنزع نفسه إليه، وما أكّدته الأحداث والتواريخ المتعاقبة على مرّ الدهور، بحيث ما خلت حقبة منها بلا فساد ولا حروب ولا دمار ولا سفك دماء. .

فقال لهم الله ـ تبارك وتعالى ـ وهو وحده يعلم الغيب ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. . . فاطمأنت قلوبهم وزالت حيرتهم بعد هذا الجواب الهادي، لأن سؤالهم لم يكن اعتراضاً على صُنْعِ الله، ولا شكّاً في حكمته أو طعناً في خليفته. ولا يمكن أن يكون كذلك والملائكة هم أمناء الله المقرَّبون وعباده المكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون. .

وعلَّم الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام الأسماء كلها. . والمراد بهذا التعليم إنما هو مسميّات الأشياء، لا اللغات، أي علَّمه حقائق الأشياء وخواصها، وأعطاه المعلومات التي يستعملها للحكم على الأشياء. . ذلك أن الإحساس بالواقع لا يكفي وحده للحكم عليه وإدراك حقيقته، بل لا بدّ من معلومات سابقة يفسّر بها هذا الواقع. فالله تعالى علَّم آدم عليه السلام الأسماء، أي مسميات الأشياء التي يحسّها. . وتعبير القرآن الكريم بكلمة «الأسماء» يراد به أنه قد أطلق الاسم وأراد المسمى، كما يدل على ذلك الواقع.

وعلى هذا فإن آدم عليه السلام عرف الأشياء ولم يعرف اللغات، فكل ما تُعرف ماهيته، ويُكشف عن حقيقته يكون محلاً للتعليم والمعرفة. .

واللغة إنما هي وسيلة للتعبير ليس إلاَّ. .

وهكذا يكون سياق الآية للتدليل على أن المراد من عبارة «الأسماء كلها» المسميات أي الحقائق والخواص.

وآدم عليه السلام في صنعه وبما حوى رأسه من تركيب في

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

الأجهزة، وضبط في الأنسجة، ودقة في الربط، وإحكام في الأداء هو مخلوق كامل. وهو بعد زرع الحواس الخمس فيه، وإعطاء كل جزء من أجزاء هيكله الظاهرة والخفية وظيفة خاصة يؤدّيها في نطاق نظام عجيب في الدقة والإتقان، قادر على أن يربط عن طريق الدماغ ما بين الوقائع والمعلومات. وبنتيجة هذا الربط صار لديه القدرة على فهم حقائق الأشياء وتسميتها. وهو بهذه الملكات والقدرات الخارقة التي مكّنته من الإنشاء والارتقاء، أصبح قادراً على إصلاح الأرض وعمارتها.. ومن هنا استحق أن يكون خليفةً فيها، بدلاً من الملائكة الذين لم يعطوا من تلك القدرات والملكات ما أعطيَه آدم عليه السلام.

ولكي يدلل الله سبحانه وتعالى على تلك المقدرة التي وهبها لآدم عليه السلام، وخصَّه بها، عرض أسماء الكائنات على الملائكة قائلاً: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

ودهش الملائكة، وحاولوا البحث في طوايا أنفسهم عن سابق علمهم، فلم يجدوا إلى الجواب سبيلاً، فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾(٢)..

وفي عجزهم عن الإجابة، دلالة أخرى على المكانة التي أرادها الله تعالى لآدم عليه السلام ليتفوّق بها على الملائكة، بتلك المعرفة التي خصَّهُ بها خالقه ليكونَ جديراً باستخلافه في الأرض. وكيف لا، أوَليس هو مكرَّماً بالعقل والفكر والشعور والإحساس؟.

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٢.

ومن هذه المكرمة، اغترف آدم عليه السلام من فيض ربّه، واقتبس من نور علمه، فبعدما أُعطيَ القدرة على المعرفة، أمره الله أن ينبىء الملائكة بما عجزوا عنه، وأن يخبرهم بما قصرت مداركهم عن إدراكه، فأخبرهم آدم عليه السلام بالحقائق التي أراد الله جلاء غموضها.. فناداهم ربهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(1).

الملائكة يسجدون لآدم إلا إبليس:

وإمعاناً في تكريم آدم، وزيادةً في إظهار تخصيصه بما لم يختصّ به غيره من المخلوقات، وإظهاراً لعلمه، وتزكيةً لما آثره الله به، أمر سبحانه الملائكة أن يسجدوا لآدم. ولم يكن أمامهم من سبيل - وهم عباد الله الطائعون، وقد عرفوا المكانة الخاصّة لآدم لدى الخالق الجبّار - إلا السجود، فسجدوا....

نعم، لقد كان سجود الملائكة لآدم، سجودَ تكريم، لا سجودَ عبادة... وحريٌّ أن يُكَرَّمَ من هو قابل لإدراك جميع الممكنات، وأن يفضَّل من هو مؤهل للوصول إلى أقصى الغايات.. وسجود الملائكة هو من هذا القبيل فقد أدركوا أن آدم هو خلق كريم، يجب إجلاله وتعظيمه لشرف مواهبه، فأجلّوه وأكبروه. وحتى يكون السياق متكاملاً ما بين الخلق وعمارة الأرض، وما سوف يحصل على هذه الأرض بعد عمارتها من قبل الإنسان، بدءاً بآدم وذرّيته - وهو ما عناه الملائكة في حيرتهم الأولى عن استخلاف من يسفك الدماء فيها، وإذعانه في جوانبَ من حياته للباطل - وحتى تظهر الغاية التي أرادها الله في جعل

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

التعقل صفةً لصيقةً بالإنسان لكي يمكنه بواسطته التمييز بين الحق والباطل والتفريق بين الخير والشرّ. . من أجل ذلك كله، أراد الله سبحانه أن يكشف حقيقة كفر إبليس، فلما أمر بالسجود لآدم رفض إبليس هذا السجود، واستكبر واستعلى (حتى يكون مثال الكافرين اللاهثين وراء الباطل والشرّ) كما أخبرنا الله العزيز بقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] ثم ناداه سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[2]. فأجاب إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3]. . . وفي هذا قال الإمام عليّ ﷺ: «افتخر إبليس على آدم بأنه خلق من نار وآدم من طين، وتعصَّب على آدم بأصله، فإبليس إمام المتعصبين، وسلف المستكبرين، الذي وضع أساس العصبية. . فاحذروا عباد الله أن يُعْدِيَكُمْ بدائه وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورَجِلِه. . . فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية، وأحقاد الجاهلية. . . فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خَطَراتِ الشيطان ونزعاته ونفثاته. . . . فاتقوا الله ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق. اتخذهم إبليس جنداً بهم يصول على الناس، وتراجمةً ينطق على ألسنتهم».

وعجباً من أمر هذا المخلوق المتعجرف، كيف يستكبر على أوامر خالقه وموجده من العدم؟ أيحق له أن يستكبر على مخلوقٍ شاء

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٧٣ و٧٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة ص، الآية: ٧٦.

الله أن يخلقه ويكرمه وفقاً لما يحكم ويقدِّر، ثم يدَّعي أنه خير منه، لأنه هو خلق من نار بينما آدم خلق من تراب؟

ولو أراد الباحث اليوم أن يفرّق بين النار والطين (التراب) لوجد أن النار إنما أصلها من الأرض، وبدون الأرض لا يمكن أن توجد النار. فمصادر النار معروفة لدى الجميع فهي إمّا من الخشب ومشتقاته، وإما من الطاقة الحرارية كمثل البترول والكهرباء ومشتقاتهما، وأصلها كلها من الأرض، وحتى الآلات أو الأدوات التي تنقل الطاقة الكهربائية فإنها قد تكون من المعادن، والمعادن كلّها مكوَّنة في الأرض وكامنة فيها، مما يعني أن الأرض هي الأم والمصدر للنار.. وما هذا التذكير إلا من الحقائق التي ليس عليها اختلاف. فإن يك إبليس يعتبر نفسه أفضل من آدم لأنه من نار، فقد غاب عن باله أن أصل النار من الأرض، أي من الجِبلَّة التي جُبِلَ منها آدم. ولكن أعماه الحقد، وشطَّ به الاستعلاء، وتقزَّمت نفسه بالكوامن الملتوية، فانصاع بلا دراية منه ليجسّد الصورة الأخرى للخليقة في ضلالها، وفي عمى بصرها وبصيرتها، في حين أن عقاب الضلال محتم، وبذلك حلَّ العقاب الفوري بإبليس، وهو أقصى عقاب يناله مخلوق... إنَّه اللعنة الخالدة، يعاقبه الله بها، ويرجمه بسوئها، بعدما تنزل به الواقعة ويُطرَد من الجنة، ويظل يعيش تلك اللعنة، وذلك الرجم إلى يوم الدين!!..

وكان آدم يتابع ما يحدث حوله، ويحس بالحب، والرهبة، والدهشة.. كان حبّه لله الذي خلقه وكرَّمه وجعل الملائكة يسجدون له... وكانت رهبته من غضب الخالق حين طرد إبليس من رحمته.. أما دهشته فقد كانت من هذا المخلوق الذي كرهه من غير أن يعرفه، والذي تصور أنه هو أفضل منه وذلك كله دون أن تتاح لأحدهما فرصة

لاختبار الآخر وإثبات تفوّقه وأفضليته. وتزداد دهشته ويعجب لحجَّةِ إبليس: إذ كيف يتصوَّر هذا المخلوق من الجنّ أن النار أفضل من الطين؟ ومن أين جاءه هذا الظن؟ المفروض أن يكون الله سبحانه وتعالى الذي خلق الطين والنار، هو وحده الذي يعلم أيّهما أفضل من الآخر، وهو وحده ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يوحي لمخوقاته بما يعلمون وما لا يعلمون.

وأدرك آدم وهو يستمع إلى حوار الله مع إبليس، أن هذا المخلوق يختلف عنه، وهو يتصف بالجحود.. وعرف أنه سوف يكون له عدوّاً أبدياً، ولكن حلم الله أوسع، وعنايته أجمل، فهو لم ينزل البلاء الأعظم بإبليس بل ترك له مجالاً للتصرّف... وأدرك آدم أن الله تبارك وتعالى قد جعل لمخلوقاته التي تعقل حرية الاختيار، وهي نسيج أصيل في الوجود الذي أراده الله تعالى لها. وأن هذه الحرية إنما تمنح للمخلوقين المكلفين، وأن عليها يترتب ثواب وعقاب يتأتّى من الحكم العادل.

ورأى آدم أن له السيادة على غيره، وأسباب هذه السيادة علمه ومعرفته.. علم بخالقه ومعرفته، وعلم بالخلق ومعرفتهم، فحمد الله على ما حباه من هذا النور النورانيّ، وشكره على ما أسبغه عليه من تلك النعمة الفياضة، ونام قرير العين هادىء البال...

وذات يوم استيقظ ليجد عند رأسه مخلوقاً من نوع آخر، كان يحدّق فيه بإمارات المحبّة والحنان والتعاطف.

وسأله آدم: من أنت؟ ومن أين جئت أيها المخلوق؟ فقال له: جئت من نفسك، خلقني الله منك وأنت نائم، أفلا تريد أن تستعيدني إليك وأنت مستيقظ؟..

وآنس آدم اطمئناناً في شعوره.

فأجاب: وكيف لا آنس لمن هو جزء مني؟ فحمداً لله على مكرماته أن خلق لي سبحانه وتعالى من أسكن إليه. وعرف آدم أن هذا المخلوق هو حواء.. لأنها خلقت منه وهو إنسان حيّ...

وعاش معها في الجنَّة، في النعيم، والسعادة، يتحدثان، ويستمعان لغناء الطيور وشدوها، ويطربان لتسبيح الكائنات لخالقها، في عَالم متَّسع لا يعرف مداه إلا خالقه، وليس فيه إلا الأمان والاطمئنان والرضى.

وسكن آدم وزوجه في هذا العالم، لهما كل ما فيه من أسباب الحياة والسعادة، غير محرَّم عليهما إلاَّ ثمرة شجرة واحدة، نهاهما الله عنها، ومنعهما عن الأكل منها.. غير أن آدم إنسان، فنسيَ أمرَ ما حرّم عليه. وقد صدق فيه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1].

آدم وحواء يأكلان من الثمرة المحرمة

وعزم إبليس على العمل بالوسوسة والخنوس فهما مجال عمله حيث يخنس في مكامن الضعف في الإنسان ليعود فيوسوس في الصدور. فهو إذن يريد أن يستغلَّ نقطةَ الضعف في آدم، وهي تكمن في تكوينه النفسيّ والجسديّ، ولكنه لا يطمئن له، فآدم قد عرف موقفه منه، وعداوته له عندما فضَّله ربه عليه، إذن فما السبيل إلى إغوائه؟

أوليست حواء غاليةً عليه وهي رفيقة حياته وشريكته في هذا

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

الوجود الذي ينعمان به؟ وقد لا تكون حواء قد أعطيت من الملكات ما أُعطِيَهُ آدم، إذن فهي الوسيلة إلى الإغواء.

ودلف إبليس إلى حواء يستهوي فيها المشاعر والعاطفة، ويزيّن لها بأنه سيدلها على شجرة، إن هي أكلت منها وزوجها، كان لهما الخلد والملك الذي لا يبلى. ثم عادَ فوسوس لآدم، وقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ﴾(١)؟..

وظنَّت حواء بأنَّ الشجرة المحرَّمة هي شجرة الخلود، وأدخلت في روع آدم أنه ليس من سوء لو أكلا من تلك الشجرة. وحار آدم، ولكن حواء كانت تلحّ عليه حتى ظنَّ مثلها أن تلك الشجرة هي شجرة الخلد حقّاً، وهل أروع من أن يخلّد في البراءة المطلقة والعيش الهنيء. وهكذا راح حلم الخلود يراوده، وإبليس لا ينفك عن إغوائه في تزيين هذا الحلم وتقويته في نفسه!..

ونسي آدم وعد ربّه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾(٢)، في حين نجح إبليس وهو يمعن في الدهاء والمكر عندما خاطب آدم وزوجه حالفاً: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾(٣) ثم قال لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾(٤).

واكتملت أول مكيدة خبيثة بكل عناصرها في حياة الإنسان،

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة طه، الآيتان: ١١٨ و١١٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠.

وانتصر الباطل الأول في جولته الأولى، وكان مقدراً ذلك ومحفوراً في اللوح المحفوظ، وذلك حتى يتسنَّى للإنسان أن يستخدم القدرات والملكات التي أوجدها الله فيه، ويتخذ موقف الخيار أمام التجربة، أو الامتحان في الابتلاء بالشر والخير فتنةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]. فإمّا أن يغلّب الخير فيكون كما أراده الله تعالى مخلوقاً طائعاً، وإمَّا أن يختار الشرّ، فيكون عاصياً، وناكراً لجميل خالقه. وظن إبليس أنه انتصر بدهائه وخبثه ولؤمه، وأنه هزم آدم لطيب قلبه وصفاء نفسه، ونقاوة ضميره..

وكان لا بدَّ لآدم أن يغفل عن ذاته ولو للحظات، وأن يأكل الثمرة المحرَّمة، وبدأت بذلك قصة الصراع ما بين الخير والشر. وقُضيَ للإنسان أن يعظم ويكبر ويتعالى بالإيمان وبأعمال الخير التي حباه الله بها، وأن يوجهها نحو الأهداف والمثل التي ترضي الله وعباده.. كما قدِّر له أن ينحدر إلى مهاوي الكفر والفسوق، وأن يُسِفَّ إلى مواطن الخطأ والضلال، وأن يحوِّل المزايا الإنسانية فيه إلى نقائضها من الأنانية والذاتية والنفعية المنحرفة، فضلاً عن الأفكار والأعمال التي تغضب الله وعباده...

وأحسّ آدم وحواء بالألم والخجل، واعتراهما الحزن على الفور.. فلقد تغيَّر الجو حولهما وسكتت أنشودة الهناء التي كانت تنبعث من داخلهما، وبدت لهما سوءاتهما، فأسرعا إلى ورق الشجر يغطيان به جسديهما العاريين..

وخرج آدم وزوجه عن أمر ربهما، فسلبهما نعمته، وحرمهما

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

جنته، وناداهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(1).

فكان لا بد لهذا العدوّ، وقد نجح إغواؤه، وأفلحت ضلالته للإنسان الذي سما عليه، إلا أن يطلب إلى ربّه أن يمدَّ له بالحياة وأن يمهله إلى يوم البعث، حتى يغويَ من يغوي، ويبعدَ من يبعدُ عن الطريق المستقيم.. وأجابه الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾(2).

وبدل أن يشكر إبليس ربّه، على منحه تلك المهلة الطويلة، قابل نعمته بالكفران، وفضله بالجحود والنكران، ولم تكن له من نيّة في ذلك إلاَّ الإمعان في كرهه لآدم عليه السلام، والتصميم على الثأر من ذريَّته على مدى الدهور... فأجاب ربَّه قائلاً: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(3) أي أخذ على نفسه أن يترصدَهم لإغوائهم، ويجهدَ في إضلالهم كل حين، حتى وهم يقومون بعبادة خالقهم.

فليكنْ لإبليس ما يطلب، ولْيغوِ من بني آدم الغاوين، وليستفززْ من استطاع منهم بصوته، وليجلبْ عليهم بخيله ورجاله، وليشاركْهم في الأموال والأولاد، وليعدْهم المواعيد الكاذبة، ولْيمنِّهم الأمانيّ البعيدة... إلاَّ أصحاب العقيدة، أقوياء العزيمة من عباد الله المخلصين فإنه سبحانه لن يخلّي بين إبليس وبينهم ولن يكون له عليهم سلطان بإذن الله. أمَّا ما اعتزمهُ من إغواء الناس وفتنتهم،

(1) سورة الأعراف، الآية: 22.
(2) سورة ص، الآيتان: 80 و81.
(3) سورة الأعراف، الآيتان: 16 و17.

فحسابه عليه عسير، وجزاؤه على اقترافه عظيم، هو ومن تبعه من الخاسرين. ولذلك كان جواب الله سبحانه وتعالى له بقوله العزيز: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

وندم آدم وزوجه على غفلتهما، واعترفا لربّهما بأنهما ظلما أنفسهما، وطلبا منه المغفرة والرحمة حتى لا يظلا في الخسران الكبير. فاستجاب الله لدعائهما ورجائهما ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾(٢). وظنَّ آدم وحواء، أن التسامح والغفران من ربهما سوف يمحو خطأهما وسوف يبقيان في الجنة. فعلم الله ما جال بخاطرهما، ووقف على ما تطلّعت إليه نفساهما، فقال للجميع: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى في مرّة أخرى قد أعطى الإنسان الفرصة كي يبرهن على حسن نيَّته، وإقراره بأن خالقَهُ هو الحق، وبأن ربَّهُ هو الحق، وبأنه سوف يسخِّر الطاقات التي وهبه إيّاها لعبادته ومرضاته... وبهذا الهبوط من الجنة انتهى طور النعيم الخالص والراحة التامة، ودخل آدم ومعه ذُرّيتُهُ من البشر في طور جديد فيه طريقان:

هدى أو ضلال.. إيمان أو كفر.. خيرٌ أو شرّ.. حق أو باطل.. فمن اتبع هدى الله الذي شرّعه، أو سلك الصراط المستقيم الذي حدّده، فلا خوف عليه من وسوسة الشيطان وإغوائه له. وأما من

---

(١) سورة ص، الآيتان: ٨٤ و٨٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

أعرض عن ذكر الله، وحاد عن سبيله، فسيكون عيشه ضنكاً، وسوف يكون من الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً..

وكان الهبوط، وعاش آدم وحواء عليهما السلام على الأرض. وبدأ نظام الحياة الجديدة يستكمل وجوده حينما تهيَّأت حواء لتستقبل أول زهرة في رياض الإنسانية وأول نفحة من نفحات البشرية التي ستأنس، وتسعد بها مع زوجها آدم عليه السلام. وكانا شديدي الشوق لرؤية فلذات أكبادهما تدبُّ على ظهر البسيطة لتمتلىء جوانب الأرض بسلالتهما، تسعى في مناكبها وتأكل من رزق الله. ولقد كان آدم عليه السلام متلهفاً لرؤية أبنائه، وحواء مستبشرة بقدومهم، رغم ما قاسته من آلام الحمل.

ووضعت حواء توأمين: أحدهما قابيل وأخته والآخر هابيل وأخته. وشبَّ الإخوة في رعاية الأبوين وتبادلوا ودّ الإخاء، وأحاطهم عطف الوالدين حتى بلغوا عنفوان الشباب، فوضع آدم عليه السلام البنتين مع أمّهما وترك الولدين يضربان في الأرض كسباً للرزق وابتغاءً للخير، فكان قابيل من زُرَّاع الأرض وكان أخوه من رعاة المواشي. ونظراً للتعاون الكامل بين أفراد الأسرة تمهدت لها سبل الحياة وسهل عيشها، وعذُب مذاقها، وانتشر رُواق السلام والأمان على هذه الأسرة السعيدة الطاهرة حتى أوحى الله تعالى ـ كما قيل ـ إلى أبي البشرية أن يزوج كلاً من ابنيه بتوأم أخيه، فيكون عوناً لها، وتكون هي عوناً له.

أوعز آدم عليه السلام بذلك إلى أبنائه وهو جدير أن يكون قوله الفصل، غير أن جموح النزعة البشرية وانسياقها إلى مهاوي البوار

والخسران لم يحقق للأب ما تمنى. إذ إن شهوة الإنسان قوامها الحرص والطمع، فمن كَبح جماح شهوته وكسر حدَّة سطوته، وجعل لعقله سلطاناً على هواه، كان من الذين أكرمهم الله في الدنيا والآخرة. وأمّا من انساق وراء شهواته وانفلت من زمام عقله، فهو من الأخسرين أعمالاً. وهذا هو محكّ طبيعة النفس البشرية في هذه الأرض.

قابيل يقتل أخاه هابيل

فبعد أن عرف قابيل من أبيه أن توأمته لا يجوز أن تكون له، بل يجوز أن تكون لأخيه، ثارَ ولم يرض بالقسمة لأن نصيبه أقل جمالاً من نصيب أخيه، وقرّر أن تكون توأمه من نصيبه دون سواه، ذاك أن جمال الخَلْق كان ـ منذ كان ـ يخلق ريحاً هوجاء تتقاذف النفس البشرية وقد توردها موارد الحتف والهلاك.

وهكذا كان الجمال سبباً للشقاق بين الأخوَين فجمحَ أحدهما عن طاعة أبيه، ونقض ما كان قد أبرم، وفصم ما كان قد أحكم.

فهبَّت على الأب الوقور رياحٌ أوشكت أن تقتلع أشجار السعادة التي أورقت في حياته على الأرض. وتوزعت نفسه بين رغبة ابنَيه، والإبقاء على السلام بينهما والأمان، إلى أن هداه الله إلى مخرج يسدّ به مهبَّ الريح، فطلب إليهما أن يُقرّب كلّ منهما قرباناً إلى الله، فأيّهما تُقبِّلَ قربانه كان أحقَّ بما يشتهي ويريد. وقدّم هابيل جملاً من أنعامه، فيما قدّم قابيل قمحاً من زراعته، فتقبَّل الله قربان هابيل ولم يتقبَّل قربان قابيل لأنه لم يُخلص النيَّة ولم ينزل على حكم أبيه..

فأُسقِط في يد قابيل وتوعَّد أخاه وقال: لأقتلنَّك حتى لا

أصاحبك سعيداً وأنا شقيٌ، ولا أُؤاخيك مُشرق الأمل وأنا مكبوت العاطفة، مكسورُ الخاطر. فقال هابيل لأخيه: يا أخي إنَّك لجائر، مائل عن طريق الصواب، آثمٌ في عزمك، وأولى لك أن تستغفر الله وأن ترجع عن رأيك. لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يديَ إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين.. ولم تكن آصرة الأخوّة شفيعةً أمام ذلك الحقد المتَّقد في صدر قابيل، ولم تكن مخافة الله ولا رعاية حقوق الوالدين رادعةً لتلك النفس التي كانت أوَّلَ من أجرم على ظهر الأرض. فقتل قابيل أخاه هابيل وتركه بالعراء لا يدري ما يصنع به، ثم حمله في جراب على ظهره حتى أرْوَح. فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه ثم حفر له بمنقاره وبرجله ثم ألقاه في الحفرة وواراه، وقابيل ينظر إليه ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾(١). نعم لقد هبطت رحمة الله في تلك الفترة بإرسال الغرابين تعليماً للإنسان وإفهاماً له أنَّه من الأرض وإلى الأرض يعود، ورعايةً لتلك الجثَّة الطاهرة، وسنّاً لدستور الخليقة، وإبقاءً على كرامة آدم عليه السلام وذرّيَّته، ودرساً قاسياً للقاتل الغرّ الحقود لأنه ما كان أهلاً لوحي الله ولا لإلهامه بل أسفّ به جرمه الشنيع فكان مقلداً للغراب، يتضاءل فهمه أمام غريزة ذلك الطائر الأسود، وتفنى شخصيته بجانب ذلك الدرس المؤلم الذي تلقّاه ذليلاً صغيرَ النفس معذَّبَ الفؤاد، وليرى نفسه على حقيقتها.

وبعد مدّة من مقتل هابيل ولدت حواء ولداً كان خَلَفاً لهابيل

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣١.

فاتخذه آدم عليه السلام وصيّاً له ووليّاً لعهده. وأما قابيل فذهب طريداً شريداً فزعاً مذعوراً لا يأمن من رآه، واستقرَّ في عدن من أرض اليمن، فوسوس له إبليس بقوله: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يعبدها، فانصِب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك. فبنى بيت نار، وهو أول من نصب النار وعبدها. وروي أنَّ أولاده اتخذوا آلات اللهو من الطبول والمزامير، وانهمكوا في المجون وشرب الخمر، وتعاطوا الزنى والفواحش. وقد رُويَ بأنَّ الله تعالى أغرقهم أيام نوح عليه السلام بالطوفان!..

ونحن لا ندري على وجه التأكيد، هل أنّ أولاده هم الذين انجبتهم أخته التي وُلدت معه، أم الأخت الثانية التي وُلدت مع أخيه هابيل، الله أعلم، لأن القرآن الكريم لم يأتِ على ذكر قابيل بعد أن قتل أخاه.

وهذه قصة آدم عليه السلام كما ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم في سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

(٣٤) وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ (١) فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٩) ﴾.

وفي سورة المائدة:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنۢ
بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٨) إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ
جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ
(٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ
ٱلنَّٰدِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ

---

(١) فتلقى آدم عليه السلام من ربه كلمات: قيل هي: «اللهُمَّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين. اللهُمَّ لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إني ظلمتُ نفسي فارحمني إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إني ظلمت نفسي فتُب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم».

نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ
أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ
ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وفي سورة الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ
مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ(١) فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا(٢) وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ(٣) وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل

---

(١) فدلاّهما بغرور: أي أوقعهما في المكروه، وأهبطهما من الجنة إلى الأرض.
(٢) بَدَتْ لهما سوءآتهما: أي ظهرت لهما عوراتهما، فرأى كلٌّ واحد منهما عورةَ صاحبه.
(٣) وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة: أي أخذا يجمعان من ورق الشجر في تلك الجنّة التي كانا يعيشا فيها ليسترا سوءاتهما.

لَكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٢٣) قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ (٢٥) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ
قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ
ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا
تَرَوۡنَهُمۡۗ(١) إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) ﴾.

وفي سورة طه:

﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا (١١٥) وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ
لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ
(١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ (١١٩) فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا
سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ
ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ
فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ (١٢٣) ﴾.

(١) إنه يراكم هو وقبيلُهُ من حيث لا ترونهم: أي أن الله سبحانه وتعالى جعل الشيطان وذرّيته وأتباعه من الجن يرون بني آدم بينما بنو آدم لا يرونهم. قال أحد الصالحين: «والله إنَّ عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤونة إلا من عصم الله»، وينبغي علينا أن نكون على حذر دائماً وأبداً في ما نجده في أنفسنا من الوساوس التي هي من فعل الشيطان وأتباعه!.

وفي سورة يس:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا(١)
كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا
ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ
أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا
يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وفي سورة ص:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى
خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ
أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ

---

(١) جبلاً كثيراً: أي خلقاً كثيراً، والذين جُبِلوا على خليقة: أي طُبِعوا عليها. وأصل الجبلِّ الطبع.

ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ
وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

السور القرآنية وموضوعاتها

يقال في اللغة: تسور الحائط: تسلَّقَهُ، ومنه السوار: وهو حِليةٌ كالطوق تلبسه المرأة في زندها. أما السور فهو الحائط الذي يطوف بالمدينة، ويُسمّى به لارتفاعه. . والسورة هي المنزلة الرفيعة، كما عبر عنها الشاعر بالقول:

ألم تَرَ أنَّ الله أعطاك سورةً ترى كلَّ مُلكٍ دونَها يَتَذَبْذَبُ؟

أي أعطاك منزلة رفيعة دونها الملك.

والسورة من القرآن الكريم هي بمثابة السور الذي يحيط بجوانب الموضوعات التي تشتمل عليها هذه السورة، تماماً كما يحيط السور بالمدينة. وقد سميت السورة القرآنية «سورة» لمكانتها الرفيعة في حفظ قول الله تعالى في كتابه المجيد الذي أنزله بلسان عربيّ مبين. وإنه والحق لكتابٌ ما تنزَّل من الأعالي، إلاَّ لتكون له هذه المكانة الخاصة والمميزة عما سواه، فحق أن يسوَّر بحفظ الله تعالى له، ليبقى على مكانته، ورفعة منزلته، ويكون سموّه فوق كل شيء، وعلى كل شيء في دنيا الأرض.

أما القصد من قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا﴾[1] فهو أنها

(١) سورة النور، الآية: ١.

تتناول جملة من الأحكام، والحِكم والمواعظ، والعبر التي تنبثق عن الموضوعات التي تضمنتها وما تتناول هذه الموضوعات من صور الحياة الإنسانية، خاصة وأنها تتناول فروضاً أوجبها الله تعالى لحفظ كرامة الحياة الإنسانية، منها المحافظة على النسل الإنسانيّ بإقامة الحدِّ على الزاني، ومنها المحافظة على الكرامة الإنسانية بإقامة الحد على القاذف.

ولذا لم يتحدّ القرآن الكريم الإنس والجنَّ على أن يأتوا بموضوعٍ يشبه مواضيع القرآن، ولا بصورةٍ شبيهةٍ بصورِ القرآن الكريم، بل تحدَّاهم أن يأتوا بسورةٍ من مثله مصداقاً بقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

وانطلاقاً من هذه المعاني، فقد حقت كلمة ربك ـ جلَّ وعلا ـ وكان تنزيل القرآن الكريم في مائةٍ واربع عشرة سورة، توزعت بين السور الطوال المدنية (التي أنزلت في المدينة المنورة) وبين السور الوسطى والقصار المكية والمدنية (التي أنزلت في مكة المكرمة والمدينة المنورة).

أما السور المكية فتتناول في الأصل أساس العقيدة الإسلامية، أي عقيدة التوحيد في نهاية مطافها وهي تتنزّل عبر الرسالات التي حملها الأنبياء والرسلُ إلى أهل الأرض. بينما تبحث السور المدنية في معظم الأحكام الشرعية.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٣ و٢٤.

فمن ناحية العقيدة، وتعريفها الشموليّ أنه «ما عقد عليه القلب» فهي تتناول جوهر الإيمان بحقيقه وجود الله تعالى، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو، وما يتفرع عن هذا الإيمان من أصول وفروع. وعرّفت العقيدة بذلك لأن لفظ «عُقد عليه» معناه جُزم به، أي صُدِّق به يقيناً، وهو عامٌ يشمل التصديق بكل شيء. غير أن التصديق بالشيء ينظر فيه إلى ما يُصدَّق به، فإن كان أمراً أساسياً، أو متفرعاً عن أمرٍ أساسيّ كقصص الأنبياء، فإنه يصح أن يُسمى عقيدة، بحيث يدفع الاعتقاد به إلى اتخاذ موقف معين من هذا الشيء.

وأما من ناحية الأحكام الشرعية المنبثقة عن العقيدة فهي تتضمن خطاب الشارع ـ أي الله سبحانه وتعالى ـ المتعلق بأفعال العباد كالإجارة والبيع، والكفالة، والوكالة، وإقامة الحدود الخ. . . أي أنها كل ما ورد في الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي المتعلقة بأفعال العباد.

هذا بوجه عام ما تتناوله السور القرآنية من الموضوعات المتعلقة سواء بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية وما ينبثق عنها جميعها من القضايا والشؤون، والأمور والأوضاع، والأحوال التي تتعلق بحياة الإنسان في الدارين.

ومن الثابت أن رسول الله ﷺ قد قرأ القرآن كله سواء على فترات التنزيل أو بعد اكتماله، على جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قرأه بدوره على النبيّ ﷺ.

ومن الثابت أيضاً أن معظم السور لم تكن كل واحدة منها تتنزل دفعة واحدة، وفي زمن واحد، بل كان الوحي يحمل الآيات ويُقرئها

للنبيّ فيأمر عليه الصلاة والسلام أن تُوضع كل آية في موضعها من السورة التي تعود لها، وبذلك كانت السورة الواحدة تظل «مفتوحة» فترة من الزمان تطول أو تقصر، حتى تكتمل جميع موضوعاتها، وقد تمتد هذه الفترة لسنوات عدة، كما هو الحال في «سورة البقرة»، وهي أطول سور القرآن الكريم وتضم بين دفَّتَيْها مائتين وثمانين وست آيات مباركة، منها آياتٌ نزلت في أوائل ما نزل بالمدينة، وأخرُ نزلت في أواخر ما نزل من القرآن الكريم.. وكذلك بالنسبة «لسورة النساء» فقد امتد نزول آياتها من بعد غزوة «أحد» في السنة الثالثة للهجرة إلى ما بعد السنة الثامنة حين نزلت مقدمة «سورة الممتحنة».

على أن الطابع العام لجميع سور القرآن الكريم هو أنَّ لكل سورة شخصيةً مميزة، وأنَّ لها موضوعاً رئيسياً أو عدةَ موضوعات رئيسية مشدودة إلى محور خاص. ومجمل سياقها يتناول هذه الموضوعات جميعها من جوانب معينة تحقق التناسق بينها. ولها إيقاعٌ موسيقيٌّ خاص، وإذا تغير هذا الإيقاع في ثنايا السياق، فإنما يتغير لمناسبة موضوعية خاصة. ولا يشذُّ عن قاعدة التناسق في الموضوع، وفي الإيقاع، طوالُ السور أو قصارُها، ولا عن قاعدة التناسق في ترتيب المواضيع، وفي انتقاء الألفاظ الدالة، والحبك المميز ـ لا بل واختيار الأحرف للّفظة الواحدة ـ سحر البيان لإبراز المعاني الهادفة، وقوة البلاغة لتوضيح الدلالات المعبرة.. وهذا ما جعل من القرآن الكريم معجزةً حيَّة دائمة، فلا يطرأ عليه أيُّ تبديلٍ أو تحويلٍ أو تغيير. وقد فشلت جميع المحاولات، وذهبت جميع الجهود التي بذلها أعداء القرآن من أجل الإدخال عليه، أو التحريف فيه، وباءت أعمالهم كلها

بالخسران المبين، لسبب واحدٍ وهو أن هذا القرآن هو قول الله تعالى، وقد تكفَّل ـ سبحانه ـ بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(١). وسوَّره بمائةٍ وأربعَ عشرةَ سورة أودع الله تعالى في كل واحدة منها موضوعاتها التي تشتمل على صورٍ لا تعدّ ولا تحصى.. فهو محفوظ من ربه تبارك وتعالى ـ وهو رب العالمين ـ بأن أمرَ أن يُنزَّل على النحو الذي نزل فيه، يحمله جبريل الأمين عليه السلام، ويبلّغه رسول الله ﷺ فيحفظه في قلبه، ولسانه يردده، ليودعَهُ صدورَ قوم مؤمنين، ثم ليعود ويُمْليه على كتبة الوحي توقيفياً عن ربه ـ جلت عظمته ـ.

التفسير الموضوعي

وإنَّ من عظمة القرآن أهميةَ تأثيره في الحياة برمتها، فهو يملك أن يعمل في حياة الأمة الإسلامية منذ ولادتها، كما يملك أن يعمل في حياة الإنسانية جميعها. وإنه ليعايش الحياة الحاضرة وكأنما هو يتنزل في هذه اللحظة، لمواجهة شؤون الحياة في المعركة الدائرة بين الحق والباطل، وبين النور والظلام. وهذا ما جعل موضوعات القرآن الكريم متنوعة وشاملة، وجعل السورة الواحدة تتناول الموضوعات والصور التي تختصُّ بها وحدها. فإذا كانت السور القرآنية محدودة بالعدد إلاّ أن موضوعاتها وصورها ليس لها حدود ولا نهاية. فكل موضوع يتناول جملة من الصور. وكل صورة تتناول جملة من الموضوعات وفق ما قد يصل إليه تفكير كل من حاول تفسير هذا الكتاب المبين تفسيراً موضوعياً والوقوف على معانيه التي تظهرها آياتُهُ

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

وسورُهُ[1]. ويمكن أن ندلِّل على تعدد الصور وتنوعها في السورة الواحدة في مثالٍ من إحدى السور القصار، وهي «سورة الطارق»: قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.. إنه قسم من رب العزة. يقسم سبحانه وتعالى بهذه السماء التي ترونها من فوقكم، وبتلك السماوات التي ترونها ببصيرة العلم، وما في هذه السماوات من أفلاك ومجرات ونجوم وكواكب.. ويثنّي في نفس القسم بـ ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ ثم يبيّنه لنا بأنه ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ (وليس المقصود بهذا التحديد نجماً بذاته، بل ينطبق على جنس النجم، لأن أي نجم يبدو نوره واضحاً في الظلمة، ويدلُّ بأشعة نوره وهي تنفذ من خلال الظلام على وجوده). فهو إذن قسمٌ بالسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء.. ولكن لِمَ كان هذا القسم من الخالق العظيم؟ إنه يقسم ـ جلّت عظمته ـ بأن كل نفس عليها من أمر الله تعالى حافظ، وهو الرقيب الذي يراقبها، ويحصي عليها سكناتها وحركاتها، ويحفظ عنها كل ما تفعل أو تعمل أو تصنع، أو حتى ما تنوي أو تلفظ، أو تفكر أو تبطن..

---

(١) لقد حاولنا بهدي من الله تعالى وببركة رسول الله ﷺ أن نتناول تفسير القرآن بما يُعرف بـ «التفسير الموضوعيّ» فجاء في اثني عشر مجلداً تناولت موضوعات وصوراً مما يحتويه القرآن الكريم، وهي ليست في الحقيقة إلا قليلاً من كثير، لأن باستطاعة كل إنسان قادر على التفسير الموضوعيّ أن يتناول موضوعات وصوراً غيرها، ويظل بإمكانه أن ينهل من هذا المعين العذب الذي لا ينقطع ما دام القرآن قائماً أبداً. وإنك لتجد أيها القارىء الكريم شرحاً مستفيضاً عن «التفسير الموضوعيّ» في كتابنا أصول الفقه الميسر.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعيّن النفس، لأنها مستودع الأسرار والأفكار، وهي التي يناط بها الثواب والعقاب. وبهذا تحس وتشعر كل نفس بشرية أنها ليست متروكة بلا حسيب ولا رقيب، فهي أبداً موضع للمراقبة الدائمة حتى حين تنفرد وحدها، وتتخفى عن كل عين، وتأمن كل طارق. فهنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء، وينفذ إلى كل مستور، تماماً كما يثقب النجم القويّ حجاب الليل الساتر. وهو نفسه الحافظ الذي يردُّ المكارهَ عن هذه النفس التي قد تنزلق بها، ما دامت تقوّي كُمُونَ الخير على الشر فيها، وتجهد للطاعة بدل المعصية. .

والروعةُ في الأداء القرآنيّ التناسقُ بين المُقْسَم به ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ والمُقْسَم عليه (النفس الإنسانية)، مما يجمع بين سنن الله ـ تعالى ـ في الكون، وسنن الله ـ تعالى ـ في الأنفس البشرية، التي يجب أن تحيا بتناسق مع الكون كله، ومع ما أوجد فيه الخالق العظيم من السنن والنظم والقوانين الثابتة التي تجعله يسير على هذا الانتظام كله حتى يأمر الله تعالى بتغييره أو تبديله أو تحويله. . ولأن الإنسان قد أوجده خالقه على هذه الأرض، وأناط به عمارتها، ولأن هذه الأرض هي إحدى مكوّنات الكون، وتحكمها سنن خاصة بها، كان القسم بمشاهد من الكون لإبراز أهمية النفس في تكوين هذا الإنسان. ولذلك توخّى النص القرآنيّ أن يشدَّ الإنسان إلى حقيقة خلقه، ونظام وجوده، فجاء بعد القسم والمُقْسَم عليه، قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾[1] أجل إنها ثلاث آيات قصيرة وبكلمات قرآنية وجيزة، ولكنها تحمل من الموضوعات، ومن

(١) سورة الطارق، الآيات: ٥ ـ ٧.

الصور التي تتفرع عن هذه الموضوعات ما لا يقع تحت الحصر.. فلنتأمل بما يمكن أن يعتمل في الذهن من صور تحمله تلك الكلمات القرآنية الدالة ـ باعتبار أن الصورة هي ما تنقش في الأذهان ـ وما يمكن أن تتناول من موضوعات واسعة، تتفرع بدورها إلى موضوعاتٍ غيرها، ويظل هذا التفرع قابلاً للتنوع والتعدد بما لا يحدُّه التصوّر البشريّ.

ومن الأمثلة التي نسوقها على الصور التي يثيرها هذا النص القرآنيّ ما يلي:

ـ صورة النظر، وهي على نوعين: النظر الذهنيّ ومواطنه العقل الذي ينتج الصور الحسية وغير الحسية، باعتبار أن الأمور الحسية منبثقة عن الحواس الخمس أي عن العقل الذي يتكوّن التفكير فيه باجتماع: الواقع والحواس الخمس والدماغ، والمعلومات السابقة، مما يجعل الإحساس ناجماً عن الحواس أي ما يرتبط بالعقل، وهو بخلاف الشعور الذي ينبثق عن القلب، وما يختزن من شتى أنواع المشاعر، مما يجعل الإحساس ـ ومصدره العقل ـ والشعور ـ ومصدره القلب ـ يجتمعان معاً في تكوين النفس الإنسانية. وبذلك يتلاقى النظر الذهنيّ مع النظر الماديّ فيعطيان من الصور ما شاء الله، وهو ما يرمي إليه النص القرآنيّ من عبارة «فلينظر الإنسان»..

ـ صورة هذا «الإنسان» الكاملة والتامة التي وجد عليها منذ الخليقة الأولى، والتي لم تتغيّر، ولم تتبدل على الإطلاق، فكما خلق الله تعالى آدم وحواء عليهما السلام كان خلق بني آدم جميعاً على نفس الصورة والشكل، وإنما من خلال النظام الذي أودعه الله تعالى في كل من الرجل والمرأة للإخصاب والإنجاب. وسوف تبقى صورة الإنسان

هي نفسها إلى يوم البعث والحساب. كما ينبئنا بذلك القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ـ صورة الماء وهي بذاتها تتفرع إلى صور عديدة:

صورة الغازات التي يتكون منها، وكل غاز بنسبة معينة. . .

صورة الغيوم التي تتكاثف حتى تبرد، وتتساقط ماءً أو بَرَداً أو ثلجاً. .

صورة الماء السائل الذي يملأ ثلاثة أرباع الكرة الأرضية (المحيطات، والبحار، والأنهار، والبحيرات، والجداول، والبرك، والعيون) فضلاً عما يختزن منه باطن الأرض.

ـ صورة الملوحة التي تختص بمياه البحار، وما يتكون في هذه البحار من عوالم الأحياء والجماد. .

ـ صورة العذوبة التي يستقي منها الإنسان والحيوان والنبات قوام وجوده.

ـ صورة الحياة برمتها التي لا وجود لها بدون الماء بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] أجل، إن من الماء كل شيء حيّ سواء النبات والحيوان، أو الإنسان الذي لا يعيش بدون وجود نسبة كبيرة من الماء في جسمه، فإذا فُقدت هلك هذا الإنسان ومات، وكذلك سائر الحيوانات والنباتات التي لا يمكنها العيش بلا ماء. .

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٠.

- صورة العرش العظيم بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾(١).

- صورة الخلق البشريّ، وهي بدورها تنبثق عنها صور كثيرة ومنها:

● صورة «الماء الدافق» أي مني الرجل الذي يتجمع في عظام ظهره الفقرية، وماء المرأة الذي يتجمع في عظام صدرها العلوية. وبواسطة الرباط المقدس الذي يربط بينهما، وهو الزواج، يتم اجتماع الرجل والمرأة، وعلى الكيفية التي يلتقي ماؤه بمائها (المنيّ بالبويضة) يبدأ تكوين بذرة الخلق الأدميّ.

● صورة الجنين في تخلّقه خلال المراحل التي يمرُّ بها في بطن أمه، وما يرافق الحمل من تفاعلات داخلية ومؤثرات خارجية من شأنها أن تؤدي إلى حفظ الجنين أو إسقاطه.

● صورة الولادة والكيفية التي يخرج بها المولود الجديد، إذ هو يتكيّف وحده - وبأمر الخالق العظيم - في كل موضع يمرّ به خلال نزوله، دون أن يكون للأطباء أي دور بتاتاً في هذا التكيّف.

● صورة الطفل وقد خرج إلى هذه الحياة الدنيا بشراً سوياً، وعلى هذه الصورة التي أحسن الخالق المصور في إبداعها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

● صورة الرجل وقد صار إنساناً في هذه الحياة، وصورة المرأة وقد صارت إنسانةً في هذه الحياة، ليكون التفاعل الذي تقوم عليه الحياة..

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

أرأيت إلى هذه الصور التي تختزلها ثلاث آيات في «سورة الطارق» بقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾..

أجل! أرأيت إلى هذه الصور التي لو شئت أن تطَّلع على أبحاث أهل العلم فيها، للقيت في وصفها تعباً، ولامتلأت من أسرارها عجباً؟!. وقد يلزمك سنوات طويلة دون أن تحيط بكل موضوعاتها وتفصيلاتها؟!.. بدليل أن الموضوعات التي تتعلق بتكوين الإنسان الجسديّ ما تزال مفتوحة للنظر فيها، واكتشاف أشياءَ جديدةٍ عنه، يظهرها العلم في تقدمه المستمر..

ولا يقتصر تعدد الموضوعات والصور على مطلع «سورة الطارق» وحده، إذ كل ما تبقى من هذه السورة المباركة يحمل أيضاً من الموضوعات والصور ما يملأ أسفاراً عديدة، شأن هذه السورة كشأن سائر سور القرآن الكريم التي تمتلىء بما يعجز الإنسان عن الإحاطة به بصورة شاملة وتامة. والسرُّ في ذلك أنها كلمات الله ـ عزّ وجلّ ـ وكلمات الله لا تنفد، بما يؤكده قوله العزيز: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢). ولذا نرى أن كل صورة تحوي موضوعات عدة، كما أن كل موضوع يحوي صوراً عدة، لا حصر لها. الله أكبر.. إن قلوب المؤمنين لتخشع حقاً،

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

وجلودهم لتقشعر فعلاً وهم يستمعون إلى كلام الله - عزّ وجلّ - في هاتين الآيتين المباركتين، فيدركون كم يحوي هذا القرآن العظيم بين دفّتَيْهِ من دعوةٍ للإنسان كي يغوص في أعماقه، ويفيد من فضله ومكرماته، كما يدلنا عليه أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب ﴿كرم الله وجهه﴾ وهو يقول في فضل القرآن: «واعلموا أن هذا القرآن هو الناصحُ الذي لا يغشُّ، والهادي الذي لا يضلُّ، والمحدّثُ الذي لا يكذب. وما جالسَ هذا القرآنَ أحدٌ إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادةٍ في هدى، أو نقصانٍ من عمًى. واعلموا أن ليس على أحدٍ بَعْدَ القرآن من فاقةٍ، ولا لأحدٍ قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم[1] فإنَّ فيه شفاء من أكبر الداء: وهو الكفر والنفاق، والغيّ والضلال. فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه، إنه ما توجّه العباد إلى الله تعالى بمثله. واعلموا أنه شافِعٌ مُشَفَّعٌ، وقائلٌ مصدَّق». أجل إن أمير المؤمنين علياً ﴿كرم الله وجهه﴾، وبعدما استنطق القرآن، يدعونا إلى أن نكون من أتباعه، أي من العاملين على معرفة ما فيه. وإذا كانت كلمات الله تعالى في هذا الكتاب المبين لا يمكن للعقل البشريّ أن يحدّ موضوعاتها وصورها، إلاّ أن على المفكر بذل الجهد لمعرفة ما يمكن معرفته منه، وهذا لا يكون إلا بالتفسير الموضوعيّ.

لقد حاولنا بهدي من الله تعالى، وببركة رسوله الكريم أن نفسر القرآن بطريقة «التفسير الموضوعيّ» فجاء في إثني عشر مجلداً تناولت كثيراً من موضوعات هذا الكتاب المبين. وهي في الحقيقة ليست إلاّ

---

(١) اللأواء: الشدة.

موضوعات محدودة بالنسبة لعلمنا المحدود، وقليلاً من كثير لا يستطيع أحد في العالمين إحصاءه. وإنّ كان باستطاعة كل من يقدر على التفسير الموضوعيّ أن يكتشف موضوعات غيرها، وأن يبحث في آفاق جديدة لعوالم كتاب الله المجيد. بل ويظل بإمكانه أن ينهل من هذا المعين العذب الذي لا ينقطع ما دام القرآن قائماً أبداً، وإلى ما شاء الله تعالى.. والتفسير الموضوعيّ قد يبدأ من القرآن، ويأتي التفسير موضوعياً من القرآن نفسه. وقد يبدأ من الواقع لمعالجة موضوع معين، فيستنطق هنا المفسِّرُ القرآنَ ليعطيَ حكمه على هذا الموضوع، باعتبار أن القرآن الكريم هو الصامت الناطق، فإن حاولنا تفسيره بطريقة التفسير التجزيئي كان هو الصامت، أما إن أردنا تفسيره موضوعياً فكان هو الناطق، بل ومعطي الأحكام التي تعالج شؤون الحياة برمتها، بل وشؤون الآخرة في ما هو مطلوب من الإنسان معرفته، والاهتداء إليه.

وهذا ما يجعلنا نؤكد أن التفسير الموضوعيّ إنما ينطلق دائماً من الواقع، حتى ولو كان الموضوع الذي يبحثه غيبياً، وقد تناوله القرآن في جملةٍ من آياته وأدلته، وشواهده، كما هو الحال مثلاً في «الجنة» التي عرَّفها الله تعالى لمستحقيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات من عباده. فهي في الحقيقة أمر غيبيّ لا نحسّ واقعها ونحن في دنيا الأرض، ولا نتذوق طعم فاكهتها وثمراتها، ولا نشعر بأنهارها تجري من حولنا، ولا بأطيارها تشدو على أفنانها. ولكنَّ وصفها كما جاء به القرآن الكريم يجعلها ماثلة أمام حواسنا ومشاعرنا، لأنه ملتحم بواقعنا، إذ إننا نعرف ما هي الأنهار الجارية، والبساتين الغناء، والظلال الوارفة، ونعرف أنواعاً كثيرة من الطيور التي يؤكل لحمها

والتي لا يؤكل لحمها... كل هذا الواقع الذي نعيشه حالياً يعطينا القرآن المبين صوراً عنه في الجنة تلامس أحاسيسنا ومشاعرنا، وتجعلها تتآلف مع واقع هذه الحياة التي نحياها في دنيانا. ومن تلك الأوصاف التي يبيّنها لنا القرآن الكريم عن الجنة قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1]؛ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣)﴾[2]؛ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[3]، أي أن الثمار التي يرزقونها في الجنة

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

تتشابه في أنواعها وألوانها وروائحتها مع ما هو موجود على الأرض التي كانوا يعيشون واقعها من قبل عندما كانوا في الحياة الدنيا.

ومَثَلُ النار كمثلِ الجنة - وقد جاء البحث عنهما في كتابنا «الأمثال» من خلال التفسير الموضوعيّ - إذ يعطينا القرآن الصورة الحسية عنها كما نعرفها في واقعنا الحياتيّ، وهو ما يدل عليه أيضاً قول الرسول ﷺ: «**أهونُ عذاب أهل النار جمرةٌ في أخمصِ القدمين يغلي منها الدماغ**»[1]. . .

وهذا هو الحال بالنسبة لسائر الأمور الغيبية التي تتصل وتلتحم بالواقع الذي نعيشه نحن بأجسادنا ومأكلنا ومشربنا.

يستفاد من ذلك كله أنه يجب علينا أن ننطلقَ دائماً من الواقع كلما أردنا أن نلج فهم التفسير الموضوعيّ، وأن نعيَ هذا الواقع ونفهمه فهماً دقيقاً لأنه أصعب بكثير من التفقّه في الأحكام الشرعية المتعلقة به. . أجل إن التفقّه في فهم الواقع يتطلب دقةً متناهية، لأنه لو فهمنا الواقع بشكل خاطىء، وطُبِعت صورته في أذهاننا، ثم ذهبنا نتلمس من القرآن الأدلة الشاهدة على صحة الواقع أو عدم صحته لوقعنا في الخطأ الفادح. والسبب في ذلك أننا نكون قد أتينا بالأدلة التي تعالج الواقع الخاطىء الذي انطبع في أذهاننا، وليس الواقع الذي نعيشه على حقيقته، ونريد حكماً لمعالجته. فيجب دائماً في التفسير الموضوعيّ الانطلاق من الواقع المعاش حقاً وصدقاً، كي يكون الفهم صحيحاً وسليماً، وتكون المعالجة ناجحة ومفيدة.

والتفسير الموضوعيّ لا يعني أبداً أن بإمكان الإنسان تبيينَ القرآن

---

(١) أورده البخاري ومسلم والترمذي.

أو تأويلَه، وإنما مجرد تنسيق وجمع كل ما يتعلق بموضوع معين، وإعطاء ما يمكن إعطاؤه حول هذا الموضوع من خلال ما ورد في القرآن كله. . . ولذلك كان الأمر بعيداً عن معاني تبيين القرآن، لأن الإنسان ـ ومهما علا شأنه في العلم والمعرفة ـ يبقى غير معنيٍّ بهذا التبيين، لأن تبيين القرآن مقصورٌ على القرآن نفسه، وعلى رسول الله ﷺ مما يستدعي بالضرورة توضيح ماذا يعني التبيين، وماذا يعني التأويل، والفارق بينه وبين التفسير. .

التبيين:

يعبّر في اللغة عن التبيين بمفردات عديدة مثل: بيّن وتبيّن واستبان وبيان. وكل منها تدل على معنى خاص بها. وهذه أمثلة من القرآن الكريم على ذلك، قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾(1). وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾(2). وقال تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(3). وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾(4).

والآيات القرآنية قد تكون آيات مُبيَّنات أو آيات مُبيِّنات. فالآية المبيَّنة اعتباراً بمن بيَّنها، والمبيِّنة اعتباراً بما تبيِّنه هي، لأن البيِّنة هي الدلالة الواضحة سواء أكانت عقلية أو محسوسة، لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(5)، وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ

(1) سورة الحديد، الآية: ١٧.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(3) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

(4) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(5) سورة هود، الآية: ١٧.

﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾[1]، ومن هنا سمي الشاهدان بالبيِّنة من البيِّنات لقول رسول الله ﷺ: **«البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»**.

أما البيان فهو الكشف عن الشيء، ويُسمَّى ما بُيِّن به بياناً كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[2]. والبيان أعم من النطق، وقد اختص به الإنسان، ولذلك يسمى البيان كلاماً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾، كما يسمى ما يشرح به المجمل والمبهم من الكلام بياناً كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾[3].

وهذا كله يدلنا على أن التبيين في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من عند الإنسان، بل هو من عند الله تعالى كما يظهر من الآيات المبيِّنة، ومن كلام رسول الله ﷺ عندما بيّن معانيَ الآيات التي تحتاج إلى التبيين، وكان تبيينه لها بوحي من الله عزّ وجلّ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[4]. وهذا يؤكد أن بيان القرآن كله إنما هو من عند الله - تبارك وتعالى - سواء في متن الآيات القرآنية المبيِّنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾[5]، أم بواسطة رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.
(٣) سورة القيامة، الآية: ١٩.
(٤) سورة النجم، الآيتان: ٣ و٤.
(٥) سورة القيامة، الآيات: ١٧ ـ ١٩.

تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1]. فالله سبحانه وتعالى قد أنزل هذا الحكم في إرث النساء، ولكن السّنة النبوية الشريفة هي التي بيّنت كيفية تطبيقه، وكذلك الأمر في الصلوات فقد نزلت من الله العزيز الحكيم هذه الفرائض بأوقاتها، وأما كيفية إقامتها، وعدد ركعاتها فهي عن النبيّ (ﷺ)، عندما قال عليه الصلاة والسلام «**صلوا كما رأيتموني أصلّي**» إلى غير ذلك في كثيرٍ من الأحكام بل والمفاهيم التي كان يبينها سيدنا رسول الله، مما يقطع به الحكم، وبصورة لا تقبل أي جدل بأن رسول الله ﷺ كان مبيّناً للقرآن بوحيٍ من ربه عزّ وجلّ.. وكذلك ينفي القول بأن رسول الله ﷺ كان مفسراً للقرآن، لأن التفسير يدخل فيه الاجتهاد.

لذلك كان جديراً بالمسلمين وعيَ هذه الحقيقة بعدما ذهب بعض العلماء الأجلاء إلى القول تارةً بأن الرسول ﷺ كان مفسراً، وتارةً إلى أنه كان مجتهداً. وربما سبب ذلك كان عدم الانتباه إلى الفارق الكبير بين تبيين القرآن وتفسيره.. لأنه محال على رسول الله ﷺ أن يكون مفسراً أو مجتهداً، وهو الذي بعثهُ ربُّهُ تعالى بالهدى، وليبيّن للناس ما نزل إليهم - لا ليفسر مفردات وألفاظ القرآن - وإلاّ لو اعتبرنا صحيحاً ما ذهب إليه أولئك العلماء والمجتهدون لخالفنا منطوق القرآن نفسه، ومنطوق الوحي، بل ودور الرسول ﷺ بأنه بشير ونذير من رب العالمين.

(١) سورة المائدة، الآية: ١٩.

التفسير والتأويل:

الفَسْر في اللغة: هو إظهار المعنى المعقول.

والتفسير هو ما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها. ولذا يقال: فسَرتَ (المخففة) أو فسَّرت (المشددة) عندما يكون القصدُ توضيحَ اللفظ، والمرادَ منه.. والجدير بالذكر أن لفظة «تفسير» قد وردت في القرآن الكريم مرةً واحدة فقط.. وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]. ويختلف التفسير عن التأويل. فبينما يؤدي التفسير إلى بيان المراد باللفظ، يؤدي التأويل إلى بيان المراد بالمعنى، وما سيؤول إليه هذا المعنى فيما بعد..

وقد يجتمع التفسير والتأويل لإبراز ما يحتوي اللفظ من المعاني، كما هي الحال في تفسير الرؤيا وتأويلها، أي ما سوف تؤول إليه الرؤيا، كما عبَّر عن ذلك القرآن الكريم بلفظة «يَعْبرون» في الآية ٤٣ من «سورة يوسف».. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، أي أفيدوني عن معنى هذه الرؤيا وما يمكن أن تعبِّر عنه من وقائع وأحداث..

تلك كانت رؤيا ملك مصر، عندما رأى في المنام ما حكى عنه النص القرآنيّ فجمع الملك ملأه من أهل العلم والمعرفة وطلب إليهم أن يفسّروا له تلك الرؤيا وأن يخبروه بما يمكن أن تؤول إليه، إن كانوا يستطيعون تأويل الرؤى.. ولم يقدر أحَدٌ على ذلك إلاَّ يوسف عليه السلام

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

فقد عبَّر عن الرؤيا وأخبر الملك عما سيحل في بلاده من الجفاف والضيق الاقتصاديّ، وما عليه أن يفعل لكي يعبر تلك الضائقة. وكان ذلك بوحي من الله ـ عزّ وجلّ ـ أوحاه إلى يوسف عليه السلام.

وإذا كانت كلمة «تفسير» لم ترد إلاَّ في آية واحدة من كل القرآن الكريم، فإن سوراً عدة قد وردت فيها لفظة «تأويل». وكل سورة كان للتأويل فيها موضوع أو موضوعات تختلف عن موضوعات التأويل في سورة أخرى. ويمكن أن نسوق على ذلك الأمثلة التالية:

١ ـ كان يوسف عليه السلام ما يزال غلاماً عندما رأى مناماً، فجاء أباه يخبره به... ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾(١). قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾.

وبالفعل فقد حصل ما توقع الأب، إذ كان كيد إخوة يوسف عليه السلام له بأن رموه في بئر، ولكن الله تعالى نجاه وعاش في مصر بعيداً عن أهله في فلسطين.. وكانت رؤيا الملك، وعبَّرها له يوسف، فولاَّه الملك وزيراً عنده، حينها جَمعَ إليه أبويه وإخوته. فلما دخلوا جميعهم عليه رفع أبويه على العرش، فانحنى له أبواه وإخوته انحناء تقدير ومحبة، فعندها قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾(٢). أي هذا ما آلت إليه تلك الرؤيا التي أخبرتك بها عندما كنت صغيراً.. إذ عنى بـ«أحد عشر كوكباً» إخوته، وعنى بـ«الشمس والقمر». أمَّهُ وأباه، وعنى بالسجود له انحناءهم أمامه وهم

(١) سورة يوسف، الآية: ٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

يحيّونه على عادة أهل ذلك الزمان تعبيراً عن الإكرام وزيادة في الاحترام . .

٢ ـ وهذه خلاصة أحداث شهدها موسى عليه السلام وهو يرافق أحد عباد الله الصالحين (وهو الخضر عليه السلام كما قال المفسرون) وتأويل تلك الأحداث التي اعتبرها موسى عليه السلام مستهجنة، مستغربة حتى بانت له الحكمة منها:

أ ـ فقد رآه يعيب سفينة ركبها معه، حتى يوقفها في مكانها، فلا تمخر عباب البحر . .

ب ـ ورآه يقتل غلاماً بعد أن نزلا من السفينة، دون أن يؤذيه الغلام بشيء . .

ج ـ ورآه يهدم جداراً ثم يبنيه بدون أجر وبدون طلب من أحدٍ في بلدة استطعما أهلها وهما يمران فيها، فأبوا أن يضيّفوهما . . وكان موسى عليه السلام كلما رأى شيئاً من ذلك يستغرب، ويحتج على العبد الصالح، حتى لجَّ في الأمر، فقال له عندها العبد الصالح: سوف أنبئك بتأويل تلك الأحداث على أن لا تصاحبني بعد ذلك:

ـ أما السفينة فكانت لمساكين يعيشون منها، وكان وراءهم في البحر ملك غاصِب في حربٍ مع عدوه، لا يجد سفينة صالحةً إلاَّ ويستولي عليها ظلماً وعدواناً، فأردت أن أعيبها كي لا يأخذها ذلك الملك، فيقوم أصحابها بعدها بإصلاحها وتبقى لهم وسيلة للكسب.

ـ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين، وكان طائشاً متهوراً وعلم الله أنَّ الكفر قد عشعش في نفسه، وخوفاً من أن يرهق أمه وأباه، ويوقعهما في الكفر، فقد أمرني ربي أن أقتله، حتى يبدلهما الله خيراً منه.

ـ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين وكان على وشك الانهيار وكان تحته كنز قد خبأه لهما أبوهما قبل وفاته، فإن وقع هذا الجدار فسوف يظهر الكنز ويأخذه الناس، لذلك قمت بهدمه وإعادة بنائه حتى يبقى الكنز مخفياً، فيستخرجانه عندما يبلغان سن الرشد، وينتفعان به.. وكل ما فعلته لم يكن عن أمري ومن تلقاء نفسي بل مما أمرني به الله العزيز الحكيم ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

٣ ـ ومن التأويل في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(٢).. أي أن رد الأمر المتنازع فيه إلى كتاب الله لبيان حكمه، وإلى رسول الله ﷺ فيما بيّن عنه هو خير لكم ليكون المآل سليماً، وصحيحاً بحول الله تعالى وحكمته، فما يدلكم عليه القرآن، وسنة الرسول هما الأجدرُ بالاتباع لأن الرجوع إليهما سوف يجعل نتيجة النزاع بإذن الله الخبير العليم خيراً.

٤ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٞ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٣).

أي أن في القرآن آياتٍ محكمات، واضحاتِ الدلالة والمعنى

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧.

فلا تحتاج لأي تفسير أو تأويل لأنها تحمل معنىً واحداً، وهي أم الكتاب، كما أن فيه آياتٍ متشابهاتٍ تحمل أكثر من معنى، فهي لا تُفهم معانيها، ودلالاتُها، ولا مقاصدُها البعيدة إلاَّ بقرائن، قد تترتب عليها أحداث وأحكام في المستقبل، لأن معرفة المستقبل داخلةٌ في علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك فإن التأويل هو الذي تؤول إليه الأمور فيما بعد، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، لأنه يدخل في المآل والمصير.

وعلى هذا فإن معنى الآية الكريمة يكون بأن في القرآن آياتٍ محكماتٍ لا تحتمل التأويل، وأُخرَ متشابهاتٍ هي التي تحتمل التأويل. فأما الذين في قلوبهم زيغ وأمراض فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، إما لجهلهم أو لوقوعهم في اللبس والشبهات، وإما لأنهم يريدون الدسَّ على معاني القرآن وتحميل المعنى أكثر ما يحتمل بحسب أغراضهم الدنيئة، ولذلك يحاولون تأويله بما يوافق مقاصدهم الخبيثة. وكل ذلك ابتغاء الفتنة، والصدٍّ عن سبيل الله. بينما في الحقيقة لا يعلم تأويل القرآن إلا الله تعالى، لأنه وحده ـ سبحانه ـ يعلم الغيب وما ستؤول إليه الأمور التي تشير إليها بعض الآيات المتشابهات إشاراتٍ لا يستطيع الإنسان إدراكها قبل حصولها. . أما المؤمنون الراسخون في العلم فإنهم يأخذون بالمحكم منه والمتشابه دونما أي تأويل، لأنهم يؤمنون ويقولون: إنَّ كل ما أنزل في هذا القرآن هو من عند الله ربنا تبارك وتعالى، وقد آمنا بالمتشابه منه ولو لم نعلم معناه على الوجه الواضح تماماً، كما آمنا بالمحكم منه لأنه كله من عند ربنا. وما يعلم هذه الحقيقة، ويتعظ بها إلا أصحاب العقول النيّرة، الذين يؤمنون حق الإيمان، ولا يبتغون الفتنة، ولا يبغونها عوجاً.

لذلك فإن الآية (٧) من سورة آل عمران تؤكد بصورة قاطعة أن تأويل القرآن لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ذلك أن (الواو) في عبارة «والراسخون في العلم» هي استئنافية، وليست (واو العطف) فينتهي المعنى المفيد عند: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ليبدأ معنى مفيد آخر باستئناف القول: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي بكلٍّ من المحكم والمتشابه لأنه من عند ربنا. فالراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، لأن تأويله هو في علم الغيب الذي اختص به الله تعالى. ولكن الراسخين في العلم وبما حباهم الله تعالى من المعرفة يقولون: آمنا بالمحكم الذي لا يحمل إلا معنىً واحداً، وبالمتشابهه الذي يحمل أكثر من معنى.

فهذه الأمثلة التي أوردناها في الآية ١٠٠ من سورة يوسف وفي الآية ٥٩ من سورة النساء. والآية ٧ من سورة آل عمران تبين معنى التأويل، وتدلُّ على أن أي شيء يحدث وتترتب عليه نتائج في المستقبل، لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. وأما الذي يتحقق بفعل الإنسان فإنه يقف عند حدِّ التفسير ـ دون أن يتعداه إلى التأويل ـ، أي تفسير الحدث بما آل إليه، ووفقاً لما أخبر عنه في السابق.

ويكفي الإنسان أن يقصر بحثه على تفسير القرآن الكريم، وأن يترك التأويل والتبيين لأن مناطهما بالله تعالى ورسوله الكريم.. ومن يقتحِم أبواب التفسير القرآنيّ، ويلج طريق التفسير الموضوعيّ، فسيهتدي إن شاء الله العليم الحكيم إلى ما فيه نفع الأمة، ومصلحة العباد، وذلك من خلال معالجة القضايا المستجدة، والمسائل المعاصرة، والأمور الحادثة بما يعيد إنسان العصر إلى روحانية الإيمان، وينتشله من عالم الماديات التي أفسدت عليه فطرته وحياته.

ويقيناً إن شريعتنا الغراء لا يعوزها شيء، وكفى بشرعنا أنه من عند الله تعالى. فإن حصل التقصير فمردُّه إلى نفوسنا، وإلى تخاذلنا وتوكلنا على غيرنا ـ من غرب وشرق ـ حتى باتت أفكارنا شبه مشلولة عن استنباط الحكم الشرعيّ كلما دعت إليه الحاجة في حياتنا المعاصرة.

وإن التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم ـ وحده ـ قادر على أن يتوغل، أفقياً وعمودياً، في شتى أمور الحياة وشؤونها لكي يوجد الأفكار الرئيسية التي تعبِّر عن وجهة نظر الإسلام في كل شيء... ففي الاقتصاد يجب أن نستخرج ونستنبط من الكتاب والسنة النظام الاقتصاديّ كما يعالجه الإسلام، ومثله النظام الاجتماعيّ الذي تقوم عليه علاقة الرجل بالمرأة، أو النظام السياسيّ الذي تقوم عليه الدولة والحكم.. وكذلك الأمر في مجال العلاقات الدولية، والسياسة الدولية، وكل ما يتعلق بالناس، أفراد وجماعات، في علاقتهم مع ربهم ـ جلَّ جلاله ـ وفي علاقاتهم مع بعضهم البعض، وقبل كل شيء في تربية أنفسهم، وتنقية قلوبهم.. ولن نقدر، على كل حال، أن نفيد من القرآن الكريم إلاَّ ما تمكّننا به قدرتنا وطاقتنا البشرية، وعلمنا المحدود بالقياس إلى علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه هو الحكيم الخبير، وقد أحاط بكل شيء علماً..

وإننا نأمل فيما قدمناه أن نكون قد أعطينا فكرةً واضحةً عن السور القرآنية، التي تقيم سُوراً منيعاً وسياجاً متيناً لصورٍ وموضوعاتِ الكتاب المبين، بما فيها القصص القرآنيّ الذي يشكل نسجاً خاصاً بموضاعاته وصوره التي تنبىء عن حياة تلك الثلة الواعية من الأنبياء والرسل، والتي تساعدنا على حلّ ما يواجهنا في حياتنا، شرط أن

نتخذ منهم القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة. وهذه القصص هي إحدى موضوعات القرآن الكريم، رغم أن القصة الواحدة قد ترد في عدد من السور، وأحياناً يكون جانبٌ منها متمِّماً لموضوعٍ غير متعلق بالنبيّ الذي تحكي عنه القصة، كما جاء في سورة غافر، عندما تحدَّث مؤمن فرعون عن يوسف عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(1). كما أن صورة أحد الأنبياء لا تكتمل في سورة واحدة، بل نحتاج لنعطيَ الصورة التامة عن هذا النبيّ إلى الأخذ من سورٍ متعددةٍ كما هو الحال عن حياة آدم ونوح عليهما السلام - مع أنه يوجد سورة كاملة عن نوح - وحياة إبراهيم وهود وصالح عليهم أفضل الصلاة والسلام. بل وقد ترد القصة عن حياة نبيٍّ في آيتين كريمتين وفي سورتين من القرآن المجيد كما هي الحال في قصة إدريس عليه السلام... والقرآن كله، رغم أنه كتاب الله للناس كافة فإنه يروي حياة النبيّ محمد ﷺ في مجمله، رغم ما يحتوي عليه هذا الكتاب من بيان للناس عن شؤون الكون والحياة والإنسان، إذ لا نجد سورة من سوره إلا وفيها خطاب للنبيِّ محمد ﷺ من ربه، كي يعيش الوحي الذي يُنَزَّلُ عليه، ويبلغه للناس بمفرده ومجمله، حتى يكتمل في النهاية التبليغ، وتكتمل الرسالة الإسلامية بتمامها، ولا يعود من بعدها حجة للناس على الله، أو حجة للعباد على الخالق...

---

(1) سورة غافر، الآية: ٣٤.

إدريس عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

[سورة مريم، آية: ٥٦ ، ٥٧]

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

[سورة الأنبياء، آية: ٨٥]

إدريس عليه السلام

دعي إدريس بهذا الاسم لأنه كان كثير الدرس، وكان ملكاً عظيماً، وحكيماً فريداً في عصره. ولد بمصر، وأرسله الله نبياً ورسولاً إلى نسل قابيل ليرجعوا عن غيّهم وكفرهم، ويتوبوا إلى الله، ويسيروا في طريق الحقّ والفضيلة. فلم يصدّقه أكثرهم، فشهر عليهم الحرب، وراح يجاهدهم في سبيل الله، حتى مكّنه الله منهم، وغلبهم على أمرهم. وبذلك كان إدريس عليه السلام أوّل مجاهد في سبيل الله.

وقيل إنه أول من اهتمّ بعمارة المدن، وجمْعِ طلاب العلم، وإكرامهم، ووضعهم في أرفع المنازل، وأن الله تعالى أنزل إليه ثلاثين صحيفة، فاطّلع من جرائها على معارفَ كثيرةٍ عن العالم والكون.

بل وقيل إنه أوّل من خطَّ بالقلم، واخترع الخياطة ولبس ثياباً من النسيج، وأنّه هو الذي صبَّ الرصاص وصهر المعادن فكان ذلك دليل خبرته ومعرفته بكثيرٍ من العلوم.

نوح عليه السلام

نــوح عليه السلام

مسيرة الإنسان على هذه الأرض طويلة، وقد رافقتها الرسالات التي أنزلها ربُّ العالمين لبني البشر عبر صفوة من عباد الله، هم الأنبياء والرسل، ومن خلال ثُلَّة من أتباعهم، هم الأولياءُ الصالحون والمؤمنون الصادقون.. وقد كان ذلك رفقاً من الله تعالى بعباده، ورأفة بالإنسان الذي خلقه ورفعه ليسود جميع المخلوقات، بُغْية إيصاله إلى الغاية الكبرى وهي الإيمان بحقيقة وجود الله. وقد شاء الله أن يضطلع الإنسان بهذه المهمة، فخلقه وميَّزه بخصائص معيَّنة، تحقق استقرار هذه الحقيقة في ضميره، وفي نظام حياته، من خلال جهده الإنسانيّ ذاته.

وقد عانَى الأنبياء والرسل عليهم السلام مشقَّاتٍ في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله، ولاقَوْا ألوان العذاب، بل وما هو أشدّ من العذاب، القتل، ولم تَهُنْ عزائمُهُم، ولا لانوا ولا استكانوا.

ونوح عليه السلام قد يكون أول نبيّ حمل أعباء تلك الدعوة. فآدم عليه السلام هو أبو البشرية، ولكن لم يرد في القرآن الكريم أنه حمل رسالةً بعد مجيئه إلى هذه الأرض، وممارسته للحياة عليها. كان معلماً لأبنائه وحفدته، وهادياً إلى الله وإلى تطبيق ما يجوز وما لا يجوز في

مختلف نواحي سلوكهم ونواحي حياتهم البدائية، وعلى رأس ذلك كله عبادة الله عزّ وجلّ. حتى إذا طال بهم الأمد بعد وفاته، ضلّوا عن عبادة الله الواحد، فاتّخذوا لهم الأصنام آلهة.. اتخذوها في أول عهدهم أنصاباً ترمز إلى قوىً قدّسوها، قوىً غيبيّة أو مشهودة. ولكن مع الزمن نسوا الرمزَ وعبدوا الأصنام، فأرسل الله إليهم نوحاً يردُّهم إلى التوحيد، ويصحّح لهم تصوّرهم عن الله وعن الحياة والوجود.

والكتب السماوية السابقة تجعل إدريس عليه السلام سابقاً لنوح عليه السلام. ولكن بعض المفسّرين يستبعد ما ورد في تلك الكتب، ويعتبره لغواً في تكوين عقيدة المسلم، والغرض منه التحريف أو الإضافة. ولكن ما يقرّره القرآن الكريم ونأخذ به، هو أن نوحاً عليه السلام كان في فجر البشريّة. وقد ولد في العام الذي مات فيه آدم عليه السلام. وقيل إنه بُعِثَ وهو ابن خمسين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً. وقيل في عُمْره وفي بعثته إلى قومه غير ذلك، فاختلفوا فيه إذ قال بعضهم إنّه عمَّر ألفاً وسبعمئة سنة، وأوصل البعض الآخر عمره إلى ألفين وسبعمائةٍ وخمسين عاماً. وهو ابن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ النبيّ. وقد عمَّر طويلاً لأنه وجد في قوم كانوا طوال العمر. وطول العمر هذا يوحي بأن الجنس البشريّ كان قِلّةً في ذلك العهد، ومن دون أن تتكاثر كما تكاثرت في العصور اللاحقة، وكما هي تزداد تكاثراً حقبة بعد حقبة، كما يدل عليه عددُ السكان في العالم؛ ولعلَّ ما يدعونا إلى هذا النظر هو ما نراه في سنّة الله من الأحياء من طول العمر إذا قلّ العدد، كأن ذلك للتعويض والتعادل.. والله أعلم بذلك وما هي إلاّ نظرة من الناس وقياس!..

وكانت حياة قوم نوح عليه السلام غاية في البساطة، وبعيدة عن أيِّ

تعقيد. يعيشون ويعملون في أجواء الطبيعة النقية المعطاء.

وقد برزت شمائله عليه السلام وظهرت صفاتُه الفاضلةُ في أقواله وأفعاله منذ البدء، فكان رزين العقل، بعيد الأناة، طويل الصبر، آتاه الله طلاقةً في اللسان، ووضوحاً في البيان. يُجادل القوم بجلَدٍ، ويناقشهم برويَّة، يحمل في قلبه ولسانه قدرة كبيرة على الحجّة الدامغة، وقوّة فائقة على تصريف الأمور، وتدبير الشؤون.

حمل لواء الدعوة إلى الله، فأعرض عنه القوم. رغَّبهم في ثوابٍ يلاقونه، فلم يأبهوا لقوله، ولم يذعنوا لنصحه، وأنذرهم بالعقاب، يحلُّ بهم شديداً، فما كان منهم إلا أن عموا وصمّوا عن الوعيد والتهديد..

أما هو فلم يُبالِ بإعراض القوم، واندفاعهم في الضلال، بل أمعن في بذل الجهود وحثِّهم على وفاء العهود.. وكان كلما حَسِبَ أنه سيتغلَّب على ما في نفوسهم من العنت والجبروت، زادتهم دعوته إعراضاً عنه، وإصراراً على مواقفهم.. وزادهم فراراً ما كان يقذف به عقولَهم من حجج وبينات تدمغ باطلهم، فيهربون من الإذعان وينفلتون من المضايقة، وقد غلبت عليهم أهواؤهم، وازدادوا إمعاناً في الضلال، وإصراراً في العناد.

وكان نوح عليه السلام يناجي ربه، مبدياً الشكوى من عدم استجابة قومه للدعوة، مظهراً الأسى على مكابرة هؤلاء المعاندين، وبُعدهم عن صوت الهدى والحقّ. فهم لا يستحقّون الغفران، حتى يتوب الله عليهم ويخلّصهم من أوزارهم، ولا يفقهون معنى الإيمان، حتى يدركوا الحقيقة وتطمئن بها نفوسهم.. بل كانوا على خلاف ذلك تماماً حتى صاروا لا يطيقون رؤيته، فيسترون رؤوسهم، ووجوههم بالثياب إذا وقع

نظرهم عليه، ولا يتحملون سماع صوته، فيجعلون أصابعهم في آذانهم حتى يولِّيَ عنهم، ويذهب.. فيا لهم من قوم، ما أشدّ استكبارهم!. وقد وصف الله سبحانه وتعالى موقفهم ذلك في القرآن المجيد على لسان نوح عليه السلام بالقول الكريم: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾(1).

وما زال نوح عليه السلام يدأب في الدعوة دون ملل أو يأس، فيزيد في مساعيه، وينوّع في أساليبه، تارة بالجهر والجدال والنقاش، وتارة بالمداولة بين الإعلان والإسرار، ثم يشكو إلى الله فيقول: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾(2). يدعوهم في السِّر وفي العلانية، في الليل وفي النهار، دون أي جدوى أو فائدة مرجوةٍ. ولجأوا، لشدة ضيقهم منه، إلى السخرية به، والهزء بأقواله، بل ولم يتورعوا عن أذيَّته، والتنكيل به، فكانوا يضربونه حتى يخرَّ مغشياً عليه. وكان إذا أفاق لا ينقم على أحدٍ من مسبّبي الأذى له، ولا يجد ما يعوّض به آلامه إلا التوجّه إلى الله بالدعاء لهم بالهداية.. نعم كي يهديهم ربهم تعالى، لأنهم قوم جاهلون: «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»...

ولا نستغربَنَّ أن يقابل نوح عليه السلام الإساءة بالإحسان، والأذيَّة بدعاء الهداية ودفع البلاء. فهو نبيّ الله، وللأنبياء أخلاقٌ يرتفعون بها عن مساوىء أهل هذه الأرض وصفاتهم، ولهم مزايا يسمون بها إلى معارج الارتقاء.

---

(1) سورة نوح، الآية: ٧.

(2) سورة نوح، الآيات: ٨ ـ ١٠.

وعلى الرغم من كل ما أبان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني قومه من الحجج، وما أبدى من الأدلة، وما أظهر من الحلم، بل ومن الترغيب والترهيب، لم يجد منهم آذاناً صاغية، ولم ينصاعوا لحقيقة الإيمان طرفة عين، ولذلك رأى أن يعتمد أسلوباً آخر، وطريقةً جديدة قد تتلاءم مع قدرتهم العقلية، وتتوافق مع رؤيتهم الحسيَّة، وذلك من خلال التركيز على ما يحيط بهم من الكائنات، وما تحفل به حياتهم من الآيات، وكلها تدل على قدرة الله ووحدانيّته، فراح يوجههم إلى ذلك، ويدعوهم إلى النظر والتفكر قائلاً لهم:

ـ يا قوم!... ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾[1] فهم يرون نور القمر، وضياء الشمس، حقّاً... ثم يؤكد لهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله هو الذي خلق السموات، وجعل فيهنَّ القمر والشمس، يعطيان النور والضوء وأنَّ عليهم الإيمان به سبحانه، وعبادته بما يستحقه.. ولكنهم كانوا لا يحفلون به، ولا يهمهم من قوله شيء، حتى وإن دلّهم على طريق الهداية بما تراه عيونهم من الحقيقة الحسيّة المجردَّة...

ويشاء الله أن يلازمهم القحط والجفاف، فيجد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الحدث سبيلاً قد يردعهم عن غيّهم، فيدعوهم إلى استغفار ربهم، عَلَّهُ يُذْهِب عنهم هذه الضائقة، ويُنزل عليهم المطرَ، فيُنبتُ النباتَ في حقولهم، ويَنشُرُ البركةَ في ربوعهم.. وذلك في مصداق قوله تعالى، على لسان نبيه الكريم: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[2]. وزيادةً في استمالتهم، كان يحاولُ النفاذ إلى أفئدتهم

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٥ و١٦. (٢) سورة نوح، الآيتان: ١٠ و١١.

والضرب على أوتار حساسيتها وإثارة مكامنها، فيردف في الموعظة ويمنيهم بما تقرّ به الأعين، وتطيبُ له الأنفس: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[1].

فهو إذن يَعِد القوم بكل ما يتخيَّلون أو يتصوَّرون أنه مجلبة للسعادة.. بالمطر الغزير يتدفق أنهاراً ويروي السهول والبطاح، وبالأرزاق والأموال تفيض عليهم بالخيرات والبركات، وبالذرّيَّة تملأ عليهم حياتهم وتُسعِد وجودهم.. ولقاءَ ماذا؟ لقاءَ التوجّه إلى الله، بقلبٍ طاهر، ونيّةٍ صافية، واستغفارِهم على ما سلف من جهالتهم وضلالتهم.

أَبَعْدَ هذه الدعوة من يُسر؟ وبعد هذا التنكّر لها من خُسر؟

إن هذه القاعدة يقرّرها القرآن الكريم في مواضع متفرّقة، عندما يربط بين الاستغفار وبين الأنعم الوفيرة التي تعمّ البلاد والعباد... فقد جاء في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾.. وفي سورة المائدة يؤكد الله تعالى النتيجة الحسنة للإيمان والتقوى فيقول عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.. وأتى على نفس الغاية في سورة هود أيضاً: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾...

---

(1) سورة نوح، الآية: ١٢.

هذه القاعدة القرآنية، هي قاعدة تقوم على أسبابها من وعد الله ومن سنَّة الحياة. والواقعُ العمليُّ يشهد بتحقّقها على مدار القرون. والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد. فما من أمَّة قام فيها شرع الله، واتّجهت اتجاهاً حقيقياً لله بالعملِ الصالح والاستغفار المنبىء عن خشية الله الجبّار. . أجل ما من أمَّةٍ اتَّقت الله تعالى وعَبَدَتْهُ حق العبادة، وأقامت شريعته، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً، إلا وفاضت فيها الخيراتُ، ومكّن الله لها في الأرض، واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح. .

ولكن البشريَّة، على ما يبدو، والأمم التي تؤلفها، لم تسر على هدى هذه القاعدة القرآنية، فظل الخطر يداهمها وظلّ الشرّ يحيق بها. . وها هم قوم نوح عليه السلام، لا يعملون بما يدعوهم إليه نبيُّهم، بل، على العكس، هم يعصونه ويتَّبعون أهواءهم بغير حقّ، فيناجي نوحُ عليه السلام ربه: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾[1].

وتعلَّقوا بآلهتهم من الأصنام والأوثان، وقاموا يستحثُّون الهمم في الدفاع عنها، فقالوا فيما بينهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[2].

. . .فبعد كل هذا الجهاد الذي بذله نوح عليه السلام وبعد كل هذا التوجيه، وهذا التنوير، لم يكن من القوم إلا العصيان. . وكانت دعوتهم إلى نصرة آلهتهم بدلاً من نصرة نبيّ الله، وخصَّصوا من هذه

(1) سورة نوح، الآية: ٢٢.
(2) سورة نوح، الآية: ٢٤.

الأصنام أكبرها شأناً عندهم، إثارة للنخوة الكاذبة، والحمية الآثمة في نفوسهم.

وكانت فئة قليلة منهم، قد هداها الله إلى نورانيّة الحقّ المبين، فآمنت بدعوة نوح عليه السلام، ولكن لم يُعجب القومَ أمرُ هذه الجماعة الصغيرة، فسعوا مُراوغين لإفساد ما بينه وبينها، فأتوه قائلين:

ـ يا نوح!... ليس لك أو لصحبك علينا فضل في العقل أو الحجى، ولا في رعاية المصالح. ما أنت، وهُمُ إلا أبعد الناس عن معرفة الحقيقة، وإننا لنظنّكم كاذبين..

وأجاب نوح عليه السلام، وسفاهة القوم لا تخرجه عن حلمه، وقذارة قولهم لا تثير غير مألوف فِعْلِه، يردُّ عليهم بالقول:

ـ أرأيتم يا قوم لو أنني كنت على بيّنةٍ من ربي، وحجَّةٍ شاهدةٍ بصدق دعواي، وآتاني رحمةً منه وفضلاً.. فعمِّي عليكم القصد واشتبه الأمر، وحاولتم ستر الشمس بالكفّ، أو لمس النجوم بأيديكم، فهل أستطيع على الحق إلزامكم، أو أملك على الإيمان سلطاناً عليكم؟

وزادهم قوله إمعاناً في الخبث والدهاء، فقالوا له:

ـ يا نوح!.. لئن أردت لنا هداية وتوفيقاً، ولئن أردت لنفسك انتصاراً واعتزازاً، فما لك ولهؤلاء الأراذل من الناس، فأقصهم عن مجلسك، وأبعدهم عن حماك.. فنحن نربأ بأنفسنا أن نجاريَهم في اللسان، أو نجلسَ معهم في ذات المكان، أو نسيرَ وإيّاهم على ذات الطريق، أو نقترن معهم في الاعتقاد.. وكيف نتجاوب مع دين يستوي فيه السيد والمسود، والشريف والذليل، والأمراء والعبيد؟!..

بئس هؤلاء القوم، إن الدين عندهم طبقات اجتماعية، يقيمونها وفق أهوائهم، ويجسّدونها بحسب معتقداتهم! ولكن أنّى لنوح أن يدانيَهم في أفكارهم فإنَّه لا يستجيب إلاّ لنداء الحقّ، ولا يأبَهُ إلاّ لموقف الصدق، وإنه نبيُّ الله الذي يمقتُ الباطل وأهله..

إن هؤلاء القوم يطلبون منه أن ينبذ الجماعة التي انضوت تحت رحمة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، فمقابل أي شيء يُقصيهم عنه ويبعدهم؟. من أجل أن يدخل سادة القوم في الدين؟!..

لا! إنهم كاذبون ولا يريدون ذلك، فلو أنهم آمنوا حقّاً بدين الله، لَجَعلوا أنصاره إخوةً لهم.. ولكنهم يريدونها صفقةً كاذبة، ليُبعدوا عنه المؤمنين، فلا يبقى أحدٌ في ديارهم على غير ما يعبدون، ويتوهّمون...

ويدرك نوح عليه السلام مقصدهم الخبيث، فلا يردّ إلا بلسان الأنبياء:

- إنها دعوة لكم جميعاً لا فرق بين سيّد ومسود، ولا بين غنيّ وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم، إلا بالإيمان والتقوى، فمن كان إيمانه أقوى، كان له الفَضل، وكان عند الله وعندي من المقرَّبين...

ويتابع نوح عليه السلام ليكشف عن سوء نواياهم، فيقول لهم:

- يا قوم!... هَبُوا أنني أجبت مطلبكم، وحققتُ رغبتكم، وطردتُ جماعتي المؤمنة.. فعلى من أعتمد في نشر الدعوة؟ أأعتمد عليكم أنتم؟!.. لا والله، إنكم قوم كافرون، لا تريدون إلا الضلالة والبغي..

ويعود فيذكّرهم بالسلوك الإنسانيّ، وبما يترتّب عليه من آثار عند الواحد الديّان، فيقول: وهل أبادل الإحسان بالسيّئة، أو أقابل المعروف بالإساءة؟ وماذا يكون موقفي بين يديِ الله - عزّ وجلّ - إذا هم شكَوْا أمري إليه، وخاصموني على ما فعلت بهم؟ لا، لن أخالف أمر ربي، ولن أخذل جماعتي، اذهبوا مع غواية الشيطان، فما أنتم إلاّ قوم ظالمون.

لقد اشتدَّ الجدل بين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وبني قومه، واحتدم الخصام معهم، إذ جاؤوا يخادعونه، ويزيّنون له دُخولهم في دينه إن هو أبعد عنه الفئة الصالحة المؤمنة. ولكنها كانت لهم صفعة لم يتوقعوها منه، فقد آثر تلك الفئة عليهم، وجعلها أفضل منهم.. فهل يحتملونه بعد، وعلى رأسهم أسيادهم، وذوو النفوذ والجاه فيهم، أو يطيقون عليه اصطباراً؟!.

لقد أخذوا يسخرون منه كثيراً، ويسيئون إليه طويلاً.. ولكنه ظلَّ ماضياً في دعوته حتى رأوا أن يردّوا الحجة عليه بالفعل الماديّ، فطلبوا منه أن يحقّق ما أنذرهم به من تهديد، وأن يُحلَّ بهم عذابَ ربّه إن كان من الصادقين.. فقالوا له:

﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. فضاق بوقاحتهم وعنادهم ذرعاً، وانبعث من قلبه ذلك الدعاء على الظالمين، الضالين، الماكرين منادياً ربه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

وفي غمرة من اليأس بصلاح هؤلاء القوم، وفي نهاية المطاف، وبعد أن أوحى الله علاّمُ الغيوب إليه، أنه لن يؤمن من قومك إلا من

قد آمن، أكمل نوحٌ دعاءه لربّه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾(1).

فقد أُلهم قلب نوح عليه السلام بأن الأرض تحتاج إلى غَسْل يُطهر وجهها من الشرّ العارم الذي انتهى إليه القوم في زمانه. وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأن وجودهم يجمّد الدعوة إلى الله نهائياً، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين. وهي الحقيقة التي عبّر عنها نوح عليه السلام وهو يطلب من الله تعالى الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازاً كاملاً فلا يُبْقي منهم دَيَّاراً (أي صاحب دار أو دِيار).

نوح عليه السلام يصنع السفينة قبل الطوفان:

وأوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(2).

وأطاع نوح عليه السلام أمر ربه، فاتخذ مكاناً بعيداً، ثم حمل إليه الألواح والمسامير، وراح يعمل على بناء سفينته..

وراح القوم، كلمّا مروا به، ورأوه على ما هو فيه من عمل، يتضاحكون فيما بينهم، ويسمعونه استهزاءهم وهم يقولون: أصبح نبيُّنا نَجّاراً... وذلك من غير أن يتورع الوقحون عن مخاطبته قائلين:

---

(1) سورة نوح، الآيات: ٢٦ ـ ٢٨.

(2) سورة هود، الآية: ٣٧.

ـ لقد زعمت يا نوح أنك نبيّ ورسول، فكيف أصبحت اليوم نجّاراً؟.

ويزيد غيرهم تهكّماً عليه بقولٍ لاذع:

ـ ما هذه يا نوح؟ سفينة تصنعها على الرمال القاحلة في الصحراء اللاهبة، بعيدة عن البحار والأنهار؟ هل أعددت الخيل لجرّها، أم سوف تكلِّف الريح بحملها؟

أما هو عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان لا يأبه لما يقولون، ولا يُبْدي اهتماماً لما يُعلِنون.. بل كان يعرض عنهم، ويظل منصرفاً إلى عمله بجدٍّ واهتمامٍ بالغين: ينشر الألواح، ويصل الأجزاء، ويشدّ الخشب إلى بعضهِ البعض بمساميرَ يصنعها من الخشب نفسه، وهو يقيم الجوانب، ويوسع الردهات ويثبت السواري، ويربط الأشرعة حتى استوت السفينةُ مكينةً، عاليةَ البنيان، واسعةَ الأركان..

وجاء اليوم الموعود الذي لم يكن قومُ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ينتظرونه. فقد ساق نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى سفينته من كلٍّ زوجين اثنين، وذلك تحقيقاً لما أوحاه الله تعالى إليه من أجل ضمان بقاء النوع على الأرض، لأن الطوفان سيغطّي الأرض كلها، وسيُغرق الكائنات جميعها.. وإلاّ فما كان لحمل المؤمنين وكل تلك الأنواع من الحيوان والطير من معنىً!..

ثم نادى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقوم، ليأتوا إلى السفينة حيث النجاة من الغرق.. ولم يصدقوا، بل زادوا استهتاراً وسخرية بدعوته الخالصة للنجاة.. ولم يصعد إلى السفينة إلاّ من آمن به وتَبِعه، وكان عددهم قليلاً جداً..

وما إن وافى المؤمنون نوحاً، وأووا إلى السفينة، حتى فتح الله تعالى أبواب السماء بماء منهمر، وتفجَّرت الأرض عيوناً على أمرٍ قد قُدر، وبلغ السَّيلُ الزُّبى[1]، ثم جاوز القيعان إلى الربى.. ونظر نوح عليه السلام فيما حوله، فرأى ابنه قابعاً إلى ربوةٍ لا يتقدَّم نحو السفينة، فناداه: يا بنيّ اركبْ معنا، يرحمك الله.

فأجابه ذاك الابن الذي كان مزيَّف الإيمان، والذي كان يخفي في نفسه كفراً وزندقةً، قائلاً:

﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾.

فقال له أبوه عليه السلام:

﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

وراحت المياه ترتفع وتعلو، وهي تطفو رويداً رويداً على الكائنات والموجودات، في الوقت الذي كانت فيه الأمواج تفتح بين طيَّاتها للكافرين قبوراً، والزبد يخيط لهم أكفاناً... وبدأوا يُغالِبون الموت، ويُصارعون الموج، ولكن مصارعهم وحتوفهم كانت أقربَ إليهم من حبل الوريد.

وكانت عينا نوح عليه السلام لا تفارق ابنه كنعان وهو يخوض اللجج، ويدافع الموج، ويحاول أن يصعد الجبل حتى ينجوَ بنفسه من الهلاك... وناداه مرّة أخرى، أن يؤمن ويتوب ويتوجه إلى السفينة حتى يفوز بنصر الله، ولكن الابن كان قد غلب عليه الكفر، وطغى على قلبه الشرك.. فلم ينفع معه عطف الأب، ولم تُجْدِه منه شفقة ولا رحمة ـ لأن أمر الله تعالى هو الغالب ـ وكان أمره سبحانه أن

(١) الزُّبى: الرابية التي لا يعلوها الماء.

يهلك ذاك الابن الجاحد، فحيل بينه وبين النجاة، وأغرقه الله العليّ القدير مع المغرقين، وأهلكه مع المهلكين.

وكانت أمنية نوح عليه السلام أن يخلّص ابنه من الغرق المحقّق، ولو بالرغم منه، فنادى ربَّه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾. فأخبر الله تعالى ـ وهو وحده سبحانه يعلم ما في الضمائر والسرائر ـ نبيه نوحاً بما كان يجهله عن ابنه، إذ كان يظنه من المؤمنين، بينما هو في الحقيقة كافر، وذلك عندما وعظه ربُّهُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

أما زوجته فلم يهتم نوح عليه السلام لأمرها، ولم يستفسر عن حالها، فقد كان عالماً بما هي عليه من الكفر، والمؤمن ملزم أن يتبرّأ من غير المؤمن، وخاصة عندما يهديه فلا يستجيب له، وأن يقدّم الإيمان على اعتبارات الدم والقرابة، أو أيّة اعتبارات أخرى..

.. وظلّت الأمطار تتساقط، وترتفع فوق سطح الأرض، حتى غطت كل ما عليها..

ولم يعلُ على موجها إلاّ سفينة نوح عليه السلام، وهي تُقِلُّ تلك الفئة القليلة التي آمنت بحقيقة وجود الله تعالى، فنجاها إيمانها من الطوفان. وبذلك تحقق قَدَر الله على الأرض، وبلغ أمرهُ غايتَه، وطُويَت صحيفة القوم الظالمين...

وأخيراً كفَّت السماء عن المطر المدرار، وابتلعت الأرض الماء الهدّار، ورست السفينة على جبل الجوديِّ في أرض العراق، فهبط نوح عليه السلام ومن معه بسلام ساجدين شاكرين لله العليّ العظيم، وإليه بالقلوب والنفوس مُنيبين، بعد أن كان الامتثال والطوع من السماء

والأرض بالاستجابة لأمره تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وهكذا كان الطوفان، وكانت سفينة نوح عليه السلام، آيتين من آيات الله تعالى، دالتين على حقيقة الإيمان الكبرى التي حمل لواءها الإنسان منذ فجر التاريخ، فكانتا للمؤمنين خلاصاً، وللجاحدين المستكبرين عذاباً...

(١) سورة هود، الآية: ٤٤.

الأسلوب القرآني المعجز بوضوحه وقوته وجماله

يتجلَّى القرآن الكريم بفصاحته وبلاغته وسموه إلى درجة تفوقُ مستوى العقل البشريّ. وذلك ظاهرٌ في أسلوبه المعجز الذي فيه من الوضوح والقوَّة والجمال ما يُدهش البليغ من بني البشر، وهو الأسلوبُ الواضح الذي فَهِمَهُ العربُ المُشرِكون، فتواصَوا فيما بينهم على ألاَّ يسمعوا لهذا القرآن مخافةَ الإيمان، بل واللغو فيه لعلهم يغلبون أتباعه، كما ينبئنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١).

والأسلوب بحد ذاته معانٍ مرتبةٌ في ألفاظ منسَّقة.

ووضوح الأسلوب يكون ببروز المعاني المرادة من خلال التعبير الذي أُدِّيَتْ به.

أما قوّةُ الأسلوب فتكون باختيار الألفاظ الملائمة والمناسبة لأداء المعنى أي الألفاظ القادرة على إيصال المعنى الذي تتوخاه، وبما يحمله أو ينطوي عليه، وذلك من خلال تناسقها وتلاؤمها معه بالضبط. فالمعنى الرقيق يُؤدّى باللفظ الرقيق كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦﴾[2].

والمعنى الغليظ يؤدّى باللفظ القويّ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾[3].

والمعنى المحبّب يُؤتى له باللّفظ المحبّب، كما في قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[4].

وحين يكون المعنى مستنكراً يجب أن يكون اللفظ مناسباً لهذا الاستنكار، ومنه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[5]، ومنه أيضاً ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[6].

ومثل هذه القوة في الأسلوب، حيث الألفاظ تتناسب وتتناسق مع المعنى لا تجدها إلا في القرآن المبين، وفي القرآن وحده من دون سائر الكتب والأسفار.

جمال الأسلوب: هو الذي يجمع بين وضوح المعاني وقوّة

---

(١) سورة الإنسان، الآيتان: ١٧ و١٨.
(٢) سورة النبأ، الآيات: ٣١ - ٣٦.
(٣) سورة النبأ، الآيات: ٢١ - ٢٦.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.
(٥) سورة لقمان، الآية: ١٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

التعبير ويكون باختيار أصفى العبارات وأليقها بالمعنى الذي أدَّتْهُ، كالآيات التي أتينا على ذكرها، فهي بدون عناءٍ اختارت أصفى العبارات اللائقة بالمعاني التي أدَّتها.

وأنت ترى أنَّه قد صاحب تأديةَ المعاني بهذه الكيفيّة تعابيرُ تصوّرُها ألفاظٌ منتقاة، يظهر فيها النَّغَم الذي يحرّك النفس عند تصويرها. الأمر الذي يبعثُ في السامع المدرِك لعُمقِ تلك المعاني وبلاغة التعبير خُشوعاً عظيماً حتى كاد بعض البلغاء من العرب المشركين أن يسجدوا لها مع كُفرِهم وعنادِهم.

ثم إنَّ المدقّق في ألفاظِ القرآن وآياته يَجدُ أنّه يُراعي، عند وَضْع الحروف مع بعضها، الأصوات التي تَحدُثُ عند خروجها من مخارجها، فيجعل الحروفَ المتقاربةَ المخارج مُتقاربةَ الوضعِ في الكلمة أو الجملةِ، فلا يقول ـ مثلاً ـ: كالباعقِ المتدفّقِ، وإنما يقول: «كصيّب أُنزِلَ من السماء».

أما إذا حصل تباعدٌ بين مخارجها فيجعلُ الحروفَ المتقاربَةَ المخارج متقاربةَ الوضعِ في الكلمةِ أو الجملة، فلا يقول «الهعخع». وإنما يقول: «سُنْدسٌ خُضْرٌ».

وأمَّا إذا حصل التباعُد بين المخارج فيفصلُ بينها بحرفٍ يُزيلُ وَحْشَةَ الانتقال، ويأتي في نفس الوقت بحرفٍ محبَّبٍ ذي مخرجٍ خفيفٍ على اللسان، حسن الوقع في الأُذن، يتكرَّر كاللازمةِ الموسيقية، كمثل آية واحدة من آيات الكرسي التي وضع الله سبحانه وتعالى فيها أربعة وعشرين لاماً، وكان لكل لام منها جرسٌ لطيف لا يشبعُ السمعُ من تكراره. فانظر إلى تلك اللاماتَ في هذه الآية الكريمة إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ

وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

وهكذا تجدُ القرآن الكريم يُنْزِلُ كل معنى من المعاني في اللفظ الذي يليقُ به، وتراه منسجماً مع الألفاظ التي حولَهُ والمعاني التي معه، حتّى لا تجدُ أيّ نشازٍ في آيةٍ من آياته.

والذوقُ السليمُ هو العُمدةُ في معرفة حُسْنِ الكلمات وسلاستِها، وتَمْييزِ ما فيها من وجوهِ البشاعةِ أو مظاهرِ الجمال. لأن الألفاظ أصواتٌ: فالذي يطرَبُ لصوت البُلْبُلِ وينفر من أصوات البوم والغربان، ينبو به سمعهُ عن الكلمة إذا كانت غريبةً متنافرةَ الحروف، بينما التنافر في الحروف: هو نقلُ الكلمة إلى السمع بصعوبةٍ ويجدها اللسان ثقيلةً حين أدائها، ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم المكتسب بالنظر في كلام البلغاء وممارسة أساليبهم. ولذا تُوجَدُ في اللغة العربية ألفاظٌ مأنوسة، مألوفة، متداولة، يفهمها الناسُ ويتفقهون في وجوه استعمالها كلفظة «النوى» ومعناها (البعد)، و«النقع» وهو (الغبار المتصاعد في الفضاء)، و«العفاء» ومعناها (البلى)، وعبارة: و«همى الغيث»: إذا سقط بغزارة، ولفظة «الطلول» أو الأطلال ومعناها (ما تبقّى من آثار القوم بعد زوالهم)، والسعْدُ ومعناها (السرور واللذةُ والتنعمُ بالعيش).. وبمقابلها تجد ألفاظاً غير مأنوسة ولا مألوفة، ولا متداولة: مثل «الغطش» للظُلمة: وفيها يقول الشنفرى، وهو شاعر من صعاليك الجاهلية:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

دعستُ على غطشٍ وبغشٍ[1] وصحبتي

سُعارٌ وإرزيزٌ[2] ووجرٌ[3] وأفكلُ[4]

فهو قد استعمل الألفاظ التي لم تَصقُلها المدنيّةُ ولم يَسْتَسِغها الذوقُ. ونحن نختارُ منها لفظةَ: «غطش» التي أتى على ذكرها القرآنُ الكريم بقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾[5]. فترى هنا هذه اللفظة «وأغطش» قد سَمَتْ بِبلاغَتِها وبرزَتْ بأناقتها ففاقَتْ لفظةَ «وأظلم ليلها» وفي نفس الوقت لم يظهر عليها حين قُرِنت بلفظةٍ أخرى أنها ثقيلة منفِّرة أو غير مألوفةٌ ينفرُ منها السمع.

فالقرآن الكريمُ طِرازٌ خاصٌّ في التعبير والنَّظم، فهو لم يجيء على منهاج الشعر الموزون المقفّى وإن كنت تجده أحياناً يقول:

وَيُخْزِهِم وَيَنْصُرْكم عليهم وَيَشْفِ صُدُورَ قَومٍ مؤمنين

ويقول:

لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحبُّونَ

فمثل هذه الآيات ليستْ شعراً وإن كانت تصلُحُ أنْ تكون أبياتاً من الشعر على وزن الوافر والرَّمل.

ولم يأتِ القرآن، أيضاً، في تركيب آياته كلها على منهاج النثر

---

(١) أغطش: أظلم، وبغشٍ: المطر الخفيف.

(٢) البرد.

(٣) الخوف.

(٤) الارتعاد.

(٥) سورة النازعات، الآيات: ٢٧ ـ ٢٩.

المرسل كما ترى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[1]. وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[2] ولا هو على منهاج النثر المزدوج أو النثر المسجوع، وإن كنت تجده يبدعُ في النثر المسجوع فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣)﴾[3].

ثم تجدُهُ يتسامى في الازدواج فيقول: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦)﴾[4]. وأحياناً يُطيل الازدواج فيقول: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)﴾[5].

وهكذا.. فإننا لو تتبّعنا جميع تعابير القرآن الكريم، فلا نَجِدهُ ملتزِماً شيئاً مما في أسلوب العرب من شعر أو نثر على اختلاف أنواعها، ولذلك فإنه لا يضاهيه أو يماثله أي قول قاله البشر.

ومن إعجازه الظاهر أنك تلاحظ كل ما ذكرناه من الإعجاز عندما تقرأ عن النبيّ نوح عليه السلام أو عن أيِّ نبيّ يقصُّ علينا القرآنُ

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤١.
(٣) سورة المدثر، الآيات: ١ ـ ٣.
(٤) سورة التكاثر، الآيات: ١ ـ ٦.
(٥) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ٢٣.

الكثيرَ من أخباره. فتراهُ أحياناً يختارُ الأحرف التي تقرعُ الآذان عند سماعِها، مثل حرف القاف والراء ويحددها بثماني آيات فيقول:

في سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

وإذا تأملت هذه الآيات وأحصيت عدد أحرف «القاف» فيها لوجدتها سبعة أحرف تقابلها سبعةُ أحرف من حرف «الكاف» فيكون مجموع عدد الكافات والقافات أربعة عشر حرفاً، يرافقها اثنا عشر حرفاً من «الراء».

ومن وجود هذا التوازن الدقيق في الأحرف المشابهة للمخارج ترى الأذنَ تَتَقَبَّلُ هذه الأصوات بدويّها فيتهيَّأ للسامع أنها تحملُ معانيَ جليلةً رهيبةً، ولو لم يُنصت إلى المعاني. أما إذا أنصت وأصغى، فإنه يهلع من الخوف ويتأثر تأثراً غير خَفيّ..

هذا في القرآن الكريم... أما إذا سمعت الشاعر يقول:

وقبرُ حربٍ في مكانٍ قفر   وليسَ قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

وأردت أن تردّد هذا البيتَ من الشعر لتلَعثم منك اللسانُ ونفر منك السماعُ. كل هذا لأن الشاعر أكثرَ من حرف القاف والراء. فأين هذا من ذاك؟!..

ومن ناحية أخرى جاء القرآن الكريمُ في مكان آخر بنفس المعاني التي صوَّرها عن نوح عليه السلام وبنفس عدد الآيات الثماني أيضاً. ولكنه لوَّنها بتلوينٍ آخر ونسجَها بأكثريَّةٍ ساحقة من حرفي: «النون» و«اللام» فوَضعَ فيها أربعاً وعشرين (نوناً) وستَّ عَشْرَة (لاماً) أي بمقدار ثُلثي حروف «النون». ومع هذا التكرار الكثير تجد السلاسة والعذوبة عند تلاوة تلك الآيات الكريمة، لأن «اللام والنون» هما من الأحرف الليّنة الرقيقة على السمع.. كما يظهر في هذه الآيات من سورة الصافات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٧٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢)﴾.

ثم أنزل عدد الآيات إلى ستّ آيات في سورة «الأعراف» فقال عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

ثم أنزل العدد إلى ثلاث آيات في سورة «يونس» فقال عزّ وجلّ:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم تحدّى بإعجازه الهائل جميع المستكبرين فأوجز ما ذكره عن نوح عليه السلام بآيتين فقط وفي ثلاثة أمكنة: في سورة الأنبياء، وفي سورة العنكبوت، وفي سورة الحاقة، كما سنرى.

وكذلك أكثر سبحانه التفصيل عن نوح عليه السلام في سورة «هود» فذكره بأربع وعشرين آية. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي
مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ
ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ
أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ
جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن
شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ
يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ
ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن
يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ
بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ
وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ
كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ
﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ
وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ
ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ
فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا
تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ
يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ

وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ
وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ
غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن
مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن
مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

ثم أتى على ذكر النبيّ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة «المؤمنون» ونسج ألفاظاً تحتوي على نفس المعاني في سبع آيات فقال عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن
يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا
كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا
وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ
أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ثم أطال وفصّلَ في ست عشرة آية في سورة «الشعراء» فقال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

وأوجز كثيراً في سورة «الأنبياء» حيث قال عزّ وجلّ:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

وفي سورة «العنكبوت»، حيث قال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وفي سورة «الحاقة» حيث قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

ثمَّ خصَّصَ سورةً كاملة باسمه في القرآن الكريم هي «سورة نوح» عليه السلام، وهي مكية وعدد آياتها ثمان وعشرون آية:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
(١) قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا (٦)
وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ
وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ
إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
(١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ
لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا (١٥)
وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧)
ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُواْ
مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا
خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا (٢٤) مِّمَّا
خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ
لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ

إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

فكان القرآن، كتابُ الله المبين، بكل ما ذكرناه، واضحَ الإعجاز في أسلوبه من حيثُ كونه طرازاً خاصّاً من القول لا يُشْبِهُ كلام البشر، ولذا قال البلغاء: إنَّ اللغة العربية هي نثرٌ وشعرٌ وقرآن. وأما من حيث إنزال المعاني في الألفاظ والجمل اللائقة بها، ووقعها على أسماع من لا يؤمن بها ولكنه يُدرك بلاغَتها ويتعمَّقُ في معانيها فإنه لا بدَّ أن ينحني إعجاباً وإكباراً حتى يكاد أنْ يسجُد لها. وكذلك لو نزلت على أسماع من لا يفهم معانيها فإنه يأسرُه نَغَمُ هذه الألفاظ وهي تُتلى في نَسَقٍ مُعْجِزٍ يُؤخَذُ به السامع قسْراً ولو لم يفهم المعنى.

ولذلك كان القرآن وسيظلّ معجزاً إلى يوم القيامة. . .

هود عليه السلام

هـود عليه السلام

وكان النداء إلى نوح عليه السلام : ﴿يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

ومضى قومُ نوح عليه السلام، وطوتهم الأمواج العاتية في ثنايا البلاء، إلا فئة قليلة آمنت، فلم تُستبعد من الحياة، ولم تندثر إلى العدم، بل نجت واسْتُخْلِفَتْ في الأرض.

وراحت تَشيد البنيان، وتُؤسّس العمران، وترفل بنعيم العيش، وهَدْأة الأمان.

وتدورُ عجلةُ الزمان، ويئنُّ الشيطان من بطالةٍ كادت تقتله.. فيخرج من وكره، ويوسوسُ لأحفادِ أولئك المؤمنين الناجين من قوم نوح عليه السلام، مزيّناً لهم الجهالة والضلالة، وكأنه يقول لهم: **«عليكم ألاّ تَنْسَوا آباءكم الذين أنجاهم الله من الطوفان. لقد كانوا قوماً مؤمنين، يستحقّون التخليد والتمجيد، فلِمَ لا تُقيمون لهم التماثيل، وتسنّون الطقوس التي تدلُّ على إقراركم بفضائلهم.. فإن لم تفعلوا، فأنتم بحقوق أهلِ أبرارٍ عاقّون، وبالحفاظ على عهودهم ناكثون..»**.

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٨.

وكان أولئك الأحفادُ هم قومَ عادٍ، وأخاهم هوداً. وقد بعثه الله تعالى فيهم نبياً. وكانوا يعيشون ما بين اليمن وعُمان، في المنطقة التي تُعرف «بالأحقاف»، حيث أسبغ الله عليهم نعماً وخيراتٍ، جعلت أرضهم تتفجرُ بالينابيع والعيون، وتمتلىء بالشجر والزرع، وتزدانُ بالحدائق والجنان، وتزهو بالازدهار والعمران. .

وزادهم الله من نِعَمِهِ، بما مَنَحَهم من بَسْطةٍ في الأجساد، وقوّةٍ في الأبدان، قلَّ أن تُؤتى لغيرهم من الأمم.

وبَدَل أن يُقرّوا بفضل الله عليهم، وبِحُسن صنيعه لهم، ويصدعوا لأمره ومرضاته، فقد أغواهُم الشيطانُ وأضلَّ قلوبهم، فانقلبت مع الأيام عهودهم للآباء عبادةً للأصنام، وارتفعت في ديارهم الأوثانُ، تستقيم آلهةً يركعون لها ويسجدون، وبالمذلَّة نحوها يتوجَّهون. . . إنْ فزعوا من شرّ، أو خافوا من ضُرّ، هرعوا إليها مستنصرين. وإن وقعوا على خيرٍ أقبلوا نحوها شاكرين. . تالله ما أشدَّ مكرَ إبليسَ فقد غَلَبهم بكيده، وأعادَ للأرض بلواها من الظلام، وشكواها من الحرام، بعدما عرفت عهوداً من النور والإيمان. .

ولم تقف ضلالةُ (عادٍ) عند السجود للأصنام، أو عندَ تلويثِ النفوسِ بعبادة الأوثان، بل تمادت في الغيّ والبطلان، واندفع أبناؤها يعيثون فساداً وانحداراً في الأخلاق حتى امتلأت أرضهم بالظلم والجور والاستبداد. . فأذلَّ كبيرُهُم صغيرَهم، وبطش قويُّهم بضعيفهم، وسيطر غنيّهم على فقيرهم، مما أفقد أولئك القوم، كل المقاييس الأخلاقية، وكافة القيم الإنسانية. . . ولكن مهما تمادى البشر في ضلالتهم، ومهما ابتعدوا في إسفافهم، تظلُّ لدى الخالق عزّ وجلّ رحمةٌ بهم ورأفة. فها هو الله سبحانه وتعالى ـ وفيما عادٌ في

الجهالة يهيمون، وفي الفساد ينغمسون ـ يرسل إليهم هوداً عليه السلام رسولاً من أنفسهم، يحدِّثهم باللغة التي يفقهون، ويخاطبهم بالأسلوب الذي به يقتنعون، ويرشدهم إلى الطريق السويّ، إلى الصراط المستقيم، علَّهم إلى أنفسهم يعودون، وإلى خالقهم يهتدون. . وقد أبانَ لهم تفاهةَ ما يعبدون، وأَظْهَرَ لهم هوانَ قَدْرِ ما يُؤلِّهون، وفسَّر لهم الآياتِ التي تحفلُ بها حياتُهم، وكيف هم عنها يعمهون. . وأشار عليهم بالتفكير والتبصّر في كل ما يفعلون، وأنذَرهم بأنّ ذلك كلَّه رحمةٌ من ربّهم، ورأفةٌ بهم، لأنه ـ سبحانه ـ لا تفيده طاعتهم ولا تضرُّه معصيتهم. .

وقد كان هود عليه السلام من أوسط القوم نسباً، وأكرمهم خُلُقاً، وأرجحهم عقلاً، وأوسعهم علماً. . اختاره الله تعالى ليكون أميناً على رسالته، وصاحباً لدعوته. . فصدع بالأمر الجلل، وشدَّ العزمَ والأملَ، وانبرى إلى قومه يُعيدهم إلى جادة الصواب. . فخاطبهم داعياً إلى تَرْكِ عبادة الأوثان، وهادياً إلى الحقّ والإيمان:

ـ يا قوم!. . أحجارةً بأيديكم تنحتون، ثم أمامها تركعون وتسجدون؟!. .

يا قوم!. . هل أتاكم من هذه الأصنام خطرٌ مُداهم، أو ضررٌ قائم؟!. .

يا قوم!. . هل قدَّمتْ لكم هذه الأوثان غنًى، أو جلبت لكم نفعاً!. .

إنَّكم أهلي وأبناء قومي، وإنّي أربأ بكم عن الانزلاق إلى هذا الدرك المشين. .

يا أهلُ، ويا خلاّن!.. إنِي أدعوكم إلى التطلّع بالأبصار، والتبصُّر بالأفئدة نحو الحقّ المبين... لا إله إلاّ الله، وحده نعبد، وبه نستعين، وعليه نتوكل.. هو الذي خلقكم ورزقكم، وهو الذي أحياكم، ثم يميتكم، ثم يبعثكم من جديد.. ألم تروا أنه مكّن لكم في الأرض التي خلقها، وبسط منكم الأجساد التي صوَّرها، وبارك لكم في الزرع والشجر والأنعام التي أوجدها؟!..

يا قوم!.. آمنوا بالله وحده، وحاذروا أن تكابروا وأن تَعْمَوْا، فيصيبكم ما أصاب قومَ نوحٍ، وما قومُ نوح عنكُم ببعيد!...

ألا ما أعظم الإنسان وهو ينادي بالحقّ، وما أسماه وهو يجهر بالإيمان حتى ليجعل الرعشة تسري في الأجساد، عندما تصغى إليه القلوب، وتعي مقاصده العقول!. وها هوذا هود عليه السلام وإن كان رسولاً لله تعالى إلى بني قومه، إلا أنه إنسانٌ فَرْدٌ ووحيد، يواجه جماعة برمَّتها، بل قوماً بأسرهم - وكلهم غلاظٌ، شداد، جبابرة، عُتاة - يصرخ فيهم، مسفِّهاً عقيدتهم، متبرِّئاً من آلهتهم، منكراً عاداتهم وتقاليدهم.. فهل بعدُ من قوَّةٍ أشدَّ من قوَّته في مواقفه؟ وهل بعدُ من جرأةٍ أكبرَ من جرأته في مواجهاته؟!.

لا، ليس سرّاً من أسرار الغيب، أن يكون الإنسان على مثل هود عليه السلام في قوته وجرأته حين يتوفَّر له الإيمان بالله، وحين يكون رائدُه نصرة الحقّ، وسبيلُه الدفاعَ عن المُثُل العليا.. أليست هي الطاقات العظيمة التي تهب الإنسان تلك القدرة للوقوف مثل هذه المواقفِ الرائعة، الخالدة!.. وهيهات لبشريَّة في أمسها، وفي غدها، أن تتخلَّص من الأدران والشوائب، إن لم يقيِّض الله تعالى لها أفراداً أفذاذاً، يمدُّهم بعونه، ويغرسُ فيهم القوّةَ والبأس، ويشدُّ منهم العزمَ

والإرادة.. وليس ذلك على الله بكثير، فهو القويُّ الجبَّار، العزيزُ المتعال، وهو القادرُ على كل شيء، وكلُّ دابَّة في الأرض هو آخذٌ بناصيتها.. وإذا منَّ الله على إنسان بنوره القدسيّ، وأولاه نعمة الرسالة، ومنحه الوعدَ بالنصر، فلا قوَّة في الوجود تقفُ إذ ذاك في وجهه، ولا أحدَ في العالم يردّه عن تحقيق أهدافه.. تماماً كما فعل هود عليه السلام وهو يجادل قومه بعد كفرهم، إذ وقف يخاطبهم وحيداً، في حين ظنَّ القوم به ضعفاً، إذ لا نصير ولا معين من حوله، فماذا هو قادرٌ على أن يفعل؟!..

ولكنَّ هوداً عليه السلام كان يمتشق سلاحَ القوَّة من ربه تعالى، إذ كان في قلبه إيمان بالله، وفي نفسه حبٌّ لخالقه الملك القدوس العزيز الحكيم، فلم يأبه لسفاه قومه، ولم يحفلْ بهُزئهم، بل أعلن على ملئهم، وبكلِّ حزم وبأسٍ، تبرُّأَهُ من جهالتهم، وتسفيهَهُ آلهتهم، وهي حجارةٌ صمَّاءُ، بكَماءُ عمياء، لا حولَ لها ولا طَول... وأنذرهم في النهاية بعذابٍ أليمٍ سوف يدركهم...

ولم يستجيبوا لنداء الحقّ يطلقه نبيُّهم هود عليه السلام على مسامعهم، وبقوا على عنادهم، يخالفون سنن الله في خلقه.. فهل يمكنهم أن يغيّروا هذه السنن؟ لا، إنهم غير قادرين على ذلك، ولن يجدوا لسنَّة الله تحويلاً... ولكنهم حاولوا وداوروا، فقال له بعضهم:

يا هود، أتدَّعي أننا بعد أن نموتَ ونصيرَ عظاماً وتراباً، أإننا لمبعوثون؟

وأجابهم هود عليه السلام: نعم! أنتم وآباؤكم الأولون..

فانفجرت الأفواهُ بالضحك، وتعالتِ الصيحاتُ بالاستغراب، وانهالتِ السخريات.. وعلا اللّغطُ والحوار: ما ذا يدَّعي هذا الرجل! مسكين، لقد مسَّه الجنونُ، وخالط عقله الوهمُ! كيف لجسدٍ بعد أن يتحلَّل ويتحوَّل إلى ترابٍ أن يعودَ إلى ما كان عليه؟ ولمَ يقومُ الأموات من موتهم؟ وما معنى يوم القيامة الذي عنه يتحدَّث؟

ووقف هود عليه السلام، يدافع عن الحقيقة التي نُدِبَ من أجلها.. وصرخ في القوم قائلاً: أيها الناس، اسمعوا وعوا:

إن الموت لا يشكِّل النهاية للإنسان، فليس بين بدء الخلق البشريّ ونهايته على هذه الأرض سوى أزمانٍ وأزمان... يعيش الإنسان فترة قصيرة منها، ويأتي خلالها كثيراً من الأفعال والتَّصرُّفات، وأكثرَ منها من الأقوال والأعمال ثم يطويه الموت الذي هو حقيقة لا يمكن لأحدكم نكرانها أو تجاهلها.. ولكنَّ تلك النهاية المحتومة لا تعني العدم المطلق لأنه لا شيء في خلق الله تعالى إلى العدم قبل إنجاز الغاية منه، ولذلك لا بدَّ من تقويمٍ لعمل الإنسان، وقولِهِ، وأهدافه ومقاصدِه. ولئن رأيتم ظالماً ينعمُ بالسلطان والاحترام، أو مجرماً يُفلتُ من التجريم والعقاب، فإنَّ ذلك إلى أجلٍ محتوم، وقدرٍ معلوم.. إذ أين تذهب شكايات المظلومين، وإلى أين تؤول آلامُ المضطهدين والمعذَّبين، ولأيّ سببٍ تُهدَر حقوق المحرومين... وهل تستوي هذه الأعمال مع ما أتاه الأبرارُ الصالحون، وما قدَّمه المؤمنون الصادقون، أو ما قام به الأتقياء النقيّون؟!.

فهل يُدفَنُ الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح مع الموتى في التراب ليأكلها عدم موهوم، وتذهب أعمال الإنسان هباءً بلا نتيجةٍ أو حساب؟

وهل عقلٌ يقبلُ بذلك، أو نفسٌ ترضى به؟

فإذا كنتم أنتم، يا بني البشر، تقيمون في حياتكم الدنيا أوزاناً، وتسنّون أحكاماً، وتعلنون أقداراً، فهل يمكن ألاّ يكون لدى خالقكم وإلهكم وربكم العدلُ الأسمى، والحكمُ الأجلّ والحساب الأحقّ، من كل ما تقيمون أو تسنّون، أو تعلنون؟!..

لا يا قوم! لا تظنّوا بالله الظنون... إنَّ يوم العدالة الكبرى حق اليقين بخلاف كل ما تقدّرون وتعلمون، ويوم الحساب الأكبر عين اليقين، وفيه ينال كل امرىء ما جناه في دنياه. فيكون له مكانه، وتكون له مرتبته الخاصة به! إنَّه اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا جاه ولا عظَمَة، ولا قوة ولا بأس.. لا ينفع فيه إلاّ من أتى الله بقلبٍ سليم، وفعلٍ أمين، وعدلٍ قويم.. فويل للظالمين من عذاب يوم عظيم، يومَ يقوم الناس لربّ العالمين: فلا تفلت ذرّة من خير إلا وكان لها جزاؤها، ولا تفلت ذرَّة من شرّ إلاَّ وكان لها عقابها..

ولهذا اليوم العظيم، ليوم القيامة والدِّين ضرورتان:

الضرورة الأولى هي أن الخير لا يكون دائماً هو المنتصر في هذه الحياة، إذ أحياناً يجيّش الشرّ جيوشه، ويقضي على أهل الحقّ، فهل يجوز أن تذهب جريمةٌ كهذه بدون عقاب؟

ولو افترضنا أنَّ يوم الحساب لن يكون، فلسوف يضيع عندئذٍ حقّ أهل الخير ويكون محكوماً عليهم بالظلم، والله سبحانه وتعالى قد حرَّم على نفسه الظلم، وجعله محرَّماً بين عباده. فيوم الحساب هو اليوم الذي تعاد فيه جميع الحقوق لأصحابها، ومن هنا كان الأمر يتَّصل بعدل الله بين عباده ومخلوقاته.

والضرورة الثانية تتصل بسلوك الإنسان نفسه، إذ إن الاعتقاد بيوم الدين، والإيمان بالوقوف أمام حساب محتوم، يَلقى بعده الإنسان ثواباً أو عقاباً، مع ما ينتج عنهما من دخول الجنَّة أو النار.. إن مثلَ هذا الاعتقاد، من شأنه أن يوجِّه أنظار الناس وقلوبهم إلى عالم آخر، فيشدّهم عن التعلّق بزخرف الدنيا وزينتها، ويبعدهم عن الطمع والأنانيّة، ويمنعهم من ارتكاب المعاصي، وإتيان الفواحش والمنكرات.. ولولا ذلك الاعتقاد، وخاصّة الرهبة من العقاب في الآخرة، لسادت الأرضَ شريعةُ الغاب، ولأكل القويُّ الضعيف، تماماً كما تفعل الأسماك في البحار... ومن هنا فإنَّه بمقدار ما يؤمن الإنسان بيوم القيامة وبيوم الحساب، بمقدار ما يتجنَّب الإساءةَ، سواء لنفسه أو لغيره، مع ما تحمله عبارة «الإساءة» من مختلف أنواع القول والفعل والتفكير. ولا يعودُ الإنسان يقلقُ لكونه لم يحقّق جزاء سعيه في عمره القصير المحدود، وبذلك يسمو ويرتقي نحو الكمال. وهكذا يكون إيمانه نقطة الانطلاق لحبِّ الله وطاعته، والخوفِ من بطشه، ما دام يوقنُ بأنَّ الله هو الذي بدأ الخلق ثم يعيده..

ولكنَّ الذين كفروا من قوم هود، ـ ومثلهم اليوم من هم على شاكلة قوم هودٍ ـ قالوا لبعضهم بعضاً: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وخاطبوا هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ قائلين: يا هود! ما هذا العذاب الذي

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

تعدنا به، وتتوقّع لنا أن نلقاه؟ إننا لن نأبَهَ لوعيدك، فأتِنا بما تعدُنا إن كنت من الصادقين.

وتبين هود عليه السلام العنادَ في موقفهم، والتحجّر في عقولهم، والتمسّك بآرائهم، والتمادي في أقوالهم، فأجابهم:

ـ لقد بلّغتُ ولم أُقصِّر. وجاهدتُ ولم أتوانَ. وأُشْهِدُ الله أنّي ما أحجمتُ وما أغفلت، وأني وفيتُ وأدّيت. والله خيرُ الشاهدين.

ولم يُفْلح هود عليه السلام في ثَنْيِ قومه عن الضلالة، ولم ينجح في إرشادهم للهداية فابتعدوا عنه معرضين، ولأقواله مستنكرين. ومرَّتْ فترةٌ من الزمن، حُبِسَتْ بعدها الأمطار عنهم، وذوت زروعهم، وذبلت أغصان أشجارهم، فراحوا يترقّبون قلقين..

وظَهَرَتْ بعد حينٍ سحبٌ دكناءُ ملأت من فوقهم الأجواء. فخرجوا من بيوتهم، مستبشرين مهلّلين وهم يردِّدون: هذا سحابٌ عارضٌ ممطرنا. وراحوا يتهيأون لاستقباله، معدّين حقولهم لنزوله.

وجاءهم هودٌ عليه السلام منذراً: لا تفرحوا، ولا تأملوا، إنَّه سحاب فيه نقمة، هو ما استعجلتم به، ريح فيها عذاب أليم.

ولم يحفلوا بمقالته، أو يلتفتوا إليه، بل زادهم قوله هزءاً به وسخرية، وبقوا على فرحتهم، ينتظرون الرياح التي ستحمل إليهم المطر المدرار. ولكن لم يلبثوا إلاً قليلاً حتى جاءتهم ريحٌ عاصفٌ، تحمل على أجنحتها رحالهم ودوابهم، لترميَها بقوَّة خارقة في أماكنَ سحيقةٍ، وعلى مسافات بعيدة... وراعهم الخوف، وأدركهم الهَلَع، فأسرعوا إلى بيوتهم يحتمون فيها، وهم يظنّون أن بيوتهم قادرة على حمايتهم، وأن عدم خروجهم من منازلهم فيه نجاتهم...

وخاب الظنّ، وتبدَّد الوهم. . فقد عمَّ بديارهم البلاء، وسيطر على جنباتها الدمار، بعدما حملت تلك الريح رمال الصحراء، تذروها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، حتى أصبحوا في أماكنهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. .

ومن بعدها، لم يرَ أحدٌ لهم أثراً. دَرَس رسمهُم، ومحا التاريخُ خبرَهم، ولولا العبرة والموعظة لما أتى على ذكرهم القرآن الكريم. . .

أمّا هودٌ عليه السلام فقد أوى، ومن تبعَهُ وآمنَ به، إلى مكان يحتمون فيه فلا تقربهم ريحٌ، ولا يطالُهم رملٌ، وظلّوا على حالهم حتى هدأت العاصفة، فقاموا يحمدون الله على سلامتهم، ويضرعون إليه شاكرين رأفته، ورحمته بهم.

ثم انتقل هود عليه السلام وصحبه إلى حضرموت. وهنالك قضى البقيَّة الباقية من عمره، في طاعة الله وأمانه، وفي نعيم الحياة وصفائها.

فسلام الله على هود إنه كان من عباد الله الصالحين.

القرآن هو المثاني
وفاتحة الكتاب هي السبع المثاني

قال الله تعالى في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[1]، والسبع المثاني: هي سورة الفاتحة، لأنها تحوي جميع معاني القرآن الكريم من مبدإٍ، ومعادٍ، ومعاشٍ في سبع آيات بيِّنات. فعندما نقول: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربِّ العالمين الرحمن الرحيم، نقصد بهذه الآيات المبدأ، أي بداية خلقنا. وعندما نقول مالك يوم الدين، نقصد بهذه الآية المعاد، أي العودة إلى خالقنا. وعندما نقول: إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم . . . إلى آخر السورة الكريمة، نقصد المعاش. والقرآن الكريم لا تتعدى معانيه المبدأ والمعاد والمعاش فتكون آياتُ سورة الفاتحة السبع، تُثنَّى معانيها في جميع آيات القرآن الكريم. ولذا سُمِّيت السبع المثاني، وبناءً على هذا يكون القرآن أيضاً هو المثاني، لأنه يُثنّى فيه بالأخبار، والعبر، والقصص، وأحياناً بالآية الواحدة في مبناها ومعناها كما نجد في عددٍ من سوره الكريمة.

ووصفه الله سبحانه وتعالى بـ «العظيم» لأنَّه تضمَّن جميع

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٧.

مـا يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين والدنيا بأوجز لفظ، وأحسن نظم وأتمّ معنى.

وقال سبحانه وتعالى أنه مثاني في سورة الزمر:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[1]، يعني القرآن الكريم. . وسمّاه الله تعالى: «حديثاً» لأنه كلام الله، وقد سمى - جلت عظمته - كلامَهُ حديثاً، لأنه الخطابُ إلى عباده، والقول إلى خلقه، وهم يحدثون به أنفسهم، وبعضهم بعضاً، حتى يؤمنوا وينالوا البرَّ والتقوى، ومن هنا سُمِّيَ كلام النبيّ ﷺ حديثاً لأنه مبيِّن لكلام الله تعالى. أجل إن القرآن هو «أحسن الحديث» لشدَّة فصاحته ولإعجازه واشتماله على جميع ما يحتاج إليه المكلَّف من التنبيه على أدلَّة التوحيد وبيان أحكام الشرع وغير ذلك من المواعظ وقصص الأنبياء. وجعله منزِّله - سبحانه وتعالى - «كتاباً متشابهاً» أي يشبه بعضه بعضاً ويصدِّق بعضه بعضاً ليس فيه اختلاف ولا تنافر، وهو متشابه في حسن النظم وجزالة اللفظ وجودة المعاني. أما كونه «مثاني» فيعني أنه يثنى فيه بعض القصص، والأخبار والأحكام والمواعظ بتصريفها في دروب البيان، ويثنى أيضاً في التلاوة فلا يملّ لحسن مسموعه. ومن القصص التي ثنيت قصة هود عليه السلام وقد وردت بأسلوب بلاغيّ رفيع في سُور مختلفة.

فقد قصّها في سورة «الأعراف» بثماني آيات:

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ
ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ
قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ
فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ .

وإليك صوراً بيانيّة متنوّعة تجمع بن حناياها وحدة المعنى. فقد قصّها الله سبحانه وتعالى في سورة هود عليه السلام بإحدى عشر آية:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ
إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارٗا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾
قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ
أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ
عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا

تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وعقَّب في سورة «الشعراء» بخمس عشرة آية:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

وأخيراً حلَّق بإعجازه فأتى على ذكرها مثنَّاةً أي جعلها في آيتين اثنتين وذلك في ثلاث سور، أولاً: في سورة «فُصّلت»:

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

وثانياً: في سورة «الذاريات»:

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

وثالثاً: في سورة «الحاقة»:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

وفي سورة «القمر» بخمس آيات:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وكان قد أتى على ذكرها في سورة «الأحقاف» بست آيات:

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

صالح عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة فصلت، الآيتان: ١٧ و١٨.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٤٣ ـ ٤٥.

صالح عليه السلام

هَلَك قومُ هودٍ عليه السلام بذنوبهم فأورثَ الله ثمود أرضهم وديارَهم. وكانوا قوماً عرباً فخَلَفوهم فيها، وعَمَروها أكثر مما عَمروها.

وقال الله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[1]. إذ شادوا القصورَ، وفتحوا الطرقات، وغرسوا الحدائق والبساتين، وفجَّروا خلالها عيوناً، ونحتوا من الجبال حصوناً ليأمنوا غوائلَ الدهر ونوائبَ الحدثان. وكان يأتيهم رزقهم رغداً من كل مكان، ولكنَّهم لم يشكروا الله ولم يحمدوه بل عَتوا في الأرض وأفسدوا، وبَعُدوا عن الحقّ واستكْبَروا، واتَّخَذوا من الأصنام آلهة يعبدونها وأعرضوا عن آيات الله وأشركوا به. وظنُّوا أنَّهم في هذا النعيم خالدون، وفي تلك السَّعَةِ متروكون... هكذا اشتطت بهم الحياة، فماذا يكون مصيرهم ومآلهم؟.. إن من سنن الله تعالى في عدله المطلق قوله الكريم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

فبعث الله العزيز الحكيم إليهم صالحاً عليه السلام من أَشْرَفِهم أصلاً

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

وأوسعهم حلماً وأصفاهم عقلاً. فدعاهم إلى عبادة الله وحضهم على توحيده. فهو سبحانه الذي خَلَقهُم من تُراب، وعمر بهم الأرض واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة. ذكَّرهُم بأواصر القربى التي تربطه بهم، ووشائج النسب التي تصل بينه وبينهم، فهم قومُه وأبناءُ عشيرته وهو يحبُّ نفعهم ويسعى في خيرهم. لا يُضْمِر لهم سُوءاً ولا يريد بهم شراً. وطلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه مما اقترفوه من ذنبٍ واجترحوه من إثم، والله لمن دعاهُ من المؤمنين قريبٌ، ولمن سألَهُ مُجيب. فصُمَّت منهم الآذان، وأُغلقتِ القلوب وعميت الأبصار، فأنكروا عليه نبُوَّتَه وهَزِئوا بدعوته.

وقالوا: يا صالح! كنّا نَدَّخِرك لِمُلِمّات الدهر كي تُضيء ظلماتها بنور عقلك، وتَحُلَّ مُعضِلاتِها بصائِبِ رأيك، وكنا نرجو أن تكون عُدَّتَنا حين يحزُبُ الأمرُ ويشتدُّ الخطبُ، كما يدل عليه قول الله العزيز:

﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾(1)؟

فتأمَّلْ وجهةَ نظرِ الكافرين من قوم صالح. إنَّهم يدلِفونَ إليه من بابٍ شخصيّ بحت، علَّهم يستميلونه، فيخاطبونه بقولهم: كنت مرجُوّاً فينا لعلمك وعقلك وصدقِك وحسن تدبيرك، ولكن خاب هذا الرجاء. أتَنْهانا أن نعبدَ ما يعبد آباؤنا؟ يا للكارثة!.. كلُّ شيء يا صالح إلاّ هذا، فما كُنَّا نتوقَّع أن تَعِيبَ أنت آلهتَنا التي وجدنا آباءنا عليها عاكفين..

---

(1) سورة هود، الآية ٦٢.

وهكذا يعجبُ القومُ مما لا عَجَبَ فيه، ويستنكرون ما هو واجبٌ وحقٌ، ويدهشون أن يدعوَهم أخوهم صالحٌ إلى عبادة الله وحدَه.

ولكن لم كل ذلك منهم؟

لأنه لا حجة لديهم ولا برهان ولا سلامة تفكير. . . فكل ما في الأمر أنَّ آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة، وهم لا يريدون أن يحيدوا عن عبادتها. .

هكذا تفْعَلُ العادة في الإنسان فعلها القويّ. وهكذا يَفعلُ التقليدُ في الإنسان فِعلَهُ العَتيّ، وهكذا يجيء النبيُّ فيُفجّرُ هذا التقليدَ الأبلَهَ، ويحطم هذه العادات والأعراف المُهلِكة، لأن العادة هي العمل المكرَّر من الفرد، والعرفُ هو العملُ المكرَّرُ من الجماعة.

وهكذا تُعلِنُ عقيدة التوحيد عن نفسها كدعوة للتحرّر الفكريّ قبلَ كلّ شيء، دعوةٍ إلى إطلاق العقل البشريّ من عقال التقاليد، وأوهام الأعراف وخرافات السابقين.

هذه هي دعوةُ التوحيد في صميمها. . إعلانٌ بميلاد تحرّر الفكر والعقل من أجل الوصول إلى الحقائق التي تنقل الإنسان من القَلَق إلى الطمأنينة، ومِنَ الشقاء إلى الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

حذَّرهم صالح عليه السلام من مخالفتِه، وخوَّفهم بأسَ الله وبطشَه، وبيَّن لهم أنَّهُ لا يَقصِد من وراء دعوته نفعاً مادياً، ولا يطلب جزاءً على النصيحة، ولا يتطلع إلى رئاسة، وإنما أجرُه على الله ربِّ العالمين، وذلك دَرْءاً لكلِّ شُبهةٍ قد تُساور نفوسهم، ودَفْعاً لكلِّ شكٍّ قد يجول

في خواطرهم. فآمن به بعضُ المستضعفين من قومه وكَفَرَ الملأُ الذين استكبروا، مصرّين على عنادِهم متمادينَ في طُغيانهم، محاولين صدَّهُ عن نَشْر دعوته وصَرفه عن تبليغها، زاعمين أنَّهم إن اتَّبعوه حادوا عن جادَّة الحقِّ، وخالفوا الطريقَ المستقيم.

فقال لهم صالح ﷺ: يا قوم إن عَصَيتُ ربيّ فمن يمنعني من عذابه أو يَعْصِمني من عِقابه؟ إنْ أنتم إلاّ مفتَرون، وإني أعرضُ عليكم أمرين:

إن شِئتُم فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم عمّا تسألون، وإن شئتم سألتُ آلهتكم فإن «أجابتني» خرجتُ عنكم، فقد كرهتُ أعمالكُم أكثر مما كرهتموني. قالوا: أنصفت. واستعدوا ليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وأكلوا وشربوا، حتى فرغوا فدعوه قائلين: يا صالحُ سَلْ!.

وسأل صالح ﷺ آلهتهم.. فلم تجب لأنها أصنام جامدة لا تنفع ولا تضر بشيء..

قال: لا أرى آلهتكم تجيبني، فاسألوني حتى أسأل إلهي فيجيبكم الساعة. فقالوا: يا صالح... أخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً عُشَراءَ جوفاءَ وبْراء، فإن فعلتَ صَدَّقْناك وآمنّا بك... فدعا صالح ﷺ ربّه وسألهُ ما طُلِبَ إليه فانصَدَعَتِ الصخرة صَدْعاً كادت عقولُهم تطير منه، ثم اضطربَتْ كالمرأة يأخذها الطَّلْقُ وخرجت من بطنها ناقةٌ عشراءُ جوفاءُ وبْراءُ كما وصفوها وهم ينظرون مذهولين.

فلم يعد لدى قوم صالح ما يحتجّون به. ومع ذلك لم يؤمن منهم إلاْ نفر قليل، بينما ظلَّ غالبهم على ضلالهم، فقال لهم:

ـ هذه ناقة الله لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يوم معلوم، فذروها تأكُلْ في أرض الله.

ولم يَرَ أولئك الناس قبلاً ناقةً تَسْتأثِر بمائهم كُلِّه، ولم يَعهدوا ناقة تُبعدُهم عن شِرْبِهِمْ.. ولكنَّ صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ خوَّفهم من الإقدام على مشاركتها وحذَّرهم من الفَتك بها، وأوصاهم ألاّ يَمَسُّوها بسوء فيأخذهم عذابٌ قريب.

ومَكَثت الناقة بينهم زمناً: ترعى في أرض الله، ثم تَرِدُ الماءَ يوماً، وتصدُّ عنه يوماً آخر. وقد كان لقيامها على هذا النحو أثرٌ هامٌّ إذ مال لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ نفر كثير من قومه، بعدما تبيّنوا صِدقَ رسالته وأيقنوا بصحَّة نبوَّته، في حين هَلَعَتْ لذلك قلوب المستكبرين، فقالوا للذين آمنوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ قال المستضعفون المؤمنون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾. فقال لهم المستكبرون: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ولم تكُ لهم حيلةٌ إلاّ التآمر. وكان تآمرهم على قتل الناقة حتى يمحوا الآية التي تكذِّبهم ويطمسوا الحجَّة التي تُسَفِّههم.

تلك منذ أقدم العصور وإلى اليوم أساليب الأنظمة الكافرة، الجائرة والمستبدة وهذا سلاحها منذ بداية الخليقة. تتولّى الأمور فيها فئة لا تحتكم إلى العقل أو الحوار، ولا تعتبر بالحجة والبرهان، وإنَّما تمتدُّ أيديها إلى السلاح لتقتل، ما دام القتلُ الوسيلةَ الأسهلَ والحلَّ الأقربَ في تصوّرها لإنهاء المشاكل التي تجابهها.

وقد حاول القوم ذلك، وكانوا كلما همُّوا بقتل الناقة قَفَلوا راجعين وأدبروا خائفين. وطالَ بهم الأمرُ على هذه الحال، يدفعهم

الشرُّ لعقرها ولكن تمنعهم الرهبةُ من قتلها، فلا يجرؤ أحدهم على إيذائها، ولا يتقدَّم واحدٌ إلى مسِّها.

ولم يَرَوا بُدّاً من الاستعانة بالنساء، وهُنَّ قادرات على تحقيق المآرب التي تلاقي هوى في نفوسهنَّ. وليس عليهنَّ إلاَّ بذلُ بعض ما يملكن من دلال، والإتيان بشيء من الإغواءِ بما يُزيِّنهنَّ من جمال. والمرأة الجميلة الحاذقة إنْ أمرت كان عشَّاق الجمال طوعَ أمرها، وإن تمنَّت تسابقوا إلى تحقيق أمنيتها. وها هي ذي (صدوقُ ابنةُ المُحيا) ذاتُ الحسب والمالِ، تعرض نفسها على (مَصْرَع بن مَهْرَج) إن هو عَقَرَ ناقة صالح، وخلَّص القوم من هذه الآية البيّنة، والحجَّة البالغة التي فَتَنت القوم عن دين آبائهم... وتلك أيضاً (عُنَيْزَةُ بنتُ غُنَيْم) تجتذبُ (قدارَ بن سالف) إليها، وتعرض عليه إحدى بناتها للغاية نفسها. وصادفَ هذا الإغواء هوىً في نفسي الرجلين وزادهما بأساً وقوَّةً، وأفاض عليهما إقداماً وجرأة، فسعيا بين القوم يلتمسان من يؤازِرهُما، ويبحثان عمَّن يُعاضِدُهما، فاستجاب لهما سبعةٌ آخرون.

وتنادوا فيما بينهم، يبررون ما سوف يقدمون عليه، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾(١). وقالوا: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾(٢).

وعلى كؤوس الخمرة تلاقت الهمساتُ حول صالح عليه السلام وناقته. فقال أحدهم وما زال في عقله بقيَّةٌ لَمْ يطْمِسها الشراب:

ـ يا قوم! قد حذَّرنا صالح من المساسِ بالنَّاقة، وهدَّدنا بالعذاب

(١) سورة القمر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٢٥.

القريب. . . فأخمدَ الجالسون هذا الصوت العاقلَ بكأسين من الخمر، ثم قالوا لبعضهم بعضاً: كم هو شُؤمٌ صالحٌ هذا وناقته! الخلاصُ منه أفضل. . ولكنْ نبدأ بقتل الناقة.

وانطلقوا إلى الناقة يرصُدُونها ويرقبونها. فلما صَدَرتْ من وِرْدِها ورَجعت عن مائها، كَمَنَ لها (مَصرع) فرماها بسهمٍ انتَظَمَ عَظْمَ ساقيها، وابتدرها (قدار بن سالِف) بالسيف، فكشف عَن عُرقوبها، فَخَرَّت على الأرض، ثم طَعنها في لُبَّتِها فَنَحَرَها. . . عقروا الناقة وَعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم ثم جاؤوا صالحاً مستهزئين بأن ينزل عليهم العذاب الذي يعدهم به، كما يخبرنا رب العالمين بقوله المبين: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١). فقال لهم صالح عليه السلام لقد اجْتَرَحْتُم ذنباً عظيماً، واقترفتم إثماً كبيراً، فَتَمَتَّعوا في دارِكم ثلاثة أيام، يأتيكم بعدها العذابُ، ويحِلُّ بكم في نهايتها العقاب، وذلك وعدٌ غير مكذوب.

ولعلَّهُ قد ضَرَب لهم ذلك الميعاد تَرْغيباً لهم في الإنابة إلى الله وحثاً على الإصاخة إلى دعوته إلاَّ أن الشكوك كانت قد تأصَّلتْ في نفوسهم، والأوهام قد تسلَّطت على أفئدتهم، فلم يُغنِهِم الإنذار، فسألوه أن يعجِّل بعذابهم، فقال: يا قوم! . . إنَّكم تستعجلون بالسيِّئة قبلَ الحسنة فهل تستغفرون الله لعلّكم تُرحَمون؟.

وتَمادَوا في الضلال بدل أن يستفيقوا، فأضمروا قتله وقتل من آمنَ معه. ولكنَّ الله لم يُمْهِلْهُم بل أحبَطَ كيدَهم وردَّ عليهم مكْرَهم،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

وأنقذ صالحاً والذين آمنوا معه من العذاب الأليم، إذ سرعان ما أخذت الصاعقة الذين كفروا بظلمهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين. ولم يمنعهم ما شادوا من حُصون آمنةٍ، وقصورٍ شامخةٍ، وما جمعوا من أموالٍ وافرة، وما غرسوا من جنّاتٍ واسعةٍ.

ورأى صالحٌ عليه السلام ما حلَّ بقومه إذ أصبحت جُثثهم هامدة، وديارهم خاويةً فتولّى عنهم، والأسى يملأ نفسه، والحسرة تَقْطَعُ نياطَ قلبهِ وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1]....

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.

قصة ثمود والإيجاز في القرآن الكريم

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم باللغة العربيّة، ولكي يمكن إدراكُ مراميه، وفهمُ معانيه، علينا أن نعرف أصول الصياغة.

وصياغة اللغة العربية لا تكون إلاً عن طريق المساواة أو الإطناب أو الإيجاز..

المساواة: أن تكون المعاني بقدر الألفاظ بحيث لو زدتَ لفظةً واحدةً لجاءت الزيادةُ فضلاً، ولو أردت إسقاط كلمةٍ لكان ذلك إخلالاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[(١)]. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[(٢)].

فالألفاظ في كلٍّ من الآيتين جاءت مساوية للمعاني ولذلك يُسمّى أداءُ الكلامِ على هذا النحو مساواةً.

الإطناب: هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة. فإذا لم يكن لهذه الزيادة فائدةٌ عُدَّ ذلك تطويلاً أو حشواً، وللإطناب دواعٍ عديدةٌ أهمها:

تثبيتُ المعنى، وتوضيحُه وتوكيدُه، ودفعُ الإبهام، وقوَّةُ التأثير، وتحريكُ النفس والعواطف والانفعالات.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٠.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

ويبرز الإطناب في الحالات التالية: أولاً: قد يكون بذكر الخاص بعد العام كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾(١). فلقد خصَّ الصلاة الوسطى بعد ذكر الصلوات عامة لأهميتها إذ تقع في وسط النهار إبَّان انصراف الناس إلى أعمالهم وانهماكهم في شؤون العيش مما قد يحملهم على التلكؤ عنها وإهمالها.

ثانياً: قد يكون بذكر العام بعد الخاص كقوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾(٢) فأنت ترى التدَرج في هذه الآية من الخاص إلى العام ومن الجزئيّ إلى الكليّ.

ثالثاً: وقد يكون بتكرار المعنى وتقريره في النفس كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾(٣).

رابعاً: قد يكون للتفصيل والتوضيح كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤).

فالإطناب في هذه الآية بدأ من قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٨.
(٣) سورة التكاثر، الآيات: ٣ ـ ٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

﴿وَٱلنَّهَارِ . . إلى آخر الآية. . . .﴾ لأنه تفصيل وتوضيحٌ لما في خلق السموات والأرض. فيكون القرآنُ الكريمُ في هذه الآية قد اختار الإطناب في توجيه الخطاب إلى الكافَّة من الثقلين (الإنس والجن) وعبر القرون، قرناً فقرناً حتى انتهاء الدنيا وذلك من أجل الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى لاسيما وأنَّ فيهم الذكيَّ، والفطينَ والعالمَ الذي يفهم ويعي هذا الإطناب كما أنّ فيهم الغبيَّ، والمقصِّرَ في بابِ النظر والاستدلال على الصانع الواحد الأحد.

الإيجاز: هو أن يكون عدد الألفاظ أقلّ من عدد المعاني، فالمتكلِّمُ يُعبِّر عن معانٍ كثيرة بكلامٍ قليل. وليس الإيجازُ في حذْفِ الألفاظ اعتباطاً، وإنما هو في براعة المتكلّم وقدرته على اختيار ألفاظ موجبةٍ من شأنها أن تنتقِلَ بالذِّهن إلى أبعد مما تتضمَّنه الألفاظ بمدلولها الضيِّق. فالكلماتُ القليلة تحمل في ثناياها مجموعة من المعاني يقرأها الإنسان بين السطور.

والإيجاز نوعان:

إيجاز الحذف: ويكون بحذف بعض ما في العبارات من كلمات، من غير أن يختلَّ المعنى، أو يعتري الكلامَ غموضٌ، لأن القرينةَ سواء كانت لفظيَّة أو معنويةً تستطيع أن توحيَ بمدلول ما حُذِف من الجملة.

وإيجاز الحذف يمكن أن يُحذَفَ فيه حرفٌ أو اسمٌ أو فعلٌ أو جملةٌ أو أكثرُ من جملةٍ. ودواعيه كثيرة أهمها الاختصار، وتسهيلُ الحفظِ، وتقريبُ الفهم، وضيقُ المقام، وإخفاءُ الأمر على غير السامع، وتحصيلُ المعنى الكثير باللفظ القليل في حذف كلمات، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ

ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ ﴾(١). فقد ينتظم الكلام من غير حذف بعض الكلمات، كأنْ يقال: (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلّم به الموتى لكان هذا القرآن بل لله الأمر جميعاً).

أو كما ورد في قصة موسى عليه السلام مع ابنتي شعيب عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ ﴾(٢).

ففي واقع الأمر ولو أردنا أن نعبّر بأسلوبنا عن تلك الحادثة ـ وقد يشابهه أي أسلوب بشر ـ لقلنا: إنه لما سقى لهما القطيع تركهما وانصرف لشأنه، يحتمي من الرمضاء بظلّ شجرة قريبة، وقد أنهكه التعب والجوع. وعندما آنس راحة دعا ربَّه أن يرزقه بعضاً من خيره حتى يأكل. وفي تلك الأثناء كانت الفتاتان قد ذهبتا إلى أبيهما شعيب وقصَّتا عليه ما كان من أمر الذي سقى لهما، فأرسل له إحداهما تدعوه إليه، فجاءته تمشي على استحياء، ولما وصلت قالت له: أيها الرجل! إن أبي يدعوك لتأتيه فيجزيك أجراً عمَّا قمت لنا به من سقاية... وهكذا نرى أن جُمَلاً عديدة كان يمكن أن تعبّر عن جملة من الأعمال والأقوال قد حُذفت، ولذا سُميّ بإيجاز الحذف.

إيجاز القصر: هو في الحقيقة مدارُ البلاغة. وقد يُسمى أيضاً إيجاز البلاغة لأنه يقوم على تضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من

(١) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٢) سورة القصص، الآيتان: ٢٤ و٢٥.

غير حذف. وفيه تتجلّى مهارة البُلغاء وبراعتهم في انتقاء الكلام، وحسن التصرف به. يظهر ذلك على نحو ما نرى في الآية الكريمة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾(1).

إذ القِصاصُ مزْجَرَةٌ قويّةٌ عن إقدام الناس على القتل، فارتَفَع بسببه القتل عن الناس. وارتفاع القتل دوام الحياة. وإنما يذكر (ولكم) لأن لا مدخل في شرعيّة القصاص بدونها، بل جيء بها للامتنان على الأمّة خاصة. وكان أوجز كلام وضعه فصحاء العرب تقليداً لهذه الآية الكريمة: (القتل أنفى للقتل) فتصوَّر الفرق الشاسع بين الجملتين معنى ومبنىً. فقوله تعالى: ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أوجَزُ من قول العرب (القتل أنفى للقتل)، وذلك لاستيعابه المعاني الكثيرة التي تنطوي تحت القصاص، من قتلٍ وغير قتل، حتى تشمل الحدود كلها إلى أرْشِ الخَدْشِ بينما يظلُّ قول العرب محصوراً في القتل فقط. فلقلّة حروف هذه الكلمات الملفوظة الثابتة التي تبلغ سبعة مقاطع، تعتبر هذه الجملة في غاية الإيجاز، لأن الإيجاز إنما يتعلّقُ بالعبارة الملفوظة دون الكتابة. وهذا إذا اعتُبِر التنوينُ في (حياةٌ) حرفاً وإلاّ فهي ستّة مقاطع في اثني عشر حرفاً.. ومثل قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تلك الآية التي حُملتْ على المجاز، إذ المعنى: هدىً للضالين الصائرين إلى التقوى بعد الضلال، لأن الهدى إنما يكون للضالّ كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾(2). وفيه من جهات الحسن بعد جهة الإيجاز وجهان: أحدهما تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه مجازاً فإنّه سَمّى الضالين الصائرين إلى التقوى بالمتقين مجازاً. وهذا شائع

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(2) سورة الضحى، الآية: ٧.

مضطرد عند وجودالعلاقة المذكورة كقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾(١) وقوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبَه»(٢) أي ما يؤول إليه عصر العنب وتخميره إلى خمر، وقوله ﷺ: **«من قتل قتيلاً فله سلبه»**، أي ما يؤول إليه متاع المقتول إلى المجاهد.

ثانياً: تصديرُ أولى الزهراوين(٣) (يعني سورة البقرة وآل عمران اللتين سمّيتا بذلك لإشراقهما) وأراد بأولاهما سورة البقرة التي صُدِّرت بذكر الأولياء: أي المتَّقين، مع الإعراض عن ذكر الضالّين.

فلم يقل سبحانه وتعالى في سورة «البقرة»:

(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للضالين) بل قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(٤).

فإيجاز القصر يقوم إذن على اتساع الألفاظ القليلة للمعاني الكثيرة المتزاحمة، لا على حذف بعض كلمات أو جُمَلٍ ولذا سمّيَ إيجاز قصر. ولقد روي أن عبد الله بن عمر عندما قرأ قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾(٥)، قال: من بقي له شيء فليطلبه.

ويبدأ القرآن الكريم بإيجاز قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود في سورة «الأعراف»، بقوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.

(٢) صحيح مسلم الجزء الثالث، باب الجهاد رقم ١٧٥١.

(٣) أي المشرقتين، ويقال في اللغة: زهَّرت النار: أي أضاءت.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ
﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا
النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ
﴿٧٩﴾ ﴾.

ثم ينتقل إلى إيجاز آخر ولكن بصورة مختلفة، كما في سورة «هود»:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ
هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا
لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ
إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم ينوع الأسلوب بإيجاز يختلف عن الإيجاز السابق في سورة «الشعراء»:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي
لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾
وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا
يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾
فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

ثم إلى وجيزٍ قليلِ الألفاظ في سورة «النمل»:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ
يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ
قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ
﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ

أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾
وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ثم إلى أوجز منه في سورة «القمر»:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ
وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ
قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

ثم أوجز في سورة «الشمس» إلى درجةٍ لا يستطيع الإنسان أن يبلغ بتصوره الإتيان بمثلها، فذكر أحداثَ ووقائعَ قصَّة ثمود كلها وزاد على معانيها بقوله تعالى ولا يخاف عقباها في ثلاث وعشرين كلمة فقال عزّ من قائل:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ
نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ
فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾[1].

(1) وقد زاد على ما أوجز في قصة ثمود بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ بحيث أن كل حاكم عادل إذا أنزل حكماً متعلقاً بعدد كبير من الناس تراه يتخوّف من نتائج وعواقب هذا الحكم، بينما الله سبحانه وتعالى حكم ونفّذ ولم يخفْ من عواقب الحكم لأنه هو الله العزيز الحكيم.

إبراهيم عليه السلام

١ ـ ولادة إبراهيم عليه السلام

نشر نوح عليه السلام بعد الطوفان رسالة التوحيد، فحملتها من بعده أجيال بشرية مؤمنة. إلاَّ أنه مع تعاقب الأزمان، وتكاثر السكان، ونشوء المجتمعات العديدة فقد كان من الطبيعي أن تتنوع العلاقات بين الناس، وتشتد مطالبهم على توفير الحاجات، فتتشابك المطامع والأهواء وتنشب الصراعات المادية من أجل السيطرة والاستغلال، في الوقت الذي كان فيه الصراع الأشد والأدهى هو بين الإنسان ونفسه وذلك نتيجة حتمية لاضمحلال الإيمان الحق. وتناسى الناس العقيدة الدينية الصحيحة، فانصرفوا عن رسالة التوحيد، وانقطعت الصلة بينهم وبين خالقهم حتى وصل بهم الأمر إلى عدم الإقرار بالعبودية لله الواحد الأحد، وإنكارهم أنه ـ جل وعلا ـ رب السموات والأرض. فَحُقَّ أن تعمَّ من جديد الجاهلية العمياء بين أهل الأرض، وتصبح عقيدة نوح عليه السلام في طي النسيان.

ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يغفل عن هذا التمرد من الإنسان على عقيدة التوحيد، ولم يهمل انفلاته من طريق الإيمان، فكان العذاب الساحق جزاءً عادلاً بإهلاك من أهلك الله سبحانه وتعالى من الأمم والشعوب من بعد نوح عليه السلام على ما اقترفت من المعاصي

والذنوب والآثام، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[1].

وتوالت القرون حتى كانت سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد، عندما شهدت مدينة «بابل» الواقعة على نهر الفرات من أرض العراق، تكويناً حضارياً وتجمعاً بشرياً لم تعرفهما مدن العراق الأخرى قاطبة. وعلى الرغم مما وصلت إليه بابل من حضارة فإن عقيدة أهلها الدينية، كما هي عقيدة الناس عامة في تلك الحقبة من الزمان - وكما هو الحال في عصرنا الحاضر - قد تحوّلت عن حقيقتها بسبب طغيان المادة على الإنسان، فصارت الأخلاق عنده عبارة عن عادات مشوهة، والمثل عبارة عن نزوات، مما جعل الأمم الغابرة تتردّى في مهاوي الضلال، وتسبح في دياجير الظلام، فلم تعد تعرف للإيمان بالله تعالى طريقاً.

وهكذا فقد كان من شأن ترك الدين الحق - دين التوحيد الذي دعا إليه الرسلُ والأنبياء - الانصرافُ إلى عبادة الأصنام والأوثان، أو عبادة الكواكب والنجوم. بل لقد وصل الضلال بالإنسان لأن يعبد إنساناً مثلَهُ، جعل نفسه ربّاً على الناس من دون خالق السماوات والأرض. وهذا ما دلّت عليه الحفريات والآثار المكتشفة في العراق القديم، كما في مصر أو غيرهما من البلدان، والتي تخبر عن أُسرٍ مقدسة، كان الناس يدينون لها بالعبادة.

وفي تلك الحقبة التاريخية ظهر في بابل من بين تلك الأسر، ملك يدعى النمروذ بن كنعان. أقام حكمه على الظلم والبطش، وبسط سلطانه بالقوة والشدّة، لا يتورع عن التصرُّف برقاب رعاياه

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٧.

تصرُّف الراعي بقطيع الشّياه، فله أن يُغني من يحب، وأن يفقر من يكره. وكان هواه المقياسَ لأقواله وأفعاله، ووراء هذا الهوى كَمَن شيطانٌ وسواسٌ جعل النمروذ ألعوبةً بين يديه، إن أمره أطاع وإن عبث به ضاع حتى صار مطيّةً لكفره وإغوائه، مثله في ذلك مثلُ أبائه وأجداده الذين زيَّنَ لهم الشيطان أن يتَخِذَ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله الواحد القهار، فانصاعوا لإرادته، وخضعوا لغوايته. وقد جعل النمروذُ نفسَه ربّاً لقومه، فأعلنَ فيهم فرضَ عبادته، والخضوع لربوبيته...

وكانت أرض بابل تفيض بالخيرات والأرزاق، وأهلها ينعمون بالثروة والرخاء، وهذا ما جعل للمتع والملذات المقامَ الأول في حياتهم، فرضخوا لإرادة النمروذ، ودانوا له بالولاء، مقرّين بربوبيته عليهم، كإقرارهم بالخضوع للأصنام والأوثان، أو تقديسهم للكواكب والنجوم...

وبفعل تلك الوثنية الباطلة، وطَّد النمروذ حكمه على ضلال القوم وجهالتهم، وعاش هانىء البال، ناعم الحال...

ولكنْ إلى متى يدوم هذا الكفر والبهتان، وربُّ العرش العظيم يتصرَّف بالكون كله بلا نِدٍّ ولا شريك؟ ويسيِّر خلائقه كما يشاءُ ويريدُ؟!.

وفي إحدى الليالي بعدما نام النمروذ مطمئناً إلى غده، رأى في المنام أنَّ كوكباً يطلع في السماء، فيحبس عن بابل ضوء القمر، ويحجب عنها نور الشمس.. فأزعجته تلك الرؤيا، وهبَّ من نومه مذعوراً، ودعا إليه كُهَّانه وعرَّافيه ليفسروا له حقيقة ما رأى...

وذُهِلَ النمروذُ وهو يسمع تأويلهم لرؤياه، إذ أجمعت الآراء على أن أحد المواليد في مملكته سوف ينكر عبادات قومه، ويكون عدواً لدياناتهم، لأنه يؤمن بإلهٍ واحدٍ يجهلون حقيقة وجوده، ويدين له وحده بالعبادة والتقديس، كما وأن هذا المولود سوف يدعو إلى دينٍ جديدٍ لن يرتضوه لهم أبداً. . .

وجُنَّ جنون النمروذ لهذا التأويل، إذ كيف يولد تحت سلطانه من يُنكر عليه ربوبيته، ويرفض الخضوع لطاعته؟!. . إنه لأمرٌ فظيع حقاً، ولا يمكن للنمروذ أن يطيق حدوثه. . ولذلك بثَّ في البلاد جنوده، ونشر في أنحاء المملكة دعاتَه، يعلنون في القوم وينذرونهم بأن يعتزل الرجال نساءهم، وأن تُحبس الحبالى في البيوت حتى يلدن. وشَدَّد الأوامر بأن يؤخذ كل غلام ذكر تضعه أمه ويقتل، ومَن أخفتْ مولودها تُعذَّب عذاباً أليماً، ثم تقتل معه. . .

وخافت نساء بابل من الوعيد والتهديد، وراحت كل واحدة تنتظر المصير المشؤوم لوليدها البريء، إلاَّ امرأة من بين جميع الحوامل، قذف الله ـ سبحانه ـ في قلبها العزم، فلم ترهب ضغط النمروذ، ولا خافت بطشه، فحزمت أمرها على أن تخفي بطنها عن العيون، وأن تحجب حملَها عن الجواسيس، حتى يتهيّأ لها المخرجُ من المصيبة التي حلَّت على بابل.

وراحت تلك المرأة تفتش عن مأوى تلجأ إليه حين الوضع، فكانت تخرج متخفية عن العيون، متنكرة في عباءة رجل، حتى اهتدت في البرية إلى غارٍ في مكان بعيد مهجور، لا يمرُّ به أحد، فقالت: هوذا المخبأ الأمين. . ثم حان موعد مخاضها، فانسلَّت على جناح الظلام وحيدة، فريدة، بلا مؤازر ولا مواكب، حتى وصلت إلى

غارها، فدلفت إليه على عجل، وقبعت في داخله تقاسي آلام الوضع، إلى أن أعانها الله الرؤوف الرحيم على وضع مولودها، فإذا هو غلام جميل، مكتمل التكوين، بهي الطلعة، سُرَّت به أمه سروراً عظيماً، فأدنته من قلبها، وتقوقعت على نفسها تُصابر وتُجالد، بلا أنينٍ أو تأوُّهٍ، لئلا تحمل الريح صدى أنَّاتها، فتذهب جهودها هباءً منثوراً. . .

وخافت هذه الأم على وليدها من عنت القوم وجهالتهم، فهدتها فطرتها السليمة لأن تدعوَ أن يبرأ وليدُها من أولئك القوم وما هم عليه، ودعته «إبراهيم» أي ما يعني: «إبرأ منهم» براءة تامة. .

وقضت أم إبراهيم في غارها بضعة أيام، تحنو على طفلها بالرضاعة والرفق إلى أن نفذ منها الزاد والشراب، فاضطرت للعودة إلى البيت، متسللة، متخفية، كما خرجت منه.

واستقبلها زوجها آزر يسألها عمَّا فعلت، فأخبرته بأنها وضعت غلاماً ذكراً، وأنها أسمته «إبراهيم»، وقد تركته في الغار ليبقى بعيداً عن الأسماع والأبصار. .

كانت أم إبراهيم امرأة ثاقبة الفكر، قوية التدبير، شديدة الحنكة. ويشاء السميعُ الحكيمُ أن يودعَ في نفسها فطنةً تجعلها متيقظة، وتحسب لكل خطوة حسابها. فكانت تراقب عيون النمروذ المبثوثة في كل مكان، فإذا ما تسنَّى لها مغافلتها، طارت إلى طفلها على أجنحة اللهفة والشوق، لتقضي معه بعض الوقت، ثم تعود إلى بيتها من غير أن يدري بها أحد.

وظلت أم إبراهيم على هذه الحال عدة سنين، كان الطفل ينمو خلالها ويتدرج، وهو لا يدرك من أمره شيئاً، بعد أن اعتادَ على

الوحدة في ذلك المكان المقفر، حيث لم يرَ إلاَّ تلك الأم التي كانت تأتيه الحين بعد الحين، لتقيم معه فترة، ثم تمضي إلى سبيلها بعد أن تسُدَّ عليه بابَ الغار، كما تفعل دائماً.

وتنقضي السنون حتى يبلغ إبراهيم سنَّ الفتوة والوعي، فيُسائل أمَّهُ عن سبب وحدته، وبقائه بعيداً عن الناس. وتكون تلك الأم على مستوى المسؤولية، فتخبره بالحقيقة كاملة، ولا تخفي عنه ـ بحنان الأم الرؤوم، وتضحية الوالدة المعذبة ـ ضرورة بقائه نائياً في غربته، رغم قساوتها، لأن الخطر ما زال قائماً، والمجازفة بظهوره قد لا تكون محمودة العواقب.

كانت تحدثه بوضوح، وتشرح له كل مبررات تصرّفها. إلا أن ذلك لم يخفف من حرقتها، وهي ترى الضيق يكاد يقتل ابنها، والوحشة تكاد تقهره، فلا تجد إلاَّ العبرات متنفَّساً لآلامها... ولم يكن الفتى إبراهيم أقلَّ إحساساً بالمسؤولية من أمه، فإذا ما رآها وقد كبَّلها الحزن، وطغى عليها الأسى، فإنه لا يتوانى أبداً عن مواساتها، وتهدئة مخاوفها، والإعلانِ لها عن قبوله البقاءَ في وحدته بلا أنيسٍ أو جليس...

وكان هذا المشهد يتكرَّرُ كلما جاءت الأم لتلتقيَ ابنها.. لحظات من الفرح تغمرهما، ثم تتبدَّد تحت وطأة الحزن والافتراق، ولكنهما لم يفترقا يوماً على خلافٍ أو تباينٍ أو شقاق، بل كانا ينفصلان دائماً على تفاهمٍ ومحبةٍ ووفاق.

وظلت هذه حالهما زهاءَ خمس عشرة سنة... ولكنَّ هذه السنوات لم تنقضِ بلا فائدة. بل بالعكس كانت الوحدة حافزاً لإبراهيم لأن يتأمل ويتفكَّر طويلاً، وهو يخرج من الغار، ويسرح في البراري

والقفار، متلمساً الحجارة والتراب، ومتفحصاً الأشجار والنبات، مدركاً ما في النبات من حياة، وما في الحجارة من جمود... ولم يفت عينيه مرأى الحيوانات والحشرات وهي تدبُّ بحركة دائمة، وفي اندفاعها في الفلاة هائمة، سائبة، لا تلوي على شيء، سوى ما تدفعها إليه غرائزها من تأمين المأكل والمشرب، والنزو للتناسل فيما بين كل فصيلة من فصائلها المتنوعة...

ولم تكن تلك المخلوقات من حوله هي وحدَها التي تشغل تفكيره، بل نفذ من خلال تأملاته إلى مشاهدة ما في الكون من نور النهار، وضياء الليل وظلامه، وإلى ما يجري في الطبيعة من تقلبات في الرياح والأمطار، والبرودة والجفاف، إلى غيرها مما تحفل به الأرض أو يظهر في السماء...

كان الفتى إبراهيم يوازن بين الموجودات، ويقارن بين المحسوسات بدقة واهتمام بالغين، حتى صار عنده قدر كبير من المعرفة بها وإدراك حقائقها.. ومثل هذا التفكير العميق قاده مع الأيام إلى ولوج أول أبواب الحقيقة، عندما انكشف له السر، وظهر المكنون، وذلك باهتدائه إلى أنَّ هنالك قوة عظيمة هي التي تنظم هذا الكون الفسيح، بعد أن صنعته بغاية الاتقان، وهي وحدها التي تقدر على تسييره وإدارته بهذه الدقة، وبهذا الانضباط، بحيث لا يعتريه خَلَلٌ أو فتور...

لقد عايش هذا الفتى وجوداً خاصّاً، ربما لم يتم لغيره، أو قد لا يكون إلاَّ لمثله... فمنذ أن وضعته أمه، دعت له من أعماق قلبها أن يكون له من خالقه الكريم السلامة والبرء، فانطلق لسانها بمخاطبته: «إبرأ منهم»، وممَّن؟ من أولئك القوم الظالمين، الوثنيين، الجاهلين،

الجاحدين.. وحقاً أبرأه ربُّه، فأغدق عليه من نعمائه، وأوسع له أحضانَ الكون يربِّيه، ويثقفه، ويعلِّمه، حتى تيسَّرت له الهداية عندما أدرك كثيراً من أسرار هذا الكون ومكنوناته، ليكون فريد زمانه بين الناس.

نعم هكذا كان الخالق العظيم يصنع إبراهيم على عينه: إعداداً وتوجيهاً وتسديداً.. لقد شاءَهُ الله ـ سبحانه ـ أن يكون فَذّاً في كل مزاياه، فاجتباه، وحباه بخصائصَ مميزة، وآتاه العقل والرُّشد، منذ تفتحه على الوجود، فقال عزَّ من قائل: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾(1).

أما لماذا هذا الإعدادُ من لدن العليّ الحكيم، وهذا العطاء الذي يكتنز كثيراً من المواهب الروحية والنفسية والجسدية، فلكي يكون إبراهيم مؤهلاً عندما يصطفيه ربه تعالى لحمل الرسالة، كما يبيّن لنا سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(2).

وبمثل تلك المقومات التي أوجدها ربُّه تبارك وتعالى فيه، أمكنه أن يوطّن نفسه على الحق، وأن تتفتح مداركه على آلاء الله وآياته في خلائقه، وهذا ما جعله يصمم على الخروج من عزلته ليواجهَ الناس ويدلَّهم على طريق الهداية..

وجاءت أمه يوماً، تحمل معها كعادتها زاداً له، فأبى أن يمدَّ يده إليه، فلما سألته عن سبب امتناعه، أجابها برفق، بأنه لم يعد يحتمل

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٥١.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

البقاءَ حبيساً في البراري، معزولاً عن الناس في وحدة موحشة. . .

وترتسم في ذهن أمه رعونة النمروذ وجنده، فتقول له: ولكنك تعلم يا بنيَّ أنك غير آمن إن ذهبت! . . .

وهنا يقرر إبراهيم عدم الرضوخ لتهديد الطاغية ووعيده، فيقول لها:

ـ لن أمكث بعد اليوم، ههنا أبداً، حتى لو تعرّضت في ذهابي لأشد الأخطار. . .

وتذكّره أمه، من جديد، بظلم النمروذ، وخوفها من معرفته بأنَّ إبراهيم من مواليد رؤياه، محاولةً أن تستبقيَه مدة أطول في مكانه، فربما وجدت هي وأبوه سبيلاً إلى نجاته، إلاَّ أنَّ إبراهيم، وهو يحسُّ امتلاء نفسه بالعزم، يقول لأمه:

ـ وأي ملك هذا الذي تخشاه بابل يا أماه؟ تقولين: إنه متكبر، ظالم، يبطش ولا يرحم! هوذا في ظاهر أمره، أما على حقيقته، فإنه رجل ضعيف على خلاف ما يتوَّهم قومه، فلو لم يكن لديه ذلك الضعف في قرارة نفسه، لما خاف من مواليد أبرياء، فأمر بتقتيلهم وهم لا حول لهم ولا طول. .

وتقول له أمه: بل لقد اتخذه الناسُ ربّاً عليهم في بابل يا بنيّ، حتى صار يقدِّر عليهم الحياة والموت! . .

ويجيب إبراهيم، بصدق وقناعة: لا، يا أماه! . . . إنَّ النمروذ بشر مثلنا، ومثل كل الناس، ولا يمكن أن يكون أيُّ مخلوقٍ بشراً وإلهاً في آن معاً، فكيف بالإنسان الضعيف، المسكين، الذي لا يقدر أن يعرف مصيره ولو للحظة في حياته! إنه بهتانٌ وتجديف على

الحقيقة أن يدعي إنسان الألوهية والربوبية، أو أن يجعل منه الناسُ رباً يستحق العبادة. وهذه الحقيقة تبقى هي ذاتها، ولا يمكن أن تتبدَّل أو تتغيَّر، فشتانَ بين إلهٍ خالقٍ، وبشر مخلوق. ومن يقلْ بغير ذلك فقد خرج عن الحقيقة، وعمل ضد الحق...

وهكذا، وبعد نقاشٍ طويل بين إبراهيم وأمه، أقنعها بالذهاب معها، فقال لها: والآن، هيا بنا يا أماه، فقد تاقت نفسي لرؤية الناس ومعرفتهم.

٢ ـ إبراهيم وأبوه آزر(١)

دخلَ إبراهيم على أبيه آزر، فهبَّ يلقاه بفرحٍ عارم، إذ كان شوقه لرؤيته كبيراً. وها هو الآن أمام ناظرَيه وفي أحضانه، شابٌّ

---

(١) يرى بعض المؤلفين أن آزر هو عم إبراهيم أو جده لأبيه، وأن أباه كان يدعى «تارح» أو «تارخ». ويستندون في هذا الرأي على استعمال القرآن الكريم لفظة «الأب» للوالد والعم. ويأتون بدليلٍ على ذلك وهو أنَّ الله ـ سبحانه ـ نهى إبراهيم أن يستغفر لأبيه آزر بعد أن اختار طريقَ الضلال، في حين أن إبراهيم، يدعو في آخر حياته الكريمة بالاستغفار لوالديه. وذلك في الآية الكريمة ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾. وهذا يعني أنه لم يستغفر لآزر طالما أنه نهي عن الاستغفار له، فيكون طلب الاستغفار في الآية لأبيه الحقيقيّ.

ونحن نرى أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقيّ، وذلك بالدليل القرآنيّ، وبالدليل العقليّ:

ـ فمن حيث الدليل القرآنيّ، وردت الآيات التي يخاطب فيها إبراهيم آزر بتعبير يا «أبتِ» كما جاء في سورة مريم أو في غيرها من السور. فلِمَ نؤوِّل اللفظ القرآنيّ، ولا نعطيه معناه الواضح والصريح؟

ـ ومن حيث الدليل العقليّ، فلو سلَّمنا جدلاً بأن آزر لم يكن الأبَ الحقيقيَّ لإبراهيم، فيجب بالمقابل أن نبين من هو هذا الأب، وماذا كان مصيره، هل توفي حتى صار إبراهيم في كفالة عمه أو جده آزر؟ ثم لماذا توجدُ أمه الحاملُ في بيت حميها أو في بيت أخي زوجها؟ فإذا انعدم بيان هذه الأسباب، بالدليل، صحّ اعتبار آزر الأبَ الحقيقيّ لإبراهيم، لأنه أقرب إلى الوقائع والأحداث التي مرت في حياة إبراهيم عليه السلام، وأقرب إلى السياق القرآنيّ، في كل مرة يرد فيه ذكر «آزر» مقروناً بتعبير «الأب» كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ والله تعالى أعلم.

مكتمل الرجولة، عليه خلقة بهية لم يألفها في أحدٍ من قبلُ، فأجلسه بقربه يحادثه، ويأنس إليه. وسرعان ما تبين لآزر، أن ابنه لا يتمتع فقط بصلابة عوده، ومتانة جسمه وحسب، بل إنه يتميّز بنضوج فكريّ، وبمواهبَ معنوية، قلّما تكون عند غيره من الشباب، وهم في مثل سنِّه.. فَسُرَّ لذلك سروراً عظيماً، وأثنى على العطايا الكبيرة التي منحت له.. وكأنما عميت البصائر عن إبراهيم - وهذا تقدير الله عز وجل وحكمته -، فلم يستغرب الناسُ وجودَه بين أهله. وإن السياقَ القرآنيَّ لم يأتِ على ذكر وشاية قامت عليه، أو تحقيق جرى معه من أحد.. فعاشَ في بيت أبيه مثل سائر إخوته.. ولكنه وجَدَ، خلال فترةٍ وجيزةٍ، وهو يراقب ما يدور حوله، أن أباه آزر يمتهن صناعة نحت التماثيل، فلمّا سأله عن هذه الصنعة، أجابه:

- هذه التماثيل هي الأوثان والأصنام التي تُعبد في بابل يا بنيّ.

ودهش إبراهيم مما يسمع، فقال لأبيه:

- أتعبدون ما تصنعون بأيديكم؟ إن هي إلاّ جمادات لا تسمع ولا تبصر، ولا تضرُّ ولا تنفع، فكيف تكون خليقةً بالعبادة؟!...

ولم يأبه آزر لحجة إبراهيم، بل سيطر عليه نفعه الماديّ، فأجابه بغضب:

- إننا نعبدها كما عبدها آباؤنا الأوّلون. وهي مصدر رزقي ورزق عيالي. وغداً سوف تحمل على كتفك عدداً من هذه التماثيل، وتدور في الأسواق لتبيعها، كما يفعل الآخرون..

ولكي يمنع عليه أيَّ تردّدٍ في القبول، أردف يقول له: وإياك أن تعترض!..

وشعر إبراهيم بالضيق، لأنه يؤمن بالله الواحد الأحد الذي هداه

إلى حقيقته القدسية، والذي هو وحدَهُ أحق بالتقديس والعبادة، فكيف يروِّج تماثيلَ هي أحق بالسخرية لحقارة شأنها؟!.. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل: هل يمتنع عن النزول على إرادة أبيه، أم أنه يطيعه، وينفذ رغبته؟!. وتفكَّر ملياً ثم انتهى إلى أمر لم يفصح عنه، حتى كان الصباح، فحمل إبراهيم بعض تلك التماثيل ونزل بها إلى الأسواق، يتجوَّل وينادي:

- مَنْ يشتري ما لا يضرُّهُ ولا ينفعه؟

وعادَ إلى البيت من غير أن يبيع شيئاً، فسأله أبوه: عُدت خائباً؟

وردَّ إبراهيم بأنه تجول في الأسواق طوال النهار منادياً على من يشتري، ولكنَّ أحداً لم يُقبل عليه، فلم يبعْ شيئاً.

وعادَ إبراهيم في اليوم التالي إلى التجوال بالتماثيل، ولكنَّه، في هذه المرة، علَّق خيوطاً في أعناق بعضها، وراح يجرها وراءه في الأسواق وهو ينادي:

- من يشتري مالا يضره ولا ينفعه؟

وهكذا دأب إبراهيم على إبعاد الناس عن بضاعة أبيه، بل لقد تعمَّد أن يكرِّههم بشرائها بما يُظهر من أساليب السخرية بها، حتى أنَّه كان يُغْرِقُ أحياناً تلك التماثيل في الماء أو الحمأة، ويقول:

- إشربي.. كلي.. هيا تكلمي وادفعي عنك، بل لِمَ لا تدعين هؤلاء القوم الجاهلين إلى شرائك؟!.

وجاء القوم إلى آزر، يَشُون إليه بأفعال ابنه إبراهيم. فلما عرف ما يفعل، خاف على بضاعته من الكساد، فنهره، ومنعه من الخروج بها ثانية.

٣ ـ إبراهيم والنبوَّة

لقد آتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إبراهيم الرُّشد، وبفعل هذا الرشد أدرك من قبل، أي منذ أن تفتحت مداركه على الحياة، أنَّ من يقدر أن يصنع هذا الكون الشاسع، وما فيه من الآيات البيِّنات، هو أحق أن يكون الخالق والمعبود، فتوجه بأعماقه النقية الواعية، إلى رؤية الحق بروح اليقين، والعقل المستنير، فآمن بالله إلهاً واحداً أحداً، فرداً صمداً، كما يبيّن لنا ذلك القرآن الكريمُ بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[1].

وهكذا كانت هذه الصلة بين إبراهيم وربه، قائمةً على الوعي والإدراك والإيمان، وكانت هي المرحلةَ التي تقدمت مرحلة النبوة التي انتدب إليها إبراهيم عليه السلام من الله عزّ وجلّ، وهو في ريعان الشباب.

لقد أُنزِلَ الوحيُ على إبراهيم عليه السلام يبلغه أمرَ ربه باختياره نبيّاً يهدي إلى الإيمان بحقيقة وجود الله، ووجوب عبادته وحده بلا شريك، وأن عليه أن يحمل رسالة الإسلام للناس، بعد أن أعدَّه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليكون واحداً من أنبيائه المكرمين، وبعد أن

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

اصطفاه ليكون من بين تلك الذرية المباركة التي تظهر آثار فعالها الإيمانية على مدار التاريخ، سواءٌ مِنْ قَبْلِ إبراهيم عليه السلام أو مِنْ بعده، والتي هي من أصل واحد، هو معدن النبوة، كما يبين القرآن الكريم هذا الأصلَ، بقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾[1]. فانتداب إبراهيم عليه السلام للنبوة كان بعلم الله السابق، أي من قبل أن يولد، لأنه من شيعة نوحٍ عليه السلام، النبيّ الداعية المؤمن، وذلك بقوله تعالى: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[2].

أجل جاءَه التبليغ، فاحتدمت في نفس إبراهيم عليه السلام عوامل النبوَّة، بعدما كانت شعلة التوحيد متوقدة في عقله وقلبه وكيانه. فكان لا بد أن يبدأ الدعوة، وذلك بالاحتكاك الإيجابيّ مع أبناء ذلك المجتمع الذي يعيش فيه، الذين لا يعرفون إلاّ العاداتِ الجاهليةَ متمثلةً بعقائد الشرك والوثنية.. ولا بد أن يبدأ الاحتكاك أول الأمر، في داخل بيته. والأولى أن يكون مع أبيه آزر الذي يقوم على صناعة التماثيل التي يتخذونها آلهة، فهو أول من يجب أن يطرقَ سمعَهُ صوتُ التوحيد الخالص، والعقيدة الحق.

ويسجل القرآن الكريم - في سورة مريم - الحوار الذي دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه آزر. إذ جاءَهُ إبراهيم عليه السلام بقلب النبيّ الصدِّيق، وقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٣٣ و٣٤.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٨٣ و٨٤.

وبعد أن يضعه أمام هذه الحقيقة العقلية، يطلعه على ما جاءه من علم وتكليفٍ بالنبوّة، ثم يدعوه لاتِّباعه كي يهديه الطريق السويّ الذي هو طريق الحق والعدل والخير، وطريق النجاة والفوز في الآخرة، فيقول: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾. ثم ينهاه عن العبادة التي يقوم عليها، لأنها عبادة للشيطان، الذي يتلبّس شكل الأصنام والأوثان، وهي عبادة زائفة باطلة، فضلاً عن أن الشيطان قد عَصَى ربّه، فيقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾. ويحذره من مغبة هذه العبادة الآثمة، التي تؤدي إلى العذاب الأليم لا محالة، والتي تجعل صاحبها تبعاً للشيطان ومولى له، فيقول له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

وبهذا الصدق النبويّ، وبحرارة الدعوة الحقّة، أوضح إبراهيم عليه السلام لأبيه طريق الخير وطريق الشر.. فطريق الخير هو عبادة الله سبحانه وتعالى، وطريق الشر اتِّباع الشيطان وعبادة الأصنام والأوثان. وهذا الطريق الأخير لا بد وأن يصل بصاحبه إلى الضلال، الذي يحتِّم العذاب.. ثم كيف يتبع إنسانٌ عاقلٌ عبادة مخلوق؟ وكيف إذا كان هذا المخلوق عاصياً؟ أفلا يحق عليه العذاب فعلاً؟!...

نعم إنَّ الله تعالى خلق الإنسان عاقلاً مفكراً متبصراً، فعليه أن يميِّز بين الحق والباطل. بل وعليه أن يخافَ الله ربَّهُ ويخشى من عذابٍ يقع عليه إذا ما كان وليّاً للشيطان. ولسوف يكون هذا العذاب أشدَّ وأدهى إذا دعي الإنسان لعبادة الله الواحد الأحد، فأعرض عن هذه الدعوة، وآثر الضلالَ على الهدى، وفضَّل ولايةَ الشيطان على العبودية للرحمٰن، رب العالمين...

تلك كانت دعوة إبراهيم عليه السلام وحججه لأبيه آزر. وهي دعوة واضحة وضوحَ الشمس.. ولكنَّ الأبَ الضالَّ لم يحفل بدعوة الحق، بل آثر اتِّباع العقيدة المزيفة التي ورثها عن آبائه وأجداده، ولذا نراه يغضب من ابنه إبراهيم عليه السلام. ويستبدُّ به الغضب فيهدد هذا الابن بأن يمتنع عن كراهية الآلهة التي يعبدها، وإلاَّ فسوف يعمد إلى رجمه وطرده. ويختصر القرآن الكريم كل مشاعر آزر وانفعالاته، بقوله عزّ وجلّ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾[1].

وإزاء هذا الإصرار على الكفر، والمكابرة على الضلال، نجد إبراهيم عليه السلام - وقد تخلَّق بأخلاق النبوة، ومن تخلَّق بأخلاق النبوَّة لا يمكنه أن يكون إلا الابن البار لأبيه - لا يرى إلاَّ طلب السلام النفسيّ لهذا الأب، والاستغفار له من ربِّه، عسى أن يرحمه ربُّهُ العزيز، فيقول له: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾.

هنا تتجلى الروعة العظيمة في الفوارق التي تميّز المؤمن عن الكافر...

المؤمن هو إبراهيم عليه السلام.. يدعو أباه للهداية حتى ينعم بدفء الإيمان، ويسير على الصراط المستقيم، فيفوز في الدنيا والآخرة.

والكافر هو آزر.. يبادل الهداية إلى الإيمان الحق بالله العزيز الحكيم، بإصرارٍ وعنادٍ على عقيدة الوثنية. ثم يُهدد ابنه بالقتل رجماً بالحجارة، وبالطرد من بيته، إن لم يمتنع عن دعوته تلك... نعم لقد

---

(١) سورة مريم، الآية: ٤٦.

وصَلَ به الحد إلى التهديد، ولمن؟ لابنه الذي يفترض أن يحبه حبّاً شديداً!.

وهنا يبرز بين المؤمن والكافر موقفان يسجلهما التاريخ على صفحاته، بأروعَ ما يكشف عن حقيقة الإنسان في اتخاذ الموقف الذي يختار:

- هوذا شخص يظهر لك إرادة الإضرار، والسوء بك حتى ولو كنت أقرب المقربين منه، كما فعل آزر بتهديد ابنه بالرجم، وإبعاده عن حياة منزله. وهذا هو الموقف الأول.

- أما أنت، ورغم ما أظهره لك هذا الشخص فإنك تبادله على موقفه السيء بموقف مغاير تماماً عندما تبدي له أمانيك بإحلال السلام في نفسه، والأمانَ في حياته، حتى يكون بعيداً عن كل ضرر (إذا قال إبراهيم لأبيه: سلام عليك)... ثم تذهب إلى أبعد من ذلك، عندما تصدقه الشعور بأنك سوف تدعو الله تعالى الغفور الرحيم، بأن يغفر له سوء عمله، وما ينتج عن هذه المغفرة من خلاصٍ من العذاب ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾. وهذا هو الموقف الثاني.

هل بعدُ أروع من هذا الموقف الذي تقشعر له الأبدان؟ إنه حقاً فعل الإيمان، وعلى نقيضه دائماً فعل الكفر. ففعل الإيمان دائماً كله خير، مثلما أنَّ فعلَ الكفر دائماً كله شر.

وليس هذان الموقفان بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وآزر هما وحدهما ما يبرزه القصص القرآنيّ، للتدليل على حقيقة الإنسان في تكوينه النفسيّ والجسديّ، وفي علاقاته المجتمعية، وعقيدته الدينية، بل هنالك مواقف كثيرة أخرى، يسوقها القرآن الكريم، ومن خلال حياة الأنبياء

بالذات، لتكون الأدلة على إبراز الشخصية الإنسانية في وجودها العام والشامل، وكيف يمكن أن تؤثر هذه الشخصية في الأحداث التي تتعاقب على الناس بتعاقب الأجيال والأزمان.

ولذلك يُبرز القصص القرآنيّ نموذجين من البشر، مختلفين تمام الاختلاف:

فالنموذج الأول يتمثل في نوح عليه السلام: فهو الأب الصادق، بينما ابنه (كنعان) هو الكافر الجاحد.

والنموذج الثاني يتمثل في إبراهيم عليه السلام: فهو الابن المؤمن البار، بينما أبوه (آزر) هو الكافر الحانق.

أما وحدة الهدف، في هذين النموذجين، فهي التأكيد على حقيقة الروابط والعلائق التي يجب أن تقوم بين الناس ـ حتى أقرب المقربين منهم إلى بعضهم ـ والتي شاءَ الله تعالى أن يكون أساسُها العقيدة الدينية، لا علاقة النسب أو العاطفة. صحيح أنَّ لهذه العلاقة الأخيرة آثارَها الهامةَ بين البشر، إلاَّ أنها تبقى آثاراً جزئية بالنسبة إلى مقومات العلاقة المبنية على العقيدة... وكلما تباعد الناس في العقيدة كلما صاروا أغراباً عن بعضهم البعض، وتفككت فيما بينهم الروابط، وانحلَّت الأواصر التي تحقق لهم الإنسانية بمعناها الشموليّ والكامل.. فلأنَّ إبراهيم عليه السلام وأباه آزر غريبان في العقيدة، أو لأنَّ نوحاً عليه السلام وابنه كنعان غريبان في العقيدة، فقد تباعدا عن بعضهما في رابطة الحياة، ولم يكن بينهما ذلك التآلف الذي يفترض وجوده بين الأب وابنه... وكلما كثر مثل هذا التباعد، كلما تصدَّعت العلاقات البشرية، وسقطت إنسانية الإنسان في مهاوي التفرقة والانقسام، مما يجعل الأرض تتخبط بالويلات والشرور، وهي ما

دلت عليها آثار الأقدمين، وكما تدلُّ عليها العلاقات بين الناس في حياتنا الحاضرة.. فتأمل غاية القرآن الكريم في إفهام الناس حقيقةَ الصلات التي يجب أن تقوم بينهم، والمقوماتِ الأساسيةَ التي يجب أن تبنى عليها هذه الصلات، حتى يحققَ الإنسانُ الراحة في الأرض، وينالَ السعادة في الآخرة. ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[1] إذ العبرة بالأعمال والأفعال، لا بالأنساب والأقوال.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

٤ ـ إبراهيم عليه السلام وقومه المشركون

عاش إبراهيم عليه السلام غريباً في بيته بعد تجربته المريرة مع أبيه آزر. ولكن هل يمنعه هذا عن المضيِّ في متابعة الدعوة؟ وهل يمكنه أن يستكين، أو أن تضعف عزائمه، وهو النبيُّ المكلَّف بهداية الناس إلى رسالة التوحيد ونشرها؟.

لا، لن يَثْنِيَهُ عن ذلك شيء في الوجود. ولكن ماذا يفعل مع قومه؟ هل يتبع معهم نفس الأسلوب المباشر الذي اتبعه مع أبيه، أم يعتمد أساليبَ أخرى قد تكون أجدى وأنفع؟.. وبعد تفكير اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى ما يجب القيام به، فراح يخالط القوم، ويتودد إليهم، ويحضر مجالسهم وسهراتهم.. وفي تلك السهرات خاصة، كان جلُّ اهتمامه منصبّاً على التأمل في كواكب السماء، لأنه يعرف أن طائفة كبيرة من القوم تعبدها، وهو يريد أن يقوم بتجربة حسِّية معهم، كي يصل إلى النتيجة الحتمية التي تبين لهم فساد تلك العبادة... ففي ليلة هادئةٍ، والسماء صافية، جلس إبراهيم عليه السلام يسمر مع القوم وهو يرقب السماء مزهرة بالكواكب، مرصعة بالنجوم، حتى رأى في الأفق الغربيّ، كوكب «الزهرة» وهو من أجمل الكواكب الدُّرية وأشدها سطوعاً.. هذا الكوكب الساطع الجميل الذي يعتقد القومُ بأنه يمنح

الأرض والإنسان الخِصبَ والحياة. وحثَّ إبراهيم عليه السلام القومَ على مراقبة الكوكب وهو يسير رويداً رويداً إلى أن أفل واختفى. . . وهنا يحقق إبراهيم عليه السلام تجربته الأولى بنجاح، فيبدي للقوم بأن الربَّ الذي يرعى الإنسان والحياة على الأرض لا يغيبُ، وأن هذا الكوكب الآفل غيرُ جدير بالربوبية، وانتهى إلى أنه لن يعبد هذا الكوكب. ويصوِّر لنا القرآن الكريم، تجربة إبراهيم عليه السلام تلك، بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾(1).

وفي مرة أخرى، وأثناء تبادله الحديث مع القوم، كان إبراهيم عليه السلام ينتظر طلوع القمر، فلما بزغ وتلألأ نوره وبدا أنه أكبر من الكوكب الآفل الذي تبرأ منه، وجَّه أنظار القوم إليه، ودعاهم لتأمله، ثم قال لهم: «هذا ربي». . . ولكنه بقي في مجلسه تلك الليلة حتى دلوك الفجر، عندما غاب القمرُ ولم يعد يراه. فلما أفل، قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾(2).

ثم اتخذ إبراهيم عليه السلام موقفاً جديداً، فلم يعد يستدرج القوم لئلا ينفروا منه، ولكنه يُعلن أمامهم وبشكل صريح، بعد أن تجاوز التعريض، إلى أن تلك الكواكب التي تأفل، لا يمكن أن تكون أرباباً يعبدها الناس. وأنَّ هنالك ربّاً آخر، هو ربُّه الحق، الذي إنْ لم يهدِهِ فسوف يكون من الضالين. .

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يبث فيمن حوله، روح الشك

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(2) سورة الأنعام، الآية: ٧٧.

بالكواكب، وبعد أن كان تركيزه في البداية على أكثرها نوراً وجمالاً: الزهرة والقمر، عاد وأوضح للقوم بأن هذَين الكوكَبين غيرُ جديرين بالعبادة.. إذن فأي من الكواكب أو النجوم التي تطل على الأرض، له تأثير مميّز على الناس؟ أوليست هي الشمس؟ بلى... إذن ليعمد إلى البرهان بأنَّ هذه الشمس، هي مثل غيرها من كواكب السماء، وأنه من الخطل الاعتقادُ بأنها ربٌّ يعبد، فتبطل أيّةُ حجةٍ لدى القوم..

وبالفعل، وفي إحدى صبيحة يوم جميل كانت الشمس قد بزغت، تبهر العيون، وتغطّي الأرجاءَ بضوئها الساطع القويّ، فراح إبراهيم عليه السلام يبدي دهشته لمنظرها الرائع، ويشدُّ القومَ إليه في تأمّلها والانبهار بها، وما إن تأكد له انجذاب القوم، حتى أعلن بأن الشمس هي الربُّ الذي يبحث عنه، فهي أكبر الكواكب، وأشدُّها ضياء وحرارة، وأكثرها فائدة للحياة، وذلك كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾[1].

وظلَّ إبراهيم عليه السلام طوال ذلك النهار مهتماً بالشمس، والناس من حوله يرقبون، حتى حلَّ المساء، وغابت وراء الأفق، وعمَّ الظلامُ الأرض، عندها أعلن على القوم براءته من تلك الكواكب التي يعبدونها زيفاً، ومن غيرها من عقائد الشرك والوثنية. ثم وجَّهَ وجهه، وعلى مرأى من أسماع القوم وأبصارهم، إلى الله الحق، الرب القادر، الخالق العظيم، الذي فطر السموات والأرض، فهو وحده المتفرد بملكه، ولا شريك له أبداً.. وكانت صرخته المدوية تلك، النابعة من

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٨.

الأعماق، بقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ودهش أهل بابل من هذا التوجه الغيبيّ لإبراهيم عليه السلام - ومنهم من خاف عليه من غضب الكواكب - وانبرى بعضهم لمحاجته في عبادته لله، وفي الدعوة لدينه. ولكنَّ إبراهيم عليه السلام، الذي آتاه ربُّه من العلم ما لم يعلموا، كان قادراً على دفع حججهم ببراهينه القوية، ونقض الأوهام التي يخوفونه بها، لا بل إنه هو الذي وضعهم في موقع الحرج والخوف، لأنهم مشركون، بينما هو لا خوف عليه وعلى المؤمنين معه ولا هم يحزنون.

نعم إنها الحقيقة التي يجب أن يدركها كل الناس، ألا وهي أنَّ المؤمنين لهم أمانٌ من الله وهداية، بينما المشركون، والكافرون، والجاحدون، والطغاة، وأمثالهم، لا أمانَ لهم، بل إنَّ العقاب والعذاب مصيرهم يوم يقوم الحساب.

ويصوِّر لنا القرآن الكريم، دفاع إبراهيم عليه السلام الرائع، وحججه الدامغة، التي كان يسردها على قومه لكي يواجه عقولهم الضيقة بالحقيقة التي لا مناص منها، والتي تدعوهم إلى عبادة إله واحدٍ أحد، حكيم عليم، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾[1].

صدق الله العظيم.

وكان حرياً بالقوم بعد هذا البيان أن يؤمنوا، ولكنهم لم يفعلوا بل ظلُّوا على عبادة الكواكب والتماثيل، لينالوا الخِزْيَ في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب مهين على شركهم وضلالهم.

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ٨٠ ـ ٨٣.

٥ ـ تحطيم الأوثان والأصنام

لم تنفع تلك الهزَّة العقلية التي أثارها إبراهيم عليه السلام مع قومه في مراقبة الكواكب، ولم تؤثر فيهم حججه وبراهينه التي ساقها، وهو يحاول أن يلامس في كيانهم الفطرة الإنسانية كي يوقظها من الجهالة ويأخذ بيدها إلى طريق الإيمان.. وها هو قد أدرك بأن تلك الهزة العقلية التي انتظر أن تحدثها تأملاته في ملكوت السماء لم تكن بدرجة كافية لتغيير المحتوى الداخليّ للإنسان. ولذلك صمَّم على اللجوء إلى عملية جديدة، قد تكون أشد إثارة ورهبةً في نفوس القوم، علَّها تحقق اليقظة التي ينشد..

وكما جرَّب مع أصحاب عبادة الكواكب، فلا بد أن يقوم بتجربة مماثلة مع أولئك الذين يعبدون الأصنام والأوثان. وعلى هذا صمَّمَ الرسولُ الشابُّ أن يتصدى للقوم بنقدٍ لاذع للتماثيل التي كانت في اعتقادهم «آلهة» أو رموزاً مشخَّصة لآلهة.. وإذا كانت بدايته في الدعوة لم تحقق نجاحاً مع أبيه آزر في هذا المجال، فإنَّ عليه أن يعاود التكرار مع هذا الأب لعلَّه يهتدي إلى الإيمان. إذ يرى إبراهيم عليه السلام ضرورة أن يكون أبوهُ من المهتدين، لما للأب من مكانة في نفس الولد الصالح.. ولذلك توجَّه مجدداً إليه وإلى أبناء قومه من عبدةِ

التماثيل، يسألهم عن سبب اتخاذها آلهةً، ويبين لهم الضلال والخزي في عبادتها، لأنها في الحقيقة، لا تعدو كونها جمادات لا حراك فيها، ولا تنفع أو تضرُّ في شيء. ثم إنها من صنع أيديهم، فمحال أن تكون محلاً للعبادة والتقديس!..

ويُبرز القرآن الكريم ذلك الاحتكاك العقائديّ الذي كان يثيره إبراهيم عليه السلام مع حُماة الجهالة في بابل، ومن بينهم أبوه آزر وذلك من خلال هذا الحوار الذي تنزَّل في الكتاب المبين بقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾:

- ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

- ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾.

- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

فالنبيّ إبراهيم عليه السلام يسمي معبوداتهم «تماثيل» ولا يقول عنها «آلهة» كما يدَّعون... ويجدهم يعترفون بأن عبادتهم تلك إنما هي وراثية، وتقليد عقائديّ أعمى. في حين أن العقيدة هي أثمن ما في الحياة، وأقدس ما في قلب الإنسان وعقله، ولذلك يجب ألاَّ تؤخذ تقليداً وعمايةً، بل يجب أن تدرك بالعقل والقلب.. ومن هنا كانت مجابهته تلك وهو يبين لهم بأنهم هُم وآباؤهم في ضلال مبين..

وتتكرر لقاءات إبراهيم عليه السلام بقومه. ويتكرر معها حواره ونقاشه لهؤلاء القوم، إذ يقول لهم، كما يذكر القرآن الكريم بقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٥٢ ـ ٥٤.

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾.

- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾.

- ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾.

- ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾.

- ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦)
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ
يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ
(٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾(١).

وتتكرر اللقاءات ويحتدم الحوار والنقاش، ثم يتفرق القوم، كل في سبيله، من غير أن يهتديَ أحدٌ منهم، بل يظلون معرضين عن دعوة النبيّ إبراهيم عليه السلام، منكرين لآرائه وحججه، على الرغم مما تحمل من صدق المعنى، ووضوح البرهان، وملامسة العقل والقلب. .

ولكنَّ النبيَّ الكريم، وهو يعلن للقوم براءته من الشرك، وطاعته لرب العالمين، وعبادته لله الواحد الأحد، لا يأبه لصلف القوم وتعنُّتهم، بل يجبههم بالتهديد، مقسماً بأنه سيكيد أصنامهم ويحطمها عندما تحين له الفرصة، وذلك يظهر بقول الله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(٢).

ربما لم يأخذ القومُ هذا التهديد على محمل الجِدّ، بل ربما يكونون قد سخروا من هذا الشاب وهو يجهد في استمالتهم إليه، فلم

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٧٠ ـ ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

يأبهوا إليه، وتركوه على حاله.. أما هو عليه السلام فقد راح يتحيَّن الفرصة ليضرب ضربته القاضية، بالتجربة العملية، وبالبرهان الحسيّ، علَّها تكون أجدى وأنفع لدى القوم.

وكان من عادة أهل بابل أن يقيموا في كل عام، وبمناسبة أحد أعيادهم، احتفالاً على الضفة الأخرى من نهر دجلة، حيث يخرج جميع الناس من المدينة للمشاركة في هذا العيد. وسأله أهله أن يرافقهم إلى الاحتفال، فاعتذر. إذ كان يعتزم تنفيذ الخطة التي يُعِدُّها، فبدا غارقاً في التأمل، ورأوه على هذه الحال ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾[1].

ووجد إبراهيم عليه السلام أن الساحة قد فرغت له، فأخذ فأساً وذهب إلى المعبد، ليقف أمام تلك التماثيل التي صُفَّت في داخله على اختلاف هيئاتها وأشكالها، ومن حولها، وعلى أعناقها، وعند أقدامها توزعت النذور من الحلي والألبسة والأطعمة...

وتقدَّم من هذه التماثيل وقد امتلأت نفسه بازدرائها وبالسخرية ممن يعبدها. وأمعن في ازدرائه حتى لكأنه يستنطقها، وهو يعلم أنها لا تجيب. ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[2]... ثم أهوى بفأسه عليها الواحد تلو الآخر ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا[3] إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[4].

وهكذا حطَّمَ إبراهيم عليه السلام أوثانَ وأصنامَ قومِهِ وجعلها تتناثر على أرض المعبد إلاّ الوثنَ الكبير، فإنه أبقى عليه، لغايةٍ أرادها،

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٠.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ٩١ و٩٢.
(٣) جذاذاً: قطعاً قطعاً.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥٨.

وعمد إلى الفأس فعلّقها في رقبته، ثم غادر المكان، وقد أحسَّ بالفرح يملأ قلبه، وبالسعادة تغمر كيانه على ما فعل. وانصرف من هنالك إلى الجبال، مطمئن البال، هنيئاً بالقرار، لكي يشكر ربه على ما هداه إلى فعله، ويسبحه بما يستحق من الجلال والعزة، لأنه العليّ العظيم.

وعاد أهل بابل في المساء إلى بيوتهم، ودخل كاهن المعبد ليجد ما لم يكن بالحسبان، وما لم يخطر يوماً على باله أو بال أحدٍ من القوم... لقد هالَهُ ما يرى، وروَّعه ما يجد أمامَهُ فانقلب إلى الخارج يولول ويصرخ:

- يا أهل بابل!. هلموا إلى آلهتكم، وانظروا ماذا جرى لها!.

يا أهل بابل! لقد وُطئت كرامتكم!. فتعالوا واشهدوا على المصيبة الكبرى!...

وجاءَ القوم يَتَدَافعون إلى المعبد، ليروا المشهد الصاعق الذي أخذ بألبابهم وغشّى أبصارهم، فأمسوا في مكانهم جامدين، كأنهم الأموات. وما إن خفّ عنهم وقع الصدمة قليلاً حتى صاروا يتصايحون بأصوات حانقة، قائلين:

- ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فانبعث من بينهم أصوات غاضبة تقول:

- ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

- ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[2].

واجتمع الشعب الهائج، وعلى رأسه الملك والكهان في قاعة

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٠ و٦١.

المعبد حيث أشلاء التماثيل، بعد أن أسرع جمع من القوم إلى الجبال، يبحثون عن إبراهيم عليه السلام في الأماكن التي كان يعتكف بها، بعيداً عن الناس.

وأحضر إبراهيم عليه السلام ليواجه جميع شعب بابل وحكامه. ووقف أمام الملك، وكبار الكهان من حواليه، هادئاً، مطمئناً، فصرخوا فيه وهم يشيرون إلى تلك الآلهة المحطَّمة، قالوا:

﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾(١).

وأجاب بثقة وثبات وحزم:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾(٢).

فسادَ القومَ الوجومُ، ورانَ على القاعة الكبيرة السكونُ..

إنها فقط نظرات تتلاقى، وتساؤلات كثيرة تثار في الصدور!... ولكنَّ الإجابة عنها كانت بديهية، وهم يشعرون بها في قرارة أنفسهم، كما يصوِّرهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٣).

إنها الحقيقة التي تصفع جهلهم، وتبين ظلمهم لأنفسهم: إنها تماثيل.. مجرَّد تماثيل بكماء، صمَّاء، فكيف تنطق؟ وهل يمكن أن تنطق؟!.

وأمام هذه الحقيقة الناصعة نكَّسوا رؤوسهم.. ولكنَّ أحدهم،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٦٤.

ولعلّه الكاهن الأكبر، وفي محاولةٍ منه لإنقاذ الموقف من الخزي، رفع رأسه وقال له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾.

وكان ذلك ما أراده إبراهيم عليه السلام. فها هو الكاهن الكبير في بابل يعترف أمام الشعب كله أن هذه الأوثان والأصنام التي يعبدونها، لا تنطق. إذن ماذا يجب أن يكون الاستنتاج؟ إنها ليست أهلاً للعبادة!.. إذن فلِمَ لا ينبذون الشرك، ويعبدون الله تعالى الذي لا شريك له؟. ودعاهم إبراهيم عليه السلام ليعودوا إلى عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد، بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

إنها دعوة إلى الحق. ودعوة إلى العقل والإيمان..

ولكن هل يستجيب لها الملك والكهان، وفي هذه الاستجابة زوالٌ للحكم ولشعوذتهم التي عن طريقها يتم تسخيرهم الآخرين لمصالحهم؟

لقد كان حرياً بشعب بابل أن يُعلن في تلك الساعة، الثورة على أولئك الظالمين الذين يضلّلونه ويستعبدونه، ولكنه على عكس ذلك استكانَ وذلّ. وعندها تنادى الكهان جميعاً: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[2].

ووجد فيها الحكام صرخةً منقذة، أعادت الهدوء إلى نفوسهم لأنها تقضي بالحكم النهائيّ على الداعية المتمرد، الذي حاول في

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٦ و٦٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

أفعاله وأقواله، أن يزلزل قواعدهم، وأن يقضيَ على كل ما لهم من سلطان ونفوذ، فأمر الملك بحبس إبراهيم عليه السلام، ودعا القوم إلى جمع الحطب للقضاء عليه حرقاً. كما أن الكاهن الأكبر أفتى بأن تحوَّل النذور إلى عملٍ ينصرون به الآلهة، ويعيدون لها قدسيتها وكرامتها، ويكون ذلك بالعمل والمشاركة في جمع الحطب وتكديسه في المكان الذي يُعدُّ للقصاص الكبير، والعذاب الأليم الذي سوف ينزلونه بإبراهيم.

٦ - معجزة الله العظمى

تراكمت أكداس الحطب والهشيم حتى صارت كالجبل. وأُعِدَّت في أتُونٍ ينتظر لحظة الاشتعال.. ونودي في الناس إلى الاجتماع، فتحلَّقوا بعيدين عن السياج الذي ضربوه حول الأتُّون حتى لا تطالهم شظايا الحريق، وحرارة لهيبه عندما يستعر..

وجيء بإبراهيم ووضع في منجنيق كانوا أعدوه خِصِّيصاً لهذه الغاية، ثم قذفوا به بالمنجنيق فوق ألْسنة النار التي كانت تتصاعد وتتأجج لهيباً محرقاً، فوقع في وسط هذا البركان الملتهب، بينما كان الناس يرقبونه وهو يهوي في النار مصفِّقين، فرحين..

كان ذلك الجمع من الناس يعتقد بأن إبراهيم سوف يتحول إلى كتلة من تلك الكتل التي تحترق، لمجرد وصوله إلى هذا الجحيم المتأجج، فباتوا ينتظرون حتى تخمد ألسنة اللهب، ويبقى الرمادُ، فيذهبون إلى بيوتهم هانئين..

أما إبراهيم عليه السلام فكان قد أوكل أمره إلى الله تعالى أمام هذا المصير، فهو سبحانه عالم بحاله لأنه بكل شيء عليم. وإذا كان جهادُهُ واحتماله الأذى من أجل تبليغ رسالة ربِّه، فإنَّ ربَّ الرسالة هو الذي يتكفل بحفظه.. ويكفيه أنه ما قصَّر في أداء واجبه، وأنه كان

صادقاً في دعوته، جاهداً في تغيير معتقدات القوم. ولذلك فإنه لم يكن وجلاً ولا خائفاً، حتى وهو يرى تلك النيران التي أعدت له.. وكيف يخاف من كان مثله في إخلاصه لله العليّ القدير، وفي ثقته القوية برب العالمين، وصلته الوثيقة بذي العرش العظيم، وكلها تقوم على الالتزام والأداء اللذين سنَّهما لمسيرته..

نعم، لم تُزعزع تلك النيران كيانهُ، ولم يُزلزل لهبُها وجدانَهُ، بل ظلَّ على دعائه وتسبيحه لله تعالى بقلب سليم..

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه الحادثة برهاناً ساطعاً، وشاهداً حقاً، على أنه هو الله الذي لا إله إلا هو، إله واحد في السماوات والأرض، وأنه ـ جلت عظمته ـ وحده يستطيع أن يتصرّف بشؤون الكون وما فيه من قوانين ونواميس وفق ما يشاء، لأنه يقول للشيء: كن، فيكون... وها هو سبحانه يبعث في اللحظة الحاسمة جبريل الأمين عليه السلام ليتلقى الرسولَ الكريمَ إبراهيمَ عليه السلام عندما قُذف به في المنجنيق، وليسأله وهو بين الأرض والسماء: هل لك من حاجة تسألها يا إبراهيم؟

ويُجيب النبيُّ إبراهيم عليه السلام باطمئنان المؤمن الواثق، والمجاهد الثابت: يا أخي جبريل، إن الله عالمٌ بحالي وغنيٌّ عن سؤالي، وهو أقرب إليَّ من حبل الوريد..

ويظل جبريل يحتضن إبراهيم عليه السلام حتى يوصله إلى جوف اللهب، فيأتي أمر الله سبحانه وتعالى من عليائه إلى النار، كما يخبرنا الحق بقوله عز من قائل: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

وطال انتظار الناس. . . ولكن ها هي أخيراً ألسنة النار تخمد، وسحب الدخان تتبدَّد، ويزول الحجاب الكثيف ما بين العيون ومكان تحديقها، فإذا الكل في دهشة عارمة لأنها كانت المفاجأة التي لم ينتظروها أبداً: فإبراهيم عليه السلام يجلس وسط كومةٍ من الجمر الأحمر هادئاً مطمئناً، وقد بانت عليه أمارات الارتياح حتى لكأنه ينعم في واحة خضراء، لا نار فيها ولا لهب.

وحدَّق القوم فيه، فإذا ثيابه ما زالت عليه لم تحترق، وما زال شعر رأسه كما كان، وجسمه سليماً معافىً، بل وزاد وجهه إشراقاً، وازدادت طلعته بهاءً. . إنه مرتاح مسرورٌ في جلوسه، يتمتم ويحرِّك شفتيه بما لا يفقهون!. . فماذا يقول إبراهيم عليه السلام في تلك الساعة، بل بماذا كان يدعو قلبه، وتهمس شفتاه؟. . إنه يلهج بذكر الله، ويتعبَّد إليه سبحانه بالحمدِ والشكر، وبالتسبيح والثناء على ما يستحقه ـ جل وعلا ـ لأنه ربُّ العالمين.

ويحملق القوم في هذا القابع سعيداً وسط الجمر، ويفركون عيونهم بأيديهم وهم لا يصدقون ما يرون.. ولكن هل يكذِّبون أنفسهم، وهو أمامهم، يشاهدونه بالعين المجردة؟. . . لقد بهرهم المشهد وأخذتهم الدهشة حتى صاروا مثلَ البلهاء لا ينطقون، ومثلَ الكُسْحَانِ لا يقوون على الحركة. .

وكان لا بد أخيراً من الاستفاقة، فإذا الكل يسائل نفسه: كيف نجا إبراهيم؟ وهل يمكن أن ينجوَ كائن حيّ من مثل هذا الأتُّون المستعر؟ بل هل يبقى شيء على حاله إن وقع فيه؟!. . . ولكنها الحقيقة الماثلة أمام سمعهم وبصرهم: إنه إبراهيم عليه السلام بذاته، ما زال حيّاً يرزق، بل ويبدو أنه ازدادَ ثقة وثباتاً عن ذي قبل. . .

إذن: لا بد من سرٍّ عظيم؟ ولكن ما هو هذا السر؟ طبعاً لن يعقل هؤلاء القوم معجزة الله العظمى!..

ولو أنهم عقلوا لأدركوا أنَّ الله تعالى على كل شيء قدير. فهو وحده ـ سبحانه ـ قادر على أن يُفقد النار خاصية الإحراق، فيحيلها إلى البرودة بدلاً من الحرارة، وإلى السلامة بدلاً من الأذى.. وها هي النار التي أوقدوها تأتمر بأمر ربِّها، فتكون حقاً وفعلاً «برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام».

لا. لن يعقلوا هذا السر، ولن يدركوا قوة المعجزة، طالما أن الضلال ما زال يركب رؤوسهم، وما دامت العماية تغشّي بصائرهم.. إنهم يدركون شيئاً واحداً، ألا وهو أنهم أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيداً، فجعلهم ربُّهُ الأخسرين.. وها هو خسرانهم يبين لهم بأم العين، ويرتَدُّ كيدهم إلى نحورهم، فإذا النار التي أرادوا إحراق إبراهيم عليه السلام بها، تتأجج لهيباً في قلوبهم المحرقة، وبركاناً صاعقاً في نفوسهم الضالة، لتزيدهم خسراناً على خسران..

كانوا يحسون بذلك في أعماقهم، ولكنهم كانوا غير قادرين على فعل شيء، فانصرفوا بعد المعجزة لا يلوون على شيء وتفرَّقوا باقين على عقيدة الشرك والوثنية، ما عدا فئةً قليلةً جداً، عرفت المعنى وأدركت أنها المعجزة التي تفوق قدرات البشر، فأيقنت أن الربَّ الذي حمى إبراهيم عليه السلام ونجّاه من النار المحرقة هو ربٌّ حقٌّ، وإلٰهٌ قادرٌ، وهو وحدَهُ يجب أن تدين له الناسُ بالعبادة والتقديس، فآمنت تلك الفئة بما يدعو إليه إبراهيم عليه السلام، وخضعت لله تعالى تعبدُهُ من دون سائر الأرباب والآلهة الأرضية. وكان من بين هذه الفئة المؤمنة،

«لوط» الشاب، ابن أخي إبراهيم عليه السلام، و«سارة» ابنة خالته الشابة، التي دأبت على مراقبة إبراهيم عليه السلام منذ عودته من الغار، وأحست بأن أفعاله وأقواله كانت كلها صدقاً، وأمانة واستقامة..

وإذا كانت معجزة الله تعالى التي شهدها أهل بابل لم تؤثر فيهم، ولم تشغلهم في قليل أو كثير، فإنَّ ملكهم النمروذ بن كنعان كان على عكسهم، إذ وجد نفسه خائباً، ولم يستطع أن يفعل بإبراهيم عليه السلام شيئاً. فلئن كانت تلك النارُ لم تقتله، فإنَّ أية وسيلة أخرى لن تكون مجدية للخلاص منه، وأسقط في يده، فخنس مذموماً مدحوراً... بيد أنه، رغم ذلك كله، لم يتخلَّ عن صلفه الجاهليّ في ادِّعائه الربوبية لبني قومه ولذلك وجَدَ أنَّ عليه ألاَّ يستكين لئلا يفلت الزمام من بين يديه. فإذا ترك إبراهيم عليه السلام وشأنَهُ في متابعة دعوته، فلسوف يجتمع الناس إليه، وينصاعون لحججه وبراهينه، وفي ذلك الخطر الأشد على ملكه.. إذن فليحاول أن يُبعد إبراهيم عليه السلام عن القوم، وليشغله هو، دون غيره من الناس، وذلك بالاستمالة تارة، وبالنقاش والجدال تارة أخرى، علَّه يجد وسيلة يهزمه بها.. وهكذا بدأ عمله معه، فأخذ يجادله، فيقول له:

ـ ما هذه الفتنة التي تشعلها في قومك يا إبراهيم؟ بل ومَن هو هذا الإلهُ الذي تدعو إليه من دوني؟ ألست أنا ربَّ بابل أُصرِّف الأمور فيها وأُدبِّرها، وأُبرمها وأنقضها بإرادتي؟ أليس القوم على ديني؟ فلِمَ تخرج أنت على هذا الإجماع وتحاول أن تنقض معتقداتنا وتدنس مقدساتنا؟

ويرد عليه النبيُّ إبراهيم عليه السلام بالحجة الدامغة:

ـ ما أنت إلا بشر مثل سائر الناس. ولا يمكن للبشر أن يكونوا آلهةً... ثم إنك تُحَاجُني في ربي، فلتعلم يا هذا أن الله هو رب السماوات والأرض. وهو الذي ينشىء المخلوقات كلها بعد أن أنشأ الكون والحياة والإنسان. وهو وحده الذي يتحكم في المصائر جميعاً، يمنح الحياة والملك والرزق لمن يشاء، ويعزّ ويذلّ من يشاء. وهو الذي خلقك على هذه الصورة، وهو الذي يحييك ويميتك مثلما يحيي ويميت كلَّ كائن حيّ..

أجل لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يبين لهذا الملك أن الله تعالى هو الخالق، وأنه وحده يختص بالحياة والموت، وهو ما لا يستطيعه أي مخلوق ولذلك انصب اهتمامه على قضية الحياة والموت، فقال للنمروذ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

وتوهم النمروذ أنه يملك الحياة والموت، طالما أنَّ أوامره تنفَّذ في رقاب العباد، فإن أمر بقتل أحد قتل، وإن عفا عن أحد نجا..

هكذا توهم النمروذ معنى الحياة والموت، ولم يدرك المعنى الحقيقيَّ للموت والحياة... ولذا قال: بل أنا أحيي وأميت.

وإذْ أدرك إبراهيم عليه السلام قِصرَ فَهم النمروذ عمَّا عَرَضَ عليه من حجة، دفعَ إليه بحجة أخرى تطاله بنفسه وتكشف عن عجزه التام، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[1].

إذن هناك ناموس كونيّ، ونظام شامل أودعه الله تعالى في هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

الكون. وأحد مظاهر هذا الناموس والنظام أن خلقَ الشمسَ وجعلَها تشرق من الشرق، وتغرب في جهة الغرب بالنسبة للكرة الأرضية. وهذه سنَّة الله لا تبديل لها، فهل يقدر هذا النمروذ الحقير «المتألِّه» أن يغيِّر هذه السنّة؟.. محالٌ.. ولذلك بُهت، وبدا عجزه وظهرت ضآلة ادِّعاءاته أمام حجة إبراهيم عليه السلام التي صدمته، وأذَلَّتُه على مرأى من جميع الحاضرين. وكان مكتوباً عليه حقّاً أن يُصدم، وأن يُذَل، وأن يظهر تضليلُه للآخرين. وكان لزاماً أن يُهزم أمام إبراهيم عليه السلام. فأين هو من حامل رسالة الله، وأنّى له الثبات أمام براهين النبوَّة وحججها المتفوقة؟!..

ولم يكن أمام النمروذ إلاَّ أن يلوذ بالصمت، ثم يصرف إبراهيم من مجلسه لئلا يُلحق به هزائم أخرى قد تكون أشدَّ وأدهى..

وتولَّى النمروذَ من حينها خوفٌ شديدٌ، وحِقْدٌ أعمى على إبراهيم.. فقد رأى نفسه عاجزاً فعلاً أمامه. يخاف أن يقتله ـ هذا إن أفلح في قتله ما دام مشهد النار ما يزال ماثلاً أمام عينيه ـ كما يخاف أن يتركه بين الناس، لأنَّ وجوده يشكل أكبر خطر على ملكه، إذ لا بُدَّ وأن تجتمع الناسُ إليه، وأن تلتفَّ حوله، وهو يملك من الوسائل والحجج ما يكفي لإقناعها.. إذن ما العمل؟!..

إن الوسيلة التي يمكن أن يتحاشى بها خطر إبراهيم هي في إبعاد الناس عنه بالتهديد والوعيد، فكل من تسوّل له نفسه الاجتماع به، أو الاستماع إليه، سوف يكون مصيره القتل..

وهكذا بثَّ النمروذ عيونَهُ في كل مكان تراقب إبراهيم في تحرّكه، وتضيّق الخناق عليه، حتى لتكاد تُحصي عليه أنفاسَه.

ونجحت هذه الخطة، وحُبِسَت الناسُ عن إبراهيم خوفاً على حياتهم. وكان لها أن تنجح، لأنّ أهل بابل كانوا ضعاف النفوس، وقد استذلّهم النمروذ من قبل بجبروته وطغيانه، فانساقوا وراءه كالنعاج، وأطاعوا أوامره كالعبيد. وبذلك ابتعدوا عن إبراهيم حتى بات، وهو بين أهله وأبناء مجتمعه، وحيداً فريداً، لا يجرؤ أحد على الدنوِّ منه، ولا يقبل أحد أن يكلِّمه أو يسمع له..

٧ ـ الهجرة إلى فلسطين
من بلاد الشام

وعلى تلك الحالة عاش إبراهيم عليه السلام ردحاً من الزمن، فبذل كل جهد لكي يهتديَ أبناء قومه، ولكنَّ جميع جهوده باءت بالفشل، فعزم على الرحيل من بابل، إلاَّ أنه آثر قبل ترك البلاد أن يتخذ له شريكة حياة.

وكانت ابنة خالته «سارة» قد آمنت بدعوته، وأخلصت له، كما أنها أحبته حبّاً جمّاً. فلما عرض عليها الزواج منه، وافقته عليه، ثم وضعت بعد زواجهما الميمون كل ما كانت تملكه تحت تصرف زوجها إبراهيم.. ولعلَّها كانت تملك كثيراً من المواشي والزروع..

واعتزل إبراهيم عليه السلام قومَهُ، لينصرف إلى دعاء ربِّه.. وأسرَّ إلى زوجه بأنه يريد أن يهاجر إلى ربه علَّه يجد في أرض أخرى قوماً يؤمنون بالدين الحنيف الحق. وكان إسراره لها بقوله تعالى: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(١).

وعرفت الفئة القليلة المؤمنة عزم إبراهيم الرسول على الرحيل، فهيأت نفسها للذهاب معه. وكان أولَ المهاجرين الرجلُ المؤمنُ

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٩.

«لوط» إذ أعلن لعمه عن أمنيته في اتِّباعه والمهاجرة معه إلى ربه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

وفي ليلة ظلماء خرج إبراهيم عليه السلام من مسقط رأسه في بابل، وفي رفقته زوجه «سارة»، وابن أخيه «لوط» والمؤمنون القلائل الذين اهتدوا وآمنوا برسالته.

إنها هجرة لرسولٍ كريم من أرض أجدبت من الإيمان فلم ينبت فيها إلا الضلال، وأمحلت إلا من الوثنية فلم تزدهر فيها عقيدة التوحيد..

وهي هجرة إلى أرض جديدةٍ علَّ أناسها يتقبلون رسالة التوحيد، فتصلح لأن تكون تربةً صالحةً لنماءِ وخصب هذه الرسالة المقدسة..

ومرَّ في طريقه بـ«أور» الكلدانيين، ثم ارتحل منها إلى «حاران» وهي بلدة في فلسطين التي كان الكنعانيون يحكمون جزءاً منها.

أقام إبراهيم عليه السلام أول الأمر في بلدة تدعى «شكين» وهي التي تعرف اليوم باسم «نابلس». ولكنَّ مقامه فيها كان قصيراً، إذ كان ينتقل منها إلى الجنوب ليؤديَ مهمة الدعوة والتبليغ بعد أن أنجاه ربُّه من عنت القوم الكافرين، وأنجى معه لوطاً المؤمن، حتى يصِلَ بدعوته إلى الأرض المباركة، وذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

وكانت هذه الهجرة تجربة جديدة للنبيِّ المجاهد إبراهيم عليه السلام

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧١.

الذي لم يكن يحلُّ في مكان إلاَّ ويدعو إلى الإيمان بالله تعالى. ولكنه لم يكن يجد العقول المتفتحة، ولا الآذان الصاغية، ولا النفوس الصافية لتقبَّل هذه الدعوة، ولذلك كان يرتحل دوماً حتى وَصَلَ إلى أرض فلسطين من بلاد الشام، فاستقَّر فيها، كما شاءَ الله تعالى له ذلك.

ولم يتوقف النبيُّ إبراهيم عليه السلام في هذه الأرض الجديدة عن الدعوة إلى دين الله العزيز الحكيم. ولكنَّه وجَدَ بالإضافة إلى غربته عن وطنه، غربةً جديدة في عدم تقبُّل الناس هنا أيضاً للهداية. ومع ذلك كانت هذه المجافاةُ للدين الحق دافعَه القويَّ للبناء والتغيير، فظل على العهد قائماً، وللإيمان بالله داعياً.

إنها أوقات عصيبة يواجهها إبراهيم عليه السلام بإعراض أهل فلسطين عنه. ويزيد في همه أنَّ قضية هامة كانت تشغل فكره، وتزعج قلبه منذ كان في بابل، ولم يستطع أن يجد لها حلاً..

إنه يؤمن إيماناً صادقاً وواعياً بأنَّ الله جلَّ وعلا هو خالق الخلق، وهو الصانع والمدبّر، وسنن الحياة في جميع مخلوقاته تثبت ذلك.. كما وأنَّ الله جلَّ وعلا هو الذي يميت الخلائق، وقد وضع لكل منها أجلها..

ولكنَّ مسألةً عميقةَ الغور، شديدةَ البعد. كانت تَشْغَلُ قلب الداعية، في مراقبته للوجود، ولمخلوقات الله تعالى، وهي من الحقائق الكونية والأسرار الوجودية التي لا يدركها أحد.. وهذه المسألة الهامة لا تتعلق في هذه الحياة الدنيا وحسب، وإنما تتعلق بالحياة الآخرة، فكيف يبعث الله تعالى الموتى ويحيي من في القبور؟.

إنه على يقين بأنَّ الله العليّ العظيم ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١). ولكنَّ قلب إبراهيم عليه السلام المتفتح دوماً على الحقِّ، يريد أن يعرف كيف يحيي الله الموتى، ويبعث من في القبور؟ فقد كان يخرج إلى البراري ويصعد إلى أعالي الجبال، عسى أن يشفيَ غليل قلبه المتعطش إلى تلك المعرفة. وها هو إبراهيم عليه السلام الآن على جبال فلسطين وأمامه صفحات الكون، وفي وجدانه آيات الله في الخلق، يتأمل ويراقب، فتزيده آيات الله العظمى إشراقاً وصفاءً، فتصعد نفسه الزكية نحو السماوات العُلى، تسأل الباري عز وجل أن يزيدها اطمئناناً، وأن يزيدها نوراً وعلماً.. ويصدر في هذه اللحظات الرجاء من إبراهيم إلى ربه تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾(٢).

ويأتي الوحيُ سائلاً: أو لَمْ تؤمن؟

قال: بلى. ولكن ليطمئن قلبي.

ويستجيب الله العزيز الحكيم لرجاء رسوله الكريم، لكي يُطمئِنَ قلبه الكبير للمسألة التي تشغله، فيَصَدُرُ الأمر إليه بأن يأخذ أربعة من الطير، وأن يضمها إليه محصياً ما فيها من خلقٍ وتكوين، ثم بعد ذلك فليقطِّعْ كلاً منها قطعاً قطعاً ولْيَخلطْها جميعاً، ثم لِيفرِّقْها أجزاء، ولْيَجعلْ كل جزء على جبل، ثم لِيدْعُ بعد ذلك تلك الأجزاء إليه...

وفعل إبراهيم عليه السلام ما أمره به ربُّه، وفرّق أجزاء الطيور على الجبال، ثم دعاهنَّ إليه، فإذا بالطيور الأربعة تعود كما كانت، وقد

(١) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

جاءت إليه على أجنحة السرعة، وهي تتدفَّقُ بقوة الحياة. .

وتأكد لإبراهيم رؤية قدرة الله تعالى على البعث والنشور، وأنه سبحانه على كل شيء قدير. وها هي البيِّنة الواضحة، والدليل القطعيّ الثابت قد تحقق أمام عينيه. . فكانت تلك هي الحكمة التي ألهمها الله تعالى لنبيّه إبراهيم، كي تظل أبد الدهر الشاهدَ الصادقَ للإنسان على البعث والنشور، ولكي لا يكون لدى الإنسان بعدها أيُّ شكٍ بأنَّ الله تعالى يحيي الموتى، ويبعث من في القبور. .

والجدير بالتذكير والتدبر أن قضية البعث والإحياء لم تزعج قلب إبراهيم عليه السلام عبثاً. فها نحن نرى اليوم، وكما تفكّر إبراهيم منذ آلاف السنين، بأن للموت حالاتٍ عديدةً، فمن الناس من يهوي من السماء ويتناثر لحمه وعظامه، ومنهم من تلتهمه النيران وتذروه رماداً، ومنهم من يتمزَّق جسده أشلاء صغيرة في باطن أسماك البحر عندما يغرق، ومنهم من يتحول إلى تراب في القبور بعد أن تأكل الديدان لحمه وتُفَرِّق عظامه. . . فكيف يجمع الله تعالى، يوم البعث، كلَّ فرد على صورة خلقه، ويعيده كما كان على نفس التركيب جسداً ونفساً وروحاً؟! هذا ما أراد إبراهيم عليه السلام معرفته بإلهام ربه، كي تكون البينةُ ظاهرةً على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى، وأن وعده بيوم البعث حق. وهو ما ثبت لأبراهيم عليه السلام بالدليل الحسيّ، وما رآه بأم العين عندما أعاد الله تعالى إحياء الطيور على يديه، وإعادتها كما كانت عليه. وهو البرهان القاطع الذي حفظه القرآن لكي يُنَبِّهَ إليه الناس على أمد الدهر وطوله. . وها إنَّ القرآن المجيد يؤكد هذه الحقيقة أيضاً، وفي سورة القيامة بالذات، لكي يردَّ على كل متسائل أو مرتاب، وبما يُبعد عن قلبه أو عقله أيَّ غموض حول هذا الشأن، فيقول سبحانه

وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾[1]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] أي كيف ما تكون الحالة التي انتهت إليها أجسادكم، وفي أي مكان حصل هذا الانحلال، فإنه الله تعالى يأتي بكم جميعاً من القبور من باطن الأسماك، أو من ذرات الغبار لأن الله على كل شيء قدير.

وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين.. وحقاً، وبإيمانه القويّ الذي لا تزعزعه الجبال ولا الأحداث، لم يشرك إبراهيم عليه السلام بربّه أحداً، فكان أُمَّةً قائمة بذاته: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]. فسلام على إبراهيم في العالمين.

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٣ و٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٣) سورة النحل، الآيتان: ١٢٠ و١٢١.

٨ ـ الارتحال إلى مصر

حلَّت في بلاد الكنعانيين المصائبُ، واعترتها النوائب. . فقد جاءها قحطٌ شديدٌ أتى على الاخضرار وأيبس الأشجار. وزاد في الطينة بِلَّةً ما عقبه من غلاء في مواد الغذاء، وما صاحبَهُ من ارتفاعٍ في الأسعار، حتى لم يعد الناس في تلك البلاد قادرين على مواجهة سبل العيش الضيّقة، ومعاندة أسباب الحياة القاسية. .

وعاد إبراهيم عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد، والإيمان، عسى أن يغفر الله لهم، ويزيل الغّم ويفرج الكرب عنهم، ويصبح الناسُ آمنين من آفات الجوع والفقر والمرض، ولكنه رأى أن لا جدوى من دعوته للقوم، فارتحل بصحبة زوجه سارة، وهبط أرض مصر، حيث مقاليد الحكم لملك من العرب، عملاق الجسم، قويّ الشكيمة والنفوذ، شديد البأس والبطش. . .

كانت سارةُ روعةً في الجمال، وآية في الحسن، وقد رآها يوماً وهي في السوق أحدُ بطانة الملك، فراعَهُ فرطُ جمالها، وذهب توّاً إلى مليكه، يزيّن له أمرَ الظفر بها، والتمتّع بحسنها. . . وما زال يشيد بأوصافها حتى اشتعلت الرغبة في نفس الملك، فأمر جنوده بالذهاب إليها واقتيادها إليه. . ولحقَ بها إبراهيم عليه السلام ، وما زال يعالج حرّاس

القصر حتى أذنوا له بالدخول، فوقف في مجلس الملك ينتظر الإذن له بالكلام.

وسأله الملك عن حاجته، فأبدى العذرَ، ثم قال:

ـ أيها الملك، إن المرأة التي أمرتَ أن يؤتى بها القصرَ هذا الصباح، هي أختي، وقد ألِفَتِ الحياةَ معي، واعتادت على رفقتي، حتى لا يمكنها العيش بدوني..

وقاطعه الملك بالقول:

ـ ولكنَّ الحال يختلف معها وهي في صحبة الملوك، ولسوف نوفِّر لها من أسباب السعادة ما يجعلها تقرُّ عيناً وتنساكَ.

وردَّ إبراهيم عليه السلام:

ـ العفو أيها الملك، إنها امرأة ليست كغيرها، ولا إخالها ترضى بالبعاد عني مهما توفرت لها المسببات!.

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يوجِدَ عذراً يثني به هذا الملكَ المعتديَ عن مرامِهِ، فلم يجهر بأن سارة زوجُهُ، لئلاّ يكون في ذلك خطر على حياته، فقد تُسوِّل للملك نفسُهُ الإقدامَ على قتله للتخلّص منه. ولئن استعمل إبراهيم عليه السلام التورية، فليس ما يعيبه قولاً ولا فكراً، لأنه لم ينطقْ إلاّ بالحقّ، فالأخت تكون في الدين، كما تكون في النسب. وزوجُهُ سارة أوَّلُ امرأةٍ آمنت به، وعملت بمعتقده.. وإن دينه الإسلام يجعل الناس إخوة في العقيدة. هكذا كان مراد إبراهيم عليه السلام عندما قال للملك بأن سارة أخته. ولكن أنّى لملكٍ ظالم أن يعلمَ ما يُبطنُ إبراهيم عليه السلام، بل وأنَّى لسائر البشرية أن تعلم ما فِي ضمير الإنسان وقلبه، وهل يعلمُ بالسّرائر إلاّ الله؟

وهل كان الإلهام الذي أتى إبراهيمَ عليه السلام في تلك الآونة، إلا من عند الله، إذ خشي على نفسه من جمالٍ آتاه الله لزوجه، وقد يدفعُ هذا الجمالُ عبداً أرعَنَ لقتله، وإن كان هذا العبدُ في ثوب ملك؟!..

وأفاق من شروده على قول الملك، يأمُرُهُ بالانصراف، فخرج يجرُّ أذياله وهو في همٍّ وضيق. ولم يجد متنفّساً لكربِهِ إلاَّ الله، فرفع ناظريه إليه تعالى بالدعاء:

«أللهمَّ هذه أمَتُك، وزوجةُ خليلك، فاصرف عنها السوءَ، واحفظها برعايتك، وارحمني وإيّاها، يا أرحم الراحمين».

وحملت الملائكة دعاء إبراهيم عليه السلام إلى المدى الذي أراد ربه تعالى أن يصل إليه، فجاءته الاستجابة إلهاماً بالوعد الحق: أنْ كن آمناً مطمئناً يا إبراهيم..

واجتمعت النساء حول سارة يلبسنها فاخر الثياب، ويزيّنّها بثمين الحلي والمجوهرات، وهي غير عابئة بشيء من ذلك، بل على العكس، أحسّت بها متاعاً يلسعُ جسدها، ويكوي معصمها وجيدَها... فتقززت نفسُها، وزادت حزناً على حزن...

وجلست سارة كئيبةً، صامتة، مطرقة، في قلبها غصّةٌ، وفي عينيها دمعة. إنها المرة الوحيدة التي تُفارق فيها إبراهيم عليه السلام الحبيب، منذ زواجهما. وهي حالةٌ مرّةٌ على قلبها، مُمِضّةٌ[1] لنفسها، لا ترغبُ في الحياة بدونه، ولا ترى للوجود معنى بفراقه.. انطوت على ذاتها، فإذا هي كتلةٌ من أسىً وعذاب...

---

(١) ممضة: موجعة.

دخل الملك مخدعها، ورآها على تلك الحال، فحاول أن يطيّبَ خاطرها، وأن يُغريَها بأسباب اللذة والمتعة، ولكنه ما إن مدّ يده نحوها، حتى أحسَّ ألماً في قلبه، واضطراباً في كيانه.. وهلع من فرط ما ألَّم به، فارتمى على أريكة بجانبها، وكمثل لمح البصر عادت إليه عافيته..

أعاد الكرَّةَ، وحاول الدنوَّ منها مرة ثانية، فعاودته حالة التمزق والانهيار.. وتكرَّرت المأساة مرات عديدة، وسارةُ واقفةٌ ترقبُ بحذر وخوف تخبُّطَ هذا الرجل في آلامِهِ وانفعالاته. وكان منتصفُ الليل قد آذن بالانصراف، عندما لاذَ الملكُ من وجهها بالفرار، وهرب يلتجىء إلى فراشه، حيث راح يغطُّ في نوم عميقٍ.. وتراءت له في المنام حقيقةُ سارة، وبعلها إبراهيم عليه السلام، فهبَّ مذعوراً ونادى حرّاسه: أحضروا تلك المرأة..

أُدخلت سارة غرفة الملك، وهي ترتعد من الخوف والقلق، ولكنه ما إن رآها حتى هبَّ واقفاً، وتقدَّم نحوها ـ وهو يشير لجنوده بالخروج ـ بخطىً هادئة، رصينة، وهو يقول:

ـ سلامٌ عليك أيتها المرأة واطمئنان...

وكأن الأمر في حلم غير قابل للتصديق، إلاّ أنها الحقيقة التي تعيها بسمعها وبصرها، مما جعل سارة لا تتفوه بأية كلمة..

ورأى الملك الوجوم الذي يُغشّي وجهها، فأراد أن يزيدها في الاطمئنان، فأمسك بكرسيّ قَرَّبَهُ إليها، ثم دعاها، بأدب واحترام للجلوس وهو يُردف:

ـ لا خوف عليك ولا حزن يا زوجَ إبراهيم. أنت وزوجك في

ديارنا على الرحب والسعة، نقدمُ لكما العون، ونخلص لكما الودّ . .

وآثرت سارةُ السكوت على الكلام، فزاد الملك ابتسامه، وعاد يقولُ لها:

ـ هل تريدين أن نأتيَ بزوجِك إلى هنا، أم ترغبين في الذهاب إليه . . .

وطارت نفسها شوقاً إلى إبراهيم عليه السلام ، فأجابت بفرح:

ـ بل دعني أذهب إلى زوجي . .

وها هي ذي سارةُ في الطريق تحثُّ الجند على الإسراع، بينما كان إبراهيم عليه السلام في بيته يُعايشُ ليلاً من الأسى ما عرفهُ قطّ في حياته، ويعاني من محنةٍ ولا أشدّ، ومن بلاء ولا أعظم. . إنه غريبٌ عن هذه الديار، وفد إليها يبتغي فضلاً من ربه، ويأمل في لقاء أناسٍ قد يؤمنون برسالته، ولكنه لم يكد يصلُ مصرَ، حتى داهمته المصيبة، وسلبتْ منه زوجه. . إنه نبيٌّ، وقد طنَّ في أذنيه صدىً من الأمان عندما كان الجنود يقتادون زوجه. . ولكنَّه بشريٌّ أيضاً، وفيه العاطفة والشعور. . وإنه مؤمن صادق ويعلمُ بأن الله الذي أنجاه من حرّ النار وسعيرها، سوف يحفظه من وصمة العار وذُلّها. . . ولذا نراه قابعاً في وحدته، وليس له إلاّ الدعاء والتضرّع إلى الله العليّ القدير، حتى إذا سمع ضرباتٍ تتوالى على الباب، هبَّ مسرعاً ليجد أمامه زوجه سارة، ومعها امرأة ترافقها. .

وكان لقاءٌ بين الزوجين الصادقين، يُغني عن كل وصفٍ أو بيان. . .

سأل إبراهيم عليه السلام ، بعدما صلّى إلى الله، وحمدَهُ على رحمته

به، وعونه له: من تكون هذه المرأة التي جاءت مع زوجه؟ فقالت له: إنها هاجر، وهي جاريةٌ وهبها إيّاها الملك، زيادةً في التكريم والتقدير...

وأقام إبراهيم عليه السلام في مصر ما شاء الله له أن يقيم. وعاش مع زوجه وأمتِها، وادع النفس، هانىء البال، راضيَ الحال.. أقدم على العلم الرساليّ والعمل في سبيل العيش الكريم بكدٍّ وجهد، وثابَرَ على السعي بصدق ووفاء حتى أفاضَ الله عليه خيراتٍ كثيرة، وبركات وفيرة... فازداد مالُه، وكثرت أنعامُه، وفاضت أرزاقه، وذاع صيتُهُ بين الناس، محموداً، مأثوراً.. حاول أن يبث في نفوس القوم عقيدته، وأن يغرسٍ في تلك الديار بذور الإيمان، ولكنه اصطدم بجهل الناس، وتحكُّم المادة بهم، فكانوا لا يهتمون بالأمور المعنوية، ولا يحفلون بالقضايا العقلية أو النفسية، همّهم العمل، والانشغال بالمتاع واللذة، ينغمسون في الترف، ويَلِغون في الفحش، إلاَّ فئةً قليلةً نادرة ممَّن هداهم الله تعالى.

لم يُفلح إبراهيم عليه السلام في صرف الأكثرية الساحقة من الناس عمّا هم عليه، بل ظلّوا عن دعوته يعرضون، حتى باتوا يحسّون به ضيقاً وبرماً. وكأنما كان نجاحُهُ في أعمالِهِ، وثراؤه في حياته، سبيلاً في تحوّل القوم إلى حسده، والسعي للإيقاع به، فراحوا يعملون في الخفاء على أذيّته.. وأحسَّ إبراهيم عليه السلام تلك الجفوة، وما يُبطنون من سوء النيّة، فأزمع على الرحيل، وقفلَ إلى بلاد الكنعانيين راجعاً، حيثُ الديار التي اتخذها من قبل موطناً، وأقام فيها من الزمن ردحاً...

٩ ـ إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام

حطَّ إبراهيم عليه السلام رحالَه من جديد في فلسطين، حيث أقام في مستقره مع زوجه سارة وخادمتها هاجر تحيط بهم نعمة من الله الكريم وأمان، فلا يصيبهم سوء، ولا يكدّرهم أذى. . . ولكن هيهات لنفس مؤمنة أن تحسَّ راحة كاملة، وفيها تعتمل بعض مشاعر القلق والتنغيص. . . سارة، كانت امرأة عقيماً، لا تنجب أولاداً، ويحزُّ في نفسها، ويؤلمها كثيراً أن ترى بعلَها ـ هذا الرجلَ المؤمن، والنبيَّ المجاهد الذي أحبته من أعماقها، وآثرته على كل شيء في دنياها ـ محروماً، من الخِلفة، خاصةً وأنها هي السبب في عدم العقب له، بعدما اقتربت من الشيخوخة، وبات محتماً، وفقاً للقوانين الطبيعية التي أودعها الله تعالى في خلق الإنسان أن تيأس من الحمل. .

وبمثل هذه المشاعر المريرة جاءت زوجها وأشارت عليه أن يتزوج أمتها هاجر، فهي في سن الشباب والنضارة والخصب، علَّ الله سبحانه يرزقه منها بولدٍ، تشرق به حياتُه، ويسرِّي به عن نفسه من الحرمان، بل ليكون متعة لهم جميعاً، طالما أنها حُرِمَت هي من نعيم الأمومة، وعاطفة البنوَّة. .

ووقف إبراهيم عليه السلام يقلّب الأمر، ويتبصَّر في العاقبة، فما

وَجَدَ خيراً من موافقتها على رأيها، فتمَّ اقترانه بهاجَرَ. ومرت فترة على هذا القران، فإذا بزوجته الجديدة قد حملت، فلما حان موعدها أنجبت غلاماً زكياً، سمَّاه أبوه إسماعيل..

وها هو ذا إسماعيل مِنَّةٌ من الله جديدة يمنُّ بها على رسوله المغترب الصبور، الذي هجر الأهل والوطن من أجل رسالة الله في العالمين... وها هو ذا فضل الله يغمر هذا الشيخَ المؤمنَ ويستجيب لدعائه في الذرية والنسل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) فكانت الاستجابة بشرى من الله الكريم: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾(٢).

وقرَّت عين إبراهيم عليه السلام بغلامه الحليم، وطابت لوجوده نفسه.. ومن فرط حبه له ـ وهذا طبيعيٌّ بعد حرمانه الطويل من الأبناء ـ صار إسماعيل جُلَّ اهتمام أبيه، ومحطَّ أنظاره، يصرف معه ـ أثناء راحته في البيت ـ غالبَ الوقت وهو يداعبه، ويناجيه، ويعطف عليه، ويوفِّر له كل أسباب العيش والراحة. بل وقد شُغِل به بعض الشيء حتى عن زوجه سارة، التي كانت ملاذه في دنياه لرمي الأثقال عن كاهله، مما جعل هذا الانشغال عنها سبباً في اشتعال الغيرة في نفسها... ومع الوقت راحت هذه الغيرة تتحكَّم بها حتى أقضَّت مضجعها، ولم تعد تطيق النظر إلى الغلام، كما صار وجود هاجر في البيت مثاراً لضيقها وتبرُّمها..

وعاد إبراهيم عليه السلام مرةً إلى البيت ليجد زوجَهُ سارة في حالةٍ من الحزن واليأس مروِّعة، فجلس إليها يحاول أن يخفف عنها، إلاَّ

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

أنها بقيت على سَورَةِ غضبها. . وبعد لأي وجهد، ولما لم تستطع أن تُخفيَ أمرها، كاشفت زوجها بحقيقة مشاعرها، وطلبت إليه أن يخرج بهاجر وابنها إلى مكانٍ بعيد، فلعلَّ عدم سماعها لصوتيهما، وعدم وقوع عينيها على صورتيهما، يعيد إليها الثقة بنفسها. . . وأنهت مطلبها هذا بالتشديد على أن يكون المكان الذي ينقلهما إليه بعيداً، حتى لا تَسمعَ من أخبارهما شيئاً. .

صحيح أنَّ إبراهيم عليه السلام كان شديد الحب لسارة، ولكنه خشي أن يصرفَهُ ما يلقاه في البيت عن مهام الرسالة، فشكا إلى ربِّه من تلك المعاناة، فجاءه التبليغ يحمل إليه الأمر بأن يرحل بالطفل وأمه إلى الأرض التي يشاؤها الله تعالى مستقرّاً لهما. . .

ودعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن ينير له الطريق الذي سيسلكه بأهله. فلما أوحيَ له بالإذن للخروج ركب دابته، وحمل طفله وأمه، وارتحل يسير على هدى الله. .

وظلَّ إبراهيم عليه السلام يُغِذُّ السيرَ، ويقطع الفلوات أياماً طويلة، حتى وصَلَ مكاناً مقفراً، في وادٍ أجردَ تُظلُّه الجبال وتحفُّ به التلال، فشعر بأن قوةً تشده إلى هذا المكان، وأحسَّ بأنَّ سرّاً يجذبه إليه. . وفي ذلك المكان نزل بأهله، وأقام لهما خيمة في ظل الصخور على جانب تلةٍ من تلك التلال. وبعد أن أمَّن لهما المقام استودعهما الله، محاولاً الرجوع من حيث أتى حتى لا يتأخر في العودة إلى فلسطين، وزوجته سارة بانتظاره. ولكنه ما إن لوى عُنُقَ دابته وقفل يريد المسير، حتى أمسكت به هاجر، تتشبث برجليه، وتشده من ثوبه، وهي ترفع صوتها شاكية، باكية. وقد أمسكت برأس دابته، وقبضت على خطامِها، تمنعها من المسير، وقالت لزوجها وهي تشرق بالدمع: «أين

ترحَلُ يا شيخَنا وتتركنا؟ وإلى مَن تخلِّينا في هذه القفار؟ رحماك يا سيدي، وارأف بهذا الطفل، إنه لم يقترف ذنباً، ولم يرتكب إثماً. . . خلِّني وحدي واحمله معك، فربَّ وحشٍ يداهمنا، أو حيوان يؤذينا، فهل يهنأ لك عيش من بعده؟!. .

لقد أرادت هاجر أن تثير مشاعر الحنان في قلب الشيخ، والعاطفة الصادقة في وجدان الأب ـ وهو لم يكن ينقصه منهما شيء أبداً ـ ولذلك راحت تذكره بما لإسماعيل في قلبه من حب، وبما تتخوف عليه من الهلاك، حيث لا ماء ولا طعام في هذا المكان، وحيث الوحوش الضارية، التي لا يردها عنهما شيء!. .

كانت العبرات في مآقيها أليمة، والدموع من عينيها سخية. . فذابت نفسُ إبراهيم عليه السلام أسىً، وتقطَّر قلبُهُ حزناً، حتى أنه لم يستطع أن يحبس دموعه، فبكى مع هاجر طويلاً، وتأوّه لحالها كثيراً. .

ولكن ماذا يمكنه أن يفعل وهذا ابتلاءٌ من الله ـ سبحانه ـ لا يعرف كنهه؟ إنه مأمور بذلك من ربِّه، وعليه أن يلبِّيَ أمره ويطيعه، فلا يحبسه شيء عن ذلك، حتى ولو كانت هذه المشاعر بالافتراق عن فِلْذَةِ كبده الوحيد. .

وهدَّأ إبراهيم عليه السلام من روعه وروع زوجه، حتى استكانت هاجرُ بعض الشيء، فطلب إليها أن تكفَّ عن أذى نفسها، ليطلعها على أمر ربّه الذي صدر إليه، ثم قال لها:

ـ إنه أمرٌ من الله يا امرأة، وهو ما شاء ـ سبحانه ـ لكما. . وهو ـ عزّ وجلّ ـ الذي أمرني أن أضعكما في هذا المكان، وهو يكفيكما. . .

وارتدَّت هاجر إلى نفسها وهي تسمَعُ كلام نبيّ الله خاشعة، مستسلمة لما يحكم به الله تعالى، لائذة بكنفه، آوية إلى رحمته، وقالت: لن يضيِّعنا الله. . .

لقد آمنت هاجرُ بإبراهيم نبيّاً منذ أن دخلت بيتَه في مصر، وهو لا ينطق عن الهوى، ولذا أقنعتها إجابتُه فلاذت بالصمت، محتسبة، منيبة. .

وها هو إبراهيم عليه السلام يغشاهُ الوحيُ ويخبره بأنَّ أهلَهُ هم، ههنا، في مكان بيته الحرام، فيقوم مودِّعاً أهله، وما إن يبلغ (كداء) وهو جبل بذي طوى حتى يلتفت إلى حيث ترك هؤلاء الأهل، ثم يرفع ناظريه ويديه نحو السماء، داعياً ربَّهُ مبتهلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾(1).

وانصرفت هاجر بعد رحيل زوجها إلى الطفل، وهي تشرق بالدمع فتأخذه في أحضانها، وتنظر إليه بأحداقٍ ملأتها لهفة الأم الملتاعة. .

ومرَّت الأيام سريعاً، ونفذ الطعام والماء، من غير أن تجد هاجر، فيما حولها، ما يعوّض عما نفد، لتسدَّ به رمقها ورمق ابنها. . . وباتت خاوية البطن، لا تزدرد إلاَّ الغصّات، ولا تشرب إلاَّ الحسرات. فها قد نضب ريقها، وجفَّ حليبها، بعدما لاكها الجوع بأضراسه، وأيبس العطش نضارة جسمها. ولكن إشفاقها على هذا الطفل، كان أكثر بكثير من إشفاقها على نفسها. ولكم كان يعذّبها أن

---

(1) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

يصرخ على صدرها، وكأنه يستجير بها من العطش والجوع، وهي لا تستطيع له شيئاً..

وجفاها النومُ فقعدت وسط الظلام الدامس، ونفسها تتقطع حسرات على طفلها، حتى إذا طلع الصباح وأضاءت الشمسُ وهّاجة، اندفعت خارج الخيمة تهيم على وجهها، باحثة عما يدفع الموت عن ابنها. ولاح لها عن بعد بريق (في المكان المسمَّى بالصفا) خالته ماءً، فهرعت نحوه مهرولة، ولكنها لم تجد الماء، لأن البريق كان أشعة الشمس تنعكس سراباً على الصخر.. لوت عنقها تبحث في مكان آخر، فتراءى لها كأن ماءً في الناحية الثانية (في المكان المسمَّى بالمروة)، فركضت إليه تسعى للوصول إلى الماء فلم تجد إلا السراب عينه. وبين الذهول والأمل، راحت هاجر تهرول وتسعى بين الصفا والمروة، فلا تجدُ نفسها إلاَّ بين سراب وسراب، حتى قطعت سبعة أشواط في سعيها. وهذا هو أصل السعي الذي يقوم به الحجيج كلَّ عام. وإنه أحد المناسك الواجبة لاكتمال فريضة الحجّ، لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]. وأما العبرة من هذا الطواف فهي لجوء الإنسان إلى الله تعالى، في حالة أشدّ ما يكون فيها احتياجاً إلى رحمة ربه في العفو والمغفرة، وطلب سدّ الحاجة، تيمناً بما أتته هاجر وهي بأمسِّ الحاجة إلى الخبير اللطيف، والرحمان الرحيم.

أُنهكت هاجر من التعب، وخارت قواها، فسقطت على

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

الأرض، ولكنَّ هاجسَ الطفل انتشلها من تلك السقطة، فوقفت ببطء، مصوّبة أنظارها نحو تلك الخيمة التي تقبع فيها كتلةٌ من كيانها. ولمَّا لم تسمع بكاءً، ولم تَر حراكاً - وكان الجوع والعطش قد اشتدا عليها كثيراً وأثقلا حواسها فلم تعد ترى جيداً من بعيد - وأَخَذَها الخوفُ على طفلها الذي ربما يكون قد أسلم الروح لخالقه. وطارت إليه على أجنحة اللهفة، لتقف قبالتَهُ مشدوهة، وهي تراه يفحص الأرض برجليه الصغيرتين، والماءُ ينْبَجِسُ بينهما، وقد غطَّى دائرة الطفل ومحيطه..

فهل تصدّق هاجر ما ترى؟!...

ولكنْ ها هو الماءُ ما يزال ينسابُ ويبلل قدميها، ويعيدها من ذهولها إلى حقيقة الواقع، فهل تشك إذن فيما ترى وتحس؟!...

وخرَّت على الأرض تبترد برحمة الله، وقد أيقنت أنَّ الذي أجفَلَ الوحش وأبعدَه في تلك الأيام والليالي التي قضتها هنا مع وليدها وحيدَين، والذي حفظهما من الموت عطشاً أو جوعاً، هو الذي أخرج الماء، فجعله يتدفق من هذه الأرض الجافة.

ورأت هاجر انسياب الماء فوق سطح الأرض، فراحت تجمع الترابَ والرملَ وتزمّهما إلى بعضهما. ولذلك سميت عين هذا الماء «زمزم». ثم تقدمت من طفلها، فوجدته يمتلىء حيوية، لم تنلْ منه قلةُ رضاعةٍ، ولم يأخذه فقدانُ حليب، فاعتصرته في أحضانها وشدَّته إلى قلبها، فرَنا إليها باطمئنان، واستكان على صدرها بأمانٍ، ثم غفا بهدأة الحنين ونام في طيّ الشوق، وعلى شفتيه ابتسامة تنبىء عن تسبيحٍ لإلهٍ قادرٍ حكيم. حقاً إن إسماعيل لطفلٌ زكيٌّ من الصابرين..

طفحت أسارير هاجر بالبشر، ونعمت بالسرور، فشخصت

بناظريها إلى السماء، وعلّقت عينيها في البهاء، وانصرفت إلى الباري بالدعاء والرجاء.. كانت في حالةِ إشراقٍ روحانيّ رائع، جعلها تغفو وتستكين إلى رضى ربها الرؤوف العطوف، وهو سبحانه لم يُضيِّعها وطفلها. ولم تستفق هاجرُ من تلك الهدأة، إلاّ على حفيف أجنحة الطيور وزغردتها، وقد جاءت رفوفاً تغطُّ على الماء، فتروي ظمأها، ثم تحوم من فوقها، وهي تملأ الفضاء تغريداً وغناءً..

وكانت قبيلة «جرهم» من العرب، تنزل في ذلك الزمن بـ «ذي مجاز» و«عرفات». ويشاءُ الله أن يهديَ تلك القبيلة إلى الماء الذي أخرجه بين قدمي إسماعيل، فجعلهم يرون الطيور تهبط وترتفع من بعيد، فاستبشروا بها خيراً، لأن القبائل في البادية، تعرف، بحكم تجاربها، أن الطيور لا تكثر فوق ناحيةٍ، إلاّ ويكون فيها عادة حَبٌّ أو ماء، أو طعام..

ولم يخب ظنّ جرهم، إذ ما إن وصلوا حتى وجدوا عيناً يفور منها الماءُ، فنزلوا يرتوون ويبتردون... ولكن ها هي خيمةٌ وفي داخلها امرأة وطفل وحيدان في هذا الوادي المقفر!.. وتقدموا من المرأة يستعلمون خبرها، فقصَّت عليهم حقيقة أمرها بحذافيره، فأيقنوا أن لهذَين المخلوقَين مكرمةً عند الخالق، فطلبوا أن تقيم القبيلة في تلك الناحية بقرب هاجر وابنها. ولكنها وهي الإنسانة المؤمنة، المصدقة لزوجها النبيّ الكريم، تركت القرار له حين العودة إليهما...

وجاء إبراهيم عليه السلام فعلاً يتفقد أهلَهُ، فوجد أنعُمَ الله تفيض عليهما: ماءً، ولبناً، وطعاماً، بل وحمايةً من قومٍ مكرمين، فأَذِنَ لجرهم بالإقامة هناك، كما كانت تمنَّت على هاجر..

وجاءت قبيلة جرهم إلى وادي مكة تتخذه موطناً ومقاماً، فكانوا

أول الناس الذين طلب إبراهيم عليه السلام من ربّه أن تهويَ أفئدتهم إلى أهله، فحلُّوا بتلك الأرض الطيبة. وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يأتيَ بهم ليؤمِّنوا وحدة الغريبَين، ويبعدوا عنهما الوحشة، بل وليكونوا أول نواةٍ لقبائل العرب التي عمَّرت هذا المكان، ثم دأبت على مدى عدة عصور بالوفادة إليه حجّاً وتبرّكاً، وأفئدتها مشدودةٌ إليه..

وها هو الإسلام بعد تلك العصور ينبثق في مكة بالذات، فإذا بالعالم الإسلاميّ بأسره، في مشارق الأرض ومغاربها، ومنذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية، يحنُّ إلى زيارة بيت الله الحرام، ولسوف يظل فؤاده يهوي إلى هذه البقعة المقدسة من الأرض حتى آخر الزمان.

إنه دعاءُ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، يستقرُّ في عوالم الله تعالى، وتحمله العصور والأجيال على الأرض، حتى يظل آية بيِّنة، وحجة ساطعة على حقيقة وجود الله، وتدبيره لشؤون خلقه... وها هي الأزمان تتعاقب، ويذهب الحجيج كل عام ليؤديَ مناسك الحج، فيحلّ بجوار نبع زمزم، الذي لم ينقطع منذ أيام إسماعيل، ليرتويَ من مائه ويتطهَّر به، ثم يحمله إلى أفئدة المؤمنين الذين وإن لم يحضروا إليه بعد بأجسادهم، إلاَّ أن حنينهم دائمٌ للحضور..

حلَّت جُرْهُمُ بمكة المباركة، فوهبَ كل صاحب خيمةٍ لإسماعيل شاة أو شاتين، حتى تشكَّلَ له بعض قطيع وهو ما زال في عمره النديّ... وهنا على بطحاء مكة بين متناثر الحصى وعين زمزم كان إسماعيل يترعرع في كنف أمه، ويدرج بين أطفال جرهم وبين أغنامها. فلما بلغ مبلغ الفتيان انصرف إلى الرعي والصيد، على عادة الناس يومئذٍ في الصحراء العربية.

١٠ ـ البلاء المبين

ولم يكن إبراهيم عليه السلام لينسى ابنه أبداً، فظل يأتي إلى زيارته بين وقت وآخر. وكان لقاؤه به في كل مرة بمثابة دفقات النور التي تنير نفسه، وتغرس فيها بذرة التوحيد الخالص، والدين القويم، تعينه على ذلك هداية ربه الجليلة، وتوجيه الله الحكيم، لأن إسماعيل سيكون ـ في علم الله ـ أوَّلَ النسل الذي سيحمل مشعل التوحيد من بعد أبيه المجاهد الكبير..

وجاء إبراهيم عليه السلام يوماً، لرؤية ابنه، وقد بلغ إسماعيل عهد الفتوة. فقاما بالسعي سويةً، ثم نام الأب، تلك الليلة بجوار ابنه هانئاً، فرأى في المنام أنه يذبحه ـ ورؤيا الأنبياء وأحلامهم صدق ـ.

أفاق إبراهيم عليه السلام من نومه، ذاهلاً!... تالله ما هذه الرؤيا؟!.. ويا لها من محنة! بل كم من محنة تتلوها محنة. فإبراهيم عليه السلام شيخ كبير الآن، وقد جالد الأيامَ كثيراً حتى بلغ من الكبر عتياً. لقد رزقه الله تعالى غلاماً، وكان ما يزال طفلاً رضيعاً عندما أُمِرَ أن يُسكنه بوادٍ غير زرع، وأن يتركه وأمه في مكان قفرٍ بلا جليسٍ ولا أنيس... وها هو الآن بعدما كبر الطفل وصار فتى، يؤمر بأن يذبحه؟! إنه ابتلاء عظيم حقاً. إذ كيف يمكنه أن يمسك السكين

ويذبح وليده بيده؟!.. وتأوَّه إبراهيم عليه السلام ونادى المولى تبارك وتعالى: ربّاه!..

إنه يتخيَّلُ المشهد فيراه مروّعاً، تقشعر الأبدان لمنظره، وتتمزقُ العواطف وتتألَّم القلوب لجسامته... كثير من الناس، يشيح بالعين عن الجزار، وقد أمسك بسكينه ليذبح حيواناً أحلَّه الله للإنسان.. فلا يطيق رؤية هذا الحيوان يتخبط بدمه.. فكيف بهذا الأب الشيخ، الذي انتظر العمر كله حتى يرزق ولداً. وعندما رزقه الله تعالى هذا الولد، ودرج وترعرع بين أحضان أمه بعيداً عن رعايته، دُعي من جانب الله تعالى لأن يذبحه بالسكين، وبكلتي يديه؟!..

إنه البلاء المبين الذي تنوء به الجبال الراسيات، ولو أتيح للجبال أن تنطق، لأفصحت بضجيج صارخ أنها لا تخالف أمر ربها، ولكنَّها لو تركت وشأنها لأبت القيام بهذا العمل. ولكن لنتذكر بأن العظائم كفؤها العظام، وإبراهيم نبيٌّ، وعلى قدر قيمته، وعلوِّ منزلته، وبحسب قوة إيمانه لا بد أن يكون ابتلاؤه واختباره..

أذعن إبراهيم عليه السلام للأمر، ووطَّد النفس على التنفيذ، فدعا ابنه في الصباح وذهبا يسعيان: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾(١).

وكان إبراهيم عليه السلام يعرفُ أنه يُقدم على أمر جلل. وكان يشعر بأنَّ الذي يهوّن عليه الأمر، أن يعرف ابنُهُ مصيرَهُ، وأن يقدم عليه مختاراً طائعاً، بدل أن يأخذه هو عنوة، ويذبحه قسراً.

وكان العهدُ على الطاعة، عهد إبراهيم مع ربه، وطاعة إسماعيل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

لأبيه، لأنه عليه السلام قطعة من أبيه إبراهيم فكراً وروحاً وعبودية لله تعالى. ولذا فإنه لم يلبث بعد أن سمع أباه، إلاَّ أن أطرق قليلاً، ثم رفع وجهه إليه، ونفسه تسيل طاعة وإذعاناً، وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١).

ثم تابع يشجع أباه:

ـ يا أبتِ! أشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثوبك حتى لا ينتضح من دمي شيءٌ فتراه أمي. واشحذ شفرتك، وأسرع مرَّ السكين، ليكون أهون عليَّ، فإن الموت شديد..

ولم يجد إبراهيم عليه السلام قدرة على كلامٍ، سوى أن قال لابنه:

ـ نعم العون أنت يا بنيَّ على أمر الله..

إنه برٌّ عظيم، وتوفيق من الله أعظم.. إنه الإيمان الراسخ الذي تخشع له الجبال، وإنها النفوس الراضية المطمئنة التي تقدم على أمر الله بلا تردد ولا خوف...

وأوثق إبراهيم عليه السلام ابنه، ثم أمسك بالسكين يحدِّق في شفرتها، وبصره لاينفك يتأمل هذا الابن البار، فيجد أنه لا يقدر أن يحبس أسى نفسه، ولا أن يمنع تدافع عبراته، ولكن جَمْجَمَها خشوعُهُ لأمر الله عزّ وجلّ... لقد ذاب قلبه شفقةً، وسالت روحه رحمة، لهذا الفتى، فتأوَّه ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾(٢).

ورفع إسماعيل نظره نحو أبيهِ، فما وجد إلا شحوباً يغطي كل

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٥.

قسمات وجهه، وآلاماً تعتصر قلبه، حتى لتكاد تسحقه، فأشفق عليه، وقال له:

ـ يا أبت! أكببني على وجهي، وقف من وراء ظهري، حتى لا يخونك العزم وأنت تنظر إلى وجهي، فإني أخشى أن تنهار قواك، وتحول بينك وبين أمر الله.

أدار إبراهيم عليه السلام ابنَهُ إسماعيل، ووقف وراءه، من فوق ظهره، ثمَّ وضع السكين وأمرَّها على قفا رقبته فلم تجرحْهُ، ولم تترك به خدشاً . .

لقد نفَّذ إبراهيم عليه السلام أمر ربه، ولكنَّ السكين لم تقطع! . . فما هذا الابتلاء!؟ . . . ورفع إبراهيم عليه السلام رأسه نحو السماء، وبخشوعٍ وضراعةٍ نبويَّين، دعا الله ربَّهُ أن يجد له مخرجاً مما هو فيه، ويعجل في خلاصه من هذا الموقف الرهيب . . ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

نعم في تلك اللحظة الحرجة، يرحمُ الله إبراهيم عليه السلام، ويتلطف بضعفه وبلواه. فيسلب السكين خاصيّة القطع والذبح، تماماً كما فعل ـ سبحانه ـ بنار النمروذ، ملك بابل، من قبل، فسلبها خاصية الإحراق . .

وهكذا لم تحرقِ النارُ إبراهيم عليه السلام، ولم يذبح السكينُ إسماعيل عليه السلام، فأي إيمان كان في نفسيْ هذين العبدين الطائعين؟! . . . إنه الإيمان ذاته، لا تنوُّع فيه ولا تعدُّد.

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٧.

الإيمان بالحقيقة المطلقة وهي أنه لا إله إلا الله، ربُّ الكون وخالقه، وربُّ الحياة وخالقها، وربُّ الإنسان وخالقه... وبهذا الإيمان بالله العليِّ العظيم لا تفقد النار خاصيّة الإحراق ولا تفقد السكين خاصيَّة القطع وحسب، بل هو السبيل لإمكانية تحويل كل أمر إلى أعجوبةٍ تكون بحد ذاتها آيةً خارقة للعالمين.

لم يُذبح إسماعيل، بل افتداه الله ربه بذبحٍ عظيم (ووصفه بأنه عظيم لأنه من عند الله وبمناسبة عظيمة)، إذ رأى إبراهيم عليه السلام أخاه جبريل يتنزَّل بكبشٍ ويسلِّمُهُ إليه، قائلاً له: هذا فداء إسماعيل..

وأهوى أبو الأنبياء على عنق الكبش بالسكين ذاته، الذي ما يزال يمسكه بيده، فقطعت أوداجه، وتخضَّبتِ الأرض بدمائه. وكان الفداءُ الذي يخلُدُ أبَدَ الدهر...

إنه الجزاءُ الأوفى من لدن الله تبارك وتعالى، استبشر به خليل الله إبراهيم، وفاز به المرضيُّ عند ربه إسماعيل... وكان هذا الجزاء فرضاً على المسلمين، يقومون به يوم النحر، ليقدموا الفداء في يوم جعلَهُ الله تعالى للمسلمين عيداً، ولمحمدٍ ﷺ ذخراً وشرفاً، وكرامةً ومزيداً. تخلد ذكراه، ما دامت الأرض أرضاً، والإنسان إنساناً. ويقوم الحجيج إلى بيت الله الحرام، في كل عام، بهذا الفرض تخليداً لذكرى تلك التضحية الغالية التي قام بها إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام، وتأكيداً من هؤلاء العباد، على أنَّ كلَّ حاج منهم متأهب، لأن يضحّيَ بنفسه وببنيه وبأغلى ما يملك، إذا شاءَ له ربُّهُ ذلك.. فيكون هذا التأهُّبُ هو الامتثالَ الأسمى من العبد المؤمن، والإحساسَ الأصدقَ بعبوديته الخالصة لله تعالى...

لقد كانت التضحية من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام معجزةً قائمة

بذاتها، فكانَ حرّياً أن تنادي ملائكة السماء، وهي تشهد هذا الحدث الأرضيّ: سبحانك اللَّهم وبحمدك، لقد اخترت الإنسان لحمل الأمانة، فكان كفؤاً لها، ووهبته من لدنك خصائص ورحمة، فتميَّز بها. إنك أنت العليم الحكيم. .

ذاعَ صيتُ إسماعيل ﷺ، وطار ذكرُهُ في آفاق الحجاز ومفاوزها فتوافدت إلى مكة قبائل العرب من كل البقاع، لتشاهدَ الفتى الذي جعله الله تعالى رمزاً يربط الأرض بالسماء برابطة التضحية والفداء. .

وإسماعيل الذي استقبل قبائل العرب بأسرها في بيته، وهو يسقيها من ماء زمزم، لم تغرَّه الشهرة، ولم يأخذه شيء من الكبر والخيلاء. فهو مسلم على دين أبيه الحنيف، والمسلمُ الحقُّ أشدُّ ما يريحُ قلبَهُ ويطمئن نفسَهُ، إيمانُهُ بحقيقة وجود الله، والامتثال لأوامره ونواهيه، والسعي لنيل رضاه - سبحانه -. فكان حريّاً بإسماعيل أن ينصرف - كما فعل - إلى الحياة العادية، مثل سائر الناس، لا يمتاز عنهم إلاَّ بما له من خُلُقٍ كريم، وعقل سليم، وبما يظهر عليه من الشمائل التي لم يألفْها البشر إلاَّ في رُسُل الله وأوليائه الصالحين.

وعاش إسماعيل بأمانٍ واطمئنان، فتزوَّج فتاةً من قبيلة جرهم - التي ألف حياتها وتكلَّم لهجتها - وراح يسعى إلى كسب رزقه الحلال ليُعيل زوجَهُ وأمه التي عانت من المصائب ما لا تقدر على حمله امرأة، وآخرها كانت رؤيا إبراهيم ﷺ بذبح وليدها، ولكنَّ الله - سبحانه - فداه، فقرّت عينُها بنجاته، وهنِئت نفسها بالحدث السعيد يوم اقترانه، فعاشت من بعد ذلك سالمةً من غوائل الدهر، مطمئنةً إلى المصير. .

أما إسماعيل فكانت هناءتُهُ أشدَّ ما تكون عندما يجلس إلى أمه، يسامرها ويؤانسها، ويجهد في برِّها كي يعوّضها عن الآلام التي عانت، والشدائد التي لاقت. ولكن ها هي المنيَّةُ توافيها، ويختطف الموت القلبَ الرؤوم، والنفس الحنون التي تعهدته في المهد، ورعته في الطفولة، وأظلَّته في الشباب، وأغنته بالمحبة والحنان في شتى مراحل حياته الماضية.

بكى إسماعيل أمَّه حقاً، وافتقدها فعلاً، ولكنَّ تردُّدَ أبيه عليه، وزياراته له، كانت تخفف عنه الآلام، وتضمِّد له الجراح.

وجاءهُ الأب يوماً فلم يجده في بيته، فسأل امرأته عن أحواله، فشكت من شظف العيش، وضيق اليد، وكانت لا تعرفه، لأنها لم تره من قبل ولم يعرّفها هو بنفسه، فتركها بعد أن قال لها:

- أقرئي زوجك عني السلام، وأبلغيه بأن يغيِّر عتبةَ داره..

وعاد إسماعيل، وسأل زوجهُ عن حالها، وما فعلت في غيابه. فأخبرته بأن شيخاً طاعناً في السنّ، جاء لزيارته، ولكنَّه لم يكدْ يرتاحُ من وعثاء السفر، حتى انصرف، موصياً لك بأن تغيّر عتبة دارك.

عرف إسماعيل أن الزائر كان أباه، فقال للمرأة على الفور:

- عودي إلى أهلك يا امرأة، فأنت طالق مني...

ومرة جديدة عاد إبراهيم عليه السلام بعد طول غياب لزيارة ابنه إسماعيل. وما إن أطلّ على بيته، حتى وجد امرأة تقف مهلّلة عندما رأته قادماً نحوها، فأمسكت على الفور بعنان راحلته، وتقدمت تساعده في النزول، وهي تبدأه بالتحيّة، وتدعوه للدخول...

وسألها إبراهيم عليه السلام عن زوجها، فقالت:

ـ حللت أهلاً أيّها الشيخ الجليل، لقد ذهب زوجي في عمل ولن يلبث إلاّ قليلاً ويعود. ثم أحضرت الماء ليغسل رأسه وقدميه، فيرتاح من وعثاء السفر، وهي واقفة بين يديه، فلما فرغ استأذنته في الانصراف قليلاً عنه وهي تقول:

ـ هل يأذن لي سيدي بينما هو يستريح لبعض الوقت؟

فتهلّل بشراً، وقعد مرتاحاً. لقد اطمأن إلى صلاح هذه الزوجة وهي تبدي من الشمائل الفاضلة، والأعمال الطيبة شيئاً كثيراً. وعادت إليه وهي تحمل اللبن والطعام وتقول:

ـ لعل الشيخ الجليل يرغبُ في تناول قليل من الرزق الحلال...

أكل إبراهيم عليه السلام هنيئاً في بيت ابنه، وشرب مريئاً، ثم ارتاح بعض الوقت، وقام يودّع تلك المرأة وهو يقول لها:

ـ قولي لبعلك بأن يحفظ عتبة داره..

وكعادته فور رجوعه، أول ما سأل إسماعيل زوجهُ عن حالها، وكيف قضت نهارها، فلم يسمع إلاً كلاماً مؤنساً وهي تقول له بنفس راضية:

ـ إنني كلّي شوق إلى زوجي. وهمّي أن يعود لبيته ويجد الراحة والاطمئنان.

ـ بارك الله بالنساء الفاضلات..

ـ إن شيخاً قدِم لزيارتنا، وقد رحّبتُ به وقمت على خدمته وتأمين راحته ولكنه لم يقبل البقاء عندنا، فقام مودّعاً على عجل...

ـ وماذا قال لك؟.

ـ إنه يقرئك السلام ويوصيك خيراً بعتبة دارك.

ـ وأين كان مقعده؟

فأشارت إلى حيث ارتاح الشيخ قليلاً، فإذا بإسماعيل ينكبُّ على المكان، وهو يقبّله ويقول:

ـ لقد اشتقت لك يا أبي، وكم أتمنّى أن ألقاك.

وجاءت زوجته، تهدىء خاطره، وتقول باستفسار:

ـ ماذا تقول يا سيدّ البيت؟

ـ إنه والدي يا زوجي المخلصة، وفي نفسي لوعةٌ لأراه، فقد بعُدَ غيابه عني في المدة الأخيرة.

ـ إذن كان الشيخ والد زوجي، وأنا لم أعرفه؟

ـ نعم، وقد أوصاني بك خيراً..

١١ ـ إبراهيم عليه السلام والبُشرى

لقد ظل لوط يرافق عمه إبراهيم إلى أن استقرَّ في مقامه بأرض فلسطين، فارتحل عنه لوطٌ إلى مواقع يقال لها «سدوم وعامورة» فيما يعرف اليوم بـ «شرق الأردن» عند البحر الميت، وهو الموقع الذي يسميه القرآن الكريم «المؤتفكة». وهناك بدأ لوط بالدعوة إلى الله عزّ وجلّ بعد أن بعثَهُ ـ سبحانه وتعالى ـ نبياً..

ولم تكن معاناة هذا النبيّ بخافية على الداعية الكبير إبراهيم الخليل، إذ كان يتسقَّط أخباره باستمرار، ويعرف ما يكابد من أولئك القوم الذين يعيش بين ظَهْرانَيْهِم في «سدوم وعامورة» والذين يسميهم القرآن الكريم «قوم لوط» بعد أن أغلقوا قلوبهم وعقولهم على الجهالة، وسدُّوا جميع منافذها في وجه رسالة التوحيد. وكان إبراهيم عليه السلام يدعو الله ـ سبحانه ـ ليجْعَلَ مخرجاً لابن أخيه النبيّ الكريم من تلك المعاناة التي تُشقيه في سبيل أداء واجبه القدسيّ...

وذات يوم، وفيما كانت الشمس في كبد السماء، انتحى إبراهيم الخليل جانب خيمته يحتمي في ظلها من شدّة القيظ، وراح يسترجع شريط حياته منذ رحيله عن أرض العراق، بحيث يقف به التفكير عند كل حادثٍ جلل وافاه به الله تعالى، وكيف كان سبحانه يؤتيه آياته

البيِّنات في معالجة الحوادث وسنِّ التشريع لكل منها وكل ذلك لأجل مصلحة الإنسان في هذه الأرض.

وبينما هو كذلك إذا به يلمح على البعد ثلاثة رجال قادمين نحوه، فقام يستقبلهم، فلما وصلوا إليه، هاله ما يبدو على وجوههم من سماتٍ جميلةٍ لم يرَ مثلها في بني البشر. وتفرَّس بهم مليّاً، فإذا هم غرباء، لم يعرفهم من قبل. . . ولكنهم بادؤوه بالتحية قائلين:

- سلاماً.

- قال: سلام، قوم منكرون! (أي لا نعرفكم).

فلم يردُّوا عليه، ولم يعرِّفوا بأنفسهم، فدعاهم إلى داخل خيمته مرحِّباً بالضيوف الذين جاؤوه قاصدين الاستضافة لديه. وطلب على الفور من زوجه سارة - وكانت قد شارفت على الشيخوخة التامة كما يبرز من تجاعيد وجهها، وابيضاض شعرها - أن تحضِّر الطعام لزوَّاره، فأصول الضيافة تقضي بأن يُدنيَهم ويُكرمَهم. .

وردت امرأته عليه: عندنا بعضٌ من شاة مذبوحة.

قال لها: لحم قليل لا يكفي. نذبح عجلاً سميناً، فلا ريب أنَّ النفر قادمون من بعيد، وربما يكون الجوع قد أخذ منهم كل مأخذ. . وفي وقت قصير مدَّ إبراهيم عليه السلام الشواءَ أمام ضيوفه، ودعاهم للطعام قائلاً: «بسم الله وعلى بركة الله».

وكمثل عادة العرب في تلك الأزمان، تناول هُوَ من الزاد قبل ضيوفه، تطميناً لهؤلاء الغرباء على صحة هذا الزاد وسلامته، ولكنهم لم يمدُّوا يداً إلى الطعام. . كان يأكل ويحثُّ هؤلاء الرجال أن

يشاركوه، إلاَّ أنَّ أحداً منهم لم يفعل، مما جعله يوجس في نفسه خيفة ويتساءل: ماذا يروم هؤلاء القوم؟.

وراح إبراهيم يفكِّر وهو يراقب هؤلاء الغرباء. فما بالهم لم يمدوا يداً إلى مائدته، وهو كما يعرفه الناس شيخ هرم، لا يفعل المنكر، ولا يؤذي أحداً. وهو من العاملين على نشر الخير بين الناس، تجسيداً للرسالة التي يحمل؟ إذن فَلِمَ ينوي هؤلاء القوم الشرَّ له؟!.

هكذا راح يوسوس له الشيطان وهو يراهم عن الطعام والكلام ممتنعين. وتفسير مثل هذا التصرّف المستهجن، لاسيما وأن عدم تناول الضيف طعام مضيفِهِ هو إشارة للعداوة والبغضاء، كما كان في عادات البادية وتقاليدها.

نعم قد يكون الأمر كذلك بين أهل الخصام. ولكن ما من عداوة سابقة بينه وبين هؤلاء الرجال، الذين لم يرهم في سابق حياته قطُّ، فلماذا لا يحاول أن يستكشف ما في نفوسهم؟ ولذا قال:

ـ إنه شواء سمين، وقد أعددناه زيادة في التقدير لوفادتكم!..

ونظروا إليه باطمئنانٍ يظهر على وجوههم، وقالوا: لا توْجَلْ، ولا تَخفْ يا إبراهيم، فنحن رسل الله إلى قوم لوط عليه السلام، والملائكة لا تأكل، وقد أمرنا الله تعالى بأن نزفَّ إليك بُشرى سعيدةً...

وتفتَّحت أسارير إبراهيم عليه السلام، وافترَّ ثغره عن ابتسامةٍ نبويَّة، فقال:

ـ أهلاً بملائكة الله تبارك وتعالى تنزل من السماء لتطهِّر الأرض.

فهاهم ملائكة منزلون، في بيت إبراهيم عليه السلام، ويحملون إليه

البشرى، إذن فهي بلا ريب بشرى كبيرة وعظيمة، لأنها من الله عزّ وجل، ولهذا سألهم عنها، فقالوا:

- ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

وذهل إبراهيم عليه السلام. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

- ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

- ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾(١).

وكانت امرأته قائمةً على عملها، فأقبلت في صرَّة (أي في حركة من الضجة والصياح) فصكَّت وجهَها (أي ضربت بيدها على جبينها) من شدة التعجُّب وقالت: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾!..

- ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾(٢).

وحيال أمر ربِّها الحكيم العليم، اقتنعت سارة، وأسعدتها البشرى، فضحكت وقد غمر قلبها السرور.. وكان فرح زوجها إبراهيم عليه السلام لا يقل عن فرحها، فشكرا ربَّهما على هذه النعمة الكبيرة.

وأنِسَ إبراهيم عليه السلام للبشرى من ربِّه سبحانه، فعادَ يسأل الملائكة عليهم السلام عن مهمتهم من قوم لوط، فقالوا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(٣).

---

(١) سورة الحجر، الآيات: ٥٣ ـ ٥٦.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٧٢ و٧٣.

(٣) سورة الذاريات، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

ثم تابعوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾(١).

قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ﴾، وهو ابن أخي، وقد آمن بي، ونزح معي من مسقط رأسه، فكيف تهلكون قرية فيها بيت للمؤمنين؟.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾(٢).

لقد حاول أبو الأنبياء أن يُظهرَ لملائكة الله شفقته على أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم. وعرض أن يستجير المولى تبارك وتعالى، ويتضرع إليه ليؤخر عنهم العذابَ إلى حين، علَّهم يرعوون، وعن الغيّ والضلال يعودون.. وما المحاولات تلك من إبراهيم الخليل إلاَّ دليلٌ على صدق مشاعره، ورقة أحاسيسه وإشفاقه على الناس، والرأفة بهم. فحاجَّ الملائكة، وطلب الاستمهال ليدعو إلى الله تعالى بشأنهم. ولكن الملائكة مرسَلون بأمر ربهم، وقد صدر الأمر منه تعالى فلا رادَّ له... ورغم معرفة إبراهيم عليه السلام بفساد قوم لوط، ويقينه بأحقِّية تنفيذ أمر ربِّه، فإن مشاعره فاضت، فتأوه، وأناب.. ولكنَّ الملائكة طلبوا إليه الإعراض عن هذا الذي هو فيه، مؤكدين أمر الله تعالى بإنزال العذاب بالقوم الظالمين، فقالوا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾(٣).

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٢.

(٣) سورة هود، الآية: ٧٦.

١٢ ـ بناء الكعبة الشريفة

وحلَّ بقوم لوطٍ عليه السلام ما حلَّ. . .

وأَفَلَتِ السنواتُ، وحان الوقت ليدرك الإنسان أن الله ربَّه هو العزيز الحكيم، وهو الخبير العليم، وأنَّ ما أنزل على نبيِّه وعبده إبراهيم عليه السلام من الأوامر التي كانت ما تزال غامضة. . وأن ما ابتلاه به، في أحيانٍ كثيرة، من البلاءات العظيمة والمبينة. . لا بدَّ وأن تتوضح الآن أسرارها، وتبين حكمتها. .

لقد شاءَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يحمل نبيُّه إبراهيم عليه السلام ابنَه إسماعيل عليه السلام وأمَّه هاجر إلى وادٍ غير ذي زرعٍ. . ولكنَّ هذا الوادي الذي كان، قبل سنين عديدة، مكاناً مقفراً في جوف الصحراء، نجده الآن يضجُّ بالحياة، وتتدفق في أنحائه كل مظاهر العيش التي كانت سائدة في ذلك الزمن، من رعيٍ وقبليَّة، ومن تكاثر وحيوية أو غير ذلك مما يساعدُ إنسان تلك البيئة في الحفاظ على بقائه والاستمرار في وجوده على الأرض.

وإذا كانت هجرةُ إبراهيم عليه السلام بأهله إلى هذا الوادي هي السببَ الذي أدى إلى إشاعة الحياة فيه ـ وفق ما شاء الله سبحانه وقدَّر ـ فإنَّ الغاية من ذلك تظهر عندما يعود إبراهيم عليه السلام إنفاذاً لأمر ربِّه،

لكي يعيد بناء البيت العتيق الذي تهدَّم وعفَّى عليه الزمن، وفي نفس المكان الذي بناه فيه آدم عليه السلام ليكون أوّلَ بيت وضع للناس بمكة، يصلِّي فيه الإنسان، ويحجُّ إليه، عبادةً وزلفى لرب العالمين.. فقد هبط آدم عليه السلام الأرض، وأقام البيت لأول مرة، وقيل بأنه لما رآه مستوياً أمامه، راح يطوف حوله، عبادةً لله، مثلما تطوف الملائكة حول البيت المعمور تسبيحاً وتكبيراً، فحفَّت الرحمة بمكان وجوده، لأنه أول بيت يُعبَدُ فيه الله عزّ وجلّ على وجه الأرض... ثم لمَّا طالَ العهدُ بهذا البيت ضاع منه الأثر، وخفيت معالمه، فشاء الله تعالى أن يُعيدَ أبو الأنبياء إبراهيم وابنُه إسماعيل عليهما السلام بناء البيت العتيق، وعلى نفس الأسس والقواعد التي بناه عليها أبو البشرية آدم من قبل. أما الصلة في ذلك فهي أن الأنبياء هم المكلَّفون بحمل رسالات الله تعالى ونشرها في الأرض، بل وفي كل مكان يبعثون فيه في هذا الكون الفسيح، الذي ما زال إنسان الأرض يجهل وجودَ مخلوقات مماثلة له أو غير مماثلة في أرجاء ذلك الكون... وأن تلك الرسالاتِ والدعواتِ التي يحملها الأنبياء لَتنبثقُ من مشكاةٍ واحدة، وتعمل في اتِّجاه واحد، هو الاتجاه الصاعد إلى مرضاة الله تعالى. وما كان عمل نبيٍّ من الأنبياء ليصطدم بعمل نبيٍّ آخر أو يعارضه، فالجهود النبويَّة تتناسق وتتكامل ليتمِّم بعضُها بعضاً.. ولذلك يكون عمل إبراهيم عليه السلام مكمِّلاً لعمل آدم عليه السلام في إعادة بناء البيت الحرام، ليظل المحجة الدائمة للمسلمين على مدى الأزمان والدهور، لأن الدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

ويأتي إبراهيم لزيارة ولده إسماعيل في مكة، ويطلعه على ما عهد به ربّهما إليهما من بناء بيته بقوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

وتطيب نفس إسماعيل عليه السلام لهذا التكليف من لدن العزيز الحكيم حتى يستوي بيت الطهارة والعبادة من جديدٍ كعبةً مشرَّفةً، ومثابةً للناس وأمناً، كما يشاء ـ سبحانه ـ لعباده المخلصين.. ويندفع إسماعيل عليه السلام مع أبيه في العمل، يرفعان القواعد من البيت، ويدعوان الله تعالى أن يتقبَّل عملهما، بهذا الدعاء القرآنيِّ الكريم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

ويشاء صاحبُ الأمر والنهي، ربُّنا تبارك وتعالى، في تكليفه للنبيِّين أن تتضافر جهود «إبراهيم الشيخ» مع جهود «إسماعيل الشاب»، لكي تكون الشيخوخة الحكيمة، والشباب الدافق متعاونين على تنفيذ أوامره تعالى، وتأدية العمل الإنسانيِّ على حد سواء، فلا تركن الحكمة إلى السكون، ولا تتبدَّدُ الطاقة بالهدر، بل تعملان كالبنيان المرصوص تشدَّان أزر بعضهما بعضاً، في سبيل إعلاء كلمة الله، ومن أجل مصلحة عباده.. فهلاً رأينا كم يعلمنا القصص القرآنيُّ من عظاتٍ بالغات تشع أنوارها أبداً لتُرصِّع هام الإنسانية بكل ما هو حقٌّ وعدلٌ وخير؟.

وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الكعبة، فارتفعت حجارتها، واستوى مقامها الذي تتجلى فيه طمأنينةُ قلبِ آدم، وحلمُ إبراهيمَ، وصبرُ إسماعيل عليهما السلام.. فلا يكادُ أحدٌ يدنو من المسجد الحرام، إلاّ وتتدفق المشاعر في داخله بالأمن والأمان، وتفيض في كلِّ كيانِهِ خوالج السلام والاطمئنان. يستشفّ ذاته، وترتدُّ إليه نفسه، مهما

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

طال به الضياعُ في سابق أيّامه. . . يدور حول الكعبة مثل الذرات وهي تلتف حول النواة، في سلام عظيم واستسلام لربٍ كريم يمتلىء بهما المكان والزمان، ويجعلان الإنسان جزءاً من هذا المكان والزمان، لائقاً بأن يكون في الزمرة التي اصطفاها وارتضاها الرحيم الرحمن. . .

وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت، فلا ينفكّان عن التطواف بناظريهما في ملكوت السماوات وهما يدعوان الله تبارك وتعالى أن يتقبَّل عملهما ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.

ويطوي التاريخ الإنسان والزمان، ويتهدم البيت الحرام مراتٍ عديدة، فيُعادُ بناؤهُ على نفس الأساس الذي وضعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلُّ على أمرين هامَّين: قدرة الباني ونبوغه في التصميم، وبقاء البيت هو هو، لا يعتريه تبديل ولا تغيير لأنه ليس كباقي البيوت. .

صحيح أن جهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كان يقتضي أعداداً من الرجال، فقد كان عليهما الحفر في عمق الأرض، وقطع الحجارة ونقلها، ثم تسويتها ورصفها، ولكنهما بشران غيرُ عاديَّين، «وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم». . . ولا نخالُ أحداً يعرف الوقت الذي استغرقه بناءُ الكعبة، تماماً كما يجهل كل باحث الوقت الذي استغرقه بناء السفينة على يد نوح عليه السلام. وذكر سفينة نوح عليه السلام في هذا السياق جميل ومفيد، لأنها كانت أداة نجاةٍ للمؤمنين السابقين المطيعين، تماماً كما كانت الكعبة وما تزال، ملاذاً للناس ومثابة للعالمين، وأماناً. . فالكعبة ـ إذن ـ هي سفينة الإسلام الثابتة أبداً على الأرض. وهي تنتظر الراغبين في النجاة من هول الطوفان الذي يأكل

النفوس، ويقتل الضمائر.. ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1].

وليس دعاؤنا هذا إلاّ اطمئناناً لقلوبنا. وهو اطمئنان جدير بأن يوجد راحة النفس والضمير، وبأن يبعث الأمن الذاتيَّ، لأن إبراهيم وولده إسماعيل - عليهما السلام، وكلاهما نبيُّ الله - قد عاشا كلَّ تلك الأحداث التي مرَّت في حياتهما، وهما لا ينفكّان بالتوجّه والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يجعلهما مسلمين له. فهما الأكثر إنسانية، والأقوى إسلاماً، يعبدان الله ويقيمان بيته الحرام، ثم يسألانه أن يتقبّل منهما، وأن يُخرج من ذريتهما أمة مسلمة.. وغاية هذا الدعاء - فضلاً عن أنه يكشف عن اهتمامات قلب المؤمن - إنما هي إقامةٌ لصرح العقيدة، واعتبارٌ لكون الكعبة بيتاً مقدّساً لكل الناس، ولكل الأجيال، علَّ الله - عزَّ وجلَّ - يتقبَّل منهم التوبة، ويتوب عليهم، ربنا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

إذن تتجاوز اهتمامات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الزمن الذي يعيشان فيه، وهما يرجوان مستقبلاً هامّاً، ألا وهو مستقبل الأمة الإسلامية، فلا يريان إلا الله وحده قادراً على بناء هذا المستقبل، ولكن عن طريق الرسل والأنبياء، لتصفوَ قلوب الناس للدعوة، وليعيشوا حقاً في رحاب الإيمان.. ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

ويتحقّق الدعاء، وتترى الأنبياء والرسل، حتى يكون خاتمَها محمد بن عبد الله ﷺ يتلو على الملأ الكتاب المبين، ويعلّم الناس الحكمة، ويزكي العالم بالإسلام.. ولكي تظل الدعوة إلى الإيمان قائمة، كان لا بدّ من رمز هو برهانها. فلئن كان البيت الحرام منذ آدم عليه السلام، يدل على تلك الدعوة، فإن تعرّضه للهدم قد يوهن النفوس الضعيفة بانقطاع تلك الدعوة، فكانت الآية للاستمرارية والديمومة، بل العلامة المميّزة، حجراً حمله جبرائيل وسلّمه لإبراهيم عليه السلام ليكون في مكانه المعيَّن من البيت العتيق.

ومن ملامسة هذا الحجر، انطلق إبراهيم في طوافه حول الكعبة هو وابنه إسماعيل عليهما السلام. وبعد الطواف، وقفا أمام الحجر وقبّلاه، فكانت قبلاتهما نموذجاً لقبلات البشر أجمعين، فالشفاه تحنو على ذلك الحجر المقدّس تلثمه متبرِّكة، متطهِّرة..

ولكن ما الذي رمى إليه إبراهيم عليه السلام من طوافه حول الكعبة وتقبيله للحجر الأسود في جدارها؟

هل كانت نيَّته أن يجعل الناس، على مرّ الأزمنة والدهور، تتذكَّر فعله وبأنَّه بنى هذا البيت؟ حاشا لإبراهيم عليه السلام أن يكون له مثل هذه النيَّة. إنَّه يرنو إلى البعيد، إلى تلك الأمم التي ولدت، والتي ستولد فيما بعد، وكأنه يخاطبها بهذه الدعوة الإنسانية قائلاً:

«هاهنا، وأمام هذا البيت، جميع الناس يتساوون مساواة تامة، لا ميزة لأحد على الآخر، فلا سيد ولا مسود، ولا غنيّ ولا فقير، ولا حاكم ولا محكوم.. لا فضل لعربيّ على أعجميّ، كلكم خلق الله، وكلكم أمام المساواة التي أرادها الله، فلا فضل إلاَّ لمن كان قلبه

بالإيمان مفعماً، وقام على العقيدة الصحيحة، وسلك الطريق القويم».

إذن، فالغاية جليلة، وليس هَوِيُّ الأفئدة إلى ذلك المقام عبثاً، بل هو إشعار للإنسانية، وحثٌّ لها على نشر العدل والمحبة في أرجاء الأرض كلها.. إنَّه شعورُ كلِّ من يزور المسجد الحرام، فيعود إلى بلده وأهله، وفي نفسه مشاعرُ لم يعرفها من قبل.. إنها مشاعر الإنسانية في سموّها، وفي تطلّعها نحو المثل الأعلى، حتى إذا أحسَّ أن تلك المشاعر لم تفعل فعلها أعاد الزيارة مرةً ثانية، يغتسل بالماء الطاهر فيتطهَّر جسمه، ويشرب منه فتذهب أدرانُ نفسه، وتكون الحياة الكريمة على الأرض لائقةً به حقّاً، وكذلك في الآخرة.

إنه بيت الطهارة والصفاء لكلِّ من أخلص النيّة لربه وخالقه، فطاف أو اعتكف، وتعبّد وسجد لله رب العالمين: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

ويسرد علينا القرآن الكريم شيئاً عن حجّ بيت الله الحرام، وعن الفوائد التي يجنيها الناس من الحج بقوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ[2] مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾[3].

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٢) سميت بكة لأن الناس يبكّون فيها أي يزدحمون.
(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦ و٩٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾(١).

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾(٢).

﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾(٣).

فهو بيت مبارك من دخله كان آمناً. وهو مثابة للناس. وفيه مقام إبراهيم عليه السلام الذي يأمرنا الله ـ سبحانه ـ أن نتخذه مصلًى لكي نتوجه إليه عابدين، مصلين، شاكرين، حامدين. ثم إنه سبحانه يأمرنا بالتوجه إلى هذا البيت في جميع صلواتنا، في النهار والليل، وأنّى كنا، وفي أية بقعةٍ من الأرض وُجِدْنا.. وبهذا التوجه إلى البيت يجب أن نذكر دائماً الجهود التي بذلها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في إعادة

(١) سورة الحج، الآية: ٢٦.
(٢) سورة الحج، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

بنائه، ورفع قواعده. وقد يكون في عبادتنا لله تعالى، وعند خشوعنا في الصلاة، ما يزيد من منزلة إبراهيم ﷺ ومن ثوابه عند ربِّه، ولا سيما ما قد يناله المسلم من الأجر في كل صلاةٍ يصلّيها في مقام إبراهيم ﷺ لأنه جاء في الحديث عن الرسول الكريم أنَّ **«من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجرُ من عمل بها إلى يوم القيامة»**.

وها هو البيت أيضاً ومنذ أن أعادَ بناءَه إبراهيم وإسماعيل ﷺ يشهد جموعاً بشرية متلاحقة لا تنقطع عنه أبداً، إذ لا تكاد الكعبة الشريفة تخلو لحظةً من قاصدين للحجّ أو للزيارة أو للعمرة. إنهم يتدفَّقون إلى البيت الحرام من كل فجٍّ من فجاج الأرض، قريبها وبعيدها، ملبِّين دعوة التوحيد بنفوس خاشعة راضية، وعبودية صادقة، وهم يرددون: «لبَّيك اللَّهم لبَّيك. لبَّيك لا شريك لك لبَّيك. إنَّ الحمد والنِّعمة لك والمُلك. لا شريك لك».

وينطلق هذا النداء بمقاصده النبيلة، ليحتضن في أعماقه الإيمان الصادق بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وبأنه رب العالمين ورب السماوات والأرض له وحده الملك والحمد والنعمة. ولا يجوز أن تقف هذه التلبية بالنداء عند حدِّ أداءِ المناسك، بل يجب أن تتغلغل دائماً في أعماق الإنسان، لتنعكس على فعاله وتصرفاته في سائر أيامه، فيكون مؤمناً صادقاً، وناشراً للعدل والمحبة، وداعياً إلى الله العليّ العظيم في كل حين.. وإذ ذاك يكون هؤلاء المؤمنون قد ساهموا - كمسلمين حقيقيِّين - مساهمة فعالة في عمارة الأرض، ليَعُمَّ في أرجائها الأمن والسلام، كما يريد الله حقّاً منهم، وكما تدعوهم إليه خُلُقيةُ الإسلام، وتعاليمُه ومفاهيمه الحقَّة..

وإذا رغبنا أن نصف الكعبةَ وصفاً يتفق مع مقامها، ومع واقعها،

في عقيدة المسلمين ونفوسهم، فلندع هذا الوصف لسيد البلغاء، الإمام عليّ ﷺ في كتابه «نهج البلاغة» إذ يقول وهو يذكر الحج:

١ - وفرض عليكم حجَّ بيته الحرام الذي جعلَهُ قبلةً للأنام[١]، يردونَهُ ورود الأنعام، ويألهون[٢] إليه ولوه الحمام. وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم[٣] لعزته.

٢ - واختار من خلقه سُمَّاعاً[٤] أجابوا إليه دعوته، وصدَّقوا كلمته. ووقفوا مواقف أنبيائه. وتشبَّهوا بملائكته المطيفين بعرشه. يحرزون الأرباح في متجر عبادته. ويتبادرون عنده موعد مغفرته.

٣ - جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائذين حرماً. فرض حقَّهُ وأوجب حجَّهُ، وكتب عليكم وفادَته[٥]. فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٤ - ألا ترون أنَّ الله - سبحانه - اختبر الأولين من لدن آدم عليه السلام إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام «الذي جعله للناس قياماً» لأنه جسَّد فيها رمز الطاعة والامتثال.

٥ - ثم وضعه بأوعَرِ بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق[٦] الدنيا

---

(١) الأنام: الناس.
(٢) يألهون إليه: يلوذون إليه بلهفة.
(٣) الاذعان: الانقياد والتسليم.
(٤) سمّاعاً: سمعوا دعوته.
(٥) وفادته: زيارته.
(٦) النتائق: البقاع المرتفعة. ومكة مرتفعة لما انحطَّ عنها من بلدان.

مدَراً[١] وأضيق بطون الأودية قُطْراً: بين جبال خشنة، ورمالٍ دَمِثةٍ[٢] وعيون وشِلَة[٣]، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف[٤] ولا حافِرٌ ولا ظلف[٥].

٦ ـ ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم[٦] نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم[٧]، وغاية لملقى رحالهم[٨]، تهوي إليه ثمارُ الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار مُنْقَطِعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهلِّلون لله حوله، ويَرْمُلونَ[٩] على أقدامهم شُعْثَاً غُبْراً[١٠] له، قد نبذوا السرابيل[١١] وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور[١٢] محاسن خلقهم ابتلاء عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته.

٧ ـ ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام[١٣]،

---

(١) المدر: قطع الطين اليابس.
(٢) رمال دمثة: لينة يصعب السير فيها، والاستنبات.
(٣) وشلة: قليلة الماء.
(٤) لا يزكو بها خف: لا ينمو بها جمل.
(٥) ولا حافر ولا ظلف: تعبير عن الخيل وما شاكلها، وعن البقر والغنم.
(٦) ثنوا أعطافهم: مالوا وتوجهوا إليه.
(٧) منتجع الأسفار: محل الفائدة منها.
(٨) ملقى رحالهم: نهاية رحلتهم.
(٩) الرمل: أسرع من السير، وأبطأ من الجري.
(١٠) الأشعث: المنتثر الشعر مع تلبد فيه، والأغبر: الذي ملأ الغبار بدنه فظهر عليه.
(١١) السرابيل: الثياب.
(١٢) إعفاء الشعور: ترك الشعر بلا قص أو تقصير.
(١٣) المشاعر: جمع مشعر، وهو موضع أداء مناسك الحج.

بين جنات وأنهار، وسهل وقرار[1] جمّ الأشجار[2]، داني الثمار، ملتف البُنى[3]، متصل القرى، بين بُرَّة سمراء[4] وروضة خضراء، وأرياف[5] محدقة، وعراض[6] مُغْدِقة[7]، ورياض ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صَغُرَ قَدْر الجزاء على حسب ضعف البلاء.

٨ ـ ولو كان الأساس المحمول عليها، والأحجار المرفوع بها، بين زمرُّدة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء، لخفَّف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفى معتلج الرِّيب[8] من الناس.

٩ ـ ولكنَّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبَّدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبُّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً[9] إلى فضله، وأسباباً ذُلُلاً لعفوه».

هذا هو الحجُّ، الذي جعلَهُ الله تعالى فريضةً على المسلمين في أيام معلوماتٍ من شهر ذي الحجة الحرام. فمن اتَّبع ملَّة

---

(١) القرار: المطمئن من الأرض.
(٢) جم الأشجار: كثيرها.
(٣) ملتف البنى: كثير البنيان.
(٤) البرّة السمراء: أجود أنواع الحنطة.
(٥) الأرياف: الأراضي الخصبة.
(٦) العراض: الأرض الخالية من البناء.
(٧) المغدقة: من أغدق المطر أي كثر ماؤه.
(٨) الريب: الشك، يقال: نفى معتلج الريب أي أزال تلاطم الريب والشكوك من صدور الناس.
(٩) الفتح: أي مفتوحة واسعة.

إبراهيم عليه السلام هداه الله تعالى لأن يكون من المؤمنين الصالحين.

فحق علينا أن نتَّبع ملَّة هذا النبيِّ العظيم إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(١).

أللَّهم أحْينا مسلمين لك، وأمِتْنا مسلمين لك، إنك أنت العليم الحكيم، وصلِّ وسلِّم على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٣٠ـ ١٣٢.

الأحرف وأهميتها
في فهم قصص القرآن الكريم

لقد لاحظنا أن الأحرف تحدث إشكالات كثيرة من حيث فهم الآيات القصصية منها وغير القصصية. لأن الحرف هو ما دلَّ على معنى في غيره بقرينة، فإن لم يقترن بغيره فلا معنى له، وحتى يفهم معناه الذي وضع له يجب أن يقترن بلفظ آخر دالّ على معنى. ولذا لا بدَّ من تفسير بعض الحروف التي تدعو الحاجة إليها من أجل فهم الكثير من الآيات القرآنية. وقد عرضنا لها هنا لأن قصة إبراهيم عليه السلام قد وردت في أكثر من عشرين سورة في القرآن الكريم.

وهذا شرح موجز لبعض هذه الحروف.

الهمزة: تكون حرفاً ينادى به القريب والمتوسط، وتكون للاستفهام، وحقيقة طلب الفهم. وقد تدخل على الفاء نحو: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾. وعلى الواو نحو: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وقد تخرج عن الاستفهام الحقيقيّ فترد بمعنى الإنكار الإبطالي نحو: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾.

أو الإنكار التوبيخيّ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[1]؟.

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٥.

أو التعجب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾!.

أو التحقيق: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟.

إذ: قد تكون ظرفاً نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾. أو تكون مضافاً إليه في زمان صالح للاستغناء عنه نحو يومئذٍ وحينئذٍ: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾. ـ والأصل فهي يوم تنشقّ واهية ـ ونحو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. ونحو: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾.

إذا: تأتي على وجهين: الأول أن تكون للمفاجأة فتختصّ بالجمل الإسمية ولا تحتاج إلى جواب الشرط، نحو: ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ... فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ،.. فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

والثاني: أن تكون ظرفاً للمستقبل متضمّنة معنى الشرط وتختصّ بالدخول على الجملة الفعليّة، نحو: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. ويقول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغَّبتها ... وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنع

أل: حرف تعريف وهي نوعان عهدية وجنسية:

تكون عهديّة نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. وتكون جنسية لاستغراق الأفراد، نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي وخلق جميع الناس ضعفاء، لأن لفظة «الإنسان» هنا للجنس.

ألا: تكون للتنبيه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾. وتكون للتخصيص: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

إلاّ: للاستثناء نحو: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وبمنزلة «غير» نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. أي لو كان فيهما آلهةٌ غير الله لفسدتا.

وتأتي شرطية نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾. وهذه الكلمة مؤلَّفة من إن ولا ـ إن: الشرطيَّة، ولا: النافية.

إلى: حرف جرّ تفيد انتهاء الغاية والمراد، وتدلّ على بلوغ آخر الشيء المتلبّس به الفعل وليس المراد بالانتهاء الآخر. وتكون زمانية نحو: ﴿أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾. أي إلى أول الليل، ومكانية نحو: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. وتكون بمعنى المعيَّة، نحو: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي مع الله، ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾. أي مع أموالكم.

أم: تكون عاطفة وتكون متَّصلة، تتقدم عليها همزة التسوية نحو: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. ونحو: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾. وتكون منقطعة فتكون مسبوقة بالخبر المحض، نحو: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾. أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾. ومسبوقة بهمزة لغير الاستفهام بل للإنكار، ويسمّى الاستفهام الإنكاريّ نحو قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾. ومسبوقة باستفهام نحو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾. إنما سميت منقطعة لانقطاع ما بعدها عمّا قبلها، فكل منهما كلام مستقلّ لا ارتباط لأحدهما بالآخر ومعناها الإضراب، ولهذا دخلت على «هل» في قوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾. لأن الاستفهام لا يدخل على الاستفهام. وتقع

زائدة للتأكيد نحو قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾. والتقدير هنا: أفلا تبصرون أنا خير.

أمّا: حرف شرط وتفصيل، نحو قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ / وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ / وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾. وقد يترك تكرارها نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾. وتقدير ما ترك تكراره قد يكون: أمّا الذين كفروا فسينالهم غضب الخ...

إمّا: مركبة من: (إن) و(ما) وهي للإبهام نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾. وهي للتخيير نحو قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾. ونحو قوله تعالى متحدثاً عن السحرة الذين واجهوا موسى عليه السلام: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾. وللتفصيل نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

أو: حرف عطف: وتستعمل عند الشك من قبل المتكلّم، نحو قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وللإبهام: وهو إخفاء المتكلّم مراده عن السامع نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وتكون بمعنى (لا) إذا وقعت بين نفْيين نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾. أي ولا كفوراً..

وللتخيير: ولا يجوز فيه الجمع فتقول هذا أو ذاك.

وللإباحة ويجوز فيها الجمع نحو قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

أيّ: تكون شرطاً نحو: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾. وتكون استفهاماً نحو قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾. وتكون موصولاً نحو قوله تعالى: ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾. أي الذي هو أشدّ.

وتكون صفة للنكرة نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الباء: تكون للتعدية نحو قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. أي أذهب الله نورهم. وللمصاحبة نحو قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت الثمر الذي يعطي دهناً للمصباح. ونحو قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ أي معك السلام. وتكون للاستعانة، نحو قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي نستعين باسم الله. وللسببيّة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي بسبب اتخاذكم العجل إلهاً. والمقابلة، نحو قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقابل أعمالكم. وللظرفية، نحو قوله تعالى: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾: أي سَحَراً. والمجاوزة، بمعنى عن، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي عن الغمام. وللمرادفة، نحو قوله تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾. وللتوكيد، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وأخيراً تأتي للقَسَم نحو: (بالله).

بل: حرف إضراب فإن تلتها جملة كان معنى الإضراب للإبطال، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي بل هم عباد وليسوا أولاداً كما زعموا. وتكون للانتقال

من غرض إلى آخر نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾. وقد تكون بمعنى: (إن) نحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾. وقد تكون بمعنى (هل) نحو قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

الفاء: وهي قد تكون عاطفةً تفيد الترتيب والتعقيب نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾. وقد تكون جوابَ الشرط، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾. ونحو: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾. ونحو: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾. ونحو: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾. ونحو: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾.

الكاف: وتستعمل للتشبيه نحو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ والتعليل نحو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي واذكروا الله لأنه هداكم، أو تستعمل للتوكيد وهي الزائدة، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس شيء مثله، إذ لو كانت للتشبيه لصار المعنى ليس مثل مثله شيء، وهذا محال.

اللام: للاستحقاق نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ . . وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: أي أَنَّ الذي يستحق الحمد والعزة هو الله، والذي يستحق الويل هم المطفِّفون. أو للاختصاص: نحو قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾. أو للتعليل: نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي من أجل حب المال فهو بخيل. ونحو قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾. وقد تكون اللام لتوكيد النفي مسبوقة بـ (ما كان) نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾. وأكثرهم يسمّيها لام الجحود لملازمتها الجحد أي النفي، أما الصواب فتسميتها بلام النفي لأن الجحد إنكار ما تعرفه لا مطلق الإنكار. وتكون بمعنى (إلى) نحو قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾. وتكون بمعنى (على) نحو قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أي فعليها. وتكون بمعنى (بعد): نحو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾. وفي الحديث صوموا للرؤية وأفطروا للرؤية، أي بعد رؤيته. وتكون للتوكيد وهي اللام الزائدة لتقوية عامل ضعيف نحو قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾. ونحو قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾. وأحياناً تحذف اللام كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي قدّرنا له منازل، ونحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾. أي كالوا لهم ووزنوا لهم.

لو: حرف شرط يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى نحو: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾.

وتكون للتقليل، كالحديث الشريف: «**تصدّق ولو بشقّ تمرة**».

وللتمني: نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾. وتكون شرطيّة: أداة امتناع لامتناع نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾. فهذا يلزم فيه امتناع الثاني لامتناع الأول.

لولا: تدخل على جملة اسمية ففعليَّة لربط امتناع الثانية بوجود الأولى فتقول: لولا النيل لعطشت مصر، فامتنع العطش عن أهالي مصر لوجود النيل. ونحو قوله تعالى: ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فوجود برهان الله في عقل وقلب يوسف عليه السلام منعه أن يهمَّ بها. ونحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾. أي: وجودكم أنتم منعنا أن نؤمن. ونحو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾. وتكون للتحضيض والعرض: نحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي استغفروه، ونحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ﴾ أي ائتنا بآية. والفرق بين التحضيض والعرض أن التحضيض طلب بحثٍّ وإزعاج، والعرض طلب بلينٍ وتأدّب، نحو قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هنا للعرض. وتكون للتوبيخ والندم، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، أي هلاّ حين سمعتموه، والمقصود به «الإفك»، قلتم ما ينبغي لنا أن نتكلّم بهذا. فهذا توبيخ، وحثّ لهم على الندم على ما قالوا.

مِن: تأتي لابتداء الغاية، وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. أي نزول الماء ظاهراً كان ابتداء من السماء بغاية إيصاله إليكم لنحييَ به بلدة ميتاً ونسقيَه مما خلقنا أنعاماً وأناسيَّ كثيراً. وتأتي للتبعيض نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي حتى تنفقوا بعض ما تحبّون. ولبيان الجنس نحو قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ

فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾. وللتعليل نحو قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾. وللبدل: نحو قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي بدل الآخرة. ونحو قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

وللمرادفة: نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾.

وللتوكيد: نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ﴾، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾. فهي هنا زائدة للتوكيد لأننا باستطاعتنا الاستغناء عنها وتبقى الآية مفهومة.

ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن

في سورة البقرة:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ(1) قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا
وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا
وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ
أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ
وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ
وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

---

(1) وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلمات فأتمهن: أي اختبر الله إبراهيم بأن عهد إليه بأعمال فقام بها على وجه التمام والكمال، فقال له ربه إني جاعلك للناس إماماً.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ(١) عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن
سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ
رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ(٢) ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ
إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ
وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ
أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا
نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ
ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ
ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ
وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ
إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ

---

(١) ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه: أي لا يعرض ويتخلى عن منهج إبراهيم إلا من أهمل نفسه وأضلها. الرغبة: المحبة لما فيه للنفس منفعة. ورغبتُ فيه ضد ورغبتُ عنه. والرغبة والمحبة والإرادة هي نظائر. ونقيض الرغبة: الرهبة. ونقيض المحبة: البغضة. ونقيض الإرادة: الكراهة.

(٢) أسلمتُ لرب العالمين: أخلصتُ الدين لربِّ العالمين.

ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى
بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ
وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ
جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾.

وفي سورة الأنعام:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ
ٱلْءَافِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى
لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ
أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى
فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ
أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا
وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ
وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ

أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ
نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ
كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ
وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا
عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

وفي سورة هود:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن
جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ[1] ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ
خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ
فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا
بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ
ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ
عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وفي سورة إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ
ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي

(١) حنيذ: أي مشوي.

فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ
ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِن شَيۡءٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ
إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن
ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ
ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾.

وفي سورة الحجر

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ
ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ
أَجۡمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

وفي سورة النحل:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ(١) كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾
شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ

---

(١) إن إبراهيم كان أمّةً: سماه الله أمة أي قوام الأمة، فجعله قدوةً ومعلماً للخير. والرجل العالم يقال له أمة. وعمل إبراهيم كان عمل أمّة أي جماعة.

قانتاً: أي مطيعاً له، دائماً على عبادته.

حنيفاً: مستقيماً على الطاعة ـ طريق الحق.

وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

وفي سورة مريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ
تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ
مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ[1] أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ
وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا
﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى
شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا
نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾.

وفي سورة الأنبياء:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ

---

(١) أراغب أنت عن آلهتي: أي أمعرض أنت يا إبراهيم عن عبادة الأصنام وتارك لها وزاهد فيها، لئن لم تنته لأرجمنك: أي لأرمينك بالحجارة، واهجرني ملياً: أي اجتنبني وفارقني دهراً طويلاً.

وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ
﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا(١) إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن
فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ
إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

وفي سورة الشعراء:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ
أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ

---

(١) جُذاذاً: أي فجعل أصنامهم قطعاً قطعاً.

تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٧)
ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ
يَشْفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى
يَوْمَ ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ
صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤) وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى
ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾.

وفي سورة العنكبوت:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ
ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ
وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن
قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
(٢٠) يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) ﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٢٥) ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ
رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧)﴾.

وفي سورة الصافات:

﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ (٨٣) إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ
(٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا
بِٱلْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا
تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ
ٱلْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠٠)
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ
أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
(١٠٢) فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
(١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ
(١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا
عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾.

وفي سورة الزخرف:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وفي سورة الذاريات:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ[1] فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

وفي سورة الأعلى:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) فأقبلت امرأته في صرّةٍ: أي فلما سمعت امرأته سارة البشارة أقبلت في ضجةٍ، والصَّرة: شدَّة الصياح وهو من صرير الباب.
فصكت وجهها: أي جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجُّباً.
والصك: ضرب الشيء بالشيء. ومنه تصكُّ ركبتا الرَّجُل.

لوط عليه السلام

لـوط عليه السلام

رأينا أنَّ لوطاً عليه السلام ترك عمَّه إبراهيم عليه السلام في أرض فلسطين وارتحل إلى أرض «سدوم وعامورة» في شرق الأردن، يدعو إلى الله الواحد الأحد، حتى بعثه الله تعالى نبياً، وكلفه نشر رسالة التوحيد. .

أقامَ لوطٌ عليه السلام في تلك الديار، فوجد فيها قوماً تحكَّمت العاداتُ السَّيّئة في علاقاتهم، وتأصَّلت التقاليدُ الرذيلةُ في حياتهم، حتى صاروا طعماً للمطامع الدنيئة، ونهباً للأهواء والشهوات الفاسقة. كانوا قُطَّاعَ طرق، يَسرقون وينهبون، أراذِلَ يتواصون بالإثم ويخونون الرفيق، فُجّاراً لا يقيمون للأخلاق اعتباراً، ولا للمبادىء الإنسانية قيمةً ولا احتراماً. . وفوق كل هذه المفاسد، أضافوا إلى سجل جرائمهم، جريمةً جديدةً على الأرض، لم يَسبقهم إليها أحدٌ من قبل. ذلك أنَّهم كانوا يأتون الرجال شهوةً من دون النساء، خلافاً للقوانين الطبيعية، وللسُنن البشرية.

بَذَلَ لوط عليه السلام جهوداً حثيثةً لكي يَرُدَّ هؤلاء القوم إلى الطريق الصحيح، ويعيدَ نفوسهم إلى جادَّة الصواب. فهو مؤمنٌ بالله، ومرسل من الله إلى بني البشر، فلا يستطيع التغاضي عن مثل ذلك المنكر الخبيث الذي يفعلونه. ولكنهم لم يسمعوا له، أو يحفلوا به. . نهاهم

عن اتّباع الفاحشة التي ابتكروها، حتى ساد الشواذ نظام حياتهم، قائلاً لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

وكان ردّهُم الوحيدُ عليه الدعوةَ لعدائه، وطردِه من ديارهم، فتنادَوا مُسْتَصرخين: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2].

لله ما أجمل هذا البيان القرآنيّ، وهو يصفُ آل لوطٍ عليه السلام بلسان أُناسٍ أنجاس: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾... وهل أدلُّ على معصية تلك الفئة من بني البشر، وعلى ارتكابهم الفواحش والآثام، من أن يكون آل النبيّ لوط على عكس أهل تلك القرية التي أهلها أنجاسٌ مناكيد.. هذه هي البيّنة الكبرى، والحجّةُ الدامغةُ التي أبدوها هم أنفسهم على بشاعة الجريمة التي ابتكروها. وهذه هي العلامةُ المميّزة للانحطاط الخلقيّ الذي كانوا يتردّون فيه. تأمَّلهم وهم يتنادَون إلى طرد من يعملُ على هدايتهم، ويبذلُ ما وسعه من جُهدٍ على نُصحِهم وإرشادهم.

إن في أفعال قوم لوط عليه السلام لبياناً صارخاً على الانحراف النفسيِّ عندهم، وقد ترجموه إلى انحراف جنسيٍّ خلافاً لخَلْق الإنسان. وهو انحرافٌ غَلَبَ عليه الخبثُ، وطَغَت عليه الدناءة حتى أصبحوا الصورةَ التي تعكس الإنسان المنحط. لقد رفضوا المفاهيم الأصيلة التي عرفها الإنسان، وحوَّروا النواميس التي جُبِل عليها، فبات مرضهم جزءاً من تكوينهم، بل هو الروح الشيطانيُّ الشريرُ الذي يُسيّرهم ويقودهم إلى طريق الفساد والضلال. ها هُم وقد جاءَهم نبيّ

---

(١) سورة النمل، الآية: ٥٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٦.

يقدِّمُ لهم الدواء للمرض الذي اعتادوه، فيرفضون الدواء خوفاً من الشفاء. وها هم قد ألفوا الرجسَ والدنَس، فباتوا يقاومون الطهر والنقاء، ويرفضون نصح النبيّين والأتقياء، فصاروا عنوان الانحراف، وخاصةً أنهم كانوا يرتكبون جريمتهم علانيةً.

لقد ابتعد أولئك القوم عن كل ما هو مألوفٌ ومعروف، حتى غدَوا لا يَدَعون غريباً دخلَ المدينة يَسلمُ من أذيَّتهم. وبكل وقاحة قالوا للوط: «استضف أنت النساء ودعْ لنا الرجال».

لم ييأس نبيُّ الله بل ظلَّ في محاربة منكرهم ماضياً، وعلى مقاتلة فاحشتهم قائماً. يُدلي بالحُجَجَ، ويَنْشر البيّنات. ولا مَنْ يَسمعُ أو يطيع، ولا من يرتدع أو ينثني. ولشدَّ ما أذهله رؤية الشطط قائماً داخلَ بيته.

داخل بيته؟ نعم، ومن امرأته بالذات. فقد تزوَّجها ودعاها، فأعلنت له أنّها مؤمنة. ولكنّها كذَّبتْ وخادَعَتْ، فقد عشَّش الكفر في عقلها، والخبث في قلبها، حتى راحت تعمل ضدّ زوجها في الخفاء. تُظهِرُ له الودَّ، بينما تبيّتُ له العداوة. توافي القوم وتتفق معهم على محاربة دعوته. يؤلِّبونها عليه، ويوصونها بأن تتجسَّسَ وتحصيَ حركاته وسكناته.. فتندفع وفي نفسها هوىً لما يدعونها إليه، حتى غدا مَثَلُها كَمَثَلِ امرأة نوح عليه السلام، فحقَّ قولُ الله فيهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(١).

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

إن في سلوك هذه المرأة لعذاباً شديداً يُصيب النّبيَّ الطاهرَ من داخل بيته. وكأنَّه لم يكْفِهِ ما يُلاقي من القوم وهم يحيطون به من كل جانب، يوجّهون له الإهانة، ويصيبونه بالأذيَّة، حتى جاءه أذى زوجه وكفرها، واتفاقها مع القوم، وهو أكبر همّ على قلبه. فلئن كان الزوج لا يجد في ظلال زوجته راحةً، فهل يستطيع أن يحسّ راحةً أو يُمكنه أن يجد سعادة مهما فعل له الآخرون؟ وإذا كان جميع من حوله ضدّه، فكيف تكون حاله، وكيف يعيش حياته؟

هكذا كان حال لوط عليه السلام: قهره في بيته، يتلازمُ مع عذابه خارجه.. فامرأته أحد أهم الأسباب في ما يلاقي، لأنها من تلك الفئة الجاهلة الضالَّة، التي صبر على أذيَّتها وبلواها، وتحمَّلَ كيدها وشَرَّها.

عاشَ لوط عليه السلام مدة طويلة من الزمن بين الدعوة إلى الله، وبين إعراض القوم عنه، وتأليبهم عليه، والنيل منه بكل ما يستطيعون.. ولما رأوه باقياً على موقفه، ثابتاً على صلابته، لم يجدوا إلا الإيقاع به عن طريق ما ظنّوا أنَّه عاجزٌ عن إتيانه، فطلبوا إليه هازئين، ساخرين: يا لوط، إن كُنّا حقّاً ما تدَّعيه، ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

ولم يعد لوط يتحمل كُفْرَ هؤلاء القوم، وارتكابهم الجرائم، ونشرهم الفسق والفساد، فدعا ربَّه أن يَنصره عليهم، ويهلك القوم المفسدين..

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

النبي لوط عليه السلام يستقبل الملائكة

لوط عليه السلام هنا، يصارع الكفر، ويُكابد العناء والشقاء، وعمه إبراهيم في الجوار هناك، يستقبلُ بشرى تَزُفُّها إليه الملائكة..

ويؤدِّي ملائكةٌ ثلاثةٌ تلك المهمّةَ التي نُدبوا إليها، ثم يُوَدّعون إبراهيم، ويتوجَّهون إلى قرية لوط لأداء مهمة أخرى، موكولة إليهم من رب العرش العظيم!...

بَلَغَ هؤلاء الملائكة أسوارَ سدومَ ساعة العصر. فوقفوا إلى جانب النهر ينظرون إلى فتاة وهي تملأ وعاءها من مائه. وحانتْ من تلك الفتاة التفاتة فراعها أن تجد على مقربةٍ منها رجالاً ثلاثةً ليسَ لهم على الأرض نظير، لما هم عليه من الحسن والجمال...

تقدم أحدُهم وسألها: هل تعرفين منزل لوط؟

وقفت الفتاة مشدوهة ولم تُجب. فقد حارت فعلاً، وهي ترى الرجال يسألون عن بيت أبيها، ولم يَكُ بوسعها أن تُعلِنَ عن نفسها، أو أن تبديَ معرفتها بما يسألونها عنه. ولعلَّ قناعتها بأن الأبَ قد لا يستطيع أن يدفع عن هؤلاء الرجال الضررَ الذي سوف يأتيهم من بني قومه، هي التي حالت بينها وبين الإجابة. ولكنها لما رأت الثبات على وجوههم، والإصرار على سؤالهم، قالت لهم برويّةٍ واتّزان:

ـ مكانكم حتى أذهب وأعود..

ترَكَت الوعاء وذهبت مسرعة إلى أبيها تخبره بوجود ضيوف غرباء يسألون عنه..

وكأنَّ الخبر وقع على لوط عليه السلام كالصاعقة، فهبّ يعدو إليهم حتى وافاهم. ووقف وهو يلهث قائلاً:

ـ السلام عليكم إخوةً كراماً، تُريدونَ وجهةَ سيرٍ ندُلّكم عليها؟

مِنْ عجبٍ أن نُبادىءَ من يسعى إلينا بإبعادِهِ عنّا دونَ أن نعرف ما يريد. ولكن إذا كانت النيّة صافية لدينا، ونَرمي إلى خير مَنْ يَقصدنا أو يُخاطبنا، فإننا قد نتصرّف بمثل ما تصرَّف به لوط عليه السلام حتى ولو كنا نظن أننا نُخالف التهذيب الاجتماعيّ، أو الأصالة الذاتية.. نعم، كان همّ لوط أن يَصرف السائلين عن تلك الديار خوفاً عليهم من القوم، لأن سلامتهم فوق أيّة حاجةٍ يبتغون، أو أمرٍ يريدون.. ولمّا لم يُبدوا إجابةً، ازداد وجهه تجهّماً، وقال في سرّه: هذا يومٌ عصيب!.

ولكن كيف يستطيع أن يردّ هؤلاء الرجال؟

فعادَ يسأل:

ـ عابرون للسبيل أم زائرون؟

وأجابوه: بل زائرون حتى نقضيَ أمْراً!.

ورأى أن يُلَمّح إلى ما في القوم من رذيلة، وما في البلاد من سيّئة، فقال:

ـ لم أعلم في حياتي أن على وجه البسيطة أناساً أكثر بغياً من أهل هذا البلد..

ـ فلم يجيبوا..

إذن لا حيلة له بعد، فسارَ أمامهم مطأطىء الرأس، مهموم الفؤاد.. ولكنَّ الصراع في داخله لم يسكُتْ. ماذا يظنُّ به هؤلاء الغرباء وهو يُبدي تنكّراً لمبدأ الضيافة؟ ليتهم يدرون ما يحمله على هذا المحمل الصعب على نفسه، ولكنه يريدُ الحفاظ على كرامتهم، وإن كان ذلك على حساب كرامته هو... فعاوَدَ محاولاته، تلميحاً

وتصريحاً، والرجالُ غير عابئين بما يقول، بل ظلّوا سائرين وراءه، لا يستوضحون، ولا يتراجعون. فلما رأى إصرارهم على هذا النحو، وقف، في محاولةٍ لإخفائهم عن مرأى القوم وأنظارهم، وقال:

ـ لو يمكث الإخوانُ في هذا البستان، حتى أذهب في حاجة وأعود إليهم.

ورأى الملائكة ألاَّ يزيدوا في إحراجه، فقبلوا، وهم يلحّون عليه بالعودة... فأجابهم:

ـ إني عائد إن شاء الله.

لم يكن لوطٌ عليه السلام ليدعوَ الرجالَ إلى البقاء خارجَ القرية، إلاّ وفي نيَّته أن يَمُرَّ الوقت حتى يَحُلّ المغيب، ويُخيّم الظلام، فيعود إليهم ويقودهم إلى بيته، فيدخلون تحت ستار التخفّي، ويخرجون مع الفجر، ولا من عرفَ بوجودهم، أو علِمَ بقدومهم من قومٍ هم سبب بلوائه وآلامه..

وانتظر الملائكة ـ وهو لا يعرف حقيقتهم ـ في البستان، حيث أشار عليهم لوط عليه السلام، حتى حلَّ الليل فجاءهم على جُنحِ الظلام، يقودهم إلى بيته، وهو يُبدي عُذره وأَسَفَهُ على ما بَدَرَ منه. ثم استأذن وراح إلى زوجته يقول لها:

ـ هيّا يا امرأة!... لقد جاءنا غرباءُ، فاكتمي الأمرَ، ولا تُذيعي السرّ وعجّلي بالطعام لهم.

أجابته، والبسمة تعلو شفتيها: أفعل...

وبدَل أن تعملَ بأمر زوجها، وتقومَ على تهيئة العشاء للضيوف، وثبت إلى السطح تُشعل النار، وهي علامتها إلى القوم إذا جاء لوطاً

غريبٌ أو زائرٌ بعيد. وإن هو إلاَّ وقت قصير حتى أقبل أهل القرية يتدفَّقون إلى بيته من كل ناحيةٍ وصوب، وقد علا منهم الصراخ واللغط، فعرفَ على التوّ أنَّ امرأته قد أنذرت القوم بوجود الغرباء، فاستدارَ يبحثُ عنها في جنباتِ البيتِ، فلم يجدْها..

ووقعت الواقعةُ، وحلَّ ما كان يخشاه، ولكن ماذا يفعلُ؟ هل يترك القوم ينالون من ضيوفه؟ لا، لن يتخلّى عن دفع الأذى عنهُم ولو كلَّفه ذلك حياته، فخرج إلى القوم، وفي نفسه أملٌ ضئيل يراوده.. إنه سيقف في وجه هذا الزحف البشريّ، وسلاحُهُ إثارة كوامن الفطرة السليمة في الإنسان، وإيقاظ الإحساس السويّ بالتعاطف مع الجنس الآخر.. إنَّه سيضحي ببناته من أجل سلامة زوَّاره. وعلى الرغم من أنهنَّ رمزُ الأنوثة على الأرض، وهنَّ طاهراتٌ فاضلاتٌ، ولا يستأهلُ أحد من القوم ملامستهن، إلاَّ أنه فكر في تقديمهنّ زوجاتٍ لهم، فلعلَّ ذلك يخلِّص ضيوفه ويصون كرامته...

ما أعظمه من قرار يتَّخذه لوط عليه السلام! إنَّه يضحّي ببناته من أجل غرباء لا يعرفهم، ولكنهم جاؤوه قاصدين، فعليه واجبُ حمايتهم، والدفاع عنهم... إنها ضريبة النبوّة بل وضريبة الإنسان الشهم. ما دامَ في نفس الإنسان مروءة، وفي ضميره مُثُل، وفي قلبه قيم..

خَرَجَ إلى القوم ونادى بأعلى صوته:

- يا قوم، هؤلاء بناتي هنَّ أطهرُ لكم..

ما هذا النداء الذي يُطلقه لوط عليه السلام؟

وهل يفهم مثل هؤلاء القوم معنى هذه الطهارة التي يخاطبهم بها؟

لم يكُ نداء لوط في الحقيقة مقصوراً على بني قومه، بل هو نداء الله تعالى إلى الإنسان، توضيحاً للغاية التي قصدها من خلْقِ الزوجين: الذكر والأنثى، ألا وهي التناسل لاستمرار البقاء وحفظ النوع. ولذا فإنَّ مخاطبة الفطرة بلغة الطهارة، إنما تعني الطهارة الجسدية، والطهارة النفسية. لأنَّ الزواج قد أراده الله تعالى مكمناً للطهارة بين أبناء الجنس البشريّ، وهو الطريق الصحيح لتنظيم الحياة الاجتماعية، وتوفير العلاقة الإنسانية.

ولم يقف لوط عليه السلام عند حدّ ملامسة جانب الفطرة في الإنسان، بل ركَّز أيضاً على تطلّعه نحو الحقيقة المطلقة، التي يجب ألا تغيب عن بال الإنسان مهما ضلَّ الطريق ألا وهي الإقرار بحقيقة وجود الله الواحد الأحد، والخوف منه، واتقاء غضبه، فأردف قائلاً: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وبمثل تلك الغايات السامية والبعيدة كان خطاب لوط عليه السلام خطاباً قصيراً بليغاً جامعاً كما أبانه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾(1)..

إذن فهو يدلُّهم على طريق الحقيقة، ويهديهم إلى اتقاء غضب الله، لأنه يَسمعُ ويرى كل شيء. وجدير بكلِّ عاقل، أن يتَّقيَ هذا الغضبُ، لأنَّ فيه من العذاب فوق طاقة الإنسان.. ولا يقف لوط عليه السلام عند هذا الحدّ، وبالرغم مما يحملُه من آيات بيِّناتٍ، بل يحاولُ أن يأخذ القوم بالإثارة، عن طريق تذكيرهم بما للضيف من حُرمةٍ مقدَّسةٍ لا يجوز التعدي عليها وإلاّ كانت المذلَّة، وكان الخزي

---

(1) سورة هود، الآية: ٧٨.

والعار. وهذه المحاولة مفترضة في كل رجلٍ عاقلٍ مدرك، ولذلك أضاف لوط عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ إنَّه حكيمٌ حقاً وهو يعمل كل ما بوسعه لكي يعيدهم إلى نفوسهم، وإلى وعيهم وإدراكهم، حتى لا تكون عليه حجَّةٌ بعد. . . لقد أثارَ على مسامعهم القضيّة كلها، وبمضامينها الكبيرة: الفطرةُ والدين، والمروءة والتعقُّل. . فهل بعدُ من شيء يُناديهم به، أو يعلنه عليهم؟ . .

لا! . . . إذن فلْيصمتْ ليتبيّن ما فعل قولُهُ بالقوم. . .

وجاءه الردّ سريعاً: ضحكاتٌ تملأ الفضاء، وسخرياتٌ تشقّ عنان السماء. ثم انبرى بعدها بعضهم وهو يصرخ قائلاً:

ـ يا لوط! ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾(1).

فأسقط في يد لوط عليه السلام، وأحسَّ ضعفه وخذلانه. لقد جاء هذه البلادَ، ونزل بين هؤلاء القوم وهو غريب. ونزح إليهم وهو وحيدٌ، فريد، بلا عشيرة تحميه، ولا أولاد ذكور يدفعون عنه. .

وتساءل في نفسه: ماذا أفعل؟ فإذا لم تلمس كلماته فطرة هؤلاء القوم، فهي ولا شك قد صارت فطرة منحرفة مريضة. وإذا لم تُصِب مكامن قلوبهم، فهي قلوب جوفاءُ من العاطفة السليمة. وإذا لم تصل إلى عقولهم، فهي عقول عمياء بالجهل والرعونة. فدخل البيت غاضباً، وأغلق بابه بالمزلاج. ثم استند إلى الباب، وهو ينظرُ إلى زائريه، وكأنَّه يريد أن يقول لهم:

ـ أترون أني لم أكن بالضيف متبرِّماً، ولا بالعون متقاعساً،

---

(1) سورة هود، الآية: ٧٩.

ولكنني كنت أعلمُ حقيقة هؤلاء القوم، فأردتُ سلامةً لكم وخلاصاً»؟!

وقف لوط عليه السلام من وراء الباب والضحكات من الخارج تقرعُ أذنيه، والضربات تصمّ مسمعه. ولم يعد يحتمل السفاهة وهي تطعنُهُ، فراح يرتعد ويرتجفُ ليس خوفاً ووجلاً وحسب، بل وحزناً وأسفاً!.. ورغم شدة الموقف، وحرج الحالة، كان ضيوفه الثلاثة عاكفين على الحديث فيما بينهم وكأنهم لا يسمعون، ولا يحسون أو يدرون بما يجري حولهم... ويحدق بهم، فإذا الوقار والجلالُ والهدوء على محياهم، فتساءل في نفسه: ما سرُّ هؤلاء الرجال؟!. هل يظنون أنهم في حرزٍ منيعٍ في حماه؟ أو لعلّهم وثقوا به قُدرةً وحكمةً، فآنسوا راحةً، وأخلدوا إلى الدّعة؟!..

واشرأبَّ بعنقه يناجي ربَّه تعالى قائلاً:

ـ ربّاه!.. ألا يَرَونَ أنّي أعجزُ عن حماية نفسي، فكيف يظنون أن باستطاعتي حمايتهم؟.

والتفت إلى بني قومه فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(١).

هكذا هي الحال، إذ أكثر ما يتمنى المرءُ في اللحظات الشداد، أن يجد المخرج للانفلات منها والخلاص من أثقالها... وفي مثل هذا الموقف الصعب كان لوط عليه السلام يتمنى أن يكون له منعة، أو جماعة يتقوّى بها عليهم ليدفعهم عن ضيوفه، أو لو كان هنالك ركن يأوي إليه ويحتمي به فيحميهم من هذا الزحف اللعين؟!..

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٠.

ولكن هذا الكرب لا يُنسي لوطاً عليه السلام أنَّه نبيٌّ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه ساعة اشتداد الضيق والمحنة، فيرسلُ أعواناً لهم ومساعدين، أو يكونُ لهم الركَن المنيع الحصين، يذودُ عنهم، ويدفعُ البلاء... إنَّ رسول الله، محمداً بن عبد الله ﷺ قال وهو يقرأ قول الله تعالى في مناجاة لوط ليكون له ركن شديد «رحمة الله على لوطٍ كان يأوي إلى ركن شديد».

وهل من ركن أشدّ صلابةً من ركن الله؟!..

بَلَغَ الضيقُ ذروته، واشتدَّ الحملُ، فقال لوطٌ عليه السلام كلمته... وهبَّ ضيوفهُ، يزيحون عنه الهمَّ والكرب، ويمحونَ من نفسه الكآبة والحزن، بقولٍ لفظوه: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾[1].

إذن هؤلاء الذين أتوه على هيئة رجال ليسوا ضيوفاً، بل هم ملائكةٌ كرامٌ مرسلون، ولمهمّة كلَّفهم الله العزيز القدير بتنفيذها هم قادمون. فوقفوا في وجه الزحف البشريّ بعد أن كُسِرَ الباب، واندَفَع الإعصار المحمومُ داخل البيت، فأشارَ جبريل عليه السلام بيده إشارةً سريعةً، أفقدتِ القومَ أبصارهم، فراحوا يتخبَّطون في أماكنهم، وهم يضربون الحيطان برؤوسهم، دون أن يعرف أحدهم أداخلٌ هو أم خارجٌ...

لقد اجتمعوا ورغبتهم أن يُراودُوه عن ضيوفه، فأعماهم الله تعالى وطمس أعينهم، فَصَدَق فيهم قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[2]. وأشارَ الملائكة إلى

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٧.

لوط عليه السلام أن يسريَ بأهله قبل أن ينقضيَ الليل، كما يبيّنه القولُ الكريم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1].

القوم يتخبطون بالطمس الذي أصابهم، ولوطٌ يُهيّء أهله للخروج، وقد أدركت زوجُهُ فداحة ما حلَّ بهم، فرغبت في الذهاب معهم، حتى إذ أعدّوا عدّة سفرهم، سار نبيُّ الله مع بناته وزوجته، كما أشار عليه الملائكة عليهم السلام، وراحوا يغذّونَ السيرَ في الليل البهيم، حتى يبعدوا عن الخطر. وظلّوا سائرين حتى طَلَع الصباح، فإذا بدويّ يشقّ الفضاءَ، وبرعدٍ يملأ الجوانب، حتى لتكادُ الجبال أن تتصدع..

كان الصبح هو الموعد لأمر الله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[2].

جاء أمر الله المنتقم الجبار، فاقتَلَعَ جبريل عليه السلام بطرف جناحيهِ ديار قوم لوطٍ من قرارها، ورفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها رأساً على عقب، وهوى بها إلى الأرض.. وحتى لا يظلّ أثرٌ منها، تعاقبتْ على أولئك الفاسقين حجارة من سجيل منضود تحمل الشهب والسمّ لتقتل كل من في القرية، إذ ليس لأحدٍ أن ينجوَ من حجارةٍ صلبةٍ، تصيبه وهي تهوي عليه من السماء قاسية. وقد جاءتهم تلك الحجارة مخصَّصةً، تتعاقب في النزول، وقد وُسِمَ كل حجرٍ باسم من أُعِدَّ له من قوم لوط، فكانت معلَّمةً بأسمائهم، مقدّرة عليهم.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

(٢) سورة هود، الآيتان: ٨٢ و٨٣.

قُلِبت البيوت والأمكنة، وتناثرت القرى في الفضاء، ثم هوَتْ إلى الأرض تغرق في باطنها وتختفي، لتتفجَّر المياه وتغطي تلك الرقعة بكاملها، وتتحول فجأة إلى بحيرةٍ من الموت، تمحو كلَّ أثرٍ لقوم لوط. . .

وكان لوطٌ عليه السلام وأهله يحسون بالهواء يتمزّق من ورائهم، ويسمعون الصراخات المروِّعة وهي تمتزج بأصوات الارتطام، وتملأ السفوح والأوْدِية.

إنها واقعةٌ أشبه بأعاصيرَ تجمَّعت، ثم جَمَحَتْ تقلعُ كل ما في طريقها، وتقلِب كل ما يعترضها، تندفع أشدَّ من البراكين، هائجةً ماحقةً، لتمحو كل أثر للحياة. .

وكان صُراخُ لوطٍ عليه السلام لا يهدأ وهو يحذر أهله من الالتفات إلى الوراء، ويحثهم على الإسراع إلى الأمام، منذراً بسوء العذاب، إنِ استدارَ أحدٌ أو تطلَّعَ إلى الحدث الهائل. .

ولكن لا رادَّ لما يريد الله العليّ القدير، ولا بُدَّ أن يحيقَ الظلمُ بأهله! . .

فامرأة لوط ظلمت زوجها وخانتهُ، بل وكانت من الكافرين، فكان لا بدَّ أن تحين الساعة التي تلاقي فيها سوء فعالها، إذ لم تأبَهْ لما يُحذِّرُ منه زوجها، أو ينهى عنه، فلَوت بعُنقها إلى الوراء، وإذا بجسدها يهترىء على الفور، ويتفتَّت ثم يذوب، وقد أصابها حجرٌ سيم اسمها عليه، فأحرق جسمها وأبلاه بسرعة مذهلة، كما لو أنه بعضُ ملحٍ قد ذُوِّبَ في وعاءٍ كبيرٍ من الماء.

لقد خَرَجَ لوطٌ عليه السلام بأهله وكانت امرأته معه، علَّها تنجو من

العذاب الواقع، ولكنها كانت من الغابرين ونزل بها العذاب المهين، بينما نجت الفئة القليلة من المؤمنين المسلمين الذين قال فيهم الله سبحانه وتعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ . . . ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[1]، والسبيل المقيم: هو الطريق القائم الذي يُسلك بصورة دائمة.

نعم، ذَهَبتْ آثارُ قوم لوط، ولكنَّ أثراً مختلفاً حلَّ بديلاً من قراهم. وما هذا الأثرُ إلاَّ آية الله إلى الناس أجمعين، في مكان معروف على سطح الأرض، ويمتازُ بدلالةٍ خاصة عن كافة الأماكن الأخرى. . وليستْ تلك الآية التي ما تزال قائمةً حتى يومنا هذا إلا تلك البحيرة ذات الماء الأُجاج، تزيدُ ملوحته على أية ملوحةٍ في ماء بحرٍ أو محيط. وفي البحيرة صخور معدنية ذائبة، هي الدليل الساطع على الحجارة التي هَوَتْ على قوم لوط، وكانت شُهباً مشتعلةً، جعلَت البحيرة غنيَّة جداً بالفوسفات والأورانيوم. وقد بدأ المحتل الإسرائيليّ باستخراجه من ناحية الضفة التي يحتلها في تلك البقعة.

إن هذه الدلائل كلها تشير إلى أن البحيرة المقصودة هي ما يُعرَفُ اليوم بالبحر الميّت في بلاد الأردن من أرض العرب. . .

انطوَت صفحة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من كتاب تلك الأيام، وامّحَت مدنهم النسبع من على سطح الأرض. فسقطوا من ذاكرة التاريخ، بعدما لفَظَتهم الحياة لفظاً مقيتاً. . . ولولا أن يشاء الله دلالةً على قومٍ

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٣٧ و١٣٨.

فاسقين، وعلى جهود نبيّ كريم، لما كان لقوم لوط من ذكرٍ قائم في العالمين.

ذابت امرأة لوط كتلةً في العذاب الأليم، فتابَعَ هو عليه السلام مع بناته طريقه حتى وصل إلى عمه إبراهيم عليه السلام وقصَّ عليه نبأ ما حدث. فهزَّ إبراهيم الخليل رأسه وهو يقول له: أَعلمُ ما جرى في ديار القوم الكافرين، وقد جادلتُ الملائكة بشأنهم علَّ العذاب يُرْفَعُ عنهم، ولكنَّ أمْرَ الله تعالى قد جاء، وما أراد سبحانه قد جرى، والله عليم بعباده وهو الخبير البصير.

وقضى لوط عليه السلام ما تبقّى من عمره، داعياً إلى الله الواحد الأحد، حتى وافته المنيّة، وغادَرَ هذه الفانية إلى رحاب الله الواسعة.

وقد وردت قصة النبيّ لوط عليه السلام في عددٍ من سور القرآن الكريم.

جاء في سورة الأعراف:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

وفي سورة هود:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ

بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
(٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي
بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا
أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

وفي سورة الحجر:

﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ
جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ
(٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا
تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ
(٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا
عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) ﴾.

وفي سورة الأنبياء:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ
الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾.

وفي سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ[1] ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ
﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾.

وفي سورة النمل:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا[2] مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وفي سورة العنكبوت:

﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ

---

(١) القالين: أي من المبغضين. يقال: قلاهُ قلىً: أبغضه.

(٢) قدّرناها من الغابرين: أي جعلناها من الباقين في العذاب.

فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ
بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ
بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

وفي سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
ٱلْغَٰبِرِينَ[1] ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

وفي سورة القمر:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا[2] إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم

(١) الغابرين: الغابر: الباقي قليلاً بعد ما مضى، وهنا المقصود امرأة لوط أنها بقيت قليلاً بعد هلاك قومها. ومن الغابر الغبار لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً.

(٢) حاصباً: ريحاً فيها حصباء، فنقول حصبتهم الريح، أي رمتهم بالحجارة والحصباء.

بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا
فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

إِسْحٰقُ عليه السلام

إسحق عليه السلام

إنّ فرحة المرأة تكونُ عظيمةً، وسعادتها كبيرةً حقاً، إذا ما قطعت خريف العمر وخمد في نفسها أمل الإنجاب، ثم يرزقها الله تعالى بالمولود، بعد طول الحرمان، ومكابدة حرقة الأيام بالتلهف إلى الذرّية.

وبأكثر من تلك الفرحة، بل وبسعادة لا حدود لها، استقبلتْ سارةٌ ـ زوجُ إبراهيم الخليل ـ مولودها إسحق.

ولم يكن مولد إسحاق حدثاً عادياً، بل كانت له سمة الحدث الخارق. وكيف لا يكون خارقاً حقاً، وقد بشَّرَتْ به الملائكة وأتَتْ في الوقت نفسه، على ذكر ابنه يعقوب. وكيف لا يكونُ منه عجبٌ وقد حملت به أمه بعدما بَلَغتْ من الكِبَر عِتّياً، وكان الشيبُ قد كسا شعر رأسها، ووصلت بها الأيامُ إلى عتبة الشيخوخة الفانية؟.

وبين الحلم واليقظة، وبين الألم واليأس، تتحقّقُ البشرى، وتكون الأعجوبةُ، ويولدُ إسحاقُ، بعد مرور سنين طويلةٍ على ولادةِ أخيه إسماعيل عليه السلام، من هَاجَرَ أَمَةِ سارة، وقد تزوجها إبراهيم نزولاً عند رغبة امرأته سارة، وتلبيةً لإرادتها..

ويشِبُّ إسحاق وتتفتّح براعمه في حدائق النبوَّة، يتتلمذ على

أبيه، ويتربّى بخُلُقه، وكفى بها تربيةً من أبي المسلمين جميعاً، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾.

وعلى هذا النحو عاش إسحاق حتى بلغ طور الرجولة، فزوَّجه أبوه من امرأةٍ أنجبت له عدة أولادٍ. ثم توفّاها الله، فتزوَّج من بعدها بقريبة له، وأنجبتْ له يعقوب.

وكان إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة يشهدان حياة ابنهما، في مختلف مراحل طفولته وشبابه وحتى زواجه، فلم يفرِّق الله تعالى شملهم. وتأتي تزكيتهم من الله تزكية سلامٍ وأمان ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾(١).

ومرت السنون، وحمل إسحاق عليه السلام أعباء الرسالة، بعدما فارق أبوه إبراهيم الحياة. وقد أوكَلَ إليه ربه تعالى متابعة الرسالة التي حملها أبو الأنبياء، فكان أحد أنبياء الله المختارين، يدعو إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى، ويصرِّف الشؤون بالعدل والقسطاس، ولا يتخاذل عن هداية الناس، أو يتوانى في الدعوة إلى الله منهكاً نفسه بالصلوات والعبادة، حتى تقدَّم به العمر، وصارَ شيخاً هرماً..

وهكذا، ولما أحسَّ بقواه تخذُله، وبرجليه غير قادرتين على حمل جسمه، ولمّا لم يعد قادراً على حمل الهمّ الذي أثقلَ نفسه طويلاً، ونَخَر جسمه مخافةً، دعا إليه ابنه يعقوب وقال له:

«إن الله قد غمرني بنعمائه عندما رزقني إياك يا بنيّ.. وجعلَ فيك خَلَفاً صالحاً، وآتاك من الشمائل والخصال ما يدلُّ على بركته

---

(١) سورة هود، الآية: ٧٣.

وفضله، لأن في جمال الخَلْق والخُلُق، آياتٍ يودعها الباري عزّ وجلّ في الإنسان.. وقد زادني سبحانه من فضله، أن جعلك ذا نباهةٍ وذكاء، وذا محبة ومودة..

وسكت إسحاق قليلاً ثم تابع يقول لولده:

ـ إن هذه المزايا والسجايا، وهذه الفضائل ذاتها، هي التي كانت سبباً في شقائي مذ ترعرعتَ يا ولدي وشببت.. لا، لا تعجب يا بنيّ، إنني على خلاف الآباء الذين تغمرهم السعادة وهم يرون في أبنائهم ما يقرُّ العين أو ما يُريحُ القلب... بل وأكثر من ذلك، إنَّ ما جَبَلَكَ الله عليه، كان هو مصدرَ خوفي وتعاستي.

ولم يَعُدْ بوسْع يعقوب أن يحتمل ما يسمعه، فانكبَّ على يدي أبيه يوسعهما بالقبلات، وعلى صدره يملأه بالعبرات، وهو يشهق، ويقول:

ـ فداكَ نفسي أيّها الأب الحنون، أي خطيئةٍ ارتكبتها، وأي ذنبٍ اقترفته، بلا إدراكٍ مني أو وعي، حتى نغَّصتُ عليك العيش، وأقلقتُ فيك الخاطر.. اغفر لي يا أبت، ودلّني على سوء فعلي، حتى أتجنَّبه، وأريحك مما تعاني من وصبٍ وشجن!!..

وانسالت نفس إسحاق لمرأى ولده وهو يتعذَّب متوهماً أنه سبب تعاسته، فشدّه إلى قلبه، وهو يكفكف عبراتِهِ بشفتيه، ويطمئنه بالقول الجميل: بل أنت من كان يُفرّج كربتي إن نظرتُ إليه، ومن يزيل غمّي إن هو منّي دنا. أنت الحنانُ الذي يغمرني، وأنت الأمل الذي يلازمني. ما بلّ عينيّ دمعٌ لفعل أتيته أنت يا بنيّ، أو حزَّ في قلبي ألمٌ سبّبْتهُ لي. ولكنه أخوك الأكبر، إنه يضمر لك الشر،

وبالعداوة والجفاء قد يُجاهرُك. . . وإنّه لفي حرزٍ من قوته، وفي منعةٍ من ذوي قرباهُ. أما أنت فمن يناصرك إن حَسَرَ لك اللثامَ عن كيدٍ وأراد بك شراً؟!. —

هذا ما يؤرّقني يا بنيّ. وهو الذي يبرّح جفوني، ويهدّم كياني. . .

ـ ولكنني لم آتِ ما يحمله على كرهي يا أبي؟

ـ نعم يا ولدي، ولكنّهُ الحسدُ أطْمعَهُ، والغيرةُ تكاد تقتله. .

ـ وهبْ أن أخي قد بادرني بالسوء، أو اعتدى عليَّ بالأذى فإنني لن أبسط إليه إلا يد الأخوّة، يداً طافحةً بالرفق والحنان، مليئة بالمحبة والوئام. .

ـ نعْمَ الأخُ أنت يا ولدي، إنك من أخيك في خطر، وهذا ما أردتُ إبعادك عنه. ولذا دعوتك إليَّ، لأتلوَ عليك وصيّتي الأخيرة في هذه الحياة. . .

ـ إنني طَوْع أمرك يا أبي، ولن تجدني إلا الولد البارّ. . .

ـ إذن اسمع جيّداً ما أقوله لك. . .

وأنصَتَ يعقوب، وهو يرنو إلى أبيه بطرف حزين، فقال له الأبُ:

ـ ها قد أصبحتُ، كما تراني يا بنيّ، في نهاية العمر، ووقف بي الدهر على طريق الوداع. وقد أثنى الله عليك نبياً من الصالحين، ولا أجد لك بعدي، إلا أن ترحلَ إلى آرام من أرض العراق. وهنالك ستجد خالاً لك هو لابان بن بتويل، فتزوَّجْ إحدى بناته، وأقم عنده

مدة من الزمن، ثم عذْ إلى هذه الأرض، وتابع دعوة آبائك وأجدادك هادياً إلى الوفاق والوئام، ناصراً المظلوم، مقتصّاً من الظالم، ناشراً ألوية الحقّ والعدالة بين الناس.. وإني لأدعو الله العليّ القدير، أن يكلأك بعنايته، ويحفظك برعايته... ولسوف يكون لك، بإذن الله عيشٌ طيب ونسل طاهر، أطيب وأطهرمن عيش أخيك ونسله.

تلك كانت وصيّةُ إسحاق لولده يعقوب وقد أودعه إيّاها حتى ينام قرير العين، ويفارق الحياة وهو رضيّ النفس... أما يعقوب، فقد آلمه أن يضمر أخوه ما يُضمره له من شرّ، وأحزنه أن يفارق هذا الأب الرؤوف بارتحاله عنه، وهو على مشارف أيامه الأخيرة... لذلك راح يعقوب يتردّد بين البقاء والاستعداد للرحيل.. وأحسَّ الأبُ بما يجيشُ في خاطر ابنه، وشعر بالحيرة التي تلازمه، فعاد يلحُّ عليه في المغادرة وهو يقول له:

ـ إيه بنيّ، إنها وصية الأب الشيخ، ومن كان مثلك يحترم الوصيّة، ويحفظ الأمانة، فعلامَ هذا التخاذل في التدبير، وإلى متى هذا التقاعس في الرحيل؟!. شُدَّ العزمَ واغْدُ بإذن الله مع طلوع الفجر، ولك زادٌ من الله رحمتُهُ الواسعة وأنيسٌ من الملائكة رفقتهم المباركة.

ـ ولكنّي يا أبي...

ـ أعلم ما تُريد قوله يا بنيّ... ولا تجعلْني أَمُتْ متحسّراً على أملٍ كان لي فيه عونٌ على الحياة...

وطلعتْ شمسُ اليوم التالي، وافتقد القوم يعقوب فلم يجدوه بينهم.. راحوا إلى دارة أبيه، فإذا هو مُشرقُ الوجه، هانىء البال

وكأنما نفسه التصقت بسرّ غيبيّ، طواها عن هذا العالم، فراحت تسبح في مستقرٍ مجهول. . .

هكذا حياة الأنبياء، تحفل بالعناء والمكابدة في مسيرتها على الأرض، حتى إذا قاربت رحيلها إلى خالقها، انسلخت عن عالم المادة، وسبحت في نورانية الإيمان والتسليم.

يعقوب عليه السلام

يعقوب عليه السلام

خرج يعقوب مسافراً بعد أن ودَّعَ أبَويه، وفي نفسه غُصَّةٌ وفي قلبه حرقة.. إنه يترك أباً على شفير العمر، وقد لا يراهُ ثانيةً في هذه الدنيا. ولكنّ ما يخفِّف آلامَه، أنَّ سَفَرَه كان نزولاً عند إرادة ذلك الأب الوقور، وتحقيقاً لأمَلٍ يراوده... فكان عليه الطاعة والإذعان...

ارتحل مع الفجر، وما زال يغذُّ السير حتى صارت الشمسُ في كبد السماء، فلم يعُد يحتملُ شدَّة الهجير، ولا يطيقُ لهبَ الرمال، فأوى إلى جذع نخلةٍ يستريح من عناء الطريق.. إنَّ نفسَهُ كانت تلتهبُ فراقاً، فجاءت حرارة الشمس تزيدُ في اشتعال عاطفته، حتى غُلِبَ على أمره، فقعد في الظِلِّ مستريحاً...

وظلَّ يعقوب قابعاً في خلوته، حتى حلَّ الغروب، فقام يسري مع الليل. ودأبَ على هذه الحال، طوالَ سفرته تلك، يستريح في النهار، ويسيرُ في الليل حتى لُقِّب بإسرائيل(١). وكان كلما ابتعد عن دياره، تحول تفكيره نحو البلاد الجديدة التي يقصدها. وكلما مرَّت

---

(١) وقيل إن اسم «إسرائيل» ليس مشتقاً من السير في الليل، بل هو مركب من: كلمتين: إسر (ومعناها العبد) وإيل (ومعناها الإله، أي الله) فيكون اسم إسرائيل: عبد الله.

الأيام شعرَ بشوق أشد وبحماسةٍ أكثر، للوصول إليها. عَمُقَ في نفسه ذلك الشوق، فاندَفَعَ يخترقُ الصحراء، بين نجودٍ ترفعه ووهادٍ تخفضه. يقطع الفيافي، وهو لا يبالي بالرمال تدفَعُه، ولا بالكثبان تقذفه. . إنه مُسافر في الفلاة بلا رفيق، إلا من طنين لا يفارق أذنيه. ولم يَكنْ ذلك الطنين إلا ترجيعاً لكلمات أبيه، وهو يحثُّه على الرحيل. . .

ويشتدُّ الطنينُ، فيُسرعُ يعقوب، غير مُبالٍ بتعبٍ، ولا مكترثٍ بوصب. لا يفكر في أخطار قد تعترضه، ولا في صعاب قد تواكبه، همُّهُ أن يُحقّقَ رغبةَ والدٍ جليل وينفِّذَ مشيئة أبٍ محبٍّ كريم. . .

وها هي أيامه تنقضي سريعةً، وديارهُ تبعد كالنجوم آفلةً.

وها هي الصحراءُ، تودِّعه، وهي تبدي حسرةً على فراقه.

وها هي بُقعةٌ جديدةٌ من الأرض تستقبله، وهو يحسُّ أنها تزدهي لقدومه. .

إنها ناحيةٌ تعجُّ بالحياة. فالماءُ يسري فيها عذباً سلسبيلاً، والأشجار تنتشرُ في رحابها ظلالاً وجمالاً. تمتلىء بالعشب يتمايل، وتنتشي بالطير يتصادحُ. وتنعكسُ في نفسه هذه الظلالُ، فَيَكِزُ حصانه بمهمازه، فينطلق به عادياً كالسهم.

لم يأبَهْ لريٍّ يبرِّد به جوفَهُ، أو ليانعٍ يروي به جوعه. بل شدَّهُ الأمل للقاء الناس، فراحَ يطوي المسافاتِ علّه يَصِلُ إلى مبتغاه. وها هو الأملُ الذي تطلّع إليه لا يخونه، واللقاء الذي تمنّاهُ لا يصدِمُهُ، ففي الأفق خيالات تلوح، وفي البعد أشباهُ أُناسٍ تتحرَّك. ويتقدّمُ إلى مرمى العين، فإذا به أمام هؤلاء الخلائق من لحمٍ ودم. إنهم بَشرٌ

يروحون ويجيئون في هذه الأرض، منهم من يقومُ على الحراثة، ومنهم من يسوق القطعان والمواشي، ومنهم من يقطف الخضار ويملأ السلال. . .

تالله ما أجمله من منظر تقعُ عليه عيناهُ، بعدما ملّتا الرمالَ والجفاف! وما أروعهُ من أُنسٍ بعدما أوحشه فراقُ الناس!

إنه يرى الناس حقاً من جديد، وهم ينكبّون على أعمالهم، ويتوزعون على سبل عيشهم.. وينزل يعقوب عن راحلته، وما إن يطأ تلك الأرض برجليه حتى يَحسّ دعةً واطمئناناً، وتعتمل نفسه بالخوالج، فيتقدّم من الماء يرتوي، ويعود إلى الفيء يحتمي من الحرّ.

ويصرفُ بعضاً من الوقت يستعيد فيه نشاطَه، ثم يُيَمّمُ ناحيةَ بعض الرعيان، ويتقدم ملقياً السلام، سائلاً بلهجة الغريب:

ـ هل هذه الأرضُ من آرام؟

ـ نعم أيها السيّد.

ـ أرجلٌ يقيمُ في دياركم يُدعى لابان بن بتويل؟

ـ أجل أيّها السيد، إنَّ من تسأل عنه قد صاهر إسحق الرسول، وهو عميد عائلته، وشهابُ قومه. نعمى له حامي ديارنا، وطوبى له أباً للرعية، نعيش من خيره وماله. وإنه صاحب هذه القطعان التي ترى، وكل المواشي التي تسيل بها هذه البطحاء.

أحس يعقوب راحةً والقوم يتحدّثون عن خاله، ولكنّه أحبّ أن يستزيدَ فسأل مستوضحاً:

ـ هل دياركم آمنة أيها الإخوة؟

إنها دوافع النفس البشرية، فمتى كان الأنبياء والرسل يتحسَّبون لأحداث القدر. ولكن سؤال يعقوب كان تعبيراً عن مكنون نفسه، وما اختزنه عقله من قصة أخيه، وعزمه على الغدر به، فانطلقت سريرتُه بما يعتلج فيها حتى تطمئنَّ إلى الغدِ، وترتاح إلى المقام.

أجابَ الرعيانُ بما أزاح عنه كل قلقٍ يُداخله، ولكنه أكثر ما أسعدهُ قولُ أحدهم وهو يزيدُ على رفاقه:

ـ إننا في أرض إبراهيم النبيّ أيها السيّد. . فها هنا نبتَتْ رسالتُهُ، ومن هنا طلعت على العالم شريعته، فكيف لا نعيش بأمان واطمئنان؟!.

وأثنى يعقوب على حُسن قوله، ودعا للجميع:

ـ بركات الله تعالى تحلُّ عليكم أيها الإخوة، وعسى أن يجزيكم سبحانه على ما تستحقون.

وأَنِسَ بلقائه الرعيان، فزادوا ترحيبهم به قائلين:

ـ نِعْمَ الزائرُ أنت أيها السيد. حلَلْتَ ديارنا أهلاً، ووطأتَ أرضنا سَهْلاً.

وأراد ألاّ يطيل المكوثَ، فطلَبَ أن يدلّوه على بيت الشيخ لابان بقولٍ جميل:

ـ نِعْمَ الحفاوةُ تكرمون بها الغريب. فهل من يتكرَّم ويُحسنُ، فيسيرُ بي إلى الشيخ لابان؟

وانطلقت أفواه الرجال بصوت واحد:

ـ كلنا لك رفيق ودليل.

وهمَّ جميعُهم بالسير أمامه، غير عابئين بالقطعان يُخلّونها، ولا آبهين بالزروع تسرح فيها. . فلتُترك وحدها في هذه البراري، وليقوموا

كلهم على خدمة الضيف، وقد أتى قاصداً شيخَ القومِ وسيّدَهم. .

ولكنَّ يعقوب أوقفهم بلطف وهو يقول:

ـ واحد منكم إلى حاجتي يكفيني، وقدأراني لا أضلُّ الطريقَ، وأنا بين أُناسٍ في هذه البلاد مثلكم في المروءة والشهامة!

ووقف الجمعُ، ثم التفتَ إليه أحدُهُم وقال:

ـ اختر أيها السيد رفيقاً، ونحن باختيارك راضون. .

وأجاب على الفور، وهو حقّاً لا يقدر على المفاضلة بينهم:

ـ إخوةٌ أنتم وفي النبل سواء. إمّا أن تخلّوا هذا الهمّ عن أنفسكم، وإلاَّ لن أبرحَ هذا المكان، فهل ترضَونَ أن أتأخر عن ملاقاة الشيخ لابان؟ . .

ابنة خاله تقوده إلى بيتهم

وتمرّ فترة قبل أن ينفلِتَ أحدهم من حَبْلِ السكوت، ثم يشير بيده قائلاً:

ـ انظروا يا رجال، إنها راحيلُ ابنة الشيخ لابان. وها هي قد أرسلها الله في هذه اللحظات حتى تمنعنا من الحيرة، وترفعَ عنا لَومَ أنفسنا، فلنذهَبَنَّ إليها.

وهرَعَ الرعيانُ إلى راحيل، ولحقَ بهم يعقوب، فقدَّموه إليها بالقول:

ـ إنّه غريبٌ عن هذه الديار، وقد جاء يطلب الشيخ لابان. أردنا أن نكونَ كلنا دليله فأبى. خيَّرناه بأحدنا، فلم يقبل، حتى قادَكِ الله إلينا.

وشكَرَتْ راحيل الرجال، ودعتهم للانصراف إلى رعيهم، ثم التفتت إلى الغريب ترحِّبُ به وهي تقول:

ـ شرفٌ كبير لهذه الديار أن تحلَّ بها أيها السيد. وسرورٌ أكبرُ لشيخ القوم أن تقصده، إنه أبي وهو خير الآباء، ومصاهر الأنبياء.

ورأى يعقوب في هذه الفتاة ما يشبه ملامح أمه في جمالها وإشراقها. وقد زادها رونقاً أثر الشمس بسمرةٍ تخالط بياضها حتى لتبدو وكأنها أشعة الضوء تنعكس على محياها. فما كان منه وهو يستعيد صورة أمه في محياها إلاَّ أن أشاح بوجهه عنها والدموع في مآقيه، وهو يقول:

ـ أستغفر الله على ضعف نفسي، وعلى ما اعتراني من حزنٍ لذكرى أبي وأمي. . ثم التفت إلى الفتاة وهو يقول:

ـ إنني آسفٌ حقاً على ما بَدَرَ مني، وإنّي جئتكم من بعيدٍ أنشُدُ الاطمئنان في جواركم. . .

وحتى لا يتركها في حيرة وتساؤل، ما لبث أن عقَّب قائلاً:

ـ إن بيني وبينك قرابةً وشيجةً، وأواصر وثيقة. فأبي من هذه الديار، وأمي من الشجرة التي تفرَّعتِ عنها. إني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وقد جئت من أرض كنعان، حتى ألقى خالي الشيخ لابان.

وفرحت راحيل بما تسمع من هذا الشاب عن قرابتهما، ولكنها رأت أن تبادره بما يخفف عنه ما يجيشُ في صدره، فقالت مواسية:

ـ تبّاً لفراق الأهل ما أشدّه قسوةً على النفوس. ولكنّك ستحلُّ بين أهلك أيضاً يا ابن العمّة. وسوف يكون سرور خالك للقياك

عظيماً. فهل ترتوي حليباً قبل أن نذهب إليه؟.

ما بي حاجةٌ لارتواء، وهمّي أن ألقى خالي بلا تردّد أو تأخير.

وأوكلت راحيلُ قطيعها إلى الرعيان، ثم انطلَقَت بقريبها نحو المنزل، والفرحُ بملأ قلبها، والبشرُ يطفح على وجهها. وأسرعت تَزُفُّ البشرى إلى أبيها، وهي تقول له:

ـ هذا ابن عمّتي يا أبي، يعقوب بن إسحاق.

وصرخ لابان:

ـ ابن أختي في ديارنا؟!

وتلقَّفه في أحضانه، وضمَّه إلى صدره بلهفةٍ وشوق. عانقه طويلاً، وقبّله كثيراً، ثم أقعده بجانبه، وهو يسأل عن الأهل والخلاّن، ويستفسره عن المجيء والترحال.

وطال انهماك لابان بابن أخته، ونسي كل من حوله، فلم ترَ راحيلُ إلا الانسحاب لتخلّي ما بينهما، وهما في الشوق يتناجيان، وفي المحبة يتعاطفان.

عرف لابان حقيقة أمر يعقوب، وسبب مجيئه إليه، فأحلَّهُ من نفسه محلاً عزيزاً، وأنزله من قومه منزلاً كريماً.

يعقوب يتزوج ابنة خاله

وعاش يعقوب في كنف خاله فترة من الزمن كان الشيخ خلالها يفكِّرُ ويعدُّ لما يُبقي عنده ابن أخته أطول زمن ممكن، فلعل الأيام تنسي أخاه الحقد والضغينة عليه، فتعاود عائلة إسحاق العيش بأمان واطمئنان. ولذلك دعاه يوماً إليه، وقال له:

ـ يا بنيّ، أنت مني بمنزلة الولد من أبيه، وسوف أزوّجك ابنتي الكبرى (ليّا) لأن العُرف عندنا يقضي بتزويج الكبرى قبل الصغرى. والشرع يقضي بأن تقدّم لها الصداق، فأقم عندنا سبع حجج، ترعى الغنم، وتُساعدني في تدبير الشؤون، فيكون عملك مَهْراً لزوجك..

وأطرق يعقوب ملياً، وقلَّب الأمر على مختلف جوانبه، فوجَدَ أن ما يقوله خاله هو الحق، فأجابه من فوره:

ـ على بركة الله..

وردَّ خاله:

ـ تنقضي ثلاث حجج، تكون مهر (ليّا) المعجّل، فنعقُد القران. وتستقرُّ في منزلك مع أهل بيتك، وتكمّل المدة الباقية، فيتمُّ الصداق..

ـ أنا على ما ترى أيها الخالُ الوقور...

وعلى هدىً من الله وخير، أقام يعقوب في آرام، يرعى الغنم، ويساعدُ خاله في تدبير شؤون القوم.. أحبَّهُ الجميعُ لنبل أخلاقه، وكرم محتده، وحُسن معشره، فكان لهم عوناً وسنداً، يفرح لأفراحهم، ويحزن لأحزانهم. وكانت أكثر الناس تعلُّقاً به زوجه ليا، فقد وهبته نفسَها، وقامت على توفير السعادة له بكل جوارحها، تطمئنّ لقربه منها، وتشقى لبعادِهِ عنها. ومن فرط حبّها له، وَهَبَتْهُ جاريتها (زلفة) فدخَلَ بها إرضاء لخاطر زوجه، وجَعَلَها مكرَّمَةً، عزيزةً، في العيش والولد.

كان يعقوب، قد أنجب مع الأيام عدة أولاد من ابنة خاله «ليا» وهم: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويساخر وزابيليون، ومن زوجته «زلفة» ولدين وهما: جاد وأشير.

وقرّت عين يعقوب بأولاده، فقام على تربيتهم تربيةً حسنةً قوامُها الإيمان بالله، ومعاملة الناس بالمعروف. ورعى زوجَيْهِ رعايةً حميدةً دعامتها الاحترام والتعاطف.. صَفَتْ له الأيام، وطابت الأحوال، فعاشَ ناعمَ البال، مطمئنَّ الوجدان، لا يُعكِّرُ عليه ذلك الصَفْوَ إلا حنينه لأبويه، وقد نأت بهما الديار، وانقطعت منهما الأخبار، فلا يصل إليه من آثارهما شيء، ولا يسمعُ عن أحوالهما خبراً.

ولكن هل يطمئنُّ الإنسان لعاتيات القدر، أو يأمن صروف الدهر، حتى ولو كان نبيًّا؟!.

وصية ليّا ليعقوب قبل موتها

هذا يعقوب عائدٌ من عمله مع غروب الشمس، فلا يرى زوجته (ليّا) واقفةً بانتظاره كعادتها على عتبة البيت.. أحسَّ بالقلق يُساوره، فأسرعَ الخطى، ولشدّ ما آلمه أن يجد تلك الزوجة غارقةً في الأوجاع، تئنُّ وتتلوّى في فراشها، والأبُ فوق رأسها يدعو ويتضرع.

وظلَّ يعقوب ساهراً إلى جانبها يواسيها ويؤانسها وهي تستمع لمناجاته، ويقدّم لها الماء ويعطيها الدواء، وهي لا تقدر على محادثته. وتمرُّ الساعات وحالُها يزدادُ سوءاً على سوء، حتى كان الفجرُ، فإذا بها تفيق وهي بكامل وعيها، وتمام إدراكها، فانحنى عليها زوجها يغمرُها بعطفه، ويشملها بحنانه، وفي ظنّه أنَّ المرض قد بدأ يفارقُها، والعافية تتقرَّب إليها. ران عليه الأمل، وإن كان التعبُ والهمُّ باديين على محياه فقعد بقربها، يريد أن يغفو، ولكنَّ ليًا تطلَّعت إليه بنظراتٍ زائغة، وقالت:

ـ لشدّ ما يؤسفني أنني لم أكن بانتظارك عند العودة، ولشدّ ما يؤلمني أن أسبّب لك التعب والشقاء، وكأنّه لا يكفيك من نهارك ما تعاني. . . فهل تُسامحني على خطأ لم يكن بيدي حيلة عليه؟ . . .

وأجابها بلوعة:

ـ اطرحي عنك كل مصدر همٍّ أيتها الغالية فلا شيء يوازي سلامتك، ولا أثمن عندي من وجودك. فأنتِ نعم الزوجة الوفيَّة، ونعم الشريكة المتفانية . .

ـ لا تزدني ألماً أيّها الزوج الحبيب . . .

ـ بل مُناي أن ينأى عنك الألم، ويزول الكرب.

ـ والتفتت حولها محدّقة في جوانب الغرفة، ثم قالت:

ـ وأين الأولاد؟ . .

ـ إنهم في رقادهم يحلمون . .

ـ أريد رؤيتهم . .

ـ ولكنَّ الصبح قريب، وعمّا قليل يحيطون بك فرحين، ضاحكين . .

ـ ستراهم باكين يا سيّدي! . .

ـ وما حاجتنا إلى هذا القول يا امرأة؟

ـ لشدّ ما يصعب عليَّ مفارقتكم، إنه قدر الله تعالى ولا مفرَّ من حكمه . . ولكن لي وصيَّة أرجو أن تسمعها . .

ـ إنها وطأةُ المرض، ولا إخالُكِ إلا عدتِ بعد بضعة أيام إلى سابق عهدك من الحيوية والنضارة . .

وتأوَّه يعقوب، وحاولَ أن ينتشلها مما يساورها من قلق، فقال لها:

ـ لو تأخذين قليلاً من العسل أو اللبن، فقد يبعث فيك القوَّة، وتستطيعين القيام سريعاً.

ـ رجوت أن أودِعَك وصيَّتي، وعلى مسمع من أبي، فلا تؤخِّر بي الوقت.

والتفت إلى خاله، ونظراته تدلّ على حيرته، فأومأ إليه بالسكوت.. ورأته (ليّا) قد صمت فقالت:

ـ إنّي أوصيك خيراً بأبي وأولادي. فتزوّج أختي راحيل، فهي خير من تقوم على رعايتهم من بعدي.

وفجأةً سكتَتْ، وأغمضت عينيها. فظنَّ يعقوب أن الإغفاء غالبها، فاستراحت، ولكنها كانت الراحة الأبدية، فقد كانت (ليّا) في صَحوة الموت، وها هي تبدو وكأنها في النعاس تذهب، وفي النوم تغطُّ، فلا نَزْعَ ولا حشرجة، بل تمضي إلى العالم الآخر وادعةً، مطمئنة النفس..

ويرقب والدها فراقها للحياة، فلا يتمالك نفسه، فيجهش بالبكاء وهو يقول:

ـ والهف قلبي عليك يا ابنتي، واحسرتي من بعدك...

مضتْ (ليّا) إلى خالقها، وتركت يعقوب مهموم الفؤاد، محزون الخاطر. لا يترك يوماً يمرّ إلاَّ ويذهب إلى ضريحها، يطلب لها الرحمة، ويرجو لها النَّعيم في الدار الآخرة..

وتمر سنة على موتها، وتكتملُ بانقضائها الحجج السبعُ التي

أخذها يعقوب عهداً عليه للقيام في تلك الديار. . فذهب إلى خالِهِ يسأله ماذا يفعل: أيترك آرامَ ويعود إلى بلاده، أم يبقى ها هنا مدة أخرى من الزمن؟!.

وغاصَ لابانُ في تفكيره، فلا يقع على قرار يشفي غليله. . . إنَّ فؤاده ما زال كسيراً، وفراق يعقوب سوف يزيده ألماً، ثم إنَّ (ليَّا) لها وصيّةٌ ويجب أن تُنَفَّذ، فما بالُ يعقوب لا يسأل عن تلك الوصية؟!. .

ولئن حاول أن يُبقيه عنده، أفلا يكون تجنياً عليه. فربّما كان البعادُ عن هذه الديار يُنسيه الأحزان التي ما زالتْ مختزنة في قلبه!. .

إنه حائرٌ حقّاً، ولا يدري كيف يتصرّف. . . ولكنَّ ابن أخته وصهره قد جاءه طالباً الرأي في أمره، فهل يتركه نهباً للقلق، إذا كان هو غير قادر على التقرير؟.

ويخرج لابان أخيراً عن صمته، ويقول ليعقوب:

ـ إيه يا بني هل ترغب في الرحيل عنّا؟

ـ إنني لم أستقر على رأي أيها الخال، وقد شئتُ أن توافيني بنُصحكَ حتى يكونَ لي شأن أعزمُ عليه. .

ـ أنتَ عزيزٌ عليّ يا ابن أختي، وفراقُكَ سوف يُضنيني. ولكني لا أقفُ حائلاً دونَ رحيلك إن أردت. إنما هناك شيء هامٌّ، أرغبُ فيه، وهو أن أحقّق وصيّة (ليَّا) وهي على فراش الموت. . .

وتنهَّدَ يعقوب وقال بصوت خافت:

ـ رحمها الله ما أصعب فراقها. .

وسكتَ يعقوب قليلاً ثم تابع يقول:

ـ إنها تلك الوصيّة التي ما زالتْ تملأ رأسي وقلبي. وإنّي لست

مخالفاً رغبةً لزوجتي الراحلة. ولكنْ ما شأن (راحيل) حتى نُعذِّبها بتحميلها مسؤولية رعاية أسرة كبيرة، في حين أن تزويجها من شابٍ يناسبها، قد يحمل لها سعادةً أوفَرَ، وراحةً أكبر!.

ـ حاشا أن يكون في زواجك من راحيل ما يسوؤها، فهي لا تقلُّ عن أختها فكراً وخلقاً، ولا هي أدنى منها معشراً ورضاءً، فخُذها زوجةً كريمةً، وهي أولى بأبناء أختها من دون النساء الأخريات.

ـ إذن سوف أقيم هنا مدّةً أخرى، إن رأيت أن يكون بدل عملي هو صداق راحيل.

ـ بل إن لك مالاً وفيراً، وأنعاماً كثيرة يا بنيّ، فإن شئت الرحيلَ فلن أقف دونك وهذا الأمر، وإن رغبتَ في البقاء فذلك أشفى لقلبي، وأهنأ لبالي.

ـ لقد أكرمت وفادتي أيّها الخالُ الجليل، ولم تدّخر وسعاً في رعايتي وإيثاري. فغمرتني بالمحبّة، وأغنيتني بالإحسان، فهل أُنكِرُ هذا الصنيع الجميل، وأتركك إلى آلامك وشيخوختك وحيداً؟ لا، لن أرحل عن سيّد هذه الديار حتى يأمر الله تعالى بذلك.

وفاضت عينا لابان بالدموع، وهو يطمئن إلى بقاء يعقوب بجانبه، وإلى (راحيل) وأولاد (ليّا) بقربه. فانكبّ عليه يحتضنه بين ذراعيه، وهو يوسعه لثماً، ويملأه حبّاً..

يعقوب يتزوج من راحيل

وهكذا جدَّد يعقوب الإقامة في تلك البلاد، فتزوَّج من (راحيل) وأقام معها عهداً على الوفاء والإخلاص. وكانت (راحيل) كما قال عنها أبوها، روعةً في الأخلاق، وقدوةً في الشمائل والصفات..

قامت على خدمة زوجها خير قيام، وعلى رعاية أبنائه أفضل رعاية. لم توفِّر جهداً إلا بذلته لإزالة الغم عنه، ولم تدّخر وسعاً إلا أنفقته لتربية الأولاد. فكانت مثال المرأة الصادقة، والأم المتفانية، وزيادةً في التعبير عن مشاعرها لزوجها، فقد وهَبَتْه، كما فعلَتْ أختها من قبل، جاريتها (بلهة) وأصرَّت أن تكون له زوجة.

وتمرّ الأيام سراعاً، وتلدُ (راحيل) بكرَها يوسف فتزيدها ولادتُهُ حبّاً لزوجها، وعطفاً وحناناً لأبناء أختها... ويزيد في سعادتها ولادة (بلهة) لطفلين، هما (دان ونفتالي) فتصير ربَّة عائلة كبيرة، وترعى الجميع بلا أدنى تمييز أو محاباة...

ويرى (لابان) السعادة ترفرف من جديد على يعقوب وأهل بيته، فيطيبُ خاطره، ويذهب عنه الحزن. ولكنّ العمر لا يخلّدُ، فيموتُ لابان، ويجدُ يعقوب أن الوقت قد أزف للرحيل، فيودّع القوم ويعود إلى بلاده فلسطين، محمَّلاً بالأرزاق، وفير الخيرات.

عاد يعقوبُ وأقام بين بني قومه نبيّاً مكرَّماً معزّزاً. وأكرمَ الله عودَته إلى تلك الديار، فرزقَهُ ابنه الأخير بنيامين، وهو الولد الوحيد ليعقوب عليه السلام الذي وُلِدَ في فلسطين. وكان له شأنٌ رواهُ القرآن الكريم في سورة يوسف أخيه.

لقد عاش يعقوب عليه السلام في اغترابه، وفي رجوعه، لاسيما وأولاده من حوله، حياةً حافلةً بالهناء والطمأنينة. ولكن خاتمة تلك الحياة هي أبرز ما تدلُّ على حياة هذا النبيّ عليه السلام... إنها خاتمة قد جمعتْ من الحكمة والتمسّك بالعقيدة، والحفاظ عليها، ما يجعلها حدثاً قائماً بذاته، ومتجدّداً مع الأيام، كلما بزغت شمس أو طلع قمر، وكلما كان هنالك إنسان يدعو إلى الإيمان بحقيقة وجود الله

تعالى، ويعمل على إيصال هذه الحقيقة إلى عقول الناس وقلوبهم. .

إنّ قصة يعقوب، يمكن أن توزّع بحسب إيرادها في القرآن الكريم إلى ثلاثة فصول:

- بشارة الملائكة بولادته. .
- الأحداث التي عاشها في قصة ابنه يوسف. . .
- وصيَّته عند وفاته. .

والفصلُ الأهمُّ هو تلك الوصية، فقد قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(1).

إذن هنا المقصدُ، وهنا الغاية. . . نتصوَّر ذلك المشهد بين يعقوب وأبنائه وهو على فراش الموت، وفي لحظات الانتظار. وبمقدار ما نتصوَّره في خشوعه ومهابته بمقدار ما نجده حدثاً عظيماً له أعظم الدلائل وأكبرُ العظات.

وكيف لا يكون كذلك، وهو يُعالج قضيَّةً، كانت وما تزال أمَّ القضايا مُنذ وجود الإنسان على هذه الأرض.

وهذه القضية لا تتعدّى حدود سؤال يعقوب لأبنائه وإجابتهم له.

سألهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؟

إذن هذا ما كان يُشْغِلُ باله، ويُضني فؤاده، ويَصْعبُ عليه أن يفارق الحياة قبل أن يطمئن إلى سلامته.

---

(1) سورة البقرة، الآية: ١٣٣.

وأجابه أولاده: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾. وتظهر القضية فإذا هي الإيمان بالله الواحد الأحد، لا شريك له. إنَّهُ إلٰه الأنبياء والرُسُل، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وقد أسلموا لله تعالى، فحريٌّ بأبنائهم وأحفادهم أن يكونوا على دين آبائهم. وقد كان هؤلاء مسلمين له، فعهدٌ على ذرّيَّتهم أن تكون هي أيضاً مسلمة لله... وكان الأبناء صادقين فقالوا لأبيهم: نعبُدُ الله الواحد، ونحنُ له مسلمون..

إن هذه الآية الكريمة تقطع أن أبناء يعقوب (أي إسرائيل) قد بُعثوا على الإسلام، ويظلون مسلمين طالما أنهم مؤمنون بالله، وحافظون لرسالات آبائهم وأجدادهم. أما إذا خرجوا على الإسلام، فإنهم يكونون قد خرجوا على الدين كله، وتركوا النور إلى الظلمات.. وأما إذا استداموا على هذا الدين وتمسَّكوا به، فإنهم يكونون بنور الله أبداً، وتُدركهم منه رحمةٌ وبركات.

مات يعقوب عليه السلام وهو يسأل أبناءه عن الإسلام ليطمئنَّ على عقيدتهم، فسلامٌ على يعقوب إنه كان من الصالحين.

يوسف عليه السلام

يوسف عليه السلام

مهما بَلَغَ الإنسان من الفصاحة والبيان فإنَّه يظلُّ مقصِّراً عن أداء ما يؤدّيه القرآن الكريم. وبالغاً ما بَلَغَ النَّسْجُ القصصيّ من صنع البشر، فهو لن يكون أبداً في مستوى يُماثل أو يُقاربُ الأسلوبَ القرآنيَّ مبنىً ومعنىً. وذلك لسبب بسيط جداً، ولا يحتاج إلى جُهد في التفكير، إذ إن القرآن هو كتابٌ منزلٌ من الله سبحانه وتعالى، وفيه قولُ الله، وكفى بذلك تدليلاً على اختلافه عمّا يُنتِجهُ الفكر البشريّ..

من هنا، فإن قصة يوسف عليه السلام وحتى يكونَ لها رونقُها، ويبقى لها جرسُها، وتظلَّ لها روعتها لا بُدَّ أن تُقرأ في مصدرها.

ولكن حتى يمكن التسهيل على القارىء العزيز، فإننا سوف نعمد إلى محاولةٍ يسيرة في سرد وقائع تلك القصَّة، وفق أسلوب آدميّ، على أن نقوم بتفسير بعض الآيات، من أجل المساعدة في فهم القصّة على حقيقتها.

فالقصة كما وردتْ، من حيث الفحوى، يمكن أن تقع في كل زمان ومكان، ويمكن أن يعيش أحداثها كثيرون من الناس، ولكن المرمى منها، يختلفُ عن قصص الناس وحياتهم. فهي تُظهر بطلها، ذلك الإنسان الذي يظلُّ على عقيدته مهما تكاثرت عليه المحن

والابتلاء، ويحافظ على توكيد المنهج الذي أراده الله تعالى، وحمله الأنبياء والرُّسُل من أجل وحدة العقيدة التي شاءها المولى لعباده. وهي العقيدة التي تقوم على التوحيد الكامل لله، وعلى التقرير بأنه وحده سبحانه ربُّ السماوات والأرض، وله وحده يدين البشر كلهم، مع ما يتبع ذلك من الإيمان بالبعث والحساب، والدار الآخرة، والجنة والنار...

وعلى هذا الأساس، عاش يوسف عليه السلام قصة المحن والابتلاء، ما إن يخلص من واحدة، حتى يقع في أشدّ منها، ولكنّه ينتصر أخيراً، ويؤمن بوحدة العقيدة التي كان عليها آباؤه من قبل يعقوب، وإسحاق، وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام.

وتتصدرُ القصةَ مخاطبةُ الله سبحانه وتعالى نبيّه المصطفى، محمداً بن عبد الله ﷺ بالقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1] وتبدأ برؤيا يوسف إذ يقول لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[2].

ويُحذِّر الأبُ ولدهُ من أن يقُصّ رؤياه على إخوته، والسببُ في ذلك خوفه من أن يكيدوا له ويوقعوا به شرّاً. فقد كان يعقوب يُحبُّ يوسف حبّاً عظيماً، ويوليه من رعايته واهتمامه ما جعلَ إخوته، يحنقون عليه، ويتآمرون لقتله أو إبعاده. فيأتونه طالبين منه أن يأخذوا أخاهم إلى الصيد حتى يلعب ويرتع معهم. ولا يخفي الوالدُ حزنَهُ

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤.

وقلقه لذهابه. ويريد أن يصرف أبناءَهُ عن مطلبهم، فيقول لهم بأنّه يخافُ على أخيهم من ذئب يأكله. ولكنَّ الأبناء يتعهَّدون برعاية هذا الأخ، وحمايته من الأذى، فيأخذونه معهم، ويتشاورون في أمره، أيقتلونه أم يتركونه للوحوش الضارية؟.

ويمتنع أحدهم عن مجاراة إخوته في فكرة القتل، فيقترح عليهم أن يرموه في بئرٍ حيث كانوا يرتعون في البريّة.. وهكذا كان. فقد رموا يوسف في الجبّ، ثم عادوا إلى أبيهم، وقد لطَّخوا قميصه بدمٍ كَذِب، ليدَّعوا أمامه أن الذئب أكَلَ أخاهُم وهم عنه لاهون..

من الجبّ إلى مصر

وتمرّ سيّارة (قافلة) وهي في طريقها إلى مصر. فتعثر على يوسف حين تُريدُ السقاية. فتأخذه معها وتبيعه عبداً بثمنٍ بخسٍ، دراهمَ معدودة..

ويشتريه عزيزُ مصرَ (رئيس الوزراء أو الحاكم الأول) بعد أن توسَّمَ فيه خيراً، كونُهُ صبوحَ الوجه، بهيّ الطلعة، تبدو عليه السجايا الملاح، وتلوح على وجهه أمارات الحسن والجمال. وجاء به إلى بيته، وأوصى امرأته به خيراً، فقد ينفعهما أو يتَّخذانه ولداً (ولعلَّهما كانا لا يلدان كما يستدلّ من هذا الطلب).

ويعيش يوسف في هذا البيت عدّة سنوات، يصبح خلالها فتىً أوتيَ من العلم والحكمة ما جعله فريداً في شمائله وخصاله في تلك الأيام.

امرأة العزيز تراود يوسف

ولكن تلك المزايا التي اختصّ الله تعالى بها يوسف كانت بلاء

له. فهو يعيش في أجواء «الطبقة الراقية» وما يغشاها من استهتار وفجور. فتقعُ زوجة العزيز في هواه، وتعملُ على إغوائه. ولكنَّه لا يستجيب لندائها، ويأبى مراودتها له عن نفسه، وهو يتذكَّر نعمة الله عليه، إذ أنجاه من الجبّ، وجعَله في هذا البيت آمناً، فهل يُقابلُ الإحسان بالإساءة؟ أم يتعدّى على حرمات الله، وحُرُمات العِرض عند الناس؟.

يأبى يوسُف أن يُدنِّس حرمة المنزل الذي آواه، ولكن المرأة وقد فُتنت به لا تطيقُ عُزُوفَهُ، فتهمُّ به. ويهرب منها، فتلحقُ به وهي تمسك بقميصه، لتمنعه من الهرب. وكانا قد وصلا الباب، فإذا بسيّدها ـ زوجها ـ أمامهما. وكما تفعلُ كل امرأة في مثل هذه الحالة، فقد عمَدتْ فوراً زوجةُ العزيز إلى إلصاق التهمة بيوسف، وأخذتْ تدَّعي أنه حاول أن ينال من عفافها وكرامتها. ولا تقفُ عند هذا الحدّ، بل تطلُبُ من زوجها أن يعاقبه على ما فعل..

ولكنَّ شخصاً نقيَّ الضمير كان يرافق زوجها، أو أن هذا الزوج خوفاً من الفضيحة استدعى أحد أقارب زوجته ليتدبر معه الأمر، فشهد هذا الشخص بالعدل بعد الاستماع إلى المرأة، وإلى يوسف، وقال للعزيز: إن كان قيمصُ هذا الفتى قُدَّ من قُبُلٍ (أي من الأمام) فيكون معتدياً، ويكذب في ادّعاء براءته. وأما إن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ (أي من الوراء) فهو صادق وهي الكاذبة.

ويتفحَّصان القميص، ويظهر كذب المرأة، فيعفو العزيز عن يوسف، ويطلب من امرأته أن تستغفر لذنبها، وتكفِّر عن خطيئتها..

وتعرف النسوة من الطبقة الراقية، ويشيع الخبر فيما بينهنَّ أن امرأة العزيز قد راودت فتاها عن نفسه، بعدما شغف قلبها حباً، وفَتَن

نفسها هياماً. . . فيكثُر اللغطُ حولها، وتنتشر الأقاويل حتى تتناهى إلى مسامعها، فتصمّم على تدبير مكيدة تصرف الألسن عن اللغو بها.

وتقيم امرأة العزيز مأدبةً في قصرها، تدعو إليها معظم نساء المدينة، وتعدُّ لكل واحدة منهنَّ سكيناً تستعمله في تقشير الفاكهة بعد تناول الطعام.. وفيما كانت النسوةُ منهمكاتٍ في تقشير الفاكهة، تدخُلُ امرأة العزيز على يوسف، وتأمره بالخروج عليهنَّ، فيخرج كالبدر الطالع ليلة تمامه يبهر العيون. وما إن يطلّ، حتى تأخذهنَّ الدهشةُ، فيقطعن أيديهنَّ بالسكاكين، وهنَّ غافلات لهول المفاجأة التي باغتتهنَّ. نعم، ما إن نظرنَ إلى يوسف، ورأينَ ما هو عليه من جمال، حتى أُخِذْنَ، وجرَّحنَ أيدِيهنّ بلا شعور منهنَّ. ورأت صاحبة الدعوة ما أوقعه بهنّ مطلَعُ يوسف عليهنَّ، فقالت لهنَّ:

ـ هذا ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾. نعم لقد بهرني، فراودتُه عن نفسه، ولكنه أبى واستعصم. ولا تخجلُ تلك المرأة من إعلان حبّها للفتى، ولا تقف عند حدّ الحُبّ، بل تجهرُ بنزواتها، فتُتابعُ قائلةً: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ﴾[1].

وسكتت ألسنة النسوة عن امرأة العزيز، بل ولعلَّ كثيرات رغبن في وصلِهِ، سواء بالتصريح أو بالتلميح، إلاّ أنّه لم يَهب التهديدَ ولم يأبه لِشَغَف النسوة به، فدعا ربَّه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾[2].

اعتصمَ يوسف بحبل الفضيلة، ودعا ربَّه أن يصرف عنه الغواية،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

لأنّه بشرٌ، مثل كل الناس، وله من المشاعر والأحاسيس التي تفيضُ بها النفس الإنسانية، ما لغيره من بني البشر. فاستجاب له ربه، وصرف عنه الهوى، لأنه مُحَصَّنٌ بقوة الإيمان، والخلق الرفيع، والمناعة الذاتية.

يوسف في السجن

..لقد راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه فشاع خبرها، وأقامت وليمتها، وحدث فيها للنسوة ما حدث، فانتشر أمرهن، حتى ملأت تلك الأخبار المدينة كلها. ولم يَعُد العزيز قادراً على الاحتمال، فقرَّر زجَّ يوسف في السجن، حفاظاً على شرفه وسمعته، وحرصاً عليه من الأذى..

والتقى يوسفُ في السجن بفتيَيْنْ، هما من خدم الملك الخاص حبسهما لسبب من الأسباب.. ويأنسان منه معشراً ليّناً، ونفساً صافيةً، فيألفانه، ويقُصُّ كلٌّ منهما عليه رؤيا رآها في منامه، فيقول أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾. ويقول الآخر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾(١). ويكون تفسيره أن أحدهما ينجو من العقاب ويعود لخدمة الملك ليقدم له الخمر، بينما يُصلَب الثاني ويُتْرَكُ في الفلاة فترة من الزمن فتأكل الطير من رأسه. وأوصى يوسف الذي سوف ينجو بأن يذكّر الملك بالظلامة التي حلت به. ولكنه لم يذكره كما طلب إليه، بل ونسي أمره بتاتاً، وما عاد يتذكره حتى وقع الملك في مأزقٍ حرجٍ، فدعا إليه رجالَ الحاشية والكهّان، وكلٌّ من يدَّعي

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.

التنبؤ بالغيب، وطلب منهم أن يفسِّروا له رؤيا رآها في المنام، وهو يعرضها عليهم قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾[1].

وعجز الجميع عن تفسير الرؤيا وتأويلها، وافتضحت أكاذيب وجهل تلك الفئة المدَّعية، التي تعيش على التملق والخداع، وترتقي المناصبَ بالمراوغة والمداهنة...

قلقَ الملك لرؤياه، وأزعَجه عدم معرفة معنى الرؤيا. وانعكست تصرفاته على ساكني القصر، فأوقعهم في الهمّ والكدر. في هذه الفترة، وكأن الضيق قد أنعش ذاكرة السجين الناجي، وأحيا فيها خيال يوسف، فطَلَب الإذن بالدخول إلى الملك، وأخبرهُ بأن فتىً في السجن يستطيع تأويل رؤياه.

تفسير رؤيا الملك والخروج من السجن

ويُفسِّر يوسف لرسول الملك رؤياه، فيقول: تزرعون سبْعَ سنين متوالية وهي السنوات السبع المخصبة، المرموز إليها بالبقرات السمان، فاتركوا ما تحصدون في سنابله فذلك أحفظ له من السوس والتلف، إلاَّ ما تحتاجون، واحفظوا البقية للسنوات الأخرى المجدبة، وهي ما ترمز إليه البقرات العجاف. وتأتي بعدها سبع سنين أخرى، تكون قاحلةً تماماً، حتى لكأنها هي التي تأكل بذاتها كل ما يُقدَّم لها لشدَّة نهمها وجوعها إلا القليل مما تحفظونه وتصونونه من التهامها.

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٣.

ثم تنقضي هذه السنوات الشدادُ، ويعقُبها عامٌ يكثر فيه الماءُ والزرعُ، وتنمو فيه الكروم، ويكثرُ فيه عصر العنب والفواكه على أنواعها، ويعمُّ الرخاء وتزدهرُ الأحوال، كما يقول الله العليمُ الكريمُ على لسان عبده الصالح يوسف عليه السلام ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(١). مع أن ذكر العام الثامن لم تأتِ على ذكرها الرؤية التي رآها الملك، لأن رؤيته اقتصرت على السنوات السبع الشداد، ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يُعلم الملك وحاشيته أن يوسف الذي علّمه الله ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾(٢) ليدلَّ على صحة نُبوَّة يوسف عليه السلام. وأنَّ علمَ يوسف لم يكن مقتصراً على تفسير الرؤى، بل يتعداه إلى بعضٍ من علم الغيب، الذي علّمه الله تعالى له.

واطمأنَّ الملك لهذا التفسير، وطلب أن يأتوه بيوسف، ولكنَّ يوسفَ الشهمَ الأبيَّ، والنبيَّ النقيَّ يأبى مغادرة سجنه قبل أن يتحقّق الملك بنفسه من براءته، ومن فِعْل النسوة معه، واتهامه بالخيانة. ويستقصي الملك الأمر فعلاً، ويتحرّى عن الحقيقة فتأتي إليه امرأة العزيز وكأنّها أرادت أن يحفظ يوسف، وهو مَنْ أحبَّتْهُ، ذكرى طيّبة عنها (وهذه خاصّةُ المُحبّين المخلصين) فقالت للملك: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٣).

ظهرت براءةُ يوسف. وتبيَّن للملك معها علمُهُ وحكمتُهُ في طلب تمحيص أمر النسوة. كما ظَهَرَ له حرصُهُ على كرامته وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ولقاء الملك، ولكنّه يقف وقفة

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٩.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥١.

الرجل الكريم، المتَّهم في شخصه، المسجونِ ظلماً، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبلَ أن يطلب رفع السجن عن بدنه، ويطلب الكرامة لشخصه ولدينِهِ الذي يمثّله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك.

كل هذا جعل الملك يطلبه إليه، فيجعله الوزير المستشارِ، والنجيّ الصديق، والأمين المختار.

يوسف أمين خزائن الملك

جاء يوسف، ولم يتملّق الملك، ولكنه طلب أن يجعله أميناً على خزائنه، لا طمعاً في وظيفةٍ أو مركز، وإنما لاعتقاده أنه قادرٌ على أن ينهض بأعباء الأزمة القادمة. ذلك أن سنيّ الرخاء التي تسبق تلك الأزمة بحاجة إلى من يحفظ غلالها، ويقدر على إدارة أمورها بضبط المحاصيل وصيانتها. نعم لم يكن طلب يوسف هذا غُنماً لنفسه، وإنما ليكون مسؤولاً عن إطعام شعبٍ كاملٍ وشعوبٍ تجاوره، طيلة سبع سنوات، لا زرع فيها ولا ضرع.

ويمكّن الله تبارك وتعالى ليوسف في الأرض، فيكون له ما يشاء، ويتبوَّأ منها حيث يشاء.

يوسف وإخوته

وتأتي سنوات الجدب، وتضيق الأرزاق، وتعمّ الأزمة الخانقة ليس أرض مصر وحسب، بل وأرض كنعان، بعد أن اجتاح الجدبُ كل تلك البقاع وما حولها، فاتَّجه أبناء يعقوب عليه السلام، مع من اتّجه من الناس، إلى مصر، بعدما تسامع الناس بما فيها من فائض الغلّة منذ السنوات السمان.

ويدخل إخوة يوسف عليه فيعرفهم. أمّا هم فلم يعرفوه، لأنه كان صغيراً عندما ألقَوه في الجبِّ منذ عشرين عاماً أو يزيد! وكانت معاملته لهم ولجميع الناس بالإحسان، فأكبروه سيداً ونبيلاً، لما له من المهابة، والأمر والنهي، يعطي الغلال ويمنعها حيث يشاء، وكيفما يشاء، ولكن بتدبُّرٍ أمينٍ حكيم.. وكم كانت دهشة أبناء يعقوب عليه السلام كبيرة، بعدما أعطاهم هذا السيد الغلال، وهو يقول لهم: إئتوني بأخٍ لكم من أبيكم...

لقد أعطاهم يوسف قمحاً، وأمر فتيانه بأن يضعوا لهم بضاعتهم في رحالهم. ثم عاد يؤكد لهم: لا كَيْلَ لكم عندي في المرة الثانية إلا إذا جئتم بأخيكم الأصغر. فلما عادوا إلى بلدهم طلبوا من أبيهم أن يرافقهم أخوهم الأصغر حتى يكتالوا وإلا مُنعوا من قبل الحاكم في مصر... ويبدو أن الأب استسلم على كرهٍ، ولكنَّه رفضَ أن يرسله معهم حتى يُقسموا بالله أن يردّوه عليه، إلاَّ إذا غُلبوا على أمرهم، ولم يعدُ في يدهم حيلة. وهذا الذي حصل، فقد عادوا أدراجهم شطر مصر وأخوهم الأصغر معهم...

ويختلي يوسف بأخيه، ويؤويه إليه. ثم يدبّر أمراً كي يحتفظ به، فيوعزُ إلى الخدم كي يدسّوا صُواع الملك الذي يستعمل للكيل في أوعية رحل أخيه الصغير. وما هي إلا لحظات حتى ارتفع الصوت منادياً بأن صُوَاع الملك قد فُقِد...

ولما كان المُتَّبع في دين يعقوب أن يؤخذ السارق رهينةً أو أسيراً أو رقيقاً في مقابل ما يسرق، فقد كانت نية يوسف، أن يجعل الصواع في متاع أخيه كي يَسْتَبْقيَهُ عنده.

أمرَ يوسف بالتفتيش، وكانت الدهشة للإخوة، عندما وُجِدَ

صواع الملك في رحل أخيهم. وأرادوا التنصّل من الحرج الذي وقعوا فيه، فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[1] وهم يقصدون يوسف. ولكنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أسرَّ ذلك في نفسه وقال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾[2] ولما كانوا قد وثّقوا الإيمان لأبيهم بالحفاظ على أخيهم، وبإعادته سالماً، فقد طلبوا من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يأخذ أحدهم مكانه. ويُجيبُ يوسف وهو يضمرُ في نفسه المفاجأة التي يعدّها لهم ولوالده وللجميع، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾[3]، وهنا تظهر حكمةُ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ لم يَقُلْ معاذ الله أن نأخذ بريئاً بجريرة سارق، لأنه كان يعلم أن أخاه ليس سارقاً، بل قال معاذ الله أن ﴿نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾[4]. وكانت تلك كلمته الأخيرة لهم، فانسحب الإخوة يفكّرون في موقفهم المحرَج أمام أبيهم حين يرجعون.

ويأبى كبيرهم أن يذهب إلى أبيه، فيطلب إلى إخوته بأن يرجعوا إلى ديارهم ويخبروا أباهم بأن ابنه الصغير قد سرقَ، فإن أذِنَ له أبوهُ عادَ، وإلاَّ فإنه ينتظِرُ حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ويأتي أبناء يعقوب إلى أبيهم، ويفضون إليه بالنبأ المؤلم. ولكن هذا الإنسان المؤمن، الصادق في إيمانه، لا يخلو قلبه من الأمل، فيوجّهُ أولاده إلى الذهاب والبحث عن يوسف وأخيه. والأمل عنده يظهر في ذكر يوسف، رغم هذا المدى الطويل الذي يقطعُ الرجاء من

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٩.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٧٩.

حياة يوسف، فضلاً عن عودته إلى أبيه... ولكنَّه كان على بيّنةٍ مما وجَّههم إليه بقرينةٍ ضمّه لذكر يوسف مع أخيه المأخوذ في مصر..

ويعودُ إخوةُ يوسف إلى مصر مرة ثالثة، وقد أضرَّت بهم المجاعة وجاؤوا ببضاعة رديئة هي الباقية لديهم، فيدخلون عليه وفي حديثهم انكسار وشكوى مما فعلت بهم الأيام، فيقولون له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾(1).

وعندما بلغ بهم الأمر مثل هذا الحد من الاسترحام والضيق، لم تبقَ عند يوسف قدرة على إخفاء حقيقة شخصيته، فيعود بهم إلى الماضي البعيد، ويذكّرهم بما يعرفونه: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾(2)؟

وكانوا على يقين بأن لا أحد يعرف سرَّهم إلا الله، فأدركوا على الفور أن هذا الذي يخاطبهم هو يوسف بذاته، فقالوا له: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾؟ فقال لهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(3).

فاجأتهم الحقيقة التي أعلنها يوسف، فأقرّوا بالذنب، واعترفوا بالخطيئة، وأيقنوا أن الله قد آثرهُ عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان. ثم أعطاهم قميصه حتى يذهبوا به إلى أبيه، وطلب إليهم أن يأتوه بوالديه.

---

(1) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

(2) سورة يوسف، الآية: ٨٩.

(3) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

ولما قفلوا راجعين إلى أبيهم، قال يعقوب لمن حوله: إني أخاف إن ذكرتُ ما في نفسي أن تظنوا بعقلي الظنون، إني لأجد ريح يوسف. وكانت مفاجأة القميص أيضاً، إذ عندما ألقوه على وجه يعقوب ارتدَّ إليه بصره. فقال لأبنائه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[(1)]. وفي هذا تصريحٌ بأن يعقوب عليه السلام كان على بيّنةٍ من تلك الأحداث من ألِفِها ليائِها.

قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[(2)].

الرؤيا تتحقق

وهكذا وبعد انقضاء الأيام وكرِّ الأعوام، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، أجل، بعد كل ما حلَّ بيوسف على مدى سنين عديدة يكون اللقاء. ويدخل أهله عليه، ويرفع أبويه على العرش ويخرّ إخوته له ساجدين. فتتحقق الرؤيا ويقول يوسف لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[(3)].

ويظهر يوسف عليه السلام في نهاية القصة ذلك الإنسانَ الساميَ، ذلك العبد المؤمن، الذي يتوارى من ذهنه الجاه والسلطان، وتغيبُ عن باله فرحة اللقاء، واجتماعُ الأهل، ولمحة الإخوان. فيسجد لله

(1) سورة يوسف، الآية: ٩٦.
(2) سورة يوسف، الآية: ٩٧.
(3) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

شاكراً، ويبتهل إليه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يتوفّاهُ إليه وأن يُلحقه بالصالحين من آبائه الكرام. ويكون دعاؤه: ربّ إنّي لا أسألك سلطاناً ولا صحّةً ولا مالاً. بل أسألك ما هو أبقى وأغنى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

هذه باختصار شديد ملامح قصة يوسف عليه السلام، وخطوطها العريضة. فإلى هذه القصة الرائعة من منابعها ومصادرها في كتاب الله المبين..

سورة يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ[2] أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٢) رأى يوسف عليه السلام الحلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان بين رؤياه وبين ذهاب أبيه وإخوته إليه في مصر أربعون سنة.

لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ
عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم
بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ
إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ
لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ
﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ
وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا
وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ(١)

---

(١) أرادت زليخا امرأة العزيز إيقاع يوسف عليه السلام في الفاحشة، عندما كان يعيش في بيتها، وأغلقت باب الدار وباب البيت وقالت: أقبل وبادر إلى ما هو مهيأ لك. فقال يوسف: أعتصم بالله وأستجير به مما تدعينني إليه. إن الله ربي رفع من مقامي وأحسن إليَّ وجعلني نبياً فلا أعصيه أبداً. ولقد همَّت به جذباً إليها وهمَّ بها دفعاً عنه حين رأى برهان ربِّه (والبرهان هو عصمة النبوة) (أي منعهم وحفظهم) فهي ما حفظ به الله أنبياءه. وتقديرها: ولولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها. ولكن البرهان موجود في عقله وقلبه قبل الاجتماع بها وأثناء الاجتماع وبعده.

كما قال الله تعالى بخصوص يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ كان مسبِّحاً لله قبل أن يلتقمه الحوت، وعندما التقمه، وبعد أن نبذه في العراء.

وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا
يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ
لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ
وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا
إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ
أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ(١) ﴿٢٦﴾ وَإِن
كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن
دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ
ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا
وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ
إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ
وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ

---

(١) لما تأكد الزوج من خيانة زوجته لم يثُرْ ولم يغضب حتى ولم يصرخ في وجهها لأنّه فرضت عليه عادات الطبقة الراقية التي هو على رأسها أن يواجه الموقف بحذر وتنازل فاكتفى بالقول «إنه من كيدكن».

فقد نسب ما فعلته امرأته إلى كيد النساء عموماً، بأن صرّح بأن كيد النساء عظيم. وهكذا سبق الأمر كما لو كان ثناءً. ولا نحسب أن يسوء المرأة أن يقال لها إنَّ كيدها عظيم فهو دلالة في حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لمقدرة الأنثى على الكيد. وبعدها التفت الزوج إلى يوسف قائلاً له: يوسف أعرض عن هذا. أي أهمل هذا الموضوع ولا تُعِرْهُ اهتماماً ولا تتحدث به. هذا هو المهم بنظره أي المحافظة على الظواهر، وعدم إفشاء السر.

إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾
فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ
بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ
أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ
ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا
وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ
مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ
مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى
ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ
إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ[1] أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ
بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ

(١) أضغاث أحلام: رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها وتشويشها.

﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا
جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى
بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا
عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ(١) ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ
ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾
وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ
﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ(٢) عَنْهُ
أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا

---

(١) حصحص الحق: بانَ وظَهَرَ.

(٢) سنراود عنه أباه: أي سنتغلَّب على إرادته حتى نُخرجه معنا.

ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ
مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ
ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا
نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ
كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ
إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ(١)
لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن
شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ
حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ
يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾
وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ
﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾
قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا
جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ

---

(١) قال يعقوب: يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة: فسر البعض قوله بأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا ذوي جمال وهيبة وكمال وهم عدة إخوة من أب واحد.

كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ(١) لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ
إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا
لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ
إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ(٢) نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ
عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ
لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ
إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾
وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ
سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ
مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ

---

(١) ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله: أي ما كان يمكنه أن يأخذه بحسب حكم ملك مصر وقضائه وأن يحبسه، إلا بواسطة تلك التي فعلها والتي أجازت له استبقاء أخيه إلى جانبه، كما قدّر الله تعالى ليوسف عليه السلام أن يعمل.

(٢) خلصوا نجياً: أي انفردوا عن الناس من غير أن يكون معهم من هو ليس منهم، وذلك لكي يتشاوروا فيما يعملون عند ذهابهم إلى أبيهم من غير أخيهم في حال قرروا الرجوع إلى ديارهم أو البقاء في مصر لأنهم أعطوا أباهم موثقاً من الله أن لا يفرّطوا بأخيهم الصغير كما فرّطوا بأخٍ له من قبل.

حَرَضًا[1] أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ
وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا
دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ[2] فَأَوْفِ
لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠
يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا
لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا[3] تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي
بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[4] ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ
مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ
يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ
عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي

---

(١) حتى تكون حرضاً: أي تكون مشرفاً على الهلاك.

(٢) بضاعة مزجاة: أي بضاعة قليلة لا توازي قيمتها البضاعة التي طلبوها.

(٣) لا تثريب عليكم اليوم: أي لا توبيخ ولا تعيير ولا تقريع عليكم الآن فيما فعلتم.

(٤) لولا أن تفندون: أي لولا أن تضعفوني في الرأي.

حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)﴾.

وقد ورد ذكر يوسف عليه السلام في سورة غافر، على لسان مؤمن فرعون، بقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)﴾.

أيوب عليه السلام

أيوب عليه السلام

إن قصة أيوب من أروع قصص الابتلاء والصبر، وهي ذائعةٌ مشهورة، حتى أن المثل يُضرب بصبر أيوب.. كان مقرّه في أرض حوران من بلاد الشام من أعمال دمشق، وله مسجد على بعد ثلاثة أميال من بلدة نوى، حيث كان يأوي في حال بلائه هو وزوجته. عاش عمره الذي ناهَز السبعين عاماً مبشِّراً ومنذراً، قانتاً، عابداً، بَسَطَ الله له في رزقه وأهله، فكان رزقه مبذولاً للسائل والمحروم، حيث يُطعِمُ الجائع، ويروي العطشان، ويؤوي اليتيم، وينصر المظلوم، ويساعد الضعيف.

رآه الناس على فيض النِّعم من ربّه، قائماً على العبادة والشكر. كلما زادهُ الله بركةً ازداد ورعاً وتُقىً، وكلما فاضت عليه الخيرات ازداد في البذل واشتدَّ في التهجّد والتعبّد. لا يفتنُه مالٌ، ولا يُغويه ولدٌ، بل حبُّ الله ورضاه هما همّه ونجواه..

وكعادةِ بني البشر، ممن انطبع في قلوبهم الزَّيغُ، وانطوى على سريرتهم الشرُّ، ساءَ أهلَ زمانه أن يَرَوا عبداً مقيماً على طاعة الله، يمرح في حقول النعمة، ويجول في ساحات الثراء، دون أن يُبطرَه غنىً أو يُغويَه ولدٌ، فهو أبداً لاهجٌ بذكر الله، يأمر بطاعته ويفكّ الأسير، ويبسط وجهه لصاحب الحاجة.

ساءَ ذلك كلُّه أهلَ بلده، فما وجدوا سبيلاً للنيل منه إلاَّ الدَّسّ ونشر الإشاعات المغرضة، فراحوا يروّجون في مجالسهم وأحاديثهم أن أيوب عليه السلام ما عبد الله حبّاً بعبادته، ولا طوعاً من نفسه، ولا نافلةً من عنده، وإنما عبادته طمَعٌ في ما منَحَه الله من مالٍ وبنين، وبما أسبَغَ عليه من ثروة طائلة، وملَّكه من أرض واسعة. وهذه النِّعَم جديرةٌ بأن تدفعه للشكر، وأن تحمله على العبادة، خشية أن تصير إلى الزوال ويصيبها الفناء. وزادوا في اللغو، بأن أيّوب عليه السلام، لو نُزِع عنه ذلك الملك، وجُرّد من هذا الثراء، فإنه سيعرض عن ذكر الله، ويبعُدُ عن طاعته.

وكانت الأخبار تطرق مسامع أيّوب عليه السلام فلا يعيرها اهتماماً، وتصله الشائعات فلا يوليها عناية، بل ظلَّ على سيرته مترفّعاً عن كل قول، متنزّهاً عن كل زلل.

ويُريد الله سبحانه وتعالى أن يجعله مثالاً للبشرية، فيبتليَهُ بأعظم ابتلاء، حتى يجعلَ منه ذلك القَبَسَ الوهّاج في الإيمان، وذاك المثالَ الرائعَ على المجالدة والصبر. ويكون الابتلاء بأعظم ضُرّ يخطر على بال الإنسان، إذ يُصيبه بماله فيذهب به كله، وبأهله ـ أي بأولاده فيتوفاهم جميعاً ـ وبأصدقائه فينصرفون عنه، وبصحته فتذوى وتذوب حتى أصبح لا يَقدر على القيام، ولا يقوى على الحركة والسير. .

ويشهدُ الناسُ ما حلّ بأيّوب، وما فعلتْ به صروف الدهر ونوائبُهُ، فتتضاربُ الآراء، وتختلفُ الأقاويل، وفق الأهواء والنزعات. .

فهذه جماعةٌ تُشكِّك في نبوّته وترى أنَّه ما قام بعبادته إلاّ مباهاةً، وما آتى الزكاة إلاَّ زيفاً. .

وتلك جماعةٌ أخرى تُقيمُ على الكفر والإلحاد، فتتخطّى أيّوب عليه السلام، وتقول: لو كان ربُّ أيّوب يستطيع دفعَ بلاءٍ أو إتيانَ خيرٍ لكانَ نبيُّهُ أولى برفع الضرّ والبأساء عنه.

وأمّا المنافقون فكانوا يقولون: إن يفعل ربُّ أيّوب به هذا الفعل فلكي يَفجَعَ به صديقهَ، ويُشمتَ به عدوَّه، وهو في كلا الحالين، مستأهلٌ لما حلَّ به!..

أمّا الفئة القليلة التي آمنت به، فكانت تستغفر الله، وتطلب لصاحبها الشفاء والعافية، وهي تغبطه في صبره على بلوائِه، وتقول: هنيئاً لأيّوب عليه السلام، فما خُلِقَ الإنسانُ إلا ليبتلى، فالدنيا دار بلاء، وأهلها معرَّضون للمصائب. وقد قال خالقهم عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾(1).

وظنَّ الشيطان، وهو الذي وسوَسَ لتلك الجماعات بأن تقابل أيوب بالحسد والتشفّي، وظنَّ معه أتباعه ومُريدوه - من المارقين الكاذبين - أن المصائبَ التي حلَّت بأيّوب، والكوارثَ التي نزلتْ به، سوف تذهب بإيمانه، وتُفسد عقيدته. ولكن خابَ الظنُّ منهم جميعاً لأن كل ما حلَّ بالعبد الصالح، ونزل به جعله أقوى إيماناً بربه تعالى، وأشدَّ إذعاناً لعظمته وسلطانه.

ومرّت الأيام وانقضت سبعُ سنين وأيّوب عليه السلام ما يزال على حاله من المرض وهزال الجسم، وشحوب اللون. بل وبعد تلك المدة الطويلة، وما آل إليه حاله بعُدَ عنه الصديقُ، واعتذر منه الرفيقُ،

---

(1) سورة هود، الآية: ٧.

ورغب عنه القريب والبعيد، إلاّ زوجَهُ الرؤومَ العطوف، فقد أقامت على وفائها، تخدمه وترعاه، وتوليه عنايتها واهتمامها فوق كل مستطاع: لا تئنّ إلاَّ لأنَاته، ولا تشكو إلاّ لآلامه. وبقيتْ على العهد، حامدةً صابرةً، محتسبةً، لا تأخذها لومةُ لائمٍ، ولا تثنيها شماتَةُ شامت، ولا يوهن عزيمتها انتقادُ غريبٍ ولا قريبٍ. .

ولكن أهل السوء لا يرعوون، ولا يكلّون. . يريدون غرسَ الشرّ في أطيب الأرض، وبذر الشقاق في أنقى الأنفس، ولهم باعٌ طويلٌ في ما يعملون ويصنعون. . وها هم ينساقون وراء أهوائهم، ويأتون امرأة أيّوب يحرّضونها على تركِهِ، ويؤجّجون في صدرها روحَ السَّأمِ والضجر من حاله. وتكاد تُؤخذُ الزوجةُ الصالحةُ بكثرة ما يُرَدِّدونَ، وبشدَّة ما يمعنون، فتأتي مرة زوجها وتقول له:

ـ حقّاً لِمَ يعذبك ربّك؟ أين المال؟ وأين العيالُ، والأهلُ والأصدقاءُ؟ أين الشباب والفتوّة، وأين العزمُ والقوَّة؟.

ويردُّ أيّوب عليه السلام بجلَدٍ وأناة:

ـ لقد سوَّل لكِ الشيطان أمراً! . . أتُراكِ تبكين على عزٍّ قد ولّى، وولدٍ قد توفّاهُ الله؟!.

قالت الزوجة:

ـ كفانا بلاء ومصائب، فهلاَّ دعوتَ ربّك أن يكشفَ عنك الغمَّ ويزيح النكبة؟

فحملقَ أيّوب عليه السلام في وجهها مستغرباً، ثم قال:

ـ كم مكثتِ في الرخاء يا امرأة؟

قالت: أربعين عاماً. .

قال: كم لبثتِ في البلاء؟

قالت: سبع سنين...

وهنا ردَّ عليها أيّوب عليه السلام بما أفحَمَ حجّتها، فقال:

- إذن أستحي أن أطلب من ربّي رفع بلائي، وما قضيتُ فيه مدة رخائي..

ويتوقف برهة، ثم يتابع قائلاً:

- لَشدّ ما تأخذني الدهشة وأنا أسمع ما تقولين، لقد خابَ ظنّي بكِ، ولا أراكِ إلا وقد ضعُفَ إيمانك، وضاق بقضاء الله صدرك.. اغربي عن وجهي أيتها المرأة، لئن برئت وأعاد لي الله القوّة، فإني سأضربك مائة جلدة... ولن أذوق بعد اليوم من يدك طعاماً، أو أتناول منك شراباً. لا، ولن أكلّفك أمراً أو عناءً.. اذهبي عنّي حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً...

ونَجَح المتآمرون، وفرَّقوا بين الزوج المصاب، وبين المرأة القانعة، فأصبح أيّوب عليه السلام وحيداً إلاّ من آلامه، فريداً إلاّ من أسقامه...

وفي ذروة المصاب، وفي قمّة الشدَّة، فاضَتْ نفسه بالشكاية إلى الله، فنادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1].

ما هذا الدُعاء الجميلُ؟

أيّوب عليه السلام لا يزيد في دعائه على وصف حاله ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾. ويصف ربّه بما هو عليه جل وعلا: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. إنه لا يدعو بتغيير حاله، صبراً على بلائه، ولا يطلب شيئاً تأدّباً منه، وتوقيراً لربه جلّت عظمته.. فهو نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء ولا يتململ من الضرّ، والذي تضرب به الأمثال في جميع العصنور. بل إنّه ليتحرَّج أن يطلب إلى ربّه رفع البلاء عنه، فيدع الأمر كله إليه، اطمئناناً إلى علمه بالحال وغناه عن السؤال.

وفي اللحظة التي توجَّه فيها أيّوب عليه السلام إلى ربّه بهذه الثقة وبذلك الأدب تكون الاستجابة، وتحلُّ الرحمة، وتأتي نهاية الابتلاء كما يقول الباري عزَّ وجلّ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[1].

وتكون الرحمة الكبرى من أرحم الراحمين، فيأمره أن يضرب الأرض برجله فتتفجّر عينُ ماءٍ، تكون مغتسلاً له ومشرباً. وتكونُ له منها صحة وعافية..

نعم، ما إن يشرب أيّوب عليه السلام من الماء الذي تدفّق بضربة رجلِهِ، ويغتسل به، حتى تعود صحّته فيصبح أقوى مما كان، وترتدّ إليه عافيته فيصير أحسن من ذي قبل..

ويخرُّ العبد الصالح، الصابرُ، ساجداً شاكراً على تلك النعمة التي أعادَها الله إليه. ويزيدُه الله اطمئناناً، فيوحي إليه بأنّه رادٌّ عليه أهلهُ وما فقده من ولدٍ، ومعيدٌ له رزقهُ وما خسرهُ من مال، فيزداد أيّوب عليه السلام خشوعاً وعبادة...

أيّوب عليه السلام في هدوئه وصفائِه، وامرأتُهُ في دهشةٍ من أمرها،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٤.

وقلقها عليه، عادتْ إلى ذاتها، وحاسَبت نفسها على ما سوَّلَتْ لها وما قصّرت به عن إدراك الحقيقة والصواب.. استمعَتْ إلى قوم كاذبين، فأوغروا صدرها بالضيق، وملأوا قلبها بالأسى... أنْصَتَت إلى أصوات المغرضين، فدفعوها إلى معاتبة زوجها، ونيلِهِ بالأذية..

إذن أين صبرُها، ومجالدتها، وأين أصالتها وطيبُ محتدها؟ هل تُغضب الله من أجل أناس منافقين؟..

لا!... إنها زوجةُ نبيّ الله، ويكفيها أن ترى زوجها على هذا الصبر، وعلى هذا الإيمان، حتى تُكبره وتبقى على خدمته إلى أن يقضيَ الله أمرَهُ...

ولا تطيقُ المرأةُ الرحيمة فراق ذاك المبتلى، فتهبّ من رقادها، وهي تحسُّ كأنَّ ناراً تأكل أحشاءها، وتندفعُ إلى خلوة زوجها، وهي ملهوفةٌ متحسِّرةٌ..

لم تُطاوعها نفسُها على تركه، فعادتْ إليه كي تلازمه وتقوم عل خدمته. ولكنها لم تجدهُ في مكانه، بل رأتْ أمامها رجلاً مكتمل الصحة، غضّ الإهاب، وافر القوّة، فوقفتْ تتأمّله دون أن تستطيع معرفته.

وطال بها الوقوف. ولكن ما حاجتُها إلى الانتظار، وهي تريدُ زوجها فتقدَّمتْ تسأله:

ـ لقد كان في هذه البقعة رجلٌ مسنٌّ، مريض، لا يقدرُ على الحراك، وقد فارقته منذ أمدٍ غير بعيد، فهل رأيته أو علمت ما حلَّ به؟

ويتأملها أيّوب عليه السلام برفقٍ ثم يردّ عليها قائلاً:

ـ هل وَهَنَ بكِ البصر فلا تَرَينَ من يقف أمامك؟

وفاجأتها رنّة صوتِه. إنّه أيّوب زوجها، وقد عادت إليه عافيته. . . وترتمي راكعةً بين يديه، باكيةً، حامدةً الله على تلك النعمة التي أفاضها عليهما، وطالبةً منه الغفران. ويوحي إليه الله تعالى أن يأخذ حزمةً من مئة عود من الحطب ويضرب بها زوجه ضربة واحدة توازي مئة جلدة، حتى لا يحنث بيمينه. وبذلك يردُّ إليه تلك المرأة المخلصة، الوفيّة، التي كابدت الشقاء معه أيام المرض، وسهرت الليالِيَ في أوقات الشدّة. ويكون جزاؤه العظيم على صبره، وعلى عدم تبرّمه ببلواه بأن يُنعم الله عليه بأكثر مما كان له. فيردّ عليه أولادَهُ، ويرزقه بمثلهم من جديد. ويفيضُ عليه من الأرزاق والممتلكات بضعف ما كان عنده. وتكون هبة الله لأيوب عليه السلام جليلةً كبيرةً، ويصير للأنبياء، وللبشرية جمعاء، مثالاً لرحمة الله الواسعة، وذكرى لأولي الألباب. ويصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ[1] هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[2] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾[3].

وجاء في سورة الأنبياء عن أيوب عليه السلام قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

---

(١) اركض برجلك: أي ادفع برجلك الأرض.
(٢) وخذ بيدك ضغثاً: أي ملء كفك من الأغصان اليابسة.
(٣) سورة ص، الآيات: ٤١ ـ ٤٤.

شُعَيْبُ عليه السلام

شعيب عليه السلام

كان أهل مدين عرباً يسكنون أرض معان من أطراف بلاد الشام، وكانوا مشركين، عابدين للأيكة (وهي واحة تغصّ بالشجر والزرع).

كانت لديهم عادةٌ سيّئةٌ: يُنقصون المكيال ويتلاعبون بالميزان، ولا يعطون الحقَّ لأصحابه. وهذه العادةُ تمسُّ نظافة القلب واليد، مثلما تمسّ كمال المروءة والشرف. وقد دَرَجوا على هذه الخساسة وفي ظنّهم أنّ بَخْسَ الناس أشياءَهم، وانتقاص حقوقهم هي طُرُقٌ من المهارة والحذق في البيع والشراء، وضروبٌ من الحنكة والدهاء في الأخذ والعطاء..

فبعث الله إليهم نبيّاً منهم، هو شعيب عليه السلام الذي أعطاه الله ميزة المخاطبة الحسنة، والأسلوب البليغ المقنع، حتى قيل بأنّه خطيبُ الأنبياء.

وقد دعا قومه، قبلَ كل شيء، إلى عبادة الله الواحد الأحد ونبذ الوثنية، ثم أوصاهم بإقامة العدل... فلا غشٌّ، ولا تلاعُبَ بالأسعار والموازين، ولا ابتزاز، ولا سرقة بل العمل بالحق الواضح المبين.

وذكّرهم بفضائل الله ونِعَمِهِ عليهم، إذ كَثَّرَ عدَدهُم بعدَ قِلَّة، وأغنى فقيرهم بعد حاجةٍ، وحذَّرهم في النهاية من سوء عاقبةِ ما

يعملون، وخشي عليهم من فداحة الجزاء لما يُؤتون. وقال لهم: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾(١). والأشياءُ في مقصده هي كلُّ ما حوت أيديهم من ماديات، أو أنفسهم من معنويات، يستوي في ذلك منها علاقات العمل والإنتاج، والمبادلات على اختلافها، والمسالك الفردية والجماعية على تنويعها، أي أنها تشمل كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان في علاقاته العائلية والفردية وغيرها من العلاقات بين الناس في الحياة. . . ولذا فإن النهي عن بخس الناس أشياءهم إنَّما يعني الالتزام بالحقوق والواجبات. وإلا ظلَّ الظلمُ والطغيان مستفحلاً، وانهزامُ الناس من الداخل حالاً، مع ما يَسْتَتْبِعُ ذلك كله من اللاَّمبالاة في تقييم المجهودات، وإشاعة الفساد والانحلال، والانهيار التام للعلاقات، وإذ ذاك يتقوَّض المجتمعُ نهائياً. .

هذه النظرةُ المتكاملةُ للحياة البشريّة شرَحها شعيبٌ لقومه، ففسَّر مختلف جوانبها، وبيّن سائر مدلولاتها، وأوضح النتائج التي تترتَّبُ عليها، كما دلَّ على مَغَبَّة عدم اعتمادها أو التخلّي عنها.

ولكنَّ القوم رأوا فيما يدلّهم عليه وفيما يدعوهم للعمل به، مدعاةً للهُزءِ والسُّخرية. وكان ردُّهُم التهجُّمَ والتهكُّم، فقالوا له:

ـ أصلاتُك تأمرنا أن نعبد غير ما عبد آباؤنا الأقدمون، وأسلافنا الأوّلون؟!. .

أم تعاليمُك تسمحُ لك بالتدخُّل في إرادتنا وفي تقدير تصرُّفنا في أموالنا؟

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٥.

وما هي هذه العلاقة التي تربط بها ما بين الإيمان والصلاة وبين معاملاتنا المادية؟

هكذا كانوا يحاولون الردَّ على دعوة الحق، بتلك العقيدة الفكرية التي سيطرت على أهل مدين، والتي ما تزال تمارس في أوقاتنا الحاضرة. فكثيرون من الناس يعتقدون أن الدين مجموعة من القضايا المجرَّدة، والمفاهيم المحدودة التي ترتبط بأمور غيبيّة لاصلة لها بجوانب الحياة. وهو اعتقادٌ قديم خاطىء لأن الدين في جوهره أسلوب للحياة والتعامل، علماً أن الفصلَ بين الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى وبقضية التوحيد من ناحية، وبين القيم الأخلاقية وسلوك الناس في تصرفاتهم اليومية من ناحية ثانية، هو تجريد الدين من مضمونه، وتحويله إلى مجموعة من الطقوس التقليدية الجامدة والمراسم الميتة.

ومن هنا كانت دعوة شعيب، كسائر النبيّين والمرسَلين، إلى تقويم السلوك البشريّ، بعد الإيمان بالله الواحد الأحد، لأن الدين يعني التدخل في جميع نواحي الحياة في علاقة الناس بربّهم، وفي علاقاتهم تجاه بعضهم البعض.

ولكن قوم شعيب أَلِفُوا عاداتهم البالية، وتقاليدهم الرَّثة، فكانوا يدافعون عنها بالرد على نبيّ الله بالقول: أتنهانا يا شعيب عن تعاملٍ أحببناه، وطريقٍ اتَّبعناه، وفيه نشأنا وعليه درجنا؟ وكيف ندع ما فيه تكثيرٌ لأموالنا؟ بل كيف تجرؤ أنت على تسفيه دينٍ ألفناهُ، وشَرعٍ ورثْنَاه، وأنت الراجحُ عقلاً، والسديدُ رأياً، والواسع حلماً؟ . .

واستمرَّ شعيب يجادلهم بلطفٍ، مؤثراً استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق. فذكَّرهم بما يربطه بهم من صلات، وما تقومُ بينه

وبينهم من وشائج القربى والمودَّة. ولَفَتهم إلى أنَّه لا يَطلُبُ أجراً على هداهم، ولا جزاءً على إرشادهم. وجل همه، وما يصبو إليه، هو إصلاحُ أمرهم، لأن فيه صلاحَهُم في الدنيا والآخرة.

وظنَّ أنَّ آذان القوم تفتَّحَتْ لسماع قوله، وقلوبهم اهتدتْ لنصحه، فأعلن وهو يجهد في دعوته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، أن الله أوحى إليه بالهدى، وأرسله بالحق، وآتاه من الرحمة والرُّشد ما لم يهتدوا هم إليه، وأنَّه يدعوهم إلى اتباعه، والسير على دربه ليكونوا من الصالحين.

ثم لم يلبث بعد حين أن وجدَ بأن كل أقواله كانت صيحةً في وادٍ، تتبدّد أصداؤها لمجرّد خروجها من فمه، وقد بدا له جليّاً نفورُ القوم منه، وميلُهم إلى مخالفته... وأحزنه ما يفعلونه، مع أنه لم يترك حجَّة إلا وأبداها، ولم يُبْقِ شبهة إلا وأزالها. وفكَّرَ مليّاً: هل إن هؤلاء القوم يأنفون من مُتابعته، ويميلون عن دعوته حَسَداً منه، أم بُغضاً له وتكبّراً عليه؟!.

وأراد أن يسلك معهم طريقاً آخر، فراحَ يُعَرّفهم بأس الله وعذابَه، ويُبين لهم مغبَّةَ اقتراف المعاصي وارتكاب الآثام. ويخوّفهم من هول ما سوف يلقون إذا استمرّوا في ضلالتهم وغيّهم. ثم يعودُ من جديد إلى دعوتهم للإيمان بالله، وطلب المغفرة من الله الغفور الرحيم والتوبة إليه، حتى ينجوا من العذاب ويتخطّاهم العقاب...

وطَرَقَ شتى السُّبُل، وسَلَكَ مختلف الطرق، علَّ القوم يثوبون إلى رشدهم فيزيلوا عن أبصارهم الغشاوة التي تغطيها، ويزيحوا عن قلوبهم الضلالَة التي تَرينُ عليها... وآن لهم أن يهتدوا، وقد سمعوا

قوله مؤيداً بالحجة البالغة، ورأوا فعله مدعماً بالآية البيّنة.. فشعيب عليه السلام يحب هؤلاء الناس. ولا عَجَبَ في ذلك فهُم أبناء قريته، وعليه أن يجهدَ في إنقاذهم من مهاوي الوثنية والجهل، لأنه رسول الله إليهم.. وكانت تلوح له أحياناً بارقةُ أملٍ وهو يراهم يصغون إليه، وينتعش فؤاده عندما يُحاجّونه ويجادلونه، فلعلّ في ذلك تفتّحاً لأفكارهم، واستنارةً لضمائرهم. ولكن هذه الأماني كانت لا تلبث أن تذهب أدراج الرياح، فقد بدا واضحاً أن القوم يسلكون سبيلاً شططاً... فهاهُم يلجأون إلى الغباوة في القول والمراوغة في الحديث، وها هم يعمدون إلى صدّ الحجة بالشتم والإهانة، فيجاهرون غير مستنكرين:

ـ إننا لا نفقه ما تقول!. ثم إنّك يا شعيب وأنت المستضعف الذليلُ، تحاولُ أن تَنْقُض عقائدنا وعاداتنا؟!. ألم تعلم أنه لم يمنعنا عن أَذِيَّتك إلاَّ مكانُ عشيرتك، وحُرمةُ قبيلتك؟

لم يهبْ شعيب هٰذا التهديد، ولم يُطأطىءِ الرأس أمام إعلان القوّة، أو يضعفْ حيال الجبروت الذي تغنّوا به، بل على العكس من ذلك، هبَّ يدفعُ باطلهم بحقِّهِ، ويمحقُ زورهم ببيّنته. وها هو، وقد تملَّكه الإعزازُ بنصرة الله، وامتلأ قلبه بالثقةِ بعونه، يُعلِنُ لهم بكل صراحةٍ ووضوح: أن رهْطَه ليسوا أرفعَ قدْراً، ولا أشدَّ قوّةً، ولا أمنعَ جانباً من الله عزّ وجلّ. فهو الذي مَنَحهم هذه القوَّة، وأفاض عليهم تلك النعمة.. وأن كل تهديدهم ووعيدهم لا قيمة له في نظره، فهو واثقٌ من نصر الله، ومتأكدٌ من عاقبته الحميدة عنده، لأن الله عليمٌ بما يعملون، سميعٌ لما يقولون، خبيرٌ بما يفعلون..

عَظُمَ موقف شعيب في بعض النفوس التي أعطاه أصحابها آذاناً صاغيةً، ومنحوه قلوباً واعيةً، فآمن به نفرٌ قليل.. فهلَعَ القومُ خيفةَ أن يَعظُمَ أمره، ويشتدَّ ساعده، وتكثرَ جماعته، فينتشرَ دينه الذي إليه يدعو، ويحيقَ بديانتهم البلاء والاندثار، فراحوا يتوعَّدونه ومن آمن معه بإخراجهم من قريتهم إن لم يبْرَؤوا من الوهم الذي هم فيه، ويعودوا إلى ملَّتهم. ولكنَّ شعيباً كان لهم بالمرصاد، فأنبأهم أن الذين اتَّبعوه قد استرقَّ الإيمان قلوبهم، فمَلَكَ عليهم مشاعرهم، وخالط نفوسهم فأبعدهُم عن حمأة الرذيلة، ولن يعودوا إليها طائعين، ولن يرجعوا إليها مكرهين.. لقد زيَّن الله الطاعة في قلوبهم، وكرَّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان، فأصبحوا من الراشدين المهتدين..

ولكنَّ القومَ ظلُّوا في الضلال ممعنين، وفي الغواية سابحين، لأنهم عن الحقّ لاهون، وعلى الدنيا مقبلون، وعمّا ينتظرهم من سوء العاقبة منصرفون، فأقبلوا على المؤمنين يمعنون بالكيد لهم، وبالتضييق عليهم، تهديداً ووعيداً.. وراحوا ينسبون إلى شعيب الشعوذة والسحر، ويتحدَّوْنه بأن يُسقِطَ عليهم كِسفاً من السماء، وأن ينزل عليهم العذابَ إن كان من الصادقين.

ولم يجد شعيبٌ بُدّاً من الردّ على القوم الكافرين فدعا ربَّه: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾(١).

واستجاب الله سبحانه وتعالى دُعاءَهُ، وآزرهُ بالنصر.. فابتُلي القوم بالحرّ الشديد، لا يروي ظمأَهُم ماء، ولا تقيهم ظلالٌ، ولا تمنعهم تلالٌ أو جبال، ففرّوا هاربين، ومن ديارهم خارجين.. ورأوا

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

سحابةً ظنّوها مِظَلّةً لهم من وهج الشمس، وحسبوها ستاراً من شدّة الحرّ، فاجتمعوا تحتها وهم يأملون استراحةً في فيئها. . ولكن ما إن اكتمل عددهُم، واجتمع شملهم، حتى بدأت الغمامةُ التي اعتصموا بها، ترميهم بالشرر واللهب. وجاءتهم الصيحةُ وعذابُ الظُّلَّةِ من السماء، وزُلزلت الأرض تحت أقدامهم. . ولم يكادوا يحسّون بما نزل بهم حتى أُهلكوا وصاروا من الغابرين.

ورأى شعيب ما حلّ بقومه، فأعرضَ عنهم، يثقُله الحزن، ويُضنيه الأسى. . ولكنّه تذكّر كفرهم، وهُزأهُم به وبمن آمن معه، ومخالفتهم لنصائحه وإرشاده، فلم يأبه لهم، ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾[1].

ولقد أتى الله سبحانه وتعالى على ذكر هذا النّبيّ الكريم في ثلاث سور من القرآن الكريم. فقال تعالى في سورة الأعراف:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٣.

قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ
وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩١) ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٩٣) ﴾.

وفي سورة هود:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ
أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا
تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ(١) شِقَاقِىٓ أَن

---

(١) لا يجرمنّكم: أي لا يدفعنّكم، أو يجبرنّكم.

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ(١)
لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ
وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

وفي سورة الشعراء:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾
وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾.

---

(١) الرهط: أي قومه وقبيلته.

موسى وهارون عليهما السلام

موسى وهارون عليهما السلام

كان لقاءُ يعقوب عليه السلام بابنه يوسف في مصر، سبباً في نهاية الأزمات التي عصفت بحياة العائلة حتى فرّقت بين الولد وأبيه، وبعثت الحزن والأسى في القلوب والنفوس. فعندما جاء إخوة يوسف بأبيهم إلى مصر، وكان اللقاء الموعود، والتئام الشمل، زالتِ الأحقادُ والأحزانُ، وصفا العيشُ وطابت الحياةُ.

عاشَ يعقوب عليه السلام في ظلال هذه الهناءَة ردحاً من الزمن حتى توفّاه الله، فحَمَلهُ أولاده إلى موطنه الأصليّ في فلسطين، ليدفنوه في البُقعة التي ولد فيها، تنفيذاً لوصيَّته. ثم قفلوا إلى مصر راجعين، يشدهم إليها استواء أرضِها، ووفرةُ خيراتها، وطيبُ مقامها.

وتتعاقبُ الأيامُ، وتنصرفُ السنون، فتتكاثر ذرّية يعقوب عليه السلام في تلك البلاد، حتى يربوَ عدد أبنائها على مئاتِ الألوف.. وظلَّ بنو إسرائيل على دين آبائهم (يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام) الدين الحنيف، دين الإسلام الذي حملَه يوسف عليه السلام إلى مصر، ونشره في تلك الديار، بعدما صفتْ له الأيام، وصار عزيزاً مقتدراً.

فقد عمل يوسف عليه السلام وهو نبيٌّ من أنبياء الله، على إحلال الدين الإسلاميّ في مصر. وهو يحذو في عمله حَذْوَ جميع الأنبياء

والمرسَلين، بدءاً بآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وختاماً بمحمد ﷺ. .

وهل الإيمان الذي دعا إليه مبعوثو الله تعالى إلى عباده إلا التوحيدُ بالله قصداً وعبادةً وسؤالاً؟ وهل معنى الإسلام إلاّ الاستسلام بالقلب والنيّة والوجه والعمل لله العزيز الحكيم؟.

فإذا كانتْ دَعواتُ الأنبياء والرُّسل في هذا الاتجاه، وفي هذا السبيل، فإنهم جميعاً بلا ريب كانوا دعاةً للإسلام بهذا المفهوم العام الشامل، الذي يتناولُ عقيدة التوحيد، لا النظامَ الذي جاء به الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ، ذلك النظام المتقدم في التشريع. وإن كان هذا النظام قد أُعطي اسم العقيدة بذاتها، فتلك دلالةٌ على أن عقيدة التوحيد قد اكتملتْ، وأن الإنسان قد آمن بالحقّ المطلق، فصارَ مسلماً بتولِّيه تلك العقيدة وذلك الحقّ. . . وهذا هو المعنى المقصود في قوله سبحانه وتعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾(١). والتأكيد على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(٢). وتبيان هذا الأمر في نهاية المطاف من بعث الأنبياء والمرسلين بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(٣).

أجل تلك هي العقيدة، وهذا هو الدين الذي عمل لأجله يوسف

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

كسائر النبيين والمرسلين، وهو أن تظلّ عقيدة التوحيد بمعناها الذي انطلقت منه وقامت عليه وهو «لا إله إلا الله وحده لا شريك له». وتكون الأساليب وإن تَنَوَّعَتْ، والوسائل وإن تعدَّدت، تصب في الطريق الواحد إلى وحدانية الله، وهذا هو جوهر الرسالة التي حملها كلُّ نبيّ ورسول.. ولكن استجابة أهل الأرض لم تكن صافيةً، خالصةً، على مرّ العهود والأجيال، للرسالات المنزّلة. إذ عَبَرَت الحياةَ الدنيا هذه أممٌ كانتْ في غفلةٍ من الذات، وجفوةٍ من البصيرة، فهجرت عقيدةَ التوحيد، وبعدت عن الإيمان بحقيقة وجود الله، ولم تهتدِ إلى جادة الحقّ والصواب مما جعلها تنزلق في مهاوي الضلال، وتتوه في دروب الضياع حتى وصلت بها الحالُ إلى عبادة الأصنام والأوثان.

موت يوسف عليه السلام وعودة الوثنية إلى مصر

ومن بين تلك الأمم الغابرة أهل مصر، فقد تنكرت تلك الأمة لعقيدة التوحيد بعد موت يوسف عليه السلام، وعادت إلى حظيرة الكفر بفعل طبقةٍ لم تَر إلاّ مصالحها الذاتية، وشهواتها الدنيوية بديلاً عن دين الله.. وتساءلت لماذا تُبقي على هذا الدين وهو في مجمل تشريعاته ومفاهيمه وبالٌ عليها؟ إذن لتحاربْ هذا الدين وهو ألدُّ أعدائها، ففيه المساواة وفيه العدالة، ولْتقاوم أتباعَهُ وتكيد لهم، فهم يؤمنون بأن هذا الدين لا يُفرّق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غنيّ وفقير، أو بين مستكبرٍ ومستضعف. وأيّ دين هذا الدين الذي يقول بأن جميع الناس سواسيةٌ إلاّ بما يتميَّز به كل فردٍ أو إنسانٍ في أداء الحقوق والواجبات، وفي الكفاءة والأهلية، وفي العقيدة والإيمان، وفي العمل والخضوع للقانون والنظام؟!..

ماتَ يوسف عليه السلام، فعادَ إلى مصرَ نظامُ الأربابِ الأرضية . .

وفي ظلّ هذا النظام حكَمَت الأُسَرُ الفرْعَونيّة، وهي تدَّعي الربوبية، وتتحكَّم بهذا الادّعاء في رقابِ العباد، وفقَ ما تشاءُ وكيفما تشاء.

ولكن على الرغم من تبديل النظام والمفاهيم ظلَّت فئةٌ في تلك البلاد على الإيمان، وفيَّةً لعهود الآباء والأجداد. تلك كانت فئةُ بني إسرائيل. وقد رأى فرعون ـ وكان يومذاك، على ما يقولُ بعض الرواة، الوليد بن مصعب بن معاوية العملاقيّ ـ في وجود تلك الفئة، ما يشكِّل خطراً عليه، وهي تزدادُ تكاثراً في العدد، وتوسّعاً في امتلاك الرزق.

وكانت هواجسُ فرعون صادقةً، إذ رأى في المنام ناراً تُقبِلُ على مصرَ من بيت المقدس في فلسطين، فتحرقُ جماعةَ القبط، وتزيلُ ملكَه وسلطانَه، وتكون سبباً في نهايته المحتومة. . فأرعَبَتْ هذه الرؤيا فرعون، فدعا إليه الكهان والعرافين، كي يُفَسروها له، فقيل له: إن غلاماً من بني إسرائيل يولد في هذه الديار، ويكون هلاكُك وزوالُ ملكك على يديه. .

وغلى الحِقْدُ في قلب فرعون مثل غليان الماء في المرجل، فأَمَرَ بقتل كل مولودٍ جديد من الذكور في بني إسرائيل. ثم بثَّ العيون والأرصادَ يتعقَّبونَ نساءَهم، ويُراقبون رجالهم، حتى لا يُفْلِتَ من القتل أيُّ غلامٍ وليد. . .

هكذا كان حكم الطاغية فرعون، وهكذا حلّ العذاب ببني إسرائيل: يُقتَلونَ في المهد، بلا ذنبٍ أو خطيئةٍ إلاَّ لأنهم يؤمنون بالله واحداً أحداً، حتى قلَّ مع الأيام عددُ ذكورهم، وخافَ القبطُ أن يأتيَ

زمانٌ لا يجدون فيه رجالاً يقومون على أعمالهم، في حراثةٍ، أو صناعةٍ، أو تجارةٍ، أو بناء. . . وفي ذلك خرابٌ لبنائهم، واضمحلالٌ لملكهم، وزوال لرزقهم. .

فجاءتهُ جماعة من أسيادهم تقولُ له:

- أيها السيد العزيز، لقد أمرتَ بقتل ذكور بني إسرائيل. وقد عدلتَ وأنت تستحيي نساءهم، وتكيدُ لكبارهم. ولكنَّ الأطفالَ يا سيدنا هم خدامُنا وعمالنا عندما يشبّون ويكبرون، فإن أبقيتَ حُكْمك قائماً بتقتيلهم، فإننا سنقعُ فيما يضرُّنا ولا ينفعُنا. فهم يقومون على حرث أراضينا، وبناء بيوتنا، وهم الذين يعملون في صناعتنا وتجارتنا. فهل تريدُ يا سيّد مصر أن يقع بنو قومكَ في مأزق، وأنتَ عونُهم وسندهم؟. . .

ولادة موسى عليه السلام

تفكَّر فرعون بما قالوه له، ورأى أن يُغيِّرَ نهجَهُ في تقتيلِ ذكور بني إسرائيل، فأصدَرَ أمراً بالكفِّ عنهم عاماً وذبحهم عاماً. . ويشاءُ الله العزيز الحكيم أن يُولَد هارون في سنة لا يُذبَحُ فيها المواليد، وأن يولَد أخوه موسى في السنة التالية، سنة القتل والذبح. .

وقد كابَدَتْ أمه «يوكابد» خوفاً عظيماً وهي في حملها، وكأنها كانت تحسُّ حركة الذكر في بطنها. ولعلَّ النور الذي انبَعَثَ من وجه الوليد ساعة وضعهِ، قد دَخَلَ قلب القابلة التي كانت تولِّدها، فلامَسَهُ بالحنان، وغمَرَهُ بالعطف، فتأمَّلته مليّاً، ثم احتضنتْهُ بين ذراعيها، ورفعته إلى أمّه وهي تقول لها: هوذا ابنُك أيتها المرأة، فلا تخافي عليه مني.

نادَتْهُ أمّهُ، وهي تدنيه من قلبها، وتضع ثديها في فمه قائلة: تدفأْ في أحضان أُمّك يا موسى، فأنت آمِنٌ بفضل الله وعنايته..

إذن حمَلَ الوليدُ اسم موسى، وَرَجَتْ له أمّهُ الأمانَ والنجاة.. ولكنها وعلى الرغم من هذا الرجاء ظلَّ شعورٌ بالقلق يُساورها.. إنها تخافُ عليه.. تخافُ أن تشيَ به القابلة القبطيّةُ، أو أن يعلَم بوجوده أعوانُ فرعون. تخافُ عليه من ظلم الظالم، وجبروتِ الطاغية وهو يبثّ العيون والأرصاد بحثاً عن أطفال بني إسرائيل.. ولكنَّ هذا الخوف سرعانَ ما خالَطَهُ شعورٌ غريبٌ وهي تسمعُ هُتافاً من الأعماق يقول لها: اقذفيه في اليمّ (النيل) ولا تخافي..

ما هذا الهتافُ الذي يطرق مسامع أم موسى؟ إنها تخافُ عليه من عين تراهُ، أو أُذُن تسمعُ به، فكيف يسَعُها أن تقذفَ به في النيل؟ وما سِرّ هذه الدعوة لها بالأمان وعدمِ الخوف وهي ترميه لتماسيح النيل ولأمواجه العاتية؟.. إنها لا تدري، ولكنها تجدُ نفسها منصاعةً لتلبية النداء، فتقومُ من توّها، وتضعُ ابنها في صندوق خشبيّ، ثم ترميه حيثُ أوحي إليها أن تَرْمِيَهُ... ووقفتْ ترمق الصندوق والمياه تتقاذفه حتى غاب عنها، والحنان يكاد يغلبها، والقلقُ يستبدُّ بها، وقد أصبح فؤادها فارغاً...

لقد سمعتْ أمّ موسى الإيحاء، وألقتْ بطفلها إلى الماء. ولكن أين هو يا ترى، بعدما غاب عن أنظارها. وماذا فعلَتْ به الأمواج؟ ولعلّها سألتْ نفسها: كيف أمّنْتُ على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليمّ. كيف فعلتُ ما لم تفعله من قبل أمٌّ؟ كيف طلبتُ له السلامة في هذه المجازفة، وكيف استسلمت لهذا الهاتف الغريب؟!.

وكادت لشدة خوف قلبها عليه أن تُعِلنَ للناس: أنا أضعتُهُ.. أنا

أضعتُ طفلي.. أنا الذي ألقيتُهُ في اليمّ.. ولكنَّ الله أمسكَ على قلبها وثبتها، وحفظه من الهيام والشرود، لتكونَ من المؤمنين بوعد الله، الصابرين على ابتلائه، السائرين على هداه..

هدّأ الله تعالى قلب تلك الأم، وأدخلَ إليه السكينة. ولكن بعضاً من نفسها لم يطاوعها على السكوتِ عن معرفة أخبار طفلها، فأرسَلَت أخته تبحثُ عنه، وهي تقول لها:

- اذهبي يا ابنتي في أثر أخيكِ، واعرفي خبرهُ، إنْ كان حيّاً أو أكلتْهُ حيوانات البحر. ابحثي عنه واستقصي مقرَّه..

ذهبتْ أخت موسى في حذرٍ وخفية، تدور في الطرقات والأسواق، وهي تحاول أن تتلمَّس أثرهُ من أحاديث الناس وروایاتهم. وبينما كانت في تجوالها رأتْ جماعةً من الناس تلتفُّ حولَ خدم فرعون وجنوده، فتقدَّمتْ تستطلِعُ الخبرَ.. ولشدّ ما أدهشها، ولشدّ ما غَمَر قلبها بالفرح أن تبصر أخاها الصغير محمولاً على أيدي خدم فرعون، وهم يسألون باحثين عن ثديٍ لإرضاعه، بعدما أعياهُم بعدم تقبّل الرضاعة من النسوة اللواتي أحضِرنَ خصيصاً له.

وجدت الفتاة الفرصة سانحة كي تعيد أخاها إلى أمه تحت شعار أنها حاضنته ومرضعته، فتقدَّمت من الخدم وهي تقول:

- هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون؟

ويتلقّى الخدم والجنود كلماتها، وهم يستبشرون بما تعرضُهُ عليهم، ويودون أن تصدقَ فيما تقول حتى ينالوا الجائزة من سيدهم ومولاهم فرعون، لأن الموت كان مصيرهم إن لم يجدوا مرضعة للطفل!... أما كيف نجا الطفل من الغرق؟ وكيف وصل قصرَ

فرعون؟ وكيف صارتْ له مكانة عنده حتى يوزِّع خدَمهُ وجنودهُ باحثين عن امرأة تؤمّن له الراحة، فهذا ما علمتْهُ من أولئك الجنود، وطارت به إلى أمها لتزفَّ لها البشرى.. ووصَلَتْ إلى البيت لاهثةً، ودون أن تستريح - بل لم تُرِدِ الراحة - اندفعتْ تروي الحكاية لأمّها قائلةً:

- إن أخي بخير وعافية. وهو يعيشُ معزّزاً مكرماً في قصر فرعون.

وشهقت الأم، وقالت متعجِّبة: في قصر فرعون؟..

- نعم يا أمّاه، عند فرعون، وهو آمن برعاية الله.. أَحَبَّتْهُ امرأةُ فرعون فاحتضنته.. فقد كانت تقومُ بنزهةٍ في أرجاء حديقة قصرها. ورأت على البُعد جمعاً من الصيادين يخرجون من الماء صندوقاً من الخشب كانت تتقاذفه أمواج النيل، فأرسَلَتْ جارياتها لتعرف ما في هذا الصندوق. وعُدْنَ إليها يُخْبرنها بوجود طفلٍ حيٍّ فيه، فطَلَبَتْ رؤيته. ولما أتينها به، ووقَعَ نظرُها عليه، تدفَّق الحنانُ من قلبها، ووقع من نفسها موقعاً عجباً، فمالت إليه، ثم أمرت بأن يُحملَ إلى القصر. ودخَلتْ على زوجها تخبره بأمر الطفل، فثارت ثائرتُهُ وحاول نهيها عن احتضانه. ثم أمرَ جنوده بقتله كيلا يُفتَتَن هو به، كما افْتُتِنَتْ هي. ولكنّ امرأة فرعون تمسَّكتْ بالطفل، وأجهشت بالبكاء، وأخذتْ تتضرَّعُ إلى زوجها قائلة: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾؟ واستجاب فرعون لرغبة زوجته، وأبقى على حياة موسى. ولكنّه فوجىء هو وزوجته بأن الطفل لم يتقبّل الرضاعة من أحد، فجاؤوا له بمرضعات كثيرات، ولكنه امتنعَ عنهنَّ كلهنَّ. وكان كلما أتوه بواحدةٍ ازداد بكاءً، وأبى الرضاع، حتى لم تعد امرأة فرعون تقوى على احتمال رؤيته على هذه الحال، فأمرت الخدم والجنود أن يطوفوا به في

الشوارع والساحات علَّهم يقفون على امرأة يقبل الطفل ثديها.

وما كادت أم موسى تَسمعُ ما رَوَتْهُ ابنتها، حتى اندفعتْ إلى قصر فرعون. وهناك أخذت الطفل بين أحضانها، وأخرَجت له ثديها، فراحَ يلتهمُه بنَهم حتى ارتوى، ثم هدأ في إغفاءةٍ هانئةٍ.

ها هو الوَعدُ يتحقَّق ويُرَدّ موسى إلى أمّه، كي تقرّ به عيناً، ولا تحزن لفراقه، ولكي تعلم أن وعد الله حق.

وتمرُّ سنوات طوال ما بين مولد موسى، وبلوغِهِ سنّ الشباب والنضوج.

ويتجاوز القرآنُ الكريمُ ما دار في تلك السنوات، وهل تربّى الرضيعُ في بيتِ أمه بعدما أُعيدَ إليها، أم بقيتْ هي في القصر. وهل ظلَّ مكانه في القصر أم في مكان آخر بعد أن شبّ عن طور الطفولة والفتوّة... هذه أمور يتجاوزها القرآن الكريمُ ولا يذكر عنها شيئاً، ولكنّهُ يُنبئنا أن موسى بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى، وكانت قواه الجسدية قد اكتملت، وتمَّ نضجه الجسديّ والنفسيّ، وآتاه الله سبحانه وتعالى حكمةً وعلماً، وجزاهُ جزاءً حسناً.

.. ومما لا ريب فيه أن موسى قد شهد بعدما بلغ النضوجَ الفكريَّ، ما يُقاسيه أبناءُ قومه من جور فرعون، وما يُلاقونه من ذُلّ واستعباد واستغلال وظلم. لقد سامهم سوء العذاب، وأطفأ سُرج الأمل في حياتهم، فكانوا لديه بمثابة سقط المتاع..

شهد موسى هذا الظلم والهوان يحيقُ ببني إسرائيل، وهم الفئة الموحّدة المؤمنة، وشقَّ عليه أن يجدها تُساقُ سوقَ القطعان، فامتلأ قلبُه كمداً وحزناً وذابَتْ نفسُهُ أسفاً ووجْداً.

وتدفعُهُ مشاعرُه، وهو يرى ما يرى من ظلم فرعون وقساوته،

أن يدورَ في الأسواق والطرقات، يتقصَّى الأخبار، ويستطلِعُ الأحوال والأوضاع، دون أن يدريَ به أحد . .

موسى يقتل نفساً

وفي إحدى المرات، وفيما كان في تجواله في المدينة، إذا به يُشاهد رجلين يقتتلان. أحدهما من شيعته (من بني إسرائيل) والثاني قبطيّ، يقال إنه كان من حاشية فرعون، وإنه طبّاخ قصره. ورأى الإسرائيليُّ موسى فعرفهُ، فناداهُ مستنجداً به على عدوّهما، فوكزَه موسى بقبضة يده، فكانت ضربةً قاضيةً عليه أودت بحياته.

لم يكن موسى يقصدُ القتلَ، ولم يكن مصمماً القضاء على القبطيّ. ولكنه اندفع كي يخلِّص رجلاً مؤمناً من بين يديْ رجلٍ كافر أرادَ ظلمَهُ والبغيَ عليه. . ولكنه ما كادَ يراه جثةً هامدةً حتى ندم على فعلته، وعزاها إلى الشيطان وغوايته، واعتبر أن اندفاع نفسه كان من الغضب، والغضب نفخٌ من الشيطان، فاسترجع حنيئذٍ موسى وهو يقول: هذا من عَمَل الشيطان. إنه عدوٌّ مضِلٌّ مبين. ودعا ربّه مستغفراً، وهو يلوم نفسه بالقول: ربِّ إني ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنك أنت الغفور الرحيم.

لقد حاول موسى أن يناصر من كان ظاهِره الإيمان، وأن يهزم من كان ظاهره الكفر، فاندفَع وفي نفسه هاجسُ ظلم هذه الفئة التي تستعبدُ قومهُ، وتستغِلّهم. وهَجَمَ على القبطيّ وفي قلبه حرقة من هذا الاضطهاد الذي يلاقيه قومُه من جبروتها ورعونتها، فكانت استجابته استجابةً لنصرة المظلومين، ودفعاً لكرب المكروبين، وانطلاقةً لتحرير المستعبدين. والله يأمُرُ عباده بدفع الظلم، ودرء المكروه، وصدّ

العدوان. لقد كانت نيّة موسى ألاّ يقتل، وإنما كانت في سبيل تحرير الإنسان، ومن أجل نصرة الإيمان. والله سميعٌ عليمٌ، يرى ما يقومُ به عباده، فيغفر لمن يستحقّ المغفرة، ويعاقب من يستحقّ العقاب. وقد قبلَ الله سبحانه لموسى استغفاره، لأن غايَته لم تكن القتل، وإنما كانت في سبيل مرضاة الله، فرحمه وغفر له..

لم يُغْوِ الشيطان موسى حين أقدم على القتل، ولكنه سلام الله عليه حَسِبَ أن ذلك من عمل الشيطان. فقطع على نفسه عهداً، ألاّ يدع هذا الشيطان الخبيث يتحكَّمُ به مرة ثانية، وألاّ يكون هو في الوقت نفسه ظهيراً إلاّ للمبدأ الذي يعتنقه.

وباتَ موسى خائفاً من انكشاف أمره، يترقَّب العقاب والبلاء من فرعون وأعوانه. فراح يتخفّى عن العيون، ويختبىء في الأماكن الآمنة، وهو في ذلك على حذرٍ تام، يتلفَّت لأوهى الحركات، ويتوقَّع الشرّ في كل وقت من الأوقات.. وبينما كان في هذا القلق والتوجّس، وفي هذا الجوّ المقيت، رأى وهو يعبر السوق شجاراً جديداً، فإذا الذي استنصرهُ بالأمس يستصرخه ويستعينُ به على رجل آخر من القبط..

ويبدو أن رؤيته قبطياً وهو يحاول أن ينال من الإسرائيليّ، قد أعادت الانفعال إلى نفسه، وأثارت فيها كوامنَ الغيظ من الظلم، والنقمة على البغي. فهمَّ أن يبطش بمن هو عدوّ له، ولكنَّه تذكَّر عهده لله بألاّ يكون ظهيراً للمجرمين. إذ بدا له أن هذا الذي يستنصره، وإن كان من شيعتِهِ، إلا أنه من ذوي الأخلاق السيئة، الذين يفتعلون الشرّ، ويحاولون إثارة الشغب والفوضى، في مشاكلَ فرديّةٍ، لا جدوى منها ولا طائل..

أدرك موسى ذلك، فنظر إلى الإسرائيليّ بازدراء وقال له: إنك لغويٌّ مبين. وظنَّ هذا الإسرائيليُّ أنه يريدُ أن يبطش به، فصرخ: أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس؟ وهذا ما يخبرنا به القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ قال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[1].

وسمع القبطيُّ ما قاله الإسرائيليُّ فطار ينشرُ الخبر على الملأ من قوم فرعون، قائلاً إن موسى هو قاتل القبطيّ بالأمس.

وتناهى الخبرُ إلى فرعون، فأمَرَ بطانته بالبحث عن موسى وقتله.

وسمع رجلٌ من المقرَّبين في القصر ما أمَرَ به فرعون، وقد كان هذا الرجل على دين موسى، دين الإيمان بالله الواحد الأحد، فجدَّ السير من أقصى المدينة حتى وجدَهُ فقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[2].

الخروج إلى مدين

وخرج موسى من المدينة خائفاً، مترقّباً، وهو يدعو الله: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وراح يقطع الطرقات الوعرة، والفيافي الواسعة بلا زادٍ ولا استعداد. ولكنه يتوجَّه إلى ربّه بالضراعة مستسلماً، وإلى هداه متطلّعاً، عسى أن يهديَه ربه سواء السبيل..

(١) سورة القصص، الآية: ١٩.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٠.

وكانت استجابة ربِّه له أن هداه إلى طريق مدين التي تقع جنوبيَّ الشام، حيث انتهى به السفر الطويل إلى ماءِ بئر، وجدَ عليها جماعة من الرعاة يسقون مواشيَهم، وإلى جانبهم فتاتان تمنعان غنمهما العطشى من ورود الماء، وتنتظران أن ينتهيَ الرعاة لتسقيا قطيعهما.

رأى موسى ما يُخالف قواعد العُرف، فتقدم منهما قائلاً:

- ما خطبكما؟.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(١).

وفهم موسى أن الفتاتين لا تقويان على مزاحمة الرجال، وأنه ليس لهما إخوةٌ كي يقوموا عنهما بحمل الأعباء، وكذلك فإن أباهما شيخٌ هرمٌ لا يقوى على العمل، فثارت فيه النخوةُ وتقدم يُبعد الرعاة عن البئر، ثم أمسك بالدلو يسقي غنمهما. فلما انتهى انصرف إلى ظل شجرةٍ قريبةٍ، يستظلُّ من شدّة الحرّ، وقد عضّه الجوعُ بأنيابه، فدعا ربّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢).

وكان موسى جائعاً حقاً، فلم يرَ خيراً من التوجّه بالدعاء إلى الله سبحانه كي يُهيءَ له بعض ما يسدّ به رمقهُ. ويستجيب اللطيف الخبير للقلب الضارع الغريب، فتأتي إحدى المرأتين اللتين سقى لهما، وتتقدم منه بحياء وخفرٍ وهي تقول:

﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾(٣).

(١) سورة القصص، الآية: ٢٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.

ويستشعر موسى الفرج، فيلبّي الدعوة ويذهب مع ابنة الشيخ، تقوده إلى منزل أبيها. وتقول بعض الروايات بأنه كان يدعى «يثرون». وهو بالحقيقة النبيّ شعيب عليه السلام.

وجيء له بالطعام فأبدى تعفّفَه لئلا يكون أجراً على ما فعله من عمل المعروف، فإنه من أهل بيت لا يبيعون شيئاً من عملِ الآخرة بملك الأرض ذهباً.. ويلحظ الشيخ هذه الأنفة في الرجل، فيزيدُ في ترحيبه قائلاً:

ـ أهلاً بك في ديارنا أيها الرجل. وعندنا من يَقري الضيف ويُؤوي المسافر بلا مِنّة ولا تأفُّف...

ودَارَ الحديث بين الرجلين، كلٌّ يُفضي بمكنونه، ويبثُّ للآخر لواعجه، وقد آنسا من بعضهما تقارباً واطمئناناً. ومن عادة الإنسان أن يُصارح من يركن إليه بهمومه قبل أفراحه. ويقصُّ موسى أخباره مع فرعون مصر، وأنه قتل رجلاً من بني قومه، وهو مهدَّدٌ منهم، لأنه لا يأمن لهم جانباً.. فيردّ عليه الشيخ مطمئناً، وكأن إلهاماً يخالجه، فيقول له:

ـ لا تخف، نجوتَ من القوم الظالمين، فلا سلطان لفرعون على مدين، ولا سلطة له على بلادنا، فنحن في بقعةٍ تقعُ خارج حكمه. ثم يبدي لموسى عدم قدرته على القيام بشؤون الرعي، ومهام الأهل، مما اضطرّه إلى إيكال الأمر لابنتيه، وهما فتاتان تشقيان بتحمّل المسؤوليات الجسام التي تفوق طاقة احتمالهما.

وترى إحدى الابنتين أن الفرصة واتَتْ كي يخفِّف أبوهما الأعباء

عن العائلة، إذا ما استأجر هذا الرجل، لاسيما وأنه بحاجةٍ إلى مأوى يلوذُ به، وعملٍ يُكسبُه عيشه، فتقول لأبيها:

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾(١).

ورغب الأبُ في استيضاح ابنته عن معرفتها بصفات هذا الغريب وما يتمتع به من القوة والأمانة، فأخبرَته بما فعله على البئر، وكيف دفع الرعاة وسقى لها ولأختها، بما دلَّ على قدرته وبأسه... ثم توقَّفت قليلاً وعادتْ تتابع:

ـ أما أمانته فقد تبدّت واضحةً في عفَّةِ لسانه، وحياء نظرته، عندما توجّهتُ إليه بالدعوة، فلم يزدْ عن ذكر الله وشكره، ولم يَرفَعْ عينيه إليَّ، بل لبّى الدعوةَ وأمرني أن أسير وراءه وأن أرشده إلى الطريق، لأنه لا يريد أن يتعقَّب امرأة ولا أن ينظر إليها تسيرُ أمامه. فهو إنسانٌ مؤمنٌ مهذَّبٌ، ومن كان الإيمان بالله سبيله فهو أمينٌ بلا ريب، نصوحٌ، مخلصٌ، ووفيٌّ..

ولعلَّ الأبَ قد أحسَّ في نفس ابنته ميلها الفطريَّ للزواج، وبناء أسرةٍ تقرُّ بها عينُها، وتنأى بزواجها عن معاناة رعي الغنم، وعن مزاحمة الرجال على الماء. فاستطاب شعور ابنته، وبلا تكلُّفٍ أو انتظارٍ عرضَ على موسى رأيه بصراحةٍ أن يُزوِّجه إحدى ابنتيه اللتين التقاهما على البئر.. ولكنه اشترط عليه أن يؤجره عَمَلَهُ لثماني حجج، فإن أتمّها عشراً فمن عنده، وهو لن يشق عليه أو يتعبه في العمل، داعياً الله تعالى أن يجده موسى ـ إن شاء الله ـ من الصالحين في معاملته ووفائه.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٦.

فوافق موسى على عرض الشيخ، وقَبِلَ أن يتزوَّج الابنةَ التي ذهبتْ تدعوه، ولكنه اشترط هو أيضاً ألاَّ تزيد مدة إقامته على ثماني حجج، وما زاد عليها يكون عائداً لاختياره. ثم أشهدا الله على عهدهما وعلى ما اتفقا عليه. وكفى بالله شهيداً ووكيلاً.

وهكذا اطمأنَّ بموسى المقامُ في بيتِ حميه، وقد أمن من فرعون وكيده. ولحكمةٍ مقدّرةٍ في علم الله كان هذا الذي كان..

ومضتْ عشر سنوات، وانقضى العقدُ الذي أقامه موسى مع الشيخ، ففكَّر في العودة إلى أهله وقومه، على الرغم من قوّة ذلك الدافع الذي يشدّه للبقاء بصحبة شعيب عليه السلام. لقد كان الشوق إلى الأرض التي ترعرعَ وشبَّ فيها أقوى في نفسه، فتغلبت نوازعُ العودة على نيّة البقاء.

موسى يعود بأهله إلى مصر

ثم ودّع موسى حَماهُ وأخذ أهله، وقَفَلَ عائداً إلى مصر. وفي طريق عودته تاه ولم يعرف وجهة سيره، وكان الوقت ليلاً، والجو ظلمةً، والبردُ قارساً، فشاهد عن بُعدٍ ناراً، فاستأذن زوجه ليذهب فيأتي منها بخبر، أو جَذوةٍ ليشعل النار ويتدفأ وأهله في ذلك الليل البارد..

فلما هبط الوادي حيث النار التي آنسها، إذا بنداء يهتف به من الأعالي: يا موسى، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾(١).

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

جاء النداءُ من جانب جبل الطور الأيمن. فارتعد، ووقف مُنْصتاً، مترقباً فتابع النداء:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؟

فقال:

﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(١).

ويأمره الهتافُ:

- ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾..

وصَدَعَ بالأمر، وألقى عصاهُ، فإذا هي حيّةٌ هائلةٌ مرعبةٌ تدبُّ في سرعة وتتحرّك في خفَّة..

ورآها تهتزّ كأنها جان، فخاف منها وولّى مدبراً ولم يُعقّب..

وجاءه النداء مجدّداً:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾(٢) سنُعيدها سيرتها الأولى. فلما أقبل قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

فأخذها موسى فعادت عصاً كما كانت سابقاً. فأمره الصوت العلويّ:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾(٣).

فأطاعَ موسى الأمر الصادر إليه، فأدخلَ يده في جيبه، ثم

---

(١) سورة طه، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣١.

(٣) سورة القصص، الآية: ٣٢.

أخرجها، فإذا هي بيضاءُ، لامعةٌ، مُشِعَّةٌ، وقد عهدها تضرب إلى السمرة.

فوقف موسى يرتجفُ من رهبة الموقف وخوارِقِه المتتابعة. ولكن الله تعالى الذي رعاه منذ الصِّغر، وآمنه، قد ألقى عليه السكينة، فضمَّ يدهُ إلى قلبه، فخفَّت دقّاته، وقلَّ خفقانه.

وها هو يُخيّم عليه الأمان، ويغمره الاطمئنان، ولكنه يقفُ متهيّئاً، متأهباً للتلقي. وها هو يتلقّى الآن التكليف الذي كان يُعدُّ له منذ وجوده، كما يثبته قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(١).

فالنداءُ من ربه الأعلى.. وأنه هو الله العليّ العظيم الذي كلَّمه، وأعطاه برهانين: العصا التي تصيرُ حيّة تتحرّك، ويدَهُ السمراء التي تصير بيضاء مُشِعَّةً.. فهذان البرهانان من أجل أن يكون التكليف، ومن أجل أن يحمل الرسالة إلى فرعون وملئِهِ، بعدما عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا أفكار الإلحاد، وحكموا بالظلم والاستبداد.

لقد كان التكليف لموسى عليه السلام بالأمر مباشراً من الله سبحانه وتعالى، وقد جعل من رسالته لهذا النبيّ الكريم أضخم تكليفٍ تلقّاه بشَرٌ حتى ذلك الحين، عدا نوح وإبراهيم. فهو مرسلٌ إلى فرعون الطاغية المتجبّر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم ملكاً، وأعرقهم حضارة، وأشدّهم استعباداً للخلق واستعلاءً في الأرض.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٣٢.

وتلقى موسى عليه السلام النداء المباشر.. تلقّاه وحيداً في ذلك الوادي العميق، وفي ذلك الليل الساكن. تلقّاهُ والكون يتجاوب من حوله، وتمتلىء به السماوات والأرض. تلقَّاهُ ملءَ كيانه كلّه. تلقّاه، وأطاقَ تلقِّيَه، لأنه صُنِعَ على عين الله تعالى، إذ كان يُهيَّأُ لهذه اللحظة الكبرى.

موسى وهارون رسولا الله إلى فرعون

ويتذكَّر موسى عليه السلام أنه قتل من قوم فرعون نفساً، وأنه خرج من بينهم طريداً، وأنهم تآمروا على قتله فهربَ منهم بعيداً. يتذكَّر ذلك، ويُريدُ أن يحتاط لدعوته مخافةَ أن يُقتَلَ فتنقطِعَ رسالتُه، فيُنادي ربّه وهو ما زال في الوادي المقدس: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(1).

ثم يتابع قائلاً: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾(2).

أراد أن يكون أخوه هارون عوناً له على تبليغ رسالته، لأنه أفصح منه لساناً، فهو يستشعر عدم القدرة على التعبير، من جرّاء ثقل لسانه الذي أحرقه، وهو ما زال طفلاً يدبّ، عندما أمسك بلحية فرعون وأخذ يشدّها حتى اقتلع بعض شعيراتها. فأوجسَ فرعون خيفةً من الولد آنذاك، ورأى في اقتلاع شعيراتٍ من لحيته علامةً على انتزاع ملكه على يديْ هذا الصغير، فصرخَ بحرسه أن يقتلوه ولكنَّ زوجته حالت دون ذلك، وتقدَّمت منه تهدىء من روعه وهي تقول له:

(1) سورة القصص، الآية: ٣٣.
(2) سورة القصص، الآية: ٣٤.

ـ هذىء من غضبك يا سيدي، ألا ترى أنه طفلٌ لا يميزُ بين التمرة والجمرة؟.

وكان فرعون وجدَ فيها فرصةً سانحةً للتخلُّص من الولد، فأمَرَ بأن يأتوه بتمرةٍ وجمرةٍ كي تُوضَعا أمام الطفل، وهو يمنِّي النفس بأن يتناول هذا الولد التمرة حتى يقضيَ عليه. ولكن خابَ ظَنُّه، لأن موسى الطفل هجم على الجمرة ووضعها في فمه، فاحترق لسانه، وصارَ من يومها يلثغ..

عرف موسى عليه السلام أنه لا يقدر على البيان لتلك العلَّة، وأنَّ أخاه هارون أكبر منه سنّاً، وأفصح منه لساناً، وإن كان لا يُدانيه قوَّةً وبأساً. فأراد أن يضمّ جهود أخيه إلى جهوده، كي يوفيّا الرسالة حقّها، وليستطيعا القيام بأعباء التكليف العظيم..

أدرك موسى عليه السلام هذا، فطلب إلى ربه أن يحلَّ عقدة لسانه كي يصير مفوّهاً، شديد البيان، سديد البرهان، حتى يتمكَّن من إنفاذ بلاغِهِ إلى عقول الناس وقلوبهم. وأن يؤازره في تلك المهمة الجليلة من هو أهلٌ للعون، أخوه هارون..

وجاءه الجواب من الله العزيز الوهاب.

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

موسى وهارون أمام فرعون

تلقى موسى عليه السلام الرسالة، وذهب إلى مصر يلتقي أخاه هارون، ويدعوه فوراً للذهاب إلى فرعون. وجاءا مجلس فرعون وهو يَغُصُّ برجال حاشيته من الكهان، والساسة، وقواد الجيش. وكان

يجلس على عرشه، وهامان على يمينه. وقد احتشدت جماعةٌ كبيرةٌ، جاء كلٌّ منها يسألُ عن حاجة يروم قضاءها. .

فشقَّ موسى عليه السلام وأخوه الصفوف، ولم تمنعهما كثرة الازدحام، ولم توقفهما مقاومة الحجّاب، حتى وصلا قبالة فرعون. وما إن رأى موسى حتى عرفه، فبادَرَهُ بالقول:

ـ إيه يا موسى، ألم نُربّك وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين؟ . .

قال له موسى عليه السلام : أتمنُّ عليّ بتربيتي وليداً وتحسبها نعمة؟ وأيّة نعمةٍ هذه تمنُّها عليَّ أن عبَّدتَ بني إسرائيل قومي: تستعبد رجالهم، وتستحيي نساءهم وتذبح أطفالهم؟

ويردُّ عليه فرعون قائلاً:

ـ ولكنك قتلت واحداً من أتباعي وكنت من الجاحدين. .

ولم يهب موسى عليه السلام ما قاله فرعون على الرغم مما ينطوي عليه من تهديد، بل ردَّ على تهديده بقوله:

ـ نعم فعلتها على حين غفلةٍ منّي، وقد ندمتُ على فعلي. أما أنتم فقد تآمرتم على قتلي وقد أنجاني الله برحمته، فغفَرَ لي ووهبني علماً وحكماً، وزادَ في نعمائه فبعثني من المرسلين. وإني أدعوكم إلى الإيمان بربي، خالق الكون والعباد، له وحده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، فآمنوا به يكن لكم الفوزُ، وإلاّ خسِرتم خسراناً مبيناً. . .

سمع فرعون ما قاله موسى عليه السلام ، فثارتْ ثائرتهُ، وعظُم غيظهُ، ثم صرخ فيه باستهزاء، وكأنه يستحثّ القوم على السخرية منه قائلاً:

ـ ومن ربك يا موسى؟! . .

فأجابه موسى عليه السلام بلهجة المؤمن الصادق:

ـ هو ربي وربكم وربّ آبائكم الأوَّلين، ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . .

وزاد غضب فرعون، فأنذرَ موسى عليه السلام، مهدّداً، متوعداً:

ـ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين! . .

فلم يبالِ موسى عليه السلام بهذا التهديد، بل تابعَ دعوة فرعون إلى الإيمان، فقال له:

ـ إني إن أتيتك بالحجَّة على ما أقول، وبالدليل القاطع الذي يُزيلُ عنك الشك والريبة، فهل تسلم لله رب العالمين؟

فقال فرعون: إذن فأتِ بما عندك إن كنت من الصادقين! . .

فألقى موسى عصاه التي يحملها، أمام فرعون وملئه فإذا هي ثعبانٌ مخيف، يتحرَّك بسرعةٍ أرعبتْ فرعون وجميع من في مجلسه. ولكنه لم يشأ أن يُبديَ التأثر مما يرى، لا سيّما وأن كبرياءه تمنعُ عليه أن يظهر أمام ملئِهِ مهزوماً. ولعلَّ ظنَّه قد صوَّرَ له بأن موسى عاجزٌ عن إتيان معجزةٍ أخرى، فقال له بترفُّعٍ:

ـ هل عندك شيء آخر؟! . .

فأدخل موسى عليه السلام يده في جيبه ثم نزعها فإذا شعاعٌ ينبعثُ منها يكادُ ضوءُ بريقه أن يذهب بالأبصار، وراح الشعاعُ يزداد وينتشر حتى غطّى جوانب الردهات كلها. عندها خاف فرعون على ملكه، خاصة وأنه نظر إلى وجوه الحاضرين فإذا الوجومُ يخيّمُ عليهم، والتأثر بادٍ في نفوسهم. وهالَهُ ما رأى، وغشيَهُ همٌّ واكتئاب شديدان، ولم

يجد للخلاص من هذا المأزق إلا أن يُعلِن على الملأ بأن موسى وأخاه هارون ساحران، فصرخ قائلاً:

ـ هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من دياركم. . . ليس ما يأتيه موسى وهارون إلاَّ سحرٌ مفترىً، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين. فماذا ترون أن نفعل بهما؟

سكت القوم وطال بهم السكوت. . وفي غمرة اليأس وقف أحد الحاضرين ونصحَ فرعونَ بأن يبعثَ رُسُلَهُ في المدائن كي يأتوه بكل ساحرٍ عليم. ووافق هذا الرأيُ هوىً في نفسه، وهو ما يزال مبهوراً بما رأى، ومتعلِّقاً بخيوطٍ من الأمل الكاذب، لا تقلّ وهناً عن بيت العنكبوت.

وتفرَّقَتْ رسُل فرعون تَجِدُّ في جمع السَّحرَة من كل أنحاء البلاد. وكان هؤلاء السحرةُ كثيرين، فقد انتشرَ السّحرُ آنذاك في بلاد مصر، وكان له شأنٌ كبير، وتأثيرٌ قويٌّ على حياة الخاصة والعامَّة. وقد برع أهلوه فيه، وأتقنوه حتى غدوا سادة عصورهم في هذا المضمار. ولذلك فإن معجزة موسى عليه السلام، كانت على نفس الوتيرة حتى يمكنه التأثير في عقول الناس وقلوبهم، وإظهار عجز فرعون وقومه فيغلبهم بما هم أقوياء فيه، فلا يستطيعون بعدها أن يقوَوْا عليه بشيء آخر. .

تلك كانت حكمة الله، أن يأتي نبيّهُ في ذلك العصر، بما يستطيعُ معه أن يستنفد كل جهود القوم الكافرين، حتى إذا عجزوا في المجال الذي برعوا فيه، فإنهم في غيره من المجالات أعجز. . . وبذلك تكون كلمة الله هي العليا وكلمة فرعون وملئه هي السفلى، والله لا يحبّ كيد الكافرين. .

توزّع جنود فرعون على المدائن يبحثون عن كبار السَّحَرة، وأودِعَ موسى في السجن، بعدما ضُرِبَ موعدٌ لاجتماع السَّحرة. وقد أراده موسى عليه السلام أن يكون اجتماعاً عاماً يحضرهُ أكبر عدد من الناس حتى يميزوا بين الحق والباطل، ويُفرِّقوا بين النور والظلمة. .

المباراة العظمى

وجاء يوم الزينة، وهو عيدٌ عند المصريّين، يحتفلون به ويقيمون الأفراح والأعراس. . وتجمَّع الناس من كل حدبٍ وصوب ليشهدوا الصراع التاريخي بين موسى عليه السلام ومشاهير السَّحَرَة في مصر. فلمّا رأى فرعون أن المكان يمتلىء بالجموع، ويغصّ بالمشاهدين أمَرَ ببدء المباراة العظيمة.

وجاء موسى عليه السلام لِيُواجه حشداً من السحرة هائلاً، يَربو عددهم على العشرات. فقد استجابوا لنداء فرعون ولم يتخلَّف أحدٌ ممن يظنّ في نفسه مقدرةً في هذا المضمار. جاؤوا يحملون في أيديهم عصياً وحبالاً وقد شمَّروا عن سواعدهم، وتزيّنوا بعلاماتهم وتشكيلاتهم، وهم يظنّون أن الغَلبة ستكون لهم. . .

ورأى موسى هذا الحشد الكبير من السّحرة، وما هم عليه من مظاهر الخداع والزيف، فنادى في جمعهم قائلاً:

ـ أيها الملأ من الساحرين، اسمعوا جيّداً وعوا ما أقول: إنه لَوَيْلٌ شديدٌ لكم، وعذابٌ أليمٌ يحيقُ بكم، إن افتريتُم الكذب على الله، فدَعوْتم معجزاته سحراً، ولم تُصارِحوا فرعون وقومه بالحق الذي سترون. إنكم هالكون لا محالة، وقد خَسِر من كذب على الله ونسَبَ إليه باطلاً. فإذا تبيَّن لكم الحقَّ في معجزةٍ آتيها، ووجدْتم فرقاً

بينها وبين ما تأتون وتدَّعون من احتيال، وحاولتم إبطال الحق الذي جئت به من عند الله تعالى، فقد افتريتم عليه، وخبتم وبؤتُم بالخسران المبين. . .

اختلجت أفئدة السحرة لكلام موسى، ورانَ عليهم الشكّ والقلق، فتنازعوا أمرَهم وتناجوا فيما بينهم: لئن كان موسى ساحراً غلبناهُ وأهلكناهُ، وإذا كانت معجزته من الله ـ كما يدّعي ـ فإننا نتَّبعُهُ ونؤمنُ به. .

ونادى فرعون:

ـ هيّا أيّها السحرة ائتونا بما تعلمون، ولا تَدعُوا شيئاً من علومكم إلا وجئتم به، وقد سَعِدَ اليوم منكم من غَلَب. . .

وبدأت الجماهيرُ في الهتاف والصراخ، تشجع الساحرين، وهي مدفوعة بالرجاء في نصرتهم. . . وأقبل السحرة مُنتَشين، فرحين، معتزّين بتشجيع هذه الجموع لهم، مدلّين بعلمهم، مزّهوين بغرورهم، فرحين بالوعود التي أغدَقها فرعون عليهم، وهو يمنّيهم بالرفعة والسؤدد، وإدنائهم منه، وإنزالهم منازل التكريم حتى يشدّوا أزره ويكونوا له ساعداً وعضداً.

وبدأ الصراع الحاسم ووقف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام الساحرين، يُخيّرهم بين أن يُلقوا هم أولاً أو أن يُلقيَ هو. . . فتقدَّم السحرة وألقَوا ما في أيديهم، فبهروا أعين الناس.

وتركهم موسى يُدلون بما عندهم، ويأتون بكل ما يستطيعونه أو يقدرون عليه. ولكنهم ما كادوا ينتهون حتى ألقى موسى عصاه، فإذا هي حيّةٌ تلقفُ وتبتلعُ كل ما جاؤوا به تزويراً وتزييفاً وضلالاً. . .

وقد تعجَّل عليه السلام بإلقاء عصاه، إذ كان همّهُ أن يزيلَ الغشاوة عن الأبصار، لئلا يؤخذ الناس بظاهرٍ مموّهٍ يرونه، وبباطل مشوَّهٍ يرقبونهُ، فينصرفوا عن دعوته ويغفلوا عن الحق اليقين.

ورأى السحرة أن هذه العصا التي ألقاها موسى قد تحولت إلى أفعى حقيقة تبتلعُ كلَّ حبالهم، وتبدِّدُ كل جهودهم، وعلومهم، وفنونهم، فأيقنوا أنها معجزةٌ لا قِبَلَ لبني البشر بالإتيان بمثلها. وتبيَّنوا الرشد من الضلال، فخرّوا لله ساجدين، غير عابئين بفرعون، غير هيّابين لبطشه وجبروته..

فطارَ صواب فرعون، وغلَتْ مراجل الحقد في صدره، فصرخ بالسحرة:

ـ أتؤمنون به وتخضعون لربه قبل أن آذن لكم. إنَّه لاتِّفاقٌ بينكم وبينه مدبّرٌ. فهو معلمكم وكبيركم الذي علَّمكم السحر، فاتَّفقتم معه على فعلكم الشنيع هذا. فلأُقطِّعنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنَّكُم في جذوع النخل، عقاباً لكم، وتمثيلاً بكم، لأنكم كفرتم بي وبنعمتي...

وردَّ السَّحَرةُ عليه:

ـ لن نُفضِّلك على ما آتانا الله تعالى من الإيمان، وعلى ما هَدَانا إليه على يد نبيّه موسى عليه السلام، فهو نبيٌّ حقاً، ورسولٌ من الله. وما جاء به هو معجزةٌ من عند الله، تعجزُ عنه قوى البشر كلُّها.. فاصنع ما ترى، فنحنُ لن نرجع عن الإيمان لأنه لا خير في سبيلك أو سخطك، ولا أجر في رضاك. فاصنعْ ما أنت صانعٌ، وبما لك من سلطان في هذه الدنيا.. إننا لا نأبَهُ مهما أوغَلتَ في الوعيد، أو أكثرتَ من

التهديد. فما أنتَ إلاّ ضالٌّ أثيم. . أمّا نحنُ فإنا قد آمنا بربنا، رب العالمين، عسى أن يغفر لنا خطايانا، وأن يتوب علينا بما أكرهتنا عليه من السحر. والله خيرٌ وأبقى، وله وحده العزّة والجلالُ. .

كان الناس يرقبون بحذر ما يجري ويدور. فقد سمعوا جدال موسى عليه السلام للسَّحرة، ثم عادوا يَرَوْن السَّحرة أنفسهم يتهمون فرعون بالضلال. ومثل هذا الاتهام خطيرٌ جداً. لأن السحرة كان لهم شأن كبيرٌ. فهم كهنةُ المجتمع المصريّ آنذاك، وذوو الفضل في العلم وفي المعرفة. وها هم يكذِّبون ادّعاء فرعون بأنه إله، ويقرّون بحقيقة وجود إله واحد، وهو الإله الذي يدعو موسى إلى الإيمان به، ولا يهتمون بما قد يحل بهم من عقاب، كما لا يأسفون على ما فاتهم من غنائم. .

شاهدَ الشعبُ المصريُّ آنذاك هذا الحدث المهيب، وكان حريّاً به وهو يرى صفوة مجتمعه بحسب تصوراته في ذلك الحين، يسجدون لله رب العالمين، رب موسى وهارون، أن يحذوَ حَذْوَ هذه الصفوة، وأن يؤمن بما آمنت به، لاسيما وقد رأى بأمّ العين الحقَّ يتجلى، والحقيقة تظهرُ واضحة مثل وضوح النهار. . . كان حرياً بهذا الشعب أن يدخُل في طريق الإيمان، ولكنه لم يفعل، بل اكتفى بالتفرّج والتحدّث. . . ولو أنه وقف وقفة الحق، ووقفة الصواب، لكان تاريخ مصر قد تغيَّر بل ولكانت تغيَّرت مفاهيمُ كثيرة في ذلك الوقت. ولكن الذي حدث أن أحداً من ذلك الجمع الغفير، لم يتحرَّك من مكانه، ولم تهزّ مشاعرَه المعجزةُ التي رآها تتحقّق أمام ناظريه، بل اكتفى الحاضرون بالاستمتاع بالفرجة، والانصراف إلى بيوتهم، غير آبهين بما يحدث من نتائج. . . ولكن عدم اللامبالاة تلك كانت باهظة

الثمن على فرعون وملئه، وكلفت أولئك القوم أكثر من حدود السكوت عن الحق والاستخفاف بما أيقنوه حقاً وصدقاً. فقد جرى عليهم عقاب الله بأشدّ عذاب، فأغرقوا في هذه الدنيا، وأما عذابهم في الآخرة فنارُ جهنم وبئس المصير ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾(١).

وأعقبَ اجتماعَ السَّحرة، اجتماعٌ آخرُ حضره فرعون وأعوانه المقرَّبون، وكان من بينهم هامان وقارون. وكانت غايةُ المجتمعين تدارسَ الوضع الذي خلَّفه موسى، وما قد ينشأ عنه من تهديد لسلطان فرعون، وحاشيته، وأعوانه... فقد رأوا أنه إذا تُرِكَ الأمرُ على حاله فإن موسى قادرٌ على أن يؤلِّب الناس، وأن يغيّر ما في نفوسهم فلا يعودون يرَوْن فرعون رباً، ولا يعود لبطانته مكانة ينعمون بها.

رأى فرعون أن يُثبت للناس ادعاءه بأنه إله، فنادى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾(٢).

إنها الرعونة البلهاء، إنه الانتفاخُ الفارغ، إنه الجهل الماحق..

فرعون يريد أن يبنيَ صرحاً ليطّلع إلى إله موسى!...

فيا له من جاهل أحمق أخرق، ويا لسفاهة من يخاطب! أجل، إنه هامان، هذا الذي يجثو على رجليْ عبدٍ مثلِهِ يعفّر جبينه بعبادته، ويمرِّغ أنفه بتقديسه.

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٣٨.

وفيما هؤلاء القوم في ضلالتهم يتشاورون، وعلى قتلِ موسى يحرضون، ارتفع صوتُ نبيّ الله يُنذرهم ويُسفِّه معتقدهم، وهو يصرخ فيهم قائلاً:

﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وتنزل كلماته عليهم كنزول الصاعقة، تحرقُ قلوبهم. . فما زال موسى عليه السلام يخزهم في ضمائرهم، وهو يؤكِّد لهم أن ربَّه هو ربّهم، وأن الويل لكل متكبّر منهم، لا يؤمن بيوم الحساب، حيث يقوم الناس لرب العالمين.

ولم يَعُد الأعوان يحتملون، فوقف هامانُ وقارون يحرّضان الناس، وهما يناديان: اقتلوا موسى! . اقتلوا موسى!

مؤمن آل فرعون

وتأتي فرعونَ وقومَه صاعقةٌ أخرى لم يكن أحدٌ ينتظر حدوثها. . . فهذا رجل من قوم فرعون، ومن أقرب المقرَّبين له، بل قيل إنه وزيره وابن عمّه، قد هداه الله تعالى إلى دين التوحيد القويم، وبعث في نفسه نور الإيمان الحق، وكشف له سبيل الرشد، فوقف هذا الرجل ليُعلن على الملأ، كما يبين لنا القرآن الكريم بالقول المبين: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾(١).

(١) سورة المؤمن، الآية: ٢٨.

وراح مؤمن آل فرعون يذكرهم ببأس الله وبطشه فأكمل يقول:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾[1].

وثارت ثائرةُ القوم عليه، وأرادوا أن يُسكِتوا فمَهُ، وأن يُعيدوه إلى حظيرتهم، فتابعَ غير آبه لما يدعونه إليه وهو يُعلِن:

﴿۞وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾[2].

وعلا الصراخُ، وضجَّ القومُ، منهم من يهمّ بقتل الرجل المؤمن، ومنهم من يريد أن يودعه السجن حتى يرتدع ويرعوي..

ورأى فرعون الحابل يختلط بالنابل، والفوضى تعمّ المجتمعين، وأنه أصبح غير قادر على الإمساك بزمام الأمور، فقام من مجلسه ونادى قارون عامله على بني إسرائيل للاختلاء به، وكلّفه أن يمالىء بني إسرائيل حتى يجد وسيلةً للتخلّص من موسى والقضاء عليه.

قارون الغنيّ المتكبر

لقد اختار فرعونُ قارونَ هذا لأنه كان من قوم موسى، وقد بغى على الناس كلها وخاصة على بني إسرائيل. لقد كان مكلّفاً بجباية الضرائب، وتوفير الأموال التي يطلبها فرعون. وهذه الوظيفة بالذات

(١) سورة غافر، الآية: ٣٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤١.

قد جعلتْ من قارون أغنى أغنياء مصر آنذاك، له من المزارع والبساتين ما لا يُعدّ ولا يُحصى، تنتشر أملاكه على كل ضفاف النيل وتتفرّق في أرجاء البلاد كافة. وكان بنو إسرائيل هم الذين يقومون على رعايتها، فيحرثون الأرض، ويجنون القطاف ويجمعون الغلال، ويربّون المواشي، ثم يقدّمونها ريعاً خالصاً لقارون.

ولكثرة أمواله كان يقتني عدداً كبيراً من المركبات التي رُصِّعتْ أخشابها بالبرونز والنحاس، وطُعِّمت بالذهب والفضة، تجرّها الجياد المطهّمة التي كانت سروجها من جلدٍ مزركش موشّاةً بالذهب والفضة، يقودها جنود مدرَّبون، لا مهنة لهم سواها.

وكان قارون إذا ركب عرباته تلك، ومشى في زينته تحت أشعة الشمس، توهَّج الذهب، وتلألأت الفضة حتى تبهر عيون المشاهدين. وقد جعلته هذه المظاهر يتعالى ويتكبّر وكأنّ العالم كله لا يسعُه، ويترفّع عن معاشرة بني قومه، ويهزأ من مكانتهم. وقد وصلَتْ به الصلافة أن يمنع عقلاء بني إسرائيل من توجيه أي نُصح له، بعدما أشاروا عليه بعدم التكبُّر، وأن لا يفرح بما عنده، لأنَّ ٱلله لا يحبّ الفرحين. وكثيراً ما كان يُلِحُّ عليه البعضُ منهم بأن يُراعيَ آخرته ولا يُهملَ دنياه، ومن الأفضل له أن يشتريَ الآخرة بالدنّيا، وأن يُحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه، وأن لا يظلمَ العباد، أو يبغيَ الفساد، كما يفعل فرعون وهامان، لأن الله لا يحبُّ المفسدين..

وأراد قارون أن يؤلِّب بني إسرائيل على موسى عليه السلام، كما أمره سيده فرعون فاختار نفراً من ذوي الشأن، واستدعاهم إليه..

وجاء عُقلاء بني إسرائيل، وفي ظنِّهم أن قارون قد أخذته الرأفةُ

بني قومه، ولكن سرعان ما تبدَّدتْ أوهامهم، وهم يُفاجأون به يقول لهم:

ـ يا بني إسرائيل، لقد صرفكم موسى عني فاتَّبعتموه وفضَّلتموه عليَّ، وهذا عين الخطأ، فأينَ مني ذلك الفقير المعدم الذي لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، بينما مفاتيح خزائني تنوء بحملها الرجال؟!. وأين مني ومن فرعون ذلك المضطهد، المطارد، ونحن ذوو النفوذ والسلطان والجبروت؟! يا قوم إني أدعوكم إلى ترك موسى واتِّباعي، وإلاَّ حلَّ بكم الشقاءُ والويل.

وأجابه من حضر مجلسه من العقلاء:

ـ لقد نسيت أننا أبناء إسرائيل، وأن ديننا هو دين آبائنا يعقوب وإسحٰق وإبراهيم عليهم السلام؟ وما جاء موسى عليه السلام إلا بالحقّ، مؤكداً هذا الدين الحنيف القويم. . وأنت تعدنا بالذل والهوان، فهل بعدُ من ذُلٍّ أشدَّ علينا مما نحن فيه، وهل من شقاء أعتى مما نُلاقي؟

. . فأي موقف يريده قارون من هؤلاء القوم؟. إنه يسعى لرضى فرعون ولا ريب، لأن في هذا الرضى تحقيقا لمآربه وأطماعه. . فمنه يستمدّ النفوذ، وكلما ازداد فرعون نفوذاً نَمَتْ مصالحه هو واتَّسعَ ثراؤه. ثم إنه بفضل فرعون كان له السلطان والسيادة، وكلما بقي فرعون في مقامه متحكماً برقاب العباد، كانت لقارون السطوة والاستعلاء عليهم. وينمّ عن تلك الغطرسة والصلافة تفكيره الأخرق، فقد كان كلما سمع داعياً يدعوه إلى الشكر لله على ما أعطاه من نِعَم وخيرات، يزدريه ويبعده، ويعزو ذلك إلى مقدرته وحنكته زاعماً أن ما يصيبه من مكاسب إنما هو بفضل معرفته وقدرته. وكان يقول في

نفسه: «لو أنني لم أتملقْ فرعون، وأوفِّرْ له رغباته ونزواته، لما وصلتُ إلى هذا الثراء.. فكيف يدعي أولئك الجاهلون، إذن، أن الله هو مصدر ثرائي وغناي؟... لا، إنها نشاطاتي وأعمالي، وهذه نتائجها، ومردّها كلها إلى علمٍ عندي أستخدمه فأحقِّق فيه مآربي.. لا، ليس الله هو الذي يعطيني، بل أنا الذي أعطي نفسي، بما لديّ من ذكاء، وبما أبذله من مهارة ومعرفة».

إنه الانحراف بعينه عن جادة الصواب، بل عن الإيمان بالله.. ومثل هذا الانحراف، ولو كان بمقدار ذرّة واحدة، لا بد وأن ينتهيَ بالإنسان إلى ما انتهى إليه قارون الذي كان يظنّ أنه صاحب القدرة والشأن وصاحب السلطان والسيادة.. على أنه بمثل هذا الظنّ الذي لدى قارون قد تختلط الأمور، على الناس، وتتشوّه الحقائق، حتى يصير الادعاء الكاذب وكأنه هو النمط الذي يحكم العلاقات، وتسير به الحياة!! والغريب أن كثيراً من الناس عندما يرون صاحب جاه أو سلطان، يتمنّون لو أنه يكون لهم مثلُ ما عنده، بصرف النظر عمّا تكون معتقداته أو مبادئه أو أخلاقه أو ما انطوتْ عليه نفسه... فقد كان عددٌ كبيرٌ من بني إسرائيل ومن المصريّين يرون ما يرى هؤلاء الناس. يرون ما هو عليه قارون، ويتمنّون لو يكونون من أتباعه حتى ينعموا بمثل ثرائه. ولكنَّ كثيرين آخرين، وهم ذوو الضمائر الصافية، والإيمان الصادق، الذين لا تبهرهم الدنيا بمالها وزخرفها، كانوا يرون في ثراء قارون زيفاً باطلاً، وهو لا محالة زائلٌ، ولا يوازي شيئاً في ميزان الله تعالى، لأن الله لا يزنُ الإنسان بمركزه أو بثرائه، بل بأعماله وتقواه..

كان قرار قارون وسيلةً لمحاربة موسى والدعوة التي يحمل، ومن أجل ذلك عمد إلى دفع الأموال لشراء الضمائر، وتوزيع

الوظائف لاكتساب المؤيدين. وكان لمثل هذه الأساليب سحرُها في النفوس الضعيفة، فكثُر مُريدوه، وراحوا ينشرون الإشاعات المُغرِضة، والتّهمَ الكاذبة ضدّ موسى عليه السلام، حتى نالَه الأذى، وشمِت به العدّو، مما كان له أكبر الأثر في تأليب الناس عليه وعلى أخيه هارون...

ولكي يُبقيَ قارون ضِعاف النفوس على عداوتهم لموسى عليه السلام، ويزيدَهم انجذاباً إليه، فقد ضرب موعداً يخرج فيه إلى رحلة على ضفاف النيل. وجاءت الجموع في الموعد المحدد، تصطفُّ على الجانبين، وتنتظرُ مرور «السيد المعظَّم»!.. وأطلَّ قارون بزينته المعهودة، وبعربته المزركشة، والخدمُ والحاشيةُ من حوله يدورون ويروحون ويجيئون. ودُهِشَ الناس لموكبه، وقال الذين في نفوسهم مرضٌ: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

هكذا كانت أمانيُّ الناس أن يكون لها حظ كبير مثل قارون، بينما ليس هذا التعلّقُ في الحقيقة إلاَّ وهماً كاذباً. فها هو قارون يعود إلى قصره، وما إن تدخل آخر عربة من الحشد الذي كان يواكبه حتى تهتزّ الأرض وتتزلزل، فتبتلع القصرَ ومَنْ فيه خلال لحظة من الزمن، ويُصبح قارون وأتباعه أثراً بعد عين..

وكان لهذا الخسف أبلغ الأثر في النفوس، فقالت جماعةٌ: إن الله يُفيضُ الرّزق على من يشاءُ ويقدر أن يقتّر على من يشاء. ولولا أنْ مَنَّ الله علينا لخسفَ بنا الأرض كما فعل بقارون وبطانته. وقالت فئةٌ أخرى: هذه نتيجة الكبرياء والاستبداد، وهذه هي عاقبة المؤامرات على موسى عليه السلام والدسائس للنيل منه، لأنه نبيٌّ صادقٌ من عند الله، وما فعَلهُ قارون ضدَّهُ كان محضَ افتراء...

أمّا الله سبحانه وتعالى فقال محذِّراً: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾[1].

موسى يدعو فرعون من جديد للإيمان:

ورأى الرسولُ المبعوثُ إلى فرعون أنَّ الفرصة صارت مؤاتيةً كي يعودَ لمواجهة هذا المستكبر ويدعوَه مجدّداً للإيمان، فالخسف الذي حلَّ بقصر أحد أعوانه المقرَّبين كفيلٌ بأن يَثْنيَ الرجل عن شروره، مهما بلغ في ظلمه أو استعلى في سلطانه، فذهب يرافقه أخوه هارون، ودخلا قصر فرعون، وعلى جسديهما لباسٌ من الصوف. وتقدَّما من فرعون على مشهدٍ من ملئه، ودَعياهُ وقومه إلى الإيمان بالله، وهما يذكِّرانه بما حلَّ بقارون وكيف أن الله قد أهلكه لأنه سبحانه على كل شيء قدير. ولكنَّ فرعون، بدَلَ أن يعتبر ويتيقَّظ، نادى في الملأ:

- ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

ولقد أتى أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه على تلك اللوحة التاريخية فوصفها وصفاً رائعاً وأظهَرَ حقيقة أمر الرُّسُل، وكيف يبدون أحياناً ضِعافاً بأعين المستكبرين، ولكنهم في الحقيقة هم الأقوياء، بسبب قوة الإيمان في نفوسهم، وقوة العزيمة في قلوبهم، وهي العزيمة التي يشدُّها عونُ الله تعالى ورعايته.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٩.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥١ - ٥٣.

قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: «لقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العِصيّ. فشرطا له إن أسلمَ بقاءَ ملكه ودوامَ عزّه. فقال فرعون: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوامَ العزّ، وبقاء الملك، وهما بما تَرون من حال الفقر والذُّلّ، فهلاّ أُلقيَ عليهما أسْورة من ذهب؟» ويتابع فيقول الإمام عليٌّ، مظهراً العظات البيِّنات بين المستكبرين وأنبياء الله: وذلك إعظاماً للذهب وجمعِهِ، واحتقاراً للصوف ولُبْسِهِ.. ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حين بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، ومعادن العقيان[1]، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء، ووحوش الأرض لفَعَل. ولو فعَلَ لسقطَ البلاءُ، وبَطلَ الجزاءُ، واضمحلّت الأنباءُ، ولما وجب للقابلين أمور المبتلين، ولا استحقَّ المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزِمت الأسماءُ معانيَها. ولكنّ الله سبحانه جعل رسُلَهُ أولي قوَّةٍ في عزائمهم، ومتواضعين فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعةٍ تملأ القلوب والعيون غنًى، وخصاصةٍ[2] تملأ الأبصار والأسماع أذىً.

ولو كان الأنبياءُ أهلَ قوّةٍ لا تُرام، وعزّةٍ لا تُضام، ومُلْكٍ تُمدُّ نحوه أعناق الرجال، وتُشَدُّ إليه عقدُ الرحال، لكان ذلك أهونَ على الخلق بالاعتبار، وأبعدَ لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبةٍ قاهرةٍ لهم أو رغبة مائلةٍ بهم، فكانت النيّات مشتركة والحسنات مقتسمةً. ولكنَّ الله سبحانه أراد أن يكون الاتِّباعُ لِرُسله، والتصديقُ بكُتُبه، والخشوعُ لوجهه، والاستكانةُ لأمره، والاستسلامُ لطاعته، أموراً

---

(١) العقيان: نوع من الحجارة الكريمة.

(٢) خصاصة: حاجة.

خاصة لا تشوبها من غيرها شائبة. وكلما كانت البلوى والاختبار أعظمَ كانت المثوبةُ والجزاءُ أجزل».

أجل راح فرعون يستهزىء بموسى وأخيه أمام الناس، وهما في لباس الصوف، ولكنَّهما لم يدعا للغيظ مكاناً في نفسيهما، ولا للغضب محلاً في قلبيهما، فهما يبلِّغان رسالة الله، وهما يُعلنان الحقّ، والحقُّ هو أقوى الأسلحة وأشدها مضاءً، فلا حاجة إذن لغضبٍ أو ثورة إلا إذا كانت السبيلَ لإقرار الحق، أو الإيمان بالرسالة. وفي هذه المواجهة بين فرعون والرسولَيْن، كان الحقّ هو السيد. فلما تطاول فرعون ولم ينثنِ لدعوة الحق، أنذره موسى وهارون ـ سلام الله عليهما ـ ومعه قومه، بأنَّ الله لا بُدَّ مذيقُهم العذاب جزاءً لكفرهم، وهُزئهم بالرُّسل، وظلمهم للعباد. . .

البلاء ينزل بفرعون وقومه:

وحقَّ القولُ، وجاءت المحنُ على مصر تترى. . .

نقصٌ في الأموال والأنفس، وشحٌ في الأرزاق والثمرات. انخفض منسوب مياه النيل حتى قصَّرت عن إرواء الأرض، وهو النيل العظيم الذي وصفهُ رب العالمين باليّم (البحر). . وما كادت هذه البلوى تعمُّ، حتى جاءتهم بلوى أشدّ وأكثر ضرراً. . فقد بعث الله على تلك البلاد أمطاراً غزيرة شكلت طوفاناً من الماء خرَّب الديار والمساكن. واضطَّر الناس للّجوء إلى البراري والقفار، بل ومنع ذلك الطوفان الناس من الحرث زمناً. . .

وتعالَتْ الشكاياتُ، وعمَّ الجوعُ، فاضطرّ فرعونُ أن يدعوَ إليه موسى ليقول له:

ـ يا موسى، ادْعُ لنا ربّك يكشفْ عنّا المطر، فنؤمنَ بك، ونرسلَ معك بني إسرائيل. .

وتوجَّه موسى عليه السلام إلى الله سبحانه بالدعاء، فاستجابَ له وكشف عنهم الطوفان. ثم أفاض سبحانه وتعالى على تلك البلاد، في ذلك العام، من الخيرات الوفيرة، والأرزاق الكثيرة ما جَعَلَ الناس تُعوِّض الخسائر التي حلَّت بهم. فلما رأى الدهاةُ مثل هذا الأمر يتحقق على يديْ موسى عليه السلام، أمثال هامان وغيره من ذوي النفوذ والغنى، ممن يخاف كل واحدٍ منهم على مكانته وسيادته أن تزولا، جاؤوا فرعون محرّضين، فقال له هامان:

ـ لئن خلَّيتَ بني إسرائيل، فإن الغَلَبة ستكون لموسى. ولسوف يعملُ إذ ذاك على تقويضِ مُلْكِك وزوال حُكمِك.

ونكث فرعون، ونكث قومُه معه ما عاهدوا الله عليه ولم يؤمنوا، فجاءت البلوى الثانية، إذ سلَّط الله عليهم القُمَّلَ. وكان أعظم بلاء عرفوه في حياتهم، إذ لزِمَ جلودهم كأنه الجدري، ومنعهم النوم والاستقرار. .

وعادَ فرعون إلى سابقته الأولى، وطلب إلى موسى عليه السلام أن يدعوَ ربَّه كي يكشف عنهم هذا الضّرَّ، فيؤمنوا جميعاً. وبعد ذلك ترفع الظلم عن بني إسرائيل. .

واستجاب الله لدعاء نبيّه وأذهب القملَ عن أهل مصر بعدما لاصقَ الأجسام سبعة أيام من السبت إلى السبت. . ولكن فرعون وقومه لم يؤمنوا، ونكثوا العهد، ولم يُرفع الظلمُ عن بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الضفادع تملأ بيوتهم ومجالسهم وتغطي مدنهم

وقراهم وحقولهم، لا تنفكّ عن النقيق ليلاً ونهاراً حتى بات الناس مصروعين من أصواتها. . ثم سلَّط عليهم الرعاف، فسال الدمُ من أنوفهم، حتى هَزَلَت أجسامهم وضعفَتْ. وسأل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه أن يكشف هذا البلاء عن الناس، فلعلَّهم في هذه المرّة يرتدعون، ويُحافظون على العهد. ولكنْ ساء ما فعل أولئك القوم، فما إن ذهب عنهم الرعاف، واختفت الضفادعُ، حتى بانتْ خيانتهم ونقضهم للعهود، فخانوا هذه المرة، كما خانوا من قبل، والله لا يحبّ الخائنين. وهو عزّ وجلّ قادرٌ على إذاقتهم العقاب الذي يستحقون. ولذا فقد أوحى سبحانه إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كي يخرج بقومه - بني إسرائيل - من مصر خلسةً وأن يتوجّهوا ناحية البحر. .

خروج بني إسرائيل من مصر:

ولما خيَّم الظلام، واشتدت حلكته، خرج موسى وهارون ببني إسرائيل، يُغِذُّون السير، ويسرعون الخطى، وفي نفوسهم خوفٌ، وفي قلوبهم هَلَعٌ أن يُدركهم فرعون بجنوده، فتكون نهايتُهم المحتومة. .

وانتشر نبأُ هربِ بني إسرائيل في الصباح حتى بلغ فرعون، فاهتاج وغضب وأمر قوّاده بتجييش الأعداد من الرجال حتى يلحقوا بهم. واندفعت عساكر فرعون تتوزَّع في المفاوز والشعاب بحثاً عن موسى وقومه. وما إن كُشف مكان وجودهم، حتى أسرعت الرسل إلى فرعون، فجاء بحشوده إليهم، وهو ينادي ويقول: إنْ هؤلاء إلا شرذمة قليل عددها، وإنّا عليهم لمنتصرون. .

واستولى على بني إسرائيل الجزع واستبدَّ بهم القلق. . فجنودُ

فرعون قادمون لقتلهم لا محالة. واندفعت فئة إلى موسى وهي تلومه على خروجه بهم، وتقول:

ـ لقد أوذينا قبلك يا موسى، وزاد إيذاؤنا بك. فانظر كيف يتقدّم فرعون بجنوده إلينا، وما لنا من قدرة على قتالهم، ولا مفرَّ لنا من الوقوع في أيديهم: فالبحر من أمامنا، والعدو من ورائنا، وما مصيرنا إلا الموت المحقق..

وللشدة عادةً ذروةٌ ما إن تبلغها حتى تتوقَّف. وهذه الشِّدة على بني إسرائيل قد بلغت نهايتها، فهل بعدُ من شدَّةٍ أمرَّ وأصعب؟!.

فالكل في همٍّ وحسرة، وقد أوشك فرعون أن يدركهم. عندها رفع موسى عليه السلام ناظريه إلى ربِّه وسأله أن يُفرِّج عن قومه هذا الكرب، فإذا الوحيُ يأتيه: أن يا موسى اضرب البحر بعصاك..

العبور والنجاة:

وضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه، فإذا دياجيرُ الظلام في النفوس تتبدَّدُ، وإذا طواغيتُ اليأس تتشتَّت. لقد انفلق البحر وانحسرتْ مياهُهُ، وجاءت الريحُ والشمسُ تقوّي الدروب الاثنتيْ عشرة التي انشقَّت في البحر حتى يندفع أسباطُ بني إسرائيل، كل سبطٍ وجماعته في طريق.

نعم ضرب موسى عليه السلام البحر بعصاه تلبيةً لأمر ربّه، إذ جاءهُ الأمر العلويّ بقوله: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾(١).

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٧.

فَعَبَر بنو إسرائيل البحر برعاية الله وحمايته، لا خوفٌ عليهم ولا حزنٌ من إغراق أو تقتيل، ووصلوا شاطىء الأمان والسلام في الناحية الأخرى، وهم يتطلعون إلى حيث ما زال فرعون وحشوده يتهيّأون للّحاقِ بهم، بعدما رأوا سُبلَ البحرِ ممهدةً أمامهم، والطرقاتِ سالكةً للعبور.. ويزدادُ فرعون صلافة وعتوّاً، فينادي في قومه: أن انظروا إلى قدرتي وأيقنوا بسلطتي، وهاكم البحر أمامكم دليلاً، ينفلقُ طوعاً لأمري، وانصياعاً لإرادتي. هيّا، فالحقوا أولئك القوم لنسحقهم، ونُبيدهم إلى الأبد..

وحَسِب قومه وهم في الضلال يعمهون، أنَّ فرعون هو الذي أمر البحر فانفلق، وفتح لهم الدروب يصلون بها إلى بني إسرائيل، فتعالى هتافهم وصراخهم، واندفعوا إلى غايتهم وهم لا يدرون ما سيحلُّ بهم..

ورأى موسى عليه السلام اندفاع عدوّه، وتبيَّن عودة الهواجس إلى نفوس بني قومه، فعزم على أن يضرب البحر بعصاه ثانية ليعود كما كان، بحراً بلا معجزة قد فلقته، وبلا دروبٍ ومسالك... ولكن الله سبحانه أوحى له ألاَّ يفعل إلا ما يؤمر به، إذ له وحده - عز وجل - الأمر، وأمره أن يبقى البحر على حالته الحاضرة حتى ينزلَ قوم فرعون إليه، فيتحققَ حكمه العادل فيهم ويكونوا جنوداً مغرقين..

وهكذا.. وما كادت تلك الدروب في البحر تمتلىءُ وتلك الطرقات تُسدُّ بجنود فرعون، حتى عاد البحر، كمثل لمح البصر، إلى سابق عهده، يطوي في جوفه الفسق والفجور وأهليهما، ويُغرقُ القوم الذين كذبوا بآيات الله وكانوا من الخاسرين.

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يظلَّ فرعون حيّاً، فتلفظه الأمواج على الشاطىء وهو في الرمق الأخير. وما إن رأى ما حلَّ به وبغطرسته، وما أصاب حشوده من البلاء، حتى ذلَّ واستصغَر نفسه وما انطوت عليه من التكبّر والْخُيلاء. لقد رأى نفسه عبداً ذليلاً، حقير الشأن، لا حول له ولا قوّة، وارتسمتْ أمام ناظريه جرائمُهُ، وتصوَّرتْ له مظالِمُهُ يُنزلها ببني إسرائيل، وتبيّن كيف نصرهم الله عليه، وأمَّنَ نبيّهم بعد خوف، فارتعدتْ فرائصُهُ، ورفع ناظريه إلى السماء وهو يقول: آمنتُ أنه لا إلٰه إلا الذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. . .

لقد نسيَ فرعون نكوثه بعهود الله، وكيف أُتيحتْ له الفُرصُ كي يرعويَ ويرتدَّ عن البغي والجور، وعن ادّعاء الألوهيّة، فكان في كل مرّة ينزلُ به وببلاده البلاءُ ثم يرتفعُ، يعودُ إلى صلافِته وجبروته. . نسيَ ذلك، وفي نهاية الشوط، بعدما أيقنَ أن كل حولٍ له أو صولٍ قد ولّى، أراد أن يعود إلى الإيمان. . ولكنه غاب عن باله أنّ كثرة المظالم لا يُجدي معها الندم، وأن إيمانه لم يأت عن تعقّل واقتناع، بل نتيجة الرهبة التي استولت على نفسه حتى أحسَّ أنها أصغر النفوس. . . وأنه إن نسيَ ذلك كله، فإن الله سبحانه لا ينسى حقوق المظلومين، ولا حرمان المحرومين، فلم يغفر له ولم يتب عليه. . نعم لم يتقبَّل الله سبحانه إيمان هذا الطاغية الجبار، الذي أهلك الحرث والنسل، لأنه لم يؤمن إلا ساعة اليأس والشدة، وبعدما كان قضاء الله تعالى قد جرى عليه بالهلاك الدائم، بل ويشاء العزيز القدير أن يجعله عبرةً وتذكرةً لمن خَلْفه، كما يخبرنا بأمره كتابه الكريم بقوله

العزيز: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[1].

وشاهَدَ بنو إسرائيل بأمّ العين ما حلّ بفرعون وجنوده، ونظروا إليه وهو يرتمي على الشاطىء، جسداً لا يتحرَّك، ولكنه آيةٌ ناطقةٌ على ما يشاء الله تعالى ويقدر، وأنه سبحانه يمهل ولا يهمل. رأى بنو إسرائيل هذه الآية، فحمدوا الله على ما آتاهم من النِّعم، وما وهبهم من الخلاص من ظلم فرعون وأعوانه..

تيه بني إسرائيل في سيناء:

وسارَ موسى ببني قومه بحثاً عن أرضٍ جديدة يستوطنون فيها، وقد كانت مسيرتهم في سيناء، تلك الصحراء التي نَدَرَ فيها الماء، وقلَّ عشبها وشجرها.. ومرَّت بضعة أيام نفدَ خلالها ما حمله القوم من زادٍ وماء، فضربَهم الجوع والعطش حتى أوشك النَّصبَ أن يهلكهم، والموت أن يدركهم!.. إذ ذاك حلت عليهم رحمة الله تعالى ورأفته، فأرسل إليهم المنَّ تحمله طيور السلوى، وترميه إليهم مغلَّفاً بأوراق الأشجار، فكان المنُّ ثمراً، والسلوى طيراً، مصدرَ الغذاء والعيش لبني إسرائيل في تلك الفترة..

ثم أوحى الله لموسى عليه السلام أن اضرب الحجر بعصاك فيتفجّر الماء ويُسْقىَ بنو قومك. وتحقق ما أرادهُ الله بالفعل، وانبجس الماءُ من اثنتيْ عشْرة عيناً، رأى فيها كل سبط من أسباط بني إسرائيل أحفاد

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٢.

يعقوب الاثنيْ عشر، واحدةً لمشربه، فارتَوَوا بعد ظمَأ، وارتاحوا بعد وصبٍ وتَعَب. . .

وحلَّت الطمأنينة في نفوس بني إسرائيل، بعدما أمَّن لهم نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بفضل الله سبحانه وعنايته الطعامَ ليأكلوا، والماء ليشربوا، في تلك الصحراء القاحلة. وتلقّى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الأمر من ربِّه بأن يتطهَّرَ ويصومَ ثلاثين يوماً ثم يأتي طورَ سيناء ليُنزلَ معه التعاليم الشرعية التي يتوجَّبُ على بني إسرائيل السيرُ على هديها، وليكون لهم كتابٌ مُنْزلٌ من السماء، هو المرجع والمآب. .

ولغرضٍ في نفسه، شاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرافقه في ذهابه إلى الطور بعضٌ من ذوي الرصانةِ والعلم، وذوي الحجَّة والبيان، علَّهم يساعدونه على نشر الدعوة وتوطيد الإيمان في القلوب. وفي الطريق آثرَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتعجَّل ويسبقَهم لميقات ربِّه. وسأله الله سبحانه عن ذلك، فأبدى السببَ قائلاً بأدب وخشوع: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾(1).

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقوم على تلقّي أوامر ربِّه، والرجالُ في عقبه يتشاورون ويتفقون على أن يطالبوه بأن يروُا الله عندما يكون موسى في حضرته. وبذلك تكون لديهم البيِّنة القاطعة، والشهادة التامة على أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فعلاً كليمُ الله، وأن ما يأتي به هو منزلٌ بأمره تعالى.

اتفق الرجال السبعون الذين اختارهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمرافقته على هذا الرأي، فلما كان وصولهم إليه، قالوا له: «يا موسى لن يكون إيماننا كاملاً حتى نرى الله جهرةً».

---

(1) سورة طه، الآية: ٨٤.

استعظم موسى عليه السلام الطلب، ولكن مرافقيه ألحّوا عليه وهم يبدون بأن قوم فرعون كانوا يرون ربهم ويجتمعون إليه.. ونهاهم موسى عليه السلام عن هذا الأمر وأبان لهم بأنَّ فرعون لم يكُ ربّاً أبداً ولن يكون، إن هو إلاَّ بشرٌ مثلُ سائر الناس، وأنهم رأوا بأم العين ما حلَّ به.

لقد أراد أن ينهاهم عن الضلالة، فلم ينتهوا وحاولَ معالجة نفوسهم وقلوبهم، فلم يزدهم ذلك إلاَّ إصراراً على طلبهم.

خاف موسى عليه السلام أن يكون في ادّعاء هذه الزمرة، إن لم يُجبها إلى طلبها، ما يُضَعْضِعُ الإيمان في نفوس بني إسرائيل، فآثر أن يسأل العزَّة ما طُلب إليه، حتى يتبيَّن حكمها، وحتى تكون لديه الحجَّة القاطعة على هؤلاء الرجال، وعلى كل من تُسوِّل له نفسه الشكَّ في رسالته، أو الريبةَ في نبوته.

وجاءهُ الردّ من العليّ العظيم: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾[1].

وما هي إلا لحظات، وما كاد يلتفت موسى عليه السلام ناحية الجبل، حتى رآه قد دكّ دكاً وغارَ في الأرض كما تغور نقطة ماء في كومة من تراب جافٍ.. ارتاع موسى عليه السلام لهول المنظر الجلل، والخطب العظيم، فصُعق وخرَّ هو ومن معه على الأرض مأخوذين بالإغماء عليهم.

ويشاء الله تعالى أن يلطف بهم، وأن يشملهم برحمتِهِ، فأذهب عنهم الخوف. ولما أفاقوا من تلك الصاعقة التي نزلت في نفوسهم،

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧.

راح موسى عليه السلام يسبّح الله العزيز المتعال وهو يقول:

ـ ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا. إن هو إلاّ اختبارك وبلاؤك تُصيب به من تشاء، وتصرفه عمّن تشاء، أنت وليّنا وناصرنا، فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة إنّا رجعنا بتوبتنا إليك فاستر علينا وأنت خير الساترين على عباده.

غَفَرَ الله لموسى عليه السلام سؤاله، وأعادَ إليه الرُّشدَ. ثم أنزلَ عليه الألواح وقد حُفِرَت فيها آيات الله لتكون سبيل الهداية لبني إسرائيل والناس أجمعين. وقال الله سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(١).

عادَ موسى عليه السلام من ميقات ربه ومعه الألواحُ، يكشفها للرجال وهو يدعوهم إلى الإيمان بها... ولكنَّ هؤلاء استكبروا استخفافاً وقالوا:

ـ وما أدرانا أن الله قد أنزل هذه الألواح؟!..

وحيال هذا الإنكار رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ليكون معجزةً لموسى عليه السلام تدلّ على أن الألواح من كلام الله عزّ وجلّ. وكان تحذيره ـ سبحانه وتعالى ـ لموسى وبني قومه بقوله العزيز: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢).

ما لهؤلاء القوم؟!.. ما بالُ بني إسرائيل لا يُسلمون وجوههم

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

لله عزّ وجلّ إلا إذا لُويَتْ أعناقهم وبُهِرَتْ عيونهم بالمعجزات الحسيّة. ما بالُ بني إسرائيل لا يؤمنون بموسى نبياً إلا إذا أُلقيَ الرعبُ في قلوبهم، ودفعهم الخوفُ من العذاب إلى هذا الإيمان دفعاً؟!.

ظهور السامريّ وعودة بني إسرائيل إلى الوثنية:

إنهم - وبعد كل الذي حدث لهم - يعودون إلى سالف عهدهم من الضلالة، ويندفعون مجدداً نحو الوثنية.. لقد قال لهم موسى عليه السلام بأنه غائبٌ عنهم، ولن يعود إليهم إلا بعد ثلاثين يوماً، حتى إذا انقضى الموعدُ الذي ضربه لهم، انقلبوا إلى الشكّ وراحوا يُشيعون فيما بينهم أن موسى عليه السلام أخلفَ وعدَه، ونقض عهده، وتركهم في جهلٍ مُقيم وليلٍ بهيم... ثمّ راحوا يبدون تذمّرهم ويدّعون حاجتهم إلى من يُنيرُ لهم المسالِك، ويُبعدهم عن المعاصي والمهالك..

وكان بينهم رجل يُدعى السامريّ، سمع ما يقولون، وعَرَفَ بما يتناجون: فتحركت في نفسه نزوةُ الشر وتوثبت في عقله نزعةُ الباطل، ورأى في غياب موسى عليه السلام فرصةً سانحةً، لتنفيذ خبثه ودهائه. فأخذ الحليّ من الناس ليريَهم معجزةً تُظهر لهم ربّهم أمام أعينهم، ثم حفَرَ حفرةً، وألقاها فيها، ثمّ عاد وأوقد النار حتى ذابت المعادن الثمينة، ثمّ ذرَّ عليها حفنة تراب كان قد أخذها من موضع قدم جبريل عليه السلام حين سمع الصوت ولم يَرَ الشخص كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] فإذا في الحفرة جسد عجلٍ، وهو كما تصوره السامريّ، الوثنُ الجديدُ لبني إسرائيل..

---

(١) سورة طه، الآية: ٩٦.

ولكي ينفِّذ ما عزم عليه، وضَعَ العجل ـ التمثال ـ في مكان مجرى الريح، فصار كلما هبّت الريح أرجَعَ تجويفُه صدىً كأنه الخوار. . وكان يدعو الناس للتنصُّت ليلاً وسماعِ خوار العجل، حتى فتنهم وجعلهم يظنّون أن هذا العجل هو حقاً محلٌّ للتقديس والعبادة. . وأدركت فئةٌ ما صنعتْ يدا هذا الرجل الدجَّال فنفرتْ منه وكفّرتْهُ، ولم تقوَ على تكذيبه أمام القوم، فتبعُه كثيرون وأُشْرِبَتْ نفوسُهم تقديسَ ذلك العجل. .

وفي مدة وجيزة تمَّ افتتان بني إسرائيل، فقدَّسوا عجلَ السامريّ. . . ولم يكن بعيداً عنهم هذا الطيش، ولا غريباً عليهم هذا الاندفاع في الفتنة، فقد كان في طبعهم الميلُ إلى الانحراف عن الحقيقة، وعهدُهُم ليس بعيداً عندما جاؤوا نبيّهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يرجونه أن يجعل لهم إلهاً مثل آلهة أولئك القوم الذين مرّوا بهم في طريقهم ورأوهم يعبدون أوثاناً. . ولكنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ انتهرهم آنذاك بشدَّة، ومنعهم من الانزلاق في الغيّ والضلال. . أما الآن فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غائبٌ، وهارون أخوه بين القوم، وهم لا يطيعون له رأياً، ولا يسمعون منه نصيحة. فقال لهم، ونفسه تتقطَّع أسىً عليهم، وهو يراهم يُقدِّسون العجل: يا قوم! لقد فُتِنتُم به، وإن ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعوني وأطيعوا أمري. وكان جوابهم الوحيد له:

ـ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى!.

ورأى هارون، والفئةُ الباقيةُ على الإيمان، ما وصل إليه القوم من غواية وفتنة، فعزموا على مقاومة نزعاتهم ولو كانت القوَّةُ هي السبيلَ لتلك المقاومة. ولكنهم، وبعد الشورى فيما بينهم، آثروا ألاَّ يشهروا القتال خوفاً من إشعال فتنة تكون أشدَّ فتكاً مما كان عليه

قومُهُم، فسكتوا على مضضٍ، وهم ينتظرون عودة موسى على أحرَّ من الجمر..

وعاد موسى عليه السلام من ميعاد ربِّه، ليجدَ قومَهُ في هرجٍ ومرجٍ. رآهم حول عجلٍ في العراء يلتفّون، ولخواره يطربون ويهزجون.. وعَرف موسى أنَ الفتنة قد حلَّتْ ببني إسرائيل، وأن سبب تلك الفتنة هو ذاك السامريّ الذي استطاع أن يُضلّهم ويغويَهم. وهمَّ أن يبدأ تقتيلاً في القوم، ولكنَّه آثر أن يتبيّن ما آلت إليه تلك الحال من أخيه هارون، فعاتبه بشدة وعنفٍ، والغضبُ يتملّكه وهو يقول له:

ـ وأنت يا هارون، ما منعَكَ إذ رأيتهم ضَلُّوا أن تردعهم عن هذا الضلال؟ وهل عصيت، فلم تُحارب فسادهم، أو نسيت عهدي فلم تمنع انحرافهم؟!.

فقال هارون والألم يعتصر قلبه، بعد أن هدأتْ سوْرَة الغضب عند أخيه:

ـ يا بن أمّي لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي. لقد حاولتُ ردعَ القوم، لكنهم استضعفوني، فلا تُشْمِت بي عدوّاً، ولا تجعلني مع القوم الظالمين. وإني والله قد خشيتُ إن أنا وقفتُ في وجوههم أن تقول: فرّقت بين بني إسرائيل، ولم تَرقُب قولي..

عرف موسى من أخيه هارون حقيقة ما قامَ به السامريّ حتى فتن القوم، فطلبه إليه، فلما جيء به بادره بالقول فوراً:

ـ ما خَطْبُكَ أيها السامريّ؟

فاعترف بما فعل كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم بالقول المبين:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾(١)!..

ولم يقتصّ منه موسى عليه السلام على ذلك الفعل الشنيع، إذ لو طال غيابه عن بني قومه أكثر من تلك المدة الوجيزة التي ذهب فيها لميقات ربه، لكان دفعهم السّامريُّ إلى جهالةٍ لا مَرَدَّ عنها، ولكنّه شكاهُ إلى الله أن ينزل به بلاءً لا يقدر على الخلاص منه.

وجاءَهُ الوحيُ بأن يُبعِدَ الناسَ عن هذا السامريّ اللعين فلا يخالطونه ولا يقربونه.

وأصبح الصباحُ فإذا السامريّ قد صار وحيداً فريداً، يبتعد عنه كل من يصادفه، ويزدريه كل من يراهُ.. ويحسُّ في نفسه وحشةً من القوم فيهيم على وجهه، وتطولُ به الأيام حتى يصير وحشياً تخافُهُ الناس، وتمقُتُه العيون..

وكان موسى ـ قبل أن يطرد السامريّ ـ قد أحرق العجلَ على مرأى من بني قومه كلهم، ثم قام يخاطبهم وهو يقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾(٢)!؟!.

وأبدى القوم اعتذاراً فقالوا له:

ـ ما أخلفنا موعدكَ بمقدرتنا وأمرنا، ولكن كانت حالة غفلةٍ وضعفٍ منا، وقد حُمِّلنا أثقالاً من حليِّ زينة القوم، فأغوانا السامريُّ

(١) سورة طه، الآية: ٩٦.
(٢) سورة طه، الآية: ٨٦.

أن نلقيها في النار، فأذابها وشكّلها، وأخرجها لنا عجلاً جسداً له خوارٌ فأضلّنا عن الطريق المستقيم..

وأراد موسى عليه السلام أن يشفيَ نفوسهم من الوهن الذي اعتراها، فأبانَ لهم الحق، وأظهرَ لهم الصواب، وذكّرهم بفضائل الله عليهم، وكيف أنجاهم من الجور والاستعباد، وكيف أنزلَ بأعدائهم البلاء والعقاب... وختَمَ حديثه إليهم بالقول:

ـ أبَعْدَ هذا تظنّون بالله الظنون؟.

فأجابوه: بل آمنا بربِّ موسى وهارون، ونحن إليه تائبون، فهل من طريقٍ يعيدنا إلى التوبة والاستغفار؟!.

ووجد موسى عليه السلام أن القوم نادمون فعلاً، فشرح لهم سبيل الهداية والتقوى، وقال لهم:

ـ إنَّ سبيل المغفرة هو في نفوسكم، فعالجوها بما تستحقّ... اكسروا حدّتها، واكبتوا شهواتها، وطهِّروها من الشرّ والإثم.. ثم دعاهم للتجرد من كل مشتهىً مرغوبٍ، والابتعادِ عن هوى النفس، وسوف يجدون أنَّ النفس الآثمة قد صَغر شأنها، وانحسر انفعالها، وخفَّ اندفاعها، وستُمسك عن مجاراة الهوى، وتأنف الزلة، وتبعد عن الفحشاء.. ولو أنهم فعلوا ذلك فلن يضلوا سواء السبيل!..

وهكذا، وبعد أن دعا نبيُّ الله موسى قومه بني إسرائيل إلى اتباع الطريق المستقيم الذي يرضي الله تعالى، ومقوماته صفاء النوايا، وطهارة القلوب، وحسن التعامل.. وبعد أن أظهروا الندامة على ما بدر منهم، كان عهدهم له أن يرسِّخوا الإيمان في نفوسهم، ورجاؤهم الوحيد أن يغفر الله تعالى لهم، ويتوب عليهم..

فدعا موسى عليه السلام ربه ليغفر لهم فغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم.

الرجوع عن العهد

ولكن الفعال جاءت تكذب الوعود.. فعلى الرغم من كلِّ ما أبداه بنو إسرائيل من التوبة، والتمسك بأهداب الإيمان الحق، إلاَّ أنه لم يطل بهم العهد طويلاً حتى عادوا إلى سابق دأبهم من التذمر والشكوى، واللجاجة في المطالب التي لا تنتهي.. فقد تحركت سريعاً في نفوسهم النزعات والرغبات المادية، وأبدوا استياءهم من المداومة على أكل المنّ والسلوى، وطلبوا من نبيهم أن يدعوَ الله ليخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، وهي المأكولات التي اعتادوا عليها في مصر، ورغبوا في العودة إليها..

ويستغرب نبيُّ الله مثل هذا الطلب من قومه، فما بالهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير من الطعام؟! أليس بينهم رجل رشيد فيدرك أن مثل هذه الخضار والحبوب التي يرغبون بها قد لا تتوفر في الصحراء، ولا يمكن أن تنبت على الرمال الجافة؟.

ثم ألم يشأ العزيز القدير أن يُنَزِّل عليهم من الطعام ما هو أكثرُ غذاءً، وأنفعُ لأجسامهم، حتى يقدروا على التكيف مع جوِّ الصحراء، واحتمال مناخها؟!.

لقد جهلوا كل ذلك، وجعلوا التبرم والضيق عنواناً لحياتهم..

وها هُمُ الآن يضيفون إلى سجل لجاجهم مطلباً آخر، وهم يعلنون لنبيِّهم أن يدعوَ الله ليخرجوا من الصحراء القاحلة، ويسيرَ بهم إلى أرض يستقرون بها ويعمِّرونها..

ونزل الوحيُ على موسى عليه السلام يبيّن له الطريق التي يسلكها حتى يصلَ ببني قومه أرضاً جديدةً، يقيمون فيها، فقادهم حتى نزلوا ضفة نهر الأردن. . واستقروا بعد النَّصب، واستراحوا بعد التعب من السير الطويل. . ولكن لم تطل الإقامة بهم حتى دعا موسى عليه السلام إليه اثنيْ عشر نقيباً، كانوا يمثلون أسباط بني إسرائيل وقبائلهم، ليبعث بهم إلى بلاد الكنعانيين وهم على مقربةٍ منهم، كي يتبيّنوا ما في تلك البلاد، ويأتوا بالخبر اليقين عن السبل التي تمكنهم من غزو تلك الأرض واحتلالها.

وعاد النقباء من تلك المهمة، وهم يبدون عجباً، لأن في أرض كنعان رجالاً عمالقةً، أشداء الأجسام، أقوياء الشكيمة، يكاد الرجل منهم أن يحمل شجرة كبيرة على كتفه، وأن يرفع دابتَهُ إن وقعت على الأرض، بل ويمكنه أن ينزل إلى حفرة هوت الدابّةُ فيها وينتشلها منها بمفرده!!.

وحيال هذا الواقع كان لا بُدَّ من كتم هذه الأخبار، وعدم إشاعتها بين القوم، وإلا فسوف تؤدي بهم إلى الوهن والضعف، وتدفعهم إلى التقاعس عن الاستعداد والترقب لدخول الأرض الجديدة، فطلب موسى عليه السلام من النقباء أن يكتموا خبر العمالقة حتى يتدبَّر الأمر. ووفى بهذا العهد نقيبان منهم، وهما يوشع بن نون من سبط بنيامين وكالب من سبط يهوذا. . أما النقباء الآخرون، وكانوا عشرة، فقد حنثوا بوعدهم ولم يستطيعوا الكتمان، فأفشَوْا بين الناس ما رأوه في أرض الكنعانين، وبذلك تحقق ما كان متوقعاً، إذ ساد الذعر بين صفوف بني إسرائيل، ولزمهم الغم والكمد. . . مما دفع النبيَّ موسى أن يعزمَ أمره، ويتوكلَ على الله، ثم يدعوَ أبناء قومه

للتأهب، وإعداد العدة قبل الانطلاق للغزو بلا تردد أو تقاعس، وإخراج الكنعانيين من تلك الأرض حتى يمكنهم الإقامةُ فيها . . وسمع القوم هذه الدعوة، وكانت ردّة الفعل بمعارضتها صريحة، إذ قالوا:

- إن فيها قوماً جبارين، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن خرجوا فإنا داخلون! . .

لقد كان بنو إسرائيل يُمنّون النفس بالاستقرار في أرض يختارها نبيهم ولكن بلا جهاد ولا كفاح . . . وقد أوكلوا إليه أن يحقق لهم هذا الأمر، كما في كل شيء رغبوا فيه، عن طريق المعجزات، التي ألفوها من قبل، ولكن هل تستقيم الحياة مع الأمانيِّ وحدها، بدون العمل والكدح؟! فالقوم من بني إسرائيل لا يريدون أن يبذلوا جهداً، ولا أن يأتوا عملاً، وما يهمهم هو تحقيق الأمانيّ، والتنعم بثمرات النتائج . . .

وأشار موسى عليه السلام إلى النقباء أن يساعدوه على إقناع هؤلاء القوم المتخاذلين، فانبرى نقيبان من الذين يخافون الله تعالى، وهما يوشع وكالب اللذان أنعم تعالى عليهما، فقالا للقوم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(1)

إذاً فالدعوة واضحة، وهي أن يدخل بنو إسرائيل قرى الكنعانيين من أبوابها، فإن فعلوا فإنهم سيغلبون بإذن الله تعالى، وما عليهم إلاَّ أن يشدوا العزم، ويتوكلوا على الله عز وجل إن كانوا مؤمنين . . .

ثم عاد موسى عليه السلام يخاطب القوم، فيثني على أقوال الخطباء، ويحثُّ بني قومه على أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم، وما

(1) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

جعل فيهم من الأنبياء، وأقام منهم من الملوك، وما أمدّهم به من العون، وتفضل به عليهم من الرحمة، ثم يحضّهم على دخول الأرض التي يأملون بها، كما يبيّنه القول المبين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾(١)

لقد وعدهم رسولهم بالنصر من الله تعالى إن حزموا أمرهم، واستعدوا لدخول الأرض المقدسة.. ولكن ويا للأسف تعالت صيحاتهم تنذر بالجبن، وتعلن بالخوف.. وليتهم وقفوا عند هذا الحد، بل كان عصيانهم لنبيهم مليئاً بالوقاحة والصلافة، حتى ليُذهب بصبر الحليم، ويطيح بعقل الحكيم. وذلك وهم يعلنون، كما يخبرنا به العزيز الحكيم بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٢)

... وكانت الدعوة من النبيّ موسى عليه السلام إلى الإيمان، والتذكير بنعمة الله، والحضّ على دخول الأرض دونما تقاعس أو إدبار!..

... وكان العصيان من بني إسرائيل، والتنكر لفضل الله عليهم، بل والتعدي على حرمةِ النبيِّ الكريم، وقدسية الرب العظيم، رب السماوات والأرض وما فيهنّ وما بينهنَّ!.. وضاع أمل النبيّ... فلم يبقَ أمامه إلا التوجّه إلى ربه الرؤوفِ الرحيمِ يبثه شكواه من القوم،

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٢٠ و٢١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

وما آل إليه أمرهم من الجحود والنكران. . .

وانصرف القوم عن موسى، ولم يبق في الساحة من نصير أو معين له إلا أخوه هارون، فهما وحيدان في أضعف جند، وأنكد أتباع، لأنهم ضعاف النفوس، خائرو العزائم، يخافون القتال، ويأنفون الإقدام، وفي هذا خسارة كبيرة، ولن تكون لبني إسرائيل الأرضُ المقدسةُ التي وعدهم بها الله تعالى لأنهم لا يستحقونها. . وبكل الألم الذي يعتصر قلبه، توجّه موسى عليه السلام إلى ربه قائلاً بأنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، طالباً إليه أن يحكم بينه وبين القوم الفاسقين، وذلك كما يظهره لنا قول الله العزيز: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(١).

تِيـهُ بني إسرائيل في الصحراء

وأوحى الله تعالى إلى نبيه موسى أن يتخلى عن هؤلاء القوم ردحاً من الزمن حتى ينالوا العذاب الذي يستحقون على عنادهم وعصيانهم. .

ويتحقق أمر الله تعالى، ويقع بنو إسرائيل بالتيه في الصحراء. .

أجل لقد قضى الله تعالى عليهم أن يتيهوا مدة أربعين سنة، وهو الزمن الذي يكفي في علم الله كي يفنى كبارُهم، ويهلكَ رؤساؤهم. . ثم يظهر من بعدُ جيل جديد، يكون عزيز الجانب، منيع النفس، قويَّ الإيمان، فيندفع في طاعة ربه، ويُبادر باذلاً الغالي والنفيس للجهاد في سبيل الله.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

وبدأت سنوات التيه، وبدأ المشوار الطويل على رمال الصحراء اللاهبة. . . لا يترك بنو إسرائيل كثيباً من الرمل إلا ويقعون في كثبان أشدَّ صلابةً وقسوة؛ ولا ينفذون من درب إلا ويضيعون في دروب أكثرَ وعورةً ويباساً. . . يدورون في رمالٍ لا تُحتمل، ويجوبون في فلواتٍ لا تطاق، يقضون الأيام، ويقطعون السنين في فراغٍ طويل، لا يجدون له نهاية!.

إنه حكم الديّان، أن ينالوا مثل هذا العذاب في الدنيا، ويذوقوا مثل هذا الشقاء في الحياة. وبالفعل فقد ذاق بنو إسرائيل في أيام التيه كلَّ أنواع الضيق، والشدة، والألم. . . فصاروا يتمنون العودة إلى عبودية فرعون على هذا العذاب. . وكيف لا يكون هذا جزاءهم، وقد أعطاهم الله سبحانه ما لم يُعطه لشعب من الشعوب:

أعتَقَهُم من العبودية، وخلَّصهم من الاستغلال والاستعباد، فلم يقدّروا معنى الحرية والكرامة. . وسألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً صنماً يعبدونه، كما أتى الله على ذكرهم عندما جاوز بهم البحر بقوله تعالى ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾(١).

بعثَ فيهم النبيّين، فكذَّبوهم، وقتلوهم. .

أرادوا رؤية الله جَهرةً، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾، ثم بعثهم الله تعالى من بعد موتهم لعلهم يشكرون.

أنزل لهم التوراة كتاباً سماوياً مقدساً، فيه الهدى، وفيه الحقّ، وفيه صلاحُ حالهم وأنفسهم، فلم يستمسكوا به إلا خوفاً ورهبة. .

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

أمرهم ربهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوةٍ وأن يسمعوا قول نبيهم، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

طلبوا يوم راحةٍ لأبدانهم، وأنفسهم، فوهبهم السبتَ، ولكنهم نقضوا العهد، وأحلُّوا فيه ما حرَّم الله، فاصطادوا الحيتان بمكر وخداع..

قتلوا النفس التي حرَّمها الله، وراحوا يتّهم بعضهم بعضاً، وكلٌّ يلقي التبعة على الآخر، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يهديهم إلى القاتل الذي ارتكب الجريمة، على لسان الميّت نفسه، حتى يرفع الفتنة عنهم، ويجعلهم يؤمنون بالبعث واليوم الآخر. فأمرهم أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها فيقوم من موته ويدلهم على القاتل.

واعتقدوا أن موسى عليه السلام (وهو نبيّ الله) وحامل رسالته، أنه يهزأ بهم. فتطاولوا عليه وقالوا له:

﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾[1] هذه البقرة؟

قال لهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[2] (لا كبيرة ولا صغيرة).

فأرادوا معرفة لونها قائلين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾[3]... قال لهم: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٩.

قالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾(١).

قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾(٢).

عندها قالوا: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾.

وجاؤوا بالبقرة فذبحوها وضربوا الميّت ببعضها، فقام حيّاً بإذن الله، ودلّهم على القاتل. رأوا بأم العين ما من شأنه أن يستحثّ في قلوبهم الخشية والتقوى، وهل أكثر معجزةً من أن ينتفض الميّت مبعوثاً ناطقاً كي يخشوا ربَّهم ويتّقوه؟... ولكنهم على الرغم من ذلك لم يفعلوا، بل قَسَتْ قلوبهم من بعد ذلك، ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾...

إن قلوب بني إسرائيل أقسى وأصلب من الحجارة التي لهم سابق عهد بها. فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشر عيناً. ورأوا الجبل يندكّ أمام أعينهم حتى خرَّ النبيّ موسى عليه السلام صعقاً. رأوا ذلك كله ولكنَّ قلوبهم لا تلين ولا تنبض بخشيةٍ ولا تقوى... إنها قلوب قاسية مجدبة، جاحدة كافرة..

بعد كل هذه النِّعَم والفضائل، وبعد كل هذا الغفران، وبعد كل هذا التعنُّت، وبعد كل تلك البيّنات والحجج التي ساقها إليهم موسى عليه السلام، ظلّت قلوب بني إسرائيل قاسيةً لا تُفسحُ مجالاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧١.

للإيمان بالله أن يدخل إليها، فحقَّ عليهم عذابُه، واستأهلوا التِّيه والضياع. وكان هذا التيهُ في أصعب الظروف وأقسى الأرض، حتى يُدرِكوا معنى القساوة فيرتدوا..

ها هم يتيهون في صحراء سيناء أربعين عاماً، يُلاقون من الشدّة والقساوة، ومن الخوف والقلق ما هو حريٌّ بأن يُطَهِّر نفوسَهُم من موبقاتها، ويخلِّص عقولهم من جهالتها، وقلوبهم من قساوتها..

أربعون عاماً يهيمون في الضياع، وموسى عليه السلام منصرفٌ إلى عبادة ربِّه يستزيده علماً وحكمةً. لا يتفاخرُ بقدرته التي قهر بها فرعون، ولا بالمعجزات التي أتاها الله عزّ وجلّ على يديه، وخاصة فَلْقَ البحر، وتفجير الماء من الحجر، وإحياء الميّت ولا يتباهى بأنه كلمَّهُ ربه تبارك وتعالى، وبأن التوراة أُنزلَت عليه من لدن العزيز الحكيم. لا يتفاخر بذلك كلّه ولا يتعالى، بل يشعر أنه ما زال مقصّراً في أداء حقِّ الله، وأن عليه الاستزادة من علم الله، حتى يوفيه حقه سبحانه وتعالى..

موسى والخضر عليهما السلام

وأوحى الله لموسى وهو ـ سبحانه ـ يعلَمُ توقهُ النفسيّ للاستزادة من العلم والمعرفة، بأن يذهب إلى ساحل البحر، إلى المكان الذي يصبّ فيه نهر النيل بالبحر المتوسط حيث يدعى الملتقى مجمعَ البحرين، كي يلتقيَ عبداً صالحاً يُصيبُ من عمق إيمانه وصدق يقينه نوراً، ويقتبس من وفرة علمه وبلاغة حكمته قبساً.

اطمأن موسى عليه السلام لرعاية الله له، ولكنه شاء أن يعرف الطريق التي تُرشده لذاك العبد الصالح، فسأل الله سبحانه أن يجعل له عَلَماً

يدله عليه، فجاءه الردّ بأن يأخذ معه حوتاً في وعاء، وهو نوعٌ من السمك كان يصطاده بنو إسرائيل في خليج إيلات، فحيث يفقد هذا الحوت، فهنالك يجدُ الرجل الذي يبحث عنه.

أعدّ موسى عليه السلام العدة للسفر الطويل، واصطحب معه فتاه، يُعينه في حمل متاعه وحوائجه. وقد أوصاه، بأن يُخبره عن فقدان الحوتِ، إذا فُقِدَ أثناء نوبته في حمل المتاع..

وبَلَغَ موسى وفتاهُ مجمع البحرين، وكان التعبُ قد أخذ منهما كل مأخذ، فانتحيا مكاناً يستريحان فيه.

وأخذت موسى عليه السلام سِنةٌ من النوم، فراح في إغفاءةٍ قام بعدها يدعو فتاه لمواصلة الرحلة. وأغذّا السَّيْرَ، حتى بَعُدت بهما المسافة، وأنهكهما التعب من جديد، وكان الجوع قد أجهدهما فَطَلَب موسى إلى فتاه أن يأتيه بالطعام قائلاً: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾[1].

ولما همَّ الفتى أن يأخذ الطعام، تذكَّر أن الحوت كان قد تسرّب إلى الماء عندما كان موسى نائماً، وقد أنساه الشيطان أن يذكر لسيده هذا الأمر. وسأل موسى عن مكان ذهابه، فقال الفتى:

ـ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، وغشيك النعاس فأحببتُ أن لا أوقظك فحينها اتخذ الحوتُ سبيلَه في البحر سرباً، ونسيت أن أخبرك وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره.

فلاحتْ على وجه موسى عليه السلام بشارةُ الظفر ووجدَ أن لقاءَ

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٢.

العبد الصالح قد اقترب فقال: ذلك ما كنّا نبغيه وننشده فهيّا بنا . .

وارتدا على آثارهما قصصاً. فلما وصلا حيث فقدا الحوت وجدا رجلاً نحيل الجسم، تجلّل وجهه مسحةٌ من نور، ويلوح على قسماته آياتُ الطُّهر والصلاح، قد تغطّى بثوبه وجعل طرفه تحت رجليه، وطرَفَه الآخر تحت رأسه . .

وألقى موسى عليه السلام التحية على الرجل، فكشف عن وجهه، يردُّ عليه السلام ويسألُهُ عمّن يكون.

قال: أنا موسى.

فأجابه الرجل: نبيّ بني إسرائيل؟.

قال: نعم، ومن أعلَمَك بهذا؟

قال: الذي بعثك إليّ . .

عندها عَلِمَ موسى أن هذا هو الرجل الذي ينشد لقاءه، فتلطّف بالقول، وتجمَّل بأحسنِ ما وهَبهُ الله من أدب الحديث، وفضل التواضع، وقال له:

ـ هل تأذن أيها العبد الصالح لرجلٍ جاهدَ في سبيل لقياكَ، حتى لقيَ العناء، أن تُفيضَ عليه من علمك، وتمنحه شيئاً من هديك؟! . . وإني لعازمٌ على أن أتبعك وأسير في ظلك وألتزمَ أمَرك ونهيك! . .

وأجاب العبدُ الصالحُ الذي هو الخضر عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[1] . . فلو صاحبتني، سترى ظواهر عجيبة وأموراً غريبةً، منكرةً في ظاهرها، مُحقَّة في باطنها، لأن الإنسان فُطر على حبّ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٧.

النقاش والجدال، ولا يقدر على السكوت وعدم الاعتراض. ولسوف لا تتورَّع إن رافقتني عن طلب الكشف عن سِرّ كل أمر . . وكيف تصبر على ما لم تألَفه، أو ما قد يتجاوز معرفتك؟ . .

فقال له موسى: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لكَ أمراً.

فقال الخضر: إن صحبتني فإني آخذ عليكَ عهداً بأن تكون عُدّتُك الجَلَدَ وضبط النفس، فلا تبتدرني بسؤال، ولا تُثر أمامي أي اعتراض حتى ينقضيَ الأمرُ وتنتهيَ الرحلة. وإني بعدها سآتي على تفسير ما تطلبه، وأشفي غليل ما تكنّه نفسك وترجوه من معرفة ما رأيت! . .

وقبل موسى شرط الرجل الصالح . . وكيف لا يقبلُ بما يُمليه عليه، وهو الذي قطَعَ المسافات لرؤيته، وجابَ البلادَ لملاقاته؟ وكيف يَحرص على طلبِ علمٍ ولا يطيعُ، ويرغبُ في تلقي حكمةٍ ولا يمتثل؟! . . .

وبدأت الرحلةُ حتى وصلا البحر فوجدا سفينة راسيةً على الشاطىء. فتقدّم العبد الصالح يطلب من أهلها، أن يحملوهم حيثُ يذهبون. ورأى أصحاب السفينة في حديث الرجل ما يحملهم على احترامه، وفي سؤاله ما ينمُّ عن وقاره، فرحّبوا به وبرفيقيه، وأدخلوهم السفينة محمولين بلا أجرٍ، ومحوطين بالإكرام.

وبعد أن لبِثا في السفينة بعض الوقت، وعلى حين غفلةٍ من أصحابها، راحَ العبدُ الصالحُ يفكّك أجزاء من أرضها حتى خرقها وبدأ الماءُ يتسرّب إلى داخلها. وكان موسى عليه السلام يرقبُ ما يقوم به

الرجلُ، فساءهُ أن يُقابل صنيعَ الجماعة الذين استقبلوهما بالحفاوة، وأكرموا وفادتهما بالجحود، وخَشي أن يُصيبهم الغرق أو الهلاك، فنسيَ عهدَه، وقطب حاجبيه، ثم قال بلهجة الغاضب:

ـ أتجازي قوماً أكرموا وفادتنا، وأحسنوا لقاءنا ولم يأخذوا منّا أجراً، فتخرق سفينتهم وتعوّضهم عن ذلك بهلاكهم وإغراقهم؟ لقد جئت أمراً عظيماً. . .

التفت إليه العبد الصالحُ ولم يُجِبْهُ على ما قاله، ولكنّه ذكّره بوعده على الصبر والسكوت، وقال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(1).

وأدرك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما وقع فيه من نسيان، فأبدى اعتذاره ونَدَمَهُ وقال:

ـ لا تؤاخذني بما نسيت، ولا تحرمني شرف الصحبة وفضلَ المعرفة. وسألتزم بعد الآن بما عاهدتك عليه.

وغادرا السفينة، وراحا يجوبان النواحيَ القريبة حتى وصلا قريةً فوجدا غلاماً معافىً يلعبُ مع أترابه، وعلى الفور أخذ العبدُ الصالحُ بتلابيبه وجرَّه بعيداً ثم قتله. .

فَهَلَع قلبُ موسى لهذا المنظر وكبُر عنده هذا الأمر، إذ رأى غلاماً يافعاً، قد يكون وحيدَ أبويه ورجاءَ ذويه، يُقتَلُ بلا ذنبٍ اقترَفَه، ويُسفك دمه بلا إثم ارتَكَبَهُ. وهالَهُ أكثر أن يكون هذا العمل على يديْ رجلٍ من أولياء الله، وإمامٍ في العلم والدين.

---

(1) سورة الكهف، الآية: 72.

فلم يقدر على تحمُّل ما رأى، وتحلَّل من عهده، وأبدى استنكاراً وقال:

- ما هذا الذي تأتيه إلا منكرٌ؟ . . . أقتلت نفساً زكيّةً بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً . .

والتفت إليه العبدُ الصالحُ، ولم يزِدْ على تذكيره بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾(١).

ومرة أخرى، يدرك موسى عليه السلام أنه يُثقِلُ على العبد الصالح. وأن الأجدر به أن يتذرَّع بالصبر، ويمسك لسانه عن الجَدَل. . . وخشيَ أن يُبْعدهُ الرجل عن مُصاحبته، فجدَّد العهد على نفسه بألاَّ يعجَل في سؤال، وإن فَعل فإنَّ للعبد الصالح أن يتركه ويصبح في حِلٍّ من مصاحبته، فأبدى عذرَهُ وهو يقول: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾(٢).

وانطلقا من جديد، حتى أدركهما الطوى، ونالَ منهما التعبُ والإعياء. وصادفا قريةً في طريقهما، فدخلاها طمعاً في زادٍ يُعينهُما على السير أو طعام يُمسكهما من الجوع. ولكنّ أهل تلك القرية كانوا على شُحٍّ وبخلٍ كبيرين، وقد زادوا مقتاً بكرهٍ للغريب. فأبَوْا أن يُضيّفوهما وردّوهما ردّاً غير جميل . .

ولما لم يجدا مأوىً ولا طعاماً، خرجا من القرية جائعين. وقبل أن يجاوزاها وجدا جداراً يكاد أن ينقضَّ فأقامهُ العبدُ الصالحُ وأعادَ بنيانه وتدعيمه، وقضى في ذلك وقتاً، وتحمَّل جهداً كبيراً.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٦.

وعَجِبَ موسى لهذا الأمر فقال لصاحبه: لو شئت لاتَّخذتَ عليه أجراً يكون لنا فيه ما يسدّ جوعنا، ويقضي حاجتنا، فإننا في قريةٍ لا يستأهلُ أهلها عمل المعروف والإحسان، وقد رأيتَ من فِعلهم ما يندى له الجبين..

هنا أدركَ الخضر عليه السلام أنه لا بد أن يكون الفراق بينه وبين موسى، ولكنه لا يُريدُ أن يُفارقه قبل أن يُخبرهُ بتفسير ما لم يستطع عليه صبراً، فقال له:

- ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

وراح يُوضِّحُ الحوادثَ التي مرَّت بهما، فقال:

- أمّا السفينة فكانت لأناسٍ مساكين، صالحين، يعملون في البحر، ويصيبون منها رزقهم وهي مصدر عيشهم. وكان وراءهُم ملكٌ ظالمٌ يُفتِّشُ عن كل سفينةٍ صالحةٍ فيأخذها من أصحابها عنوةً وغصباً. فأردتُ أن أعيبَ تلك السفينة رِفقاً بأولئك المساكين، حتى إذا وجدها الملك غير صالحة تركها. وإن أصحابها قادرون على إصلاحها وإعادتها كما كانت.

- وأمّا الغلام فكان شرس الطباع، سيّء الخُلُق، يعتدي على الآخرين بدون وجه حقّ، وكان شريراً ملحداً علمَ الله تعالى أنه غير صالح ولا قابل للإصلاح، وله أبوان مؤمنان، وقد خَشيتُ عليهما، مما فطرا عليه من حب لابنهما، وحنان له، أن يرهقهما هذا الحب، وأن يضنيهما هذا الحنان، بما لا يقويان على مقاومته فينقلبان إلى الطغيان والكفر من غلبة العاطفة الأبوية على ولدهما. وأردتُ أن

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٨.

يبدلهما ربُّهما ولداً خيراً منه زكاةً وأقربَ رُحْماً، فقتلته، رحمةً بالوالدين، وحفاظاً على إيمانهما.

ـ وأما الجدار فهو ملكٌ لِغُلامين يتيمَين في المدينة، وكان أبوهما صالحاً أيضاً، وتحتُه كنزٌ لهما. وأراد ربّك أن يبلغا أشدَّهما، ويستخرجا كنزهما رحمةً منه لئلا ينهار الجدار ويظهر الكنز للناس فيسلبوه من أيدي اليتيمين المسكِينين.

وإن كلَّ ما فعلته لم يكن بأمري، وبطوع إرادتي، ولكنه وحيٌ من الله العزيز الحكيم ألهمني القيامَ به. ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾..

كانت تلك الحوادث عِبَراً كافيةً لموسى عليه السلام، فأيقنَ معها أنَّ الله يرعى عباده بالرحمة، ويحميهم بالرأفة، لا يترك من أمورهم صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ تعهّدها ودبَّرها، لأنه أحصاها في كتاب مُبينٍ، وعلم أمين. فهو يُدبِّر الناسَ بالحق والعدل، فيساعدُ المؤمن، وينصرُ الضعيف، ويهزمُ الكافرَ ويقهرُ الظالم، له ما في السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير..

وإنها لحظاتٌ بيّناتٌ أرادَ الله أن يُرِيَها لنبيّه فينقلبَ إلى أهلِه وقومِهِ، يريهم من آيات الله عجباً، حتى تكون لهم على مرّ الدهور عِظَةً ومثالاً..

موت موسى وهارون عليهما السلام

وجدَ موسى عليه السلام، بعد عودته أن أخاهُ هارون قد توفّاهُ الله أثناء غيابه، فقام على تدبير شؤون قومه، وصلاح حالهم فترةً ما لبث بعدها إلا قليلاً حتى لحق بربّه.. وكانت وفاتُهُ ووفاة أخيه عليهما السلام في

صحراء التيه. ويُقال إن موسى عليه السلام توفّاه الله بعد أخيه هارون بسنة واحدة، وكان قد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة.

لقد عاش موسى عليه السلام حياةً حافلةً بالأحداث. وقد رافقته تلك الأحداث منذ ولادته وحتى الرمق الأخير من حياته، عانى خلالها كثيراً من المصاعب والمحن، وخاصةً ما لقيه من فِتَنِ قومه، فتنة إثرَ فتنة، كان يردّهم بعدها إلى الإيمان، ويهديهم إلى سواء السبيل. وقد جاهَدَ حَقاً في سبيل الله، وكان أخوه هارون نصيره ووزيره، فحلَّت عليهما نعمَةُ الله وكان جزاؤه لهما الثناء الأبديّ، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾[1].

ولم يكن سلامُ الله وهو أعظم نعمةٍ، إلاَّ دليلاً على طاعةِ ذينك العبدين المؤمِنَين، المُصدِّقين لله تبارك وتعالى، وهل جزاءُ الإحسان إلاَّ الإحسان؟.

لقد مات موسى وهارون عليهما السلام، وهما يوصيان قومهما بالإقلاع عن العادات التي أورثهم إياها نقباء بني إسرائيل حتى تنشأ بعدهم ذرّيةٌ صالحةٌ، تكون أهلاً لأن يؤيدها اللّهُ تعالى بالنصر المبين.

ويشاءُ الله أن تتحقّق رغبة النبيّيْن المجاهدين، وتقومَ في بني إسرائيل فئةٌ اتخذت الإيمان سبيلاً، والاهتداء بكتاب الله طريقاً، ففتحَ الله عليها واستطاعت دخول الأراضي المقدَّسة بقيادة يوشع بن نون. وكان ذلك حسب وعد الله تبارك وتعالى، ألا إنه هو العليّ العظيم.

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٢٠ و١٢١.

من المُسلمات التي لا تقبلُ الجدلَ أن الهدف الذي توخّاهُ القرآن الكريم من وراء القصَّة إنما يكمُن في ذلك الأثرِ الذي تدلُّ عليه، والذي يبرزُ في الجوهر والمضمون، أو في السياق والعرض.

فمن ناحية العرض، جاءت القصّةُ الواحدةُ مكررةً أكثر من مرة، وفي مواطن مختلفةٍ ومواضعَ متفرّقة. وهذا واضحٌ في مُعظَم الحالات التي وُجِدت فيها القصة. .

أمّا من ناحية الجوهر أو المضمون، فإن التكرار لا يتناولُ جسم القصّة بكاملها ولا يُعيدُ سياقها برمّتها، وإنما يأتي فقط على ذكر بعض حلقاتها، ووفقاً للمناسبة والظرف، وبطريقةٍ تبدو معها تلك الحلقات وكأنها الأعمدةُ الأساسية للسياق. فهي تنطبقُ عليه تماماً، وتلتحِمُ بتعابيره ومعانيه، حتى تدُلَّ على الغرض منه وتوحيَ بما يريدُ الإيحاء. يقعُ ذلك كله بغير إخلال بالأداء أو نقصٍ في المغزى، بل لعلَّ هذا الذي يقعُ يُبْرِزُ قِيَماً كامِنةً ويُسنِدُ أخرى فنّية بادية.

أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه وحكى فيه القصة مرتين أو أكثر. وفي كل مرة كان لها أثرها المعيّنُ، وإيحاؤها الخاصّ الذي يختلف عمّا سبَقَهُ في المرّات الأولى. وهذه معجزةٌ في فنّ الكتابة، لا يوجد لها مثيلٌ في أي كتاب آخر على الأرض، غير هذا القرآن الكريم الذي أسْلَمَهُ لنا الرسولُ الأعظمُ محمدٌ بن عبد الله ﷺ، وهو رجل أُمّي لم يكن يحسنُ القراءة والكتابة.

ففي قصة موسى نتأمّل لقاءه بكلمات ربّه، ونتأملُ موقفهُ أمام النار المقدَّسة في وادي طوى، حيثُ يحكي الله عزّ وجلّ هذا الحادث

أكثر من مرةٍ. فنراه يملأنا بالخوف والرهبة والجلال حيناً، وبالحبّ والحنان والأمل حيناً آخر. إننا في نفس القصة ومع ذات الأبطال: موسى وعصاه، وليس من تغييرٍ أو تبديل.

كلّ ما حدث هو أن أسلوب القصص القرآنيّ قد أعطانا تأثيراً مختلفاً.

وفي مكان آخر، نرى موسى يذهبُ لتعلُّم أشياءَ يجهلُها ويتتلمذ على يد عبدٍ من عباد الله الصالحين على الرغم من أنه كان نبيَّ عصره ومن أولي العزم. وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى متحدثاً عن موسى وفتاهُ بالآية الكريمة: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾(١).

وسأله موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(٢).

من هو هذا العبدُ الصالح الذي حباهُ الله علماً ومعرفة؟ لقد اختلف الناس على تسميته، ومن يكون؟!.

ولكن لحكمةٍ ما، شاء الله العليُّ الحكيم أن تتجاوز القصة ذكر اسمه إلى حقيقته. وأيّ شيء يُفيد الاسمُ أو الوصفُ الخارجيُّ للرجل لو جهلنا مقدار العلم والرشد اللذين وهبهما الباري له؟ ولذا فإن القصة لم تجعلْ للتدليل الظاهريِّ عليه تقديراً، بل توخَّتْ، وهذا هو غرضها، أن تُصيب كبد الحقيقة التي يبحثُ موسى عليه السلام عنها، وهي العلم والمعرفة. وهذا ما يطلبه أيُّ عبد من عباد الله، كائناً من كان. فكان ذلك الشخص الذي التقاهُ موسى عليه السلام، والذي يقتصر القرآن

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

الكريم على تسميته «عبداً من عباد الله». إننا نرى في هذه التسمية ما فيها من التأكيد على عدم أهمية اسمه، وجنسه، ولونه، وحَسَبه، ونسبه، طالما أنه ليس لهذه العناصر كلها أيّةُ علاقة بالمرمى المقصود، ولا أيٌّ تأثيرٍ على الغاية المرجوَّة.. يكفي أن يكون الرجلُ أحدَ عبادِ الله الصالحين، الذين أوتوا العلم والمعرفة، حتى يعلِّمَ أحد الأنبياء، ويكونَ قد أدّى الغرضَ المرادَ منه.

ونسيرُ مع موسى عليه السلام وهو يُرافقُ هذا العبد الصالح، كي يتعلّم منه ما أراد الله أن يتعلَّمهُ.. وها نحنُ، في هذه المرافقة أمام مفاجئات تُذهلنا.

إن هذا العبد الصالح يخرقُ سفينةً لمساكين يعملون في البحر ويَقتلُ غلاماً صغيراً، ويُقيمُ جداراً كاد أن يهويَ في قرية عُرِفَ أهلها بالبخل ورفضوا إطعامه وإيواءه أو استضافته..

ما هذه الأمور التي يراها موسى عليه السلام بأمّ عينه وهي تحملُ متناقضات شتّى، لم يستطع تأويلها؟

وكيف يُمكِنه تفسيرُ ما يجري؟ ولئن قدر على ذلك فقد انتَفَت الغايةُ من اهتدائه إلى العبد الصالح، وهو رمزُ الفئة التي أولاها الله سبحانه وتعالى علماً ومعرفة.

ولم يستطعْ موسى عليه السلام صبراً على ما يرى. لأن ما رآه كان في ظاهره مغايراً لما يحمل في نفسه من مفاهيم. ثم يُفسّر له العبدُ الصالحُ أسرار الأحداث والوقائع التي مرَّتْ بهما، والتي قام بها ذاك العبدُ الصالح بنفسه، وإذا بالسِّر ينكشف، وبرزَت المفاجآت التي كانت مجهولةً لموسى ولنا.. ولو تقصَّينا عن المواضع التي أورد فيها

القرآن الكريم قصة موسى لوجدناها في أكثر من عشرين موضعاً، وهي أكثر القصص القرآنية تكراراً، لأنها جاءت من أكثر قصص الأنبياء غِنًى، في مُختلف جوانب ونواحي حياة أولئك الأنبياء. .

ورغم هذا التكرار، فإن الحلقات الأساسية في القصّة لم تُعاوَدْ مرّة أخرى كما ذكرنا آنفاً، وإن وردتْ إحدى هذه الحلقات ثانيةً فإنها ترد لتأتيَ بشيءٍ جديدٍ غير الذي عَنَتْهُ من قبل، شيءٍ تحسبه مألوفاً. . فإذا تأمّلته مليّاً وجدت نفسك تمتلىء بتأثيرٍ جديدٍ فيه كل الجدّة، مُدهِشٍ غاية الدهشة، موحٍ بأعظم الإيحاء. فلننظر إذن كيف ذاب الغرضُ الدينيّ في الغرضِ الفنيّ. أو كيف ذاب الغرضُ الفنيُّ في الغرض الدينيّ، فإذا الجمال غايةٌ مستهدفةٌ أو وسيلةٌ مستخدمةٌ في آن معاً. وإذا بآلاف العناصر تأتي في نهاية الأمر بمزيجٍ لا يقدرُ عليه غيرُ خالق الإنسان والجان والملائكة والكون. .

وإليك أيها القارىء ما جاء في سورة «البقرة» من القرآن الكريم عن موسى وهارون عليهما السلام:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ
وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ
وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ
ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞
أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم
مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي

فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ(١) وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ
ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم
مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟
ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ(٢) نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ
كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ

---

(١) عدلٌ: أي فدية، وإنما سمي الفداء عدلاً لأنه يعادل المفتدى ويماثله.

(٢) حِطَّة: أي حُطَّ ذنوبنا، وهو تواضع وأمر بالاستغفار.

يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ
بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى
هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟
وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(١) مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا
فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾
فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا(٢) لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ
أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا
فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ
مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

---

(١) الصابئين: أي كل من انتقل من دينه وصَبَا وحَنَّ إلى دين آخر، فكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره، سمي في اللغة صابئاً.

(٢) نكالاً: تذكرة وعبرة.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ(1) فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ
بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا
لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ(2)
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ
عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن
كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ

---

(١) فادَّارءتُم: أي اختلفتم فيها، وأصل الدرء الدفع، وفيه الحديث: ادرؤوا الحدود بالشبهات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي يبعده.

(٢) أمانيّ: أي أحاديث مختلفة فيها أمانيّ قد لا تتحقّق.

أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم
مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ
وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ
فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن
يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ
مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا
فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ[1] النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

وفي سورة «المائدة»:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وجاء في سورة «الأعراف»:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ[2] عَلَىٰ

---

(١) أحرص الناس على حياة: أي أحرص الناس على البقاء في الدنيا. وكان حرصهم أشد من حرص الناس جميعاً.

(٢) حقيقٌ عليَّ: أي واجبٌ عليَّ أن لا أقول إلاَّ الحق.

أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْۖ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ
وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا
هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا
تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا
جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ

كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ
يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ
﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا
عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا
مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ
لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا
كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ
فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ
ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ
كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ
فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ
عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ
إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ(1) مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾
قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم
مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي
ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ
وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ

---

(١) مُتَبَّر: أي مُدَمَّر.

ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا
وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ
ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ
صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ
﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ
فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ
عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾
وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا
يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ(١)
فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ
بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ
ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ

---

(١) ولما سُقط في أيديهم: أي فلما ظهر فساد رأيهم ومعتقدهم ولحقتهم الندامة.

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا
وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ
أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ
قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن
قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ[1] تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ
وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ .

وفي سورة الأعراف أيضاً:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ[2] ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ
ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب
بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ[3] مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ
وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ

---

(١) فتنتك: أي أن الرجفة ما هي إلا اختبارك وابتلاؤك: أي تشديدك في التعبد والتكليف وأمر بالصبر على ما أنزلته بنا.
(٢) يعدلون: أي يحكمون بالحق والعدل.
(٣) انبجسَ: أي خرج الماء الجاري بقلّة ثمّ أخذ يتسع حتى يصير إلى كثرة.

حَاضِرَةَ(١) ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي(٢) ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ
سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا
شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا
ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً(٣) خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

وفي سورة «يونس»:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ
سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

---

(١) القرية التي كانت حاضرة البحر: هي إيلات، وقد كانت تدعى: أيلة، سابقاً.

(٢) يعدون في السبت: أي يظلمون ويعتدون فيه بصيد السمك إذ تأتيهم حيتانهم ظاهرة على وجه الماء رافعة رؤوسها لأنها كانت آمنة يومئذ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، وقيل إنهم كانوا يلقون الشباك في الماء يوم السبت حتى يقع فيها السمك ثم يخرجون الشباك يوم الأحد.

(٣) كونوا قِرَدَة خاسئين: أي أنَّ الله سبحانه وتعالى مسخهم وجعلهم قِرَدة مبعدين مطرودين ثم أهلكهم جميعاً بعد حين ولم يتناسلوا أبداً. والرسول ﷺ يقول: إن الله تعالى لم يمسخ شيئاً وجعل له نسلاً وعقباً.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ
أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت
دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ
ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ(١) بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

وفي سورة «هود»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ

---

(١) ننجيك ببدنك: أي نخرج بدنك من البحر سالماً لتكون آية لمن بعدك. وهذه الآية قد ظهر إعجازها في القرن العشرين عندما أوشك بدن فرعون الموجود في متحف القاهرة أن يهترىء فهيأ الله له طبيباً فرنسياً نقله إلى فرنسا وأعاد تحنيطه وأرجعه إلى متحف القاهرة. فظل بدن فرعون: الآية التي أرادها الله تعالى للناس قائمة لآلاف السنين حتى يدركوا معاني قدرة الله تعالى.

ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ(١) ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ(٢) ﴿٩٩﴾ ﴾.

وفي سورة «إبراهيم»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ(٣) أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا

---

(١) الوِرْدُ المَوْرُودُ: الوِرْدُ هو الذي يخمد لهب الصدر ويروي الحشا العطشان بعذب الماء من المنهل السائغ. وأمّا إذا تبدّل إلى عذاب النار فبِئس الوِرْدُ وبئس المورود.

(٢) الرِفد المرفود: الرفد هو العطيّة والأصل في معناه العون، وسميت العطية رفداً، ومرفوداً لأنه عون لأحدٍ من الناس على حوائجه. والمعنى بئس الرفد رفدهم يوم القيامة، وهو النار التي يُسْجَرون فيها.

(٣) فردُّوا أيديهم في أفواههم: أي كأنما وضعوا أيديهم على أفواه الرُّسُل مومئين بذلك إلى أن اسكتوا وكُفُّوا عمّا تدعوننا إليه.

فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا
سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي سورة «الإسراء»:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ
فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا[1] ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن
يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

وفي سورة «الكهف»:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ[2] الْبَحْرَيْنِ أَوْ
أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
سَرَبًا[3] ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا

---

(١) مجمع البحرين: هو ملتقى نهر النيل بالبحر المتوسط عند مصبه.

(٢) مثبوراً: أي هالكاً يستحق أن ينادى عليه بالويل والثبور.

(٣) سَرَباً: أي مسلكاً.

﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ
أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا
عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا
لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا
تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا
فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ
فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً
وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ
لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ❁ .

وفي سورة «مريم»:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

ومن بعدها فقد جاء في سورة «طه»:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ(١) ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ

(١) يُخبرُ الله تعالى النبيَّ محمداً ﷺ بما يفيد في لهجة الخطاب: هل سمعت بخبر موسى إذ فارق مدين وكان أهله بصحبته ومعه غنم له وبغلة على ظهرها بعض الأثاث فضلَّ الطريق في ليلة مظلمة وتفرّقت ماشيته، وكانت امرأته في الطَّلق فرأى ناراً من بعيد كانت عند الله نوراً وعند موسى ناراً فقال لأهله أي لزوجته بنت شعيب عليه السلام وأولاده: امكثوا أي ألزموا مكانكم. والفرق بين المكث والإقامة أن الإقامة تدوم والمكث لا يدوم، إني أبصرت ناراً لعليّ آتيكم منها بشعلة أو أجد على النار هدى أي هادياً لأن النار لا تخلو من أهل وأناسٍ عندها. فلما أتاها فإذا النار في شجرة عناب فوقف متعجّباً من حسن ضوء تلك النار وشدَّة خضرة تلك الشجرة وسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً لله تعالى كما رأى أن الخضرة لم تطفىء النار ولا النار تحرق الخضرة فنودي: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طوى. فقال موسى: إني أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ فقال أنا فوقك ومعك وأمامك وخلفك وأقرب إليك من نفسك. فعلِمَ موسى أن ذلك لا ينبغي إلا لربه عزَّ وجلّ وأيقن به.

فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾
قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ
بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن
لِّسَانِي(١) ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ
بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ
كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ
﴿٣٧﴾ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ
ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ
﴿٣٩﴾ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ
عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ
مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ
بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ
يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا
تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾

---

(١) أي وأطلق لساني من العقدة التي هي فيه حتى يفقهوا كلامي. وكان في لسان موسى عليه السلام لثغة لا يفصح معها بالحروف، بسبب إحراق لسانه بالجمرة، وذلك أنَّ فرعون أراد قتله لأنه أخذ بلحيته وشدَّها. فقالت امرأة فرعون آسية بنت مزاحم: لا تفعل فإنه صبيّ لا يعقل وعلامة جهله أنّه لا يميز بين التمرة والجمرة. فأمر فرعون فأحضروا تمرة وجمرة ووضعوهما بين يديه فأخذ موسى الجمرة ووضعها في فيه فاحترق لسانه.

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ
﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ
﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ
شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا
فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ
بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾
قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم (1) بِعَذَابٍ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ
هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ
﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ
إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ
إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ
ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

(١) فيُسْحِتَكُم: أي يستأصلكم.

قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى
هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ
وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
(٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّٰتُ
عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ
(٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا
هَدَىٰ (٧٩) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟[1] فِيهِ فَيَحِلَّ
عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢) ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ
أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا[2] قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ
وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ
رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى (٨٦) قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن

---

(١) ولا تطغوا فيه: لا تتعدوا فيه فتأكلوه على الوجه المحرم عليكم. أي لا تتجاوزوا الحلالَ إلى الحرام.

(٢) فإنا فتنّا قومك من بعد انطلاقك وأضلّهم السّامريُّ: أي دعاهم إلى الضلال فقبلوا منه وضلُّوا عند دعوته لهم، فأضاف الضلال إلى السامريّ والفتنة إلى نفسه ليدلّ سبحانه على أن الفتنة غير الضلال لأن معنى فتنا قومك أي عاملناهم معاملة المختبِر المبتلي الممتحِن ليظهر المخلص منهم من المنافق فيوالي المخلص ويعادي المنافق.

زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ
فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا
يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ
أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ
سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ(١)
وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ
لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

وفي سورة «المؤمنون»:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا
عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي سورة «الشعراء»:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ

(١) لامساس: أي أن الله تعالى أمر موسى بأن لا يخالط قومُهُ السامريَّ ولا يجالسوه ولا يؤاكلوه، فليس حسابه في الدنيا بل في الدار الآخرة.

(١١) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ
إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا
مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ (١٥) فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٦) أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلۡتَ
فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٢٠)
فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (٢١) وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ (٢٢) قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمۡ
وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ (٢٧) قَالَ رَبُّ
ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي
لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ (٣٠) قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٣١) فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ
بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ
أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ
(٣٦) يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ (٣٧) فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ
(٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ
(٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ
وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ
وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (٤٥) فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ

مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ
ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟
لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ
فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا
لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ
ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ
ٱلْءَاخَرِينَ[(١)] ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

وفي سورة «النمل»:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن
ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا
مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ

(١) وأزلفنا ثم الآخرين: أي قرّبنا فرعون وقومه من البحر حتى دخلوا الطرق التي شققناها فيه، فأغرقناهم.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾.

وأيضاً ما جاء في سورة «القصص»

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ(١) أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

---

(١) وأوحينا إلى أم موسى: أي ألهمناها وقذفنا في قلبها أن أرضعيه ما لم تخافي عليه القتل من فرعون وأعوانه. فإذا خفت عليه من القتل الذي أمر به فرعون في بني إسرائيل فألقيه في اليم: أي في نهر النيل ولا تخافي عليه الضياع، ولا تحزني من فراقه، إنّا رادُّوه إليك سالماً عن قريب وجاعلوه من المرسلين

وفي هذه الآيات، كغيرها من آيات القرآن الكريم، بلاغة خلَّدها التاريخ. فقد سمع بعضهم بدوية تنشد أبياتاً من الشعر فقال لها ما أفصحك! فقالت أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قالت: أرأيت ما فيه من الفصاحة البالغة؟ ولو قرأت لما لقلت لي ما أفصحك. . ، قال: بالله عليك أشيري لي إلى شيء من فصاحة القرآن، فتلت عليه الآية «وأوحينا إلى أم موسى». . الآية. قال: أين الفصاحة في هذه الآية؟ فقالت: إن الله سبحانه وتعالى وضع فيها خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين. اسمع قوله تعالى وهو يخبرنا بقوله: وأوحينا إلى أم موسى فهذا إخبار من الله لنا بأنه ألهم أم موسى. أن أرضعيه، وهذا أمر، وإذا خفت عليه، أي من القتل الذي أمر به فرعون فهذا خبر ثان، فألقيه في اليم، فهذا أمر ثانٍ، ولا تخافي فهذا نهي، ولا تحزني فهذا نهي ثان، إنا رادوه فهذا إليك بشارة، وجاعلوه من المرسلين، بشارة ثانية. فيكون الله سبحانه وتعالى قد نسج في هذه الآية خبرين وأمرين ونهيين وبشارتين. .

﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ
وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي
بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ
فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ
فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ
إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ
يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ
رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ(١) بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ
نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ
لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ

---

(١) فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، أي: أنَّ الإسرائيليَّ الذي كان موسى عليه السلام قد خلَّصه بالأمس حين وكز القبطيَّ من أجله، جاء يستعين به على رجل آخر من القبط خاصمه. فقال له موسى: إنك لغويٌّ مبين: أي ظاهر الغواية حيث قاتلت بالأمس رجلاً وتقاتل اليوم آخر.

ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ
مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ
وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ
إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا
تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ
مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ
عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ
عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا
ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ
مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ
ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ(٢)
﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ

---

(١) تذودان: أي تمنعان غنمهما من الورود إلى الماء، فقال لهما موسى: ما خطبكما: أي ما شأنكما وما لكما لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: لا نسقي عند المزاحمة حتى ينصرف الناس لأننا لا نطيق المزاحمة، فنتظر فضول الماء، وأبونا شيخ كبير لا يقدر أن يتولى السقي بنفسه ولذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي الغنم بعد أن يفرغ جميع الرعاة. . . فسقى لهما: معناه أن موسى عليه السلام سقى غنمهما ثم تولى إلى شجرة فجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع فقال: ربي إني لما أنزلت إليّ من خير فقير. قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: «والله ما سأله إلا خبزاً يأكله لأنّه كان يأكل بقلة الأرض طيلة سيره من مصر إلى مدين».

(٢) تصطلون: أي تستدفئون.

أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ(١) يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ
﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ(٢) فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا
فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى
هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ
إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ
غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ
مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ
فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ
عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ

(١) يُعَقِّب: أي لم يرجع إلى ذلك الموضع.

(٢) أسلك يدك: أي أدخل يدك.

لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ
أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ
يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ
مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وفي سورة «الأحزاب»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ
عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

وفي سورة «الصافات»:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ
ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

وفي سورة «غافر»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا
فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ
دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ
ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ
ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ
إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[١] ﴿٣٢﴾ يَوْمَ
تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ
مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

---

(١) يوم التناد: هو يوم القيامة يوم يُنادى فيه كل أناس بإمامهم.

﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ(١) ﴿٣٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا
يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ
مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ(٢) أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وفي سورة «الزخرف»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ
أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ

---

(١) تباب: أي هلاك.

(٢) لا جرم: أي حقاً منوطاً به.

يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ
ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا
يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
مُقْتَرِنِينَ[1] ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ
ءَاسَفُونَا[2] ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

وفي سورة «الدخان»:

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟
إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ
﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ[3] ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ[4]
ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا
بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ
عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

---

(١) مقترنين: أي متعاضدين متناصرين.

(٢) آسفونا: أي أغضبونا.

(٣) ترجمون: أي ترموني بالحجارة، ولكن الرجم الذي استعاذ منه موسى عليه السلام هو الشتم.

(٤) واترك البحر رهواً: أي منكشفاً منفتحاً، أي ساكناً على ما هو به إذا قطعته وعبرته، لأن لنا بذلك أمراً، حين نُدخل فيه فرعون وقومه فنغرقهم.

وفي سورة «الذاريات»:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

وفي سورة «الصف»:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ
ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

وفي سورة «النازعات»:

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل
لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ
نَكَالَ(١) ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) نكال الآخرة والأولى: أي أن الله أغرقه في الدنيا وسيعذبه في الآخرة ليذوق العذابَ والبطشَ في الدارين..

ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل عليه السلام

يُقال إن ذا الكفل كان رجلاً يدعى عويدايا بن ادريم، ولُقِّب بذي الكفل لأنه تكفَّل لملك جبار إن هو تاب دخل الجنّة، ودفعَ إليه كتاباً بذلك فتاب الملك. وكان ذو الكفل أحد أبناء قوم لنبيٍّ من بني إسرائيل، فلما كَبُرَ هذا النبيُّ وبات عاجزاً عن رعاية شؤون قومه طلب أن يستخلف رجلاً منهم يعملُ بين الناس في حياته، حتى ينظر كيف يعمل وماذا يصنع. وقد جمع إليه الناس وقال لهم: من يتقبّل منّي ثلاثاً فأستخلفه من بعدي على الناس وهي: أن يصومَ النهار، ويقومَ الليل، ولا يغضب.

فقامَ رجلٌ من عامَّةِ الناس فقال: أنا لها يا نبيّ الله، أصوم النهار، وأقوم على عبادة الله ليلاً، ولا أغضب من بني قومي في معالجة شؤون حياتهم..

وهكذا بعثه الله تعالى نبيّاً، يقضي بين الناس كما أراد الله، وكان لا يغضب إلاّ لله عزّ وجلّ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾[1].

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٥ و٨٦.

وفي هذه الآية الكريمة ما يوحي بأن ذا الكفل، قد لاقى أيضاً من بني قومه معاناة شديدة، ولكنه صبَرَ على أذيَّتهم، فكان جزاءُ الله له إدخالَه في رحمته وفي عباده الصالحين. وهل أفضل من هذه النعمة العظيمة أن يَمُنَّ الله على عبدٍ من عباده، فيجعله من الفئة الصالحة، التي تعمل عملاً صالحاً، تُؤتى فيه أجر الآخرة، وتكون في عداد من شملتهم رحمة الله سبحانه وتعالى بالجزاء الأوفى، وهو الجنة.

إنه ذكر قرآنيّ، وهو شرفٌ لأولئك الصالحين، يُذكرون به في الدنيا أبداً، ولهم حسن مآبٍ يرجعون إليه في الآخرة، ينتظرهم ثواب الله ومرضاته في جنّات عدنٍ مفتّحة لهم الأبواب يدخلونها آمنين مطمئنين.

ولذي الكفل عليه السلام مقامٌ يُزار، على مقربة من الكوفة في أرض العراق، وهو معروف لدى العام والخاص هناك.

داود عليه السلام

داود عليه السلام

من أخبار بني إسرائيل في الماضي البعيد أنهم كانوا يضعون في مرتبة المقدسات تابوتاً له شأنٌ كبيرٌ في حياتهم. وقصةُ هذا التابوت أنه كان يحوي بقيةً من آثار موسى وهارون عليهما السلام كعصا موسى وسواها. قال الله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾[1]. وكان يُحمَلُ في القتال أمام الصفوف رايةً للجند، وعَلَماً للجيش. ومن عجيب الأمور أن هذا التابوت ما رُفِعَ في معركة إلاّ وحالَفَ أصحابه النصر، ولحقت الهزيمة في نفوس أعدائهم، قبل أن تلحقَ بجيوشهم..

وعندما تخلّى بنو إسرائيل عن شريعتهم، وشَكُّوا في أمر هذا التابوت جاءهم الخسران ولحق بهم الذُّلّ والهوان.. فقد غزاهُم الكنعانيون في عُقْرِ دارهم، فغلبوهم على أمرهم، وأخرجوهم من بلادهم، وحالوا بينهم وبين أبنائهم، وكانت خسارتُهم الكبرى التابوت.. فتشتّتوا من بعده، وتصدّعت وحْدتهم، إلى أمدٍ طويل.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

وبُعِثَ في جماعةٍ منهم نبيّ اسمه صموئيل. كان همُّهُ أن يجمعَ شملهم من جديد، ويؤلّف بين قلوبهم، حتى يعودوا إلى سابق عهدهم من المنعة والاتحاد..

ولم يَطُلِ العهدُ بصموئيل حتى تحقَّق له ما أراد. فأعادَ اللُّحمة إلى أولئك القوم، بعدما سعى إلى الوفاق حثيثاً، وعَمِلَ على نَبْذ الخلاف سريعاً..

أخلَصَ لهم الرأي فأحبّوه، وصَدَقَ معهُم القول فسمعوا له.. واختار مجموعةً من الرجال من ذوي الخبرة والتجربة، ليكونوا عوناً له في الشؤون التي يتدبرها، وفي القضايا والأمور التي يخطط ويرسم لها. وقد جاؤوه يوماً قائلين:

- أيها النبيّ، لقد كنت لنا عوناً في المأساة، ومرشداً في الملمات، وقد جئناك اليوم بطلب أمرٍ جليل، فأسْدِ لنا الرأيَ الحصيفَ وأخلص لنا النُّصْحَ كما أَلِفناك..

قال لهم صموئيل:

- أبذل جهدي إن شاء اللهُ تعالى..

قال كبيرهم:

- إننا نرجو خير الأمة، وصلاحَ حالها. وقد قَدِرْتَ بثاقب فِكرك، ونور بصيرتك أن تُبْعِدَ عنّا الضياع والفُرقة. ولكنَّ ذلك لم يرجع لنا سابق العهد من القوّة والسلطان. فهل نبقى على هذه الحالة قائمين، وبمثل هذا الوضع قانعين؟.

وسألهم صموئيل:

- وماذا ترومون؟

قالوا:

ـ أن تختار ملكاً على بني إسرائيل، يكون ذا قوّةٍ وبأسٍ، قادراً على رصّ الصفوف، ومؤلِّفاً للجيوش، علَّهُ يقودنا إلى النصر فنستعيد مجدنا وعزَّتنا. .

وكان صموئيل يعرفُ هؤلاء القوم حق المعرفة، فقد عَجَمَ عيدانهم، وسبرَ أغوارهُم، وأدركَ مواطن القوَّة والضعف في نفوسهم. . وكان يعلمُ علم اليقين أن فئةً قليلةً منهم تنزعُ إلى القتال، وترغبُ في الانتصار، ولكنَّ أكثرهم غير عابىء بأمور الأمة، لأنه يَرغبُ في النفع الخاص، ويؤثر السكينة والدّعة. وهذا ما كان صموئيل يخشاهُ من القوم. ولكن طالما أن هذه الجماعة من الرجال قد جاءتْ تطرحُ مصيرَ الأمة، فعليه أن يحذر من سوء المغبة، وعدم التمادي في التفاؤل. فقال لهم بصوتٍ هادىء رزين:

ـ يا قوم! إني أتوقّعُ تواكلكم إذا دُعيتُم للجهاد، وأخشى تخاذلكم إذا نوديتُم للقتال، فحذارِ من التسرُّع في هذه الأمور، والانقياد وراء نزعات الجهل والغرور! . .

وأجابوه:

ـ وهل فينا من لا يُريد رفع الذِّلَّة، ودفع العار؟! . .

ـ إن شئتم الصدق، نعم، وهم كثيرون.

ـ لا نخالُ القوم على ما تقول أيها النبيّ، فهم لم ينسوا البلاء الذي حاقَ بهم، ولم يتخلصوا من الشدَّة التي نزلت عليهم.

ـ إن ميلهم للكسب أكثر من حبّهم للجهاد. .

ـ إذن نحن على حقّ بما جئناك به.

ـ لم أقُل إنَّكم غيرُ مُحِقِّين، ولكنّي أُحذِّر مما في نفوس القوم حتى لا نقع بسوء التسرّع والجهالة . .

ـ ليس من حالة أسوأَ مما نحن فيه، ولا من ذُلٍّ أشدَّ مما لقيناه، فاعزم أمرك على اختيار ملك لنا . .

وعندما رأى صموئيل إلحاحهم، عاد يقول لهم مصارحاً :

ـ دعوني أستخيرُ الله في أمركم، وأستوحيَه في شأنكم. ولا تظنّوا أن الاختيار سيقع حتماً على واحدٍ منكم، فإن أوليتموني هذا العهد، فسوف أولّي عليكم الملك الذي يختاره الله، فهل أنتم راضون؟ .

ونظر الجماعةُ بعضهم إلى بعض، وكأنما أُسقِط في أيديهم، فهزّوا رؤوسهم وصعَّروا خدودهم، ولوَوْا أعناقهم آسفين، مما جعل صموئيل يقوم من بينهم، وينفرد بعيداً عنهم . . ولكنه بعد تفرّقهم عنه، صعد إلى جبلٍ قريب، كان يؤُمُّه باستمرار، وهناك قام مُصلّياً، مُعتكفاً، متضرعاً عدة أيّام وليالٍ، منتظراً أمْرَ ربه، فإذا بالوحي ينزل عليه، ليبلّغه بأن الله تعالى قد استجاب سؤله واختار طالوتَ ملكاً على بني إسرائيل. وعليه أن يأخذه إليهم، ويولّيه عليهم، وسوف لا يكون من الخاسرين.

واقشعر صموئيل لاستجابة الدعاء، ولكنه تمالَكَ نفسه وقال:

ـ وكيف أهتدي إلى مختار الله طالوتَ، وأين ألقاهُ؟

فأتاه الوحي :

ليس هذا من شأنك يا صموئيل . . . وحتى تحين الساعةُ سوف تلقى طالوتَ وتعرفه.

وسكنَتْ نفسُ صموئيل وقد استجاب الله تعالى لضراعته، فعادَ إلى بيته هانئاً، قريرَ العين.

وجاءهُ القوم يسألونه ماذا فعل، ولكنه آثر الاحتفاظ بالسِّر لنفسه، حتى يبعث الله إليه طالوتَ، فردَّهم عنه، بتؤدة وأناة، وهو يطلب إليهم التريّث والانتظار..

ودأب صموئيل منذ أتاهُ الوحيُ على الصعود إلى الجبل، للاختلاء بنفسه، والتأمل في هذا الكون الفسيح، وما هو عليه من دقَّة وانتظام، وكان كلما أمعنَ تفكيراً وتبصراً، ازداد إيماناً. وظل يمضي أكثر أوقاته في هذا الجبل، لا يحفلُ إلا بالتأمُّلِ، ولا يُشغِلُ نفسه إلاَّ بالتعبُّد. ولكنْ، بعدما جاءه الوحي وبُشِّرَ بطالوتَ وافاهُ ترقُّبٌ جديدٌ، دخل خاطرهُ، وشَغَلَ حيّزاً كبيراً من فكره وقلبه، إذ كان يشعر بأَنَّ لقاءَ الملك سوف يكون في هذه البقعة من الأرض، ولذلك استمر في المجيء إلى الجبل..

ظهور الملك طالوت

وفي أحد الأيام، وبينما كان صموئيل في خلوته في البرية، رأى شخصين يتقدّمان نحو الجبل، وقد اقتربا حتى صارا على مرمى النظر منه. وأحسَّ بشعورٍ غريبٍ يَشُدُّهُ إليهما، فوقف ينتظر وصولهما بفارغ الصبر. وما إن صارا قبالته حتى اندفع نحوهما، يلقاهما بالتحية، ويستقبلهما بالترحاب.

وردَّ أحدهما السلام بأدبٍ جمٍّ وقد آنس من الشيخ لطفاً ووقاراً. وما كاد يفرغُ من ردِّ التحية حتى بادره صموئيل قائلاً:

- هل يمكن أن أعين على حاجةٍ تُريدان قضاءها؟

وأجابه الرجل:

ـ نعم أيها السيد الجليل، لقد أضعْتُ بغلَةً وما فتئتُ وفتاي، منذ الصباح، نبحثُ عنها في البراري، حتى قادتنا طريقنا إلى هذا الجبل..

وردَّ صموئيل بالقول:

ـ إن دابّتك لن تضيعَ بإذن الله، فلا تقلقنَّ بالاً عليها.

ثم دعاه وفتاه للقعود بجانبه، حتى يزولَ عنهما الجهد والتعب.. ووجدا في دعوته ما يمنحهما راحةً فافترشا الأرض، وهما يعجبان من أمر هذا السيد، وترحابه بهما على هذا النحو..

قدَّم لهما بعض الماء فشربا حتى الارتواء، وكان العطش قد أخذ منهما كل مأخذ. وبعد قليل، وبحبورٍ بادٍ على محياهُ، نظر صموئيل متفرِّساً في وجه الرجل، وهو يسأله:

ـ ألا تُخبراني من أنتما، ومن أين أتيتما؟

وأجابه الرجل:

ـ إني طالوت، وهذا فتايَ. أقيمُ مع أبي في قرية من قرى الوادي البعيد. أرعى الماشية، وأحرث الأرض، وأجتني الزرع، وقد أفلتت بغلةٌ لنا هذا الصباح من عقالها في المرعى، وما زلنا نبحث عنها حتى أنهكنا المسير وأضنانا التعب.

وما إن سمع صموئيل اسمه، حتى أمسَك براحتيه، يشدّهما إلى صدره، وهو يقول:

ـ لقد حلَّ وعد الله، وهداني إلى ملك بني إسرائيل المختار..

ذُهِلَ طالوت من قول السيد، وحارَ بما يُجيب... وتفكَّر مليّاً وهو يُسائلُ نفسهُ:

«ما يقول هذا السيد؟ لعلَّ مسّاً من جنون قد خالط عقلهُ حتى دعاه بالملك.. مسكين هذا الرجل، فأنّى لطالوت أن يكون ملكاً وهو ابن بنيامين، أدنى الأسباط قدراً، وأقلّهُم مالاً.. لقد أخطأ هذا السيّد رَجُلَهُ، وظنّني إيّاه، فتبّاً للإنسان إن اشتطَّ به الفكر أو داخَلَ ذهنه الخَبَلُ».

وبالرغم من الدهشة التي اعترته، والذهول الذي شَطَحَ به إلى البعيد، فقد أراد أن يواسيَ هذا السيد في ظنّه، وأن يُذهِبَ عن فكرِهِ بعض الغموض، فقال له بكياسةٍ ولباقةٍ:

ـ لعلّك لم تعرفني يا سيدي. أنا ابن فلاح مسكين، قابعٌ مع أبي في مهاوي النسيان، فلا جاه لنا ولا حديث يُذاعُ بين الناس عنا، ولا معرفة لنا بالقوم، ولا علم لنا بهم.. أنا طالوت أيها المحترم، فهل نسيتَ اسمي وقد ذكرتهُ لك منذ قليل؟!.

وردَّ عليه صموئيل بلهجة الواثق المطمئن:

ـ أنت طالوت، وأنت ملك بني إسرائيل. لقد اختارك الله لتجمع كلمتهم، وتحزم أمرهم، وتدفعَ عنهم أعداءهم. وإنك سوف تقودُهُم إلى النصر بإذن الله على جميع الأعداء.

وعادت الدهشةُ إلى طالوت أكثر من ذي قبل، وأجاب هذا الرجلَ بجديَّة ورصانة:

ـ هل تعني ما تقول أيها السيد؟

ـ نعم أيّها الملك!...

ـ وتقولُ أيّها الملك!. . هذا لعمري نسج خيال إن لم يكن وهماً!. .

ـ لست متوهماً، ولا أنا ممن يلقي الكلام على عواهنه. . . أنا نبيّ الله صموئيل، ولا أنطق عن الهوى. .

ـ أنت النبيُّ صموئيل؟! عفوكَ يا سيّدي، وحاشا لمثلك أن يُدنَّس أو يُهان. . أرجو أن تُسامحني على زلَّة لساني. .

ـ لستَ مُؤاخذاً يا بنيّ، ولكني ما عَنيتُ إلا الحقيقة والصدق.

ورغم عجب طالوت لقول النبيّ صموئيل، إلاَّ أنه تماسك وقال له:

ـ أمثلي يكون ملكاً على بني إسرائيل، وأنا الإنسانُ البسيط الذي لا خبرة له في القيادة أو الرئاسة!. . بالله خلِّ عنك هذا القول أيها النبيّ الحكيم، وفتّش عن الرجل الذي يليق بالمُلك، ويكون أهلاً للسلطان. .

وردَّ عليه النبيّ مهدّئاً:

ـ بل أنت رجل الله يا طالوت، وملك بني إسرائيل. فأقبلْ على مُلكٍ آتاكَ الله تعالى إيّاه، وعلى نعمةٍ أولاها الوهّاب الكريم لك.

ـ إذن أنتَ تقول الحقّ. .

ـ والحق من عند الله. .

ـ وكيف سبيلنا إلى القوم.

ـ إني سبيل معرفتك إليهم. فهيّا بنا، على بركة الله.

. . ورأى بنو إسرائيل النبيّ قادماً من الجبل، وبصحبته رجل وفتى، فأقبلوا عليه يسألونه، كعادتهم، عن الجديد في أمرهم، وهم

يتوقَّعون أن يصرفهم بإشارةٍ من يده، كما يفعل دائماً، كدليل على عدم رغبته في البحث عما يريدون. إلا أنه لم يُفرِّقهم هذه المرة عنه، بل طلب إليهم التنادي والاجتماع في داره.. ولبّى القوم النداء، وجاء وجهاء بني إسرائيل وسادتُهم، يسعون إلى صموئيل، وفي نفوسهم شوقٌ إلى ما يقول، وتوقٌ إلى ما يرغبون..

غصَّت الدار بالناس، فوقف بينهم خطيباً وقال:

- يا أبناء إسرائيل لقد دعوت لكم الله فكانت له إرادةٌ ووحيٌ.

ثم يُشير إلى طالوت الذي بجانبه، ويمسك بيده ويرفعها ثم يتابع فيقول:

- انظروا جيّداً إلى هذا الرجل، وتأمّلوا مليّاً هذا الطول الفارع، والبنية القوية. إن بين جنبيه جناناً ثابتاً وعقلاً ذكيّاً. إنهُ طالوتُ الملكُ، مبعوثُ الله إليكم، فبايعوه بالملك، وانصروه ينصركم الله، وأطيعوه لا يخذلكم.

حدَّق القوم في الرجل طويلاً، وتأمّلوه مليّاً، وتفرَّسوا في قسماته وملامحه، فلم تبدُ لهم إلاّ القوَّة والبأس، ولم يظهر إلاّ الحزم والعزم.. ولكنهم راحوا يتهامسون فيما بينهم، ويشيرون إلى صموئيل تارةً، وإلى طالوت تارةً أخرى. حتى مرَّ بعض الوقت، فقام أحدهم وقال بأعلى صوته:

- كيف يكون هذا الرجل ملكاً علينا، وهو في النسب غير عريق، وفي المال غير وجيه؟ وأين هو من أبناء لاوي فرع النبوَّة، وصرح الرسالة، ومن أحفاد يهوذا معدن الملك، وأصحاب الرئاسة!..

وبعد توقف قليل تابع قائلاً:

- أيّها النبيّ! نحن بنو إسرائيل لا نعرف نبوَّة، ولا مُلكاً إلاّ لذينك الفرعين، لهما وحدهما الميزة على أبناء سائر الأسباط فينا.. وقد تشاور القوم في أمر رجُلك هذا، فما علمنا أن له عشيرة يحفظ بها الملك، ولا مالاً وجاهاً يُقوِّي بهما الجندَ، فهل نقبل به سيداً علينا، وفينا كل صاحب سطوة ونفوذ، وكل ذي ثروة ومال وفير؟!.. لقد عزمنا ألاّ نقبل بمن لا يُدانينا كفاءةً في العزَّة والسؤدد..

ثم علا اللغط في المحفل، وارتفع الضجيج، وكأن القوم في هرجٍ ومرجٍ..

وصبر عليهم صموئيل قليلاً من الوقت، ثم وقف ونادى بأعلى صوته:

- يا أبناء إسرائيل، إن الله قد اختار طالوت ملكاً عليكم، لأنه أعلم بالمصالح وأعرف بالعواقب، فإن تَنْفروا منه أو تجافوا الرجل، فإنكم تخالفون ما أراده الله تعالى. وأنتم والله أُوذيتم في نفوسكم، وأبنائكم، ودياركم، بما فيه كفايةٌ من الذلّ والعار، وها قد حان الوقتُ لرفع هذا الكابوس الكبير، فهل تَبْقَون تحت وطأته، ولا نعلمُ فيما إذا كانت العاقبة أشدّ وأدهى؟.

وصمتَ القومُ لمقالتِه، وراحوا يتشاورون فيما بينهم بهدوء ورويّة، وبعد لحظاتٍ وقف شيخٌ منهم وقال:

- أمّا أنا وعشيرتي، فإننا نرضَخُ لحكم الله، ونبايعُ طالوتَ ملكاً..

وأعقبه سيّدٌ آخر في قبيلته، وقال:

ـ إن أمر الله لا محيد عنه، ولا مناص من الركون إليه، ونحن نبايعُ طالوتَ ملكاً. . .

وتوالت المبايعات حتى لم يبقَ في الجمع إلاَّ فئةٌ قليلةٌ، فوقف واحدٌ منها وقال:

ـ يا صموئيلُ، إن كنت على حقٍّ بأن صاحبك هو رجل الله، فأْتِنا بآيةٍ تدلُّ على بعثه! . .

وردَّ النبيُّ على الفور:

ـ لقد عرف الله لجاجَكم وعنادَكم، فأوحى إليَّ بالعلامة التي تنشدون. إنَّ موعدكمُ الفجرُ، وما الفجرُ ببعيد، فاذهبوا مع صياح الديكة إلى ظاهر المدينة، وستجدون التابوت الذي فقدتم موضوعاً على الأرض. .

وهبَّ كل من كان في الجمع واقفاً، وهو يصرخ:

أيعود لنا التابوت؟! . .

وأعلن صموئيل:

ـ إنه الدليلُ على أن النصرَ سيأتي على يدي ملككم طالوت. .

ولم يَنَم القوم في تلك الليلة، وباتوا في الأرق والسهر، حتى حانَ الموعد الذي ضربه صموئيل، فإذا الناس كلهم يُهرعون، يتدافعون ويتراكضون، وفي نفس كلٍّ منهم لهفةٌ، وفي قلبه أملٌ ورجاء. . وكانت الآيةُ، ووقفَ الزحفُ بين مُشرَئبٍّ بعنقه بالدعاء إلى الله تعالى، وبين ساجدٍ على الأرض بالشكر له سبحانه، وهم يرون تابوتهم قد عادَ إليهم، فأيقنوا أن طالوت هو الملكُ الموعود، وعادوا إلى بيت صموئيل، يُبايعونه جميعهم من جديد، ويقُرّون له بالحكم والقيادة. .

وأسّس طالوت حكمه على العدل السويّ، والحزم القويّ . . ويادَرَ لتأليف جيشٍ قادرٍ، فأعلن في القوم أنه لا ينتظم تحت رايته إلا من كان خلواً من الهواجس، خليّاً من الصوارف . . فمن شرعَ في بناءٍ وما أتمّه، أو خطب عروساً ولم يتزوجها، أو كانت له تجارة أو صناعة أو زراعة لم يُكملها، فدونه شاغِلُهُ، ومتى فرغ منه، وآنسَ صفاءً في الذهن، وراحةً في النفس، وخلواً في البال فليأتِ للدخول في الجيش، وأن يكون عن قناعةٍ ورضىً، لا عن ضيق وتبرّم . .

إنها الحنكةُ بعينها، وهو التصوّر الصائب، والتدبير المحكم . . ذلك أن مراد طالوت كان تأليف جيش خال من الهموم التي تشغله، ومن الأعباء التي توهنه، فإن أنشأه على هذه المقومات، فقد يضمن به النصر المؤزّر لبني قومه . . وإلاَّ فإنَّ فقدان الجيش لأساسه المتين يُبقي بني إسرائيل في نفس الأحوال التي هم عليها ردحاً من الزمن حتى يُقيّض الله تعالى لهم قوة الأنفس، وعزيمة القلوب، والإيمان بتحقيق الأهداف .

ولا نخال السياسات الحكيمة اليوم، في داخل الدول الحديثة، إلاَّ وتعتمد نفس الأسلوب في معالجة قضاياها ولا سيما في الحروب التي تخوضها . . لا بل إن الدول المتقدمة باتت لا تعمل إلا وفق الدراسات والخطط والبرامج التي تعدها جماعات الاختصاصيين والأكفاء . ومن أجل أن تؤمن لهم النجاح في وظائفهم ومهامهم فإنها توفر لهم كل الإمكانيات، وتقدم لهم كل الاحتياجات، سواء ما يتعلق منها بأعمالهم، أو ما يعود إلى حياتهم الخاصة . . وهي الأفكار ذاتها التي يعتمدها كل قيادي في عمله وميدانه، وبذلك يمتاز عن غيره من القياديين غير الموهوبين، وغير المبالين . . أجل إن هذه السياسة في

اختيار الأكفاء، وتوفير مناخات النجاح لهم إنما نستقيها من تاريخ الشعوب التي أقامت الحضارات، ومن واقع الأمم في حياتنا الحاضرة، والتي تثبت جميعها أن المعوَّل عليه دائماً هو هذا الإنسان في تفكيره، وفي إعداده، وفي نهجه وعطائه.. وإنَّ الإنسان، أي إنسان، يكون مهموماً، مشغول الفكر والبال بأمورٍ بعيدةٍ عن مجال عمله، لا بدَّ وأن يكون عطاؤه أقلَّ، لأن طاقته على الاحتمال تكون أضعف، ومثابرته على العمل تكون أوهى..

وهذه السياسة، وهذا الأسلوب هو ما اعتمده طالوت منذ بضعة آلاف من السنين حتى يكون له الجيش الذي يريد.. فقد جمع الألوف من أبناء إسرائيل، ووزعهم وفق تنظيم دقيق، ثم أقام تدريبهم على شدة البأس، وقوة المراس، وصلابة العزم. وبث فيهم روح الواجب والتضحية، وغرس في نفوسهم معاني العزة والكرامة حتى استوى لديه جيش متلاحم النسيج، قوي الشكيمة، قادر على ولوج المعارك والثبات فيها.. وتأمين النصر عند ملاقاة العدو. لكن طالوت لم يعلن النفير قبل إجراء الاختبار الأخير الذي يضع على أساسه تنظيم جيشه بالصورة النهائية.. وهكذا وبعد أن استقر رأي طالوتُ على الخطة التي يريدها، دعا إليه قادة الجيش، وأعطاهم الأوامر بالزحف، دون أن يُفصح عما صمَّم عليه، وخطط له!... وخرج على رأس الجيش، وسار به طويلاً حتى بلغ نهر الماء الذي يقصده، فهنالك دعا إلى التوقف، ثم اعتلى ربوة، ونادى في جنده قائلاً:

- أيها المقاتلون! يا أبناء إسرائيل! ها أنتم قد اجتزتم المسافات بلا ماء ولا طعام، وها هو الماءُ العذبُ، المنعشُ أمامكم، إني أحذِّركم من الإفراط في الشرب. فلا يشربنَّ أحدكم من هذا النهر

حتى الإرتواء، بل عليه أن يأخذ ما يبلُّ ريقهُ، ويبرِّد كبده، ويكفيه من ذلك أن يغترف ملء راحتيه ولا يزيدنَّ أكثر، فمن خانته نفسُهُ، وفقد السيطرة عليها من جراء العطش، كان لشدة الحرب أقلَّ احتمالاً، ولا أحسبه حينئذٍ من جند طالوت، لأنه غير قادر على خوض غمار القتال تحت إمرته.

ثم نزل وأَمَرَ قادته أن يدفعوا بجنودهم كتائبَ كتائبَ لعبور النهر إلى الضفة الأخرى، وراح يراقب كلَّ كتيبةٍ بإمعانٍ بالغ بحيث لا يفوته ما تقوم به فرقة في هذه الكتيبة، أو جنديٌ واحدٌ في غيرها. . وكان في كل عبورٍ يأمر قائد وحدته أن يوزِّع الجنود إلى تصنيفات قد حدَّدها من قبل لكل القادة، حتى اكتمل الاختبار، وجرى الفرز وفقاً لمشاهدات القائد الأعلى وملاحظاته التي أظهرت عدة أصنافٍ في جنده، أمثال خائري العزيمة الذين هوَوا في الماء لا تحملهم أرجلُهم من التعب، والذين سلبهم الماءُ الإرادةَ فراحوا يعبّون منه عبَّ الأنعام. أما الأقوياء والأشاوس فهم الذين امتثلوا للأوامر فاكتفوا من هذا الماء بما يبلُّ الريق، وعبروا النهر بتوثُّبِ الأسود. .

وبالفعل فقد نجحت الطريقة التي اختارها طالوت لتوزيع جنوده إلى فرقٍ بحسب قدرتها على حمل السلاح. فكان منهم فرقة الفرسان، وفرق المشاة، وفرقة حملة السيوف، وفرقة النبال والرماح؛ وفرق متعددة لحمل الذخيرة، والمواد، والأطعمة والأشربة وكل ما يحتاجه الجيش لخوض المعركة.

وبعد هذا التنظيم عاد طالوت إلى تدريب الجيش من جديد. وقد ظل على هذه الحال عدة شهور حتى اطمأن في نهايتها إلى صلاحية هذا الجيش، وقدرته على مواجهة الأعداء.

داود يقتل جالوت

وهكذا وبعد أن أتم طالوت التدريبات، وأنهى الاستعدادات، وبعد أن رأى جيشه قد أصبح قادراً على ولوج المعركة، وخوض القتال، أعلنَ الحرب، وسارَ إلى المعركة الحاسمة.. والتقى جيش طالوت بجيش الأعداء، وكانت ساعةٌ حميَ فيها الوطيسُ، واشتدَّ القتالُ، حتى وهنت الجموعُ، وخارت القوى، فنودي بين الجمعين للتوقف عن القتال كي تُلَملمَ القتلى، وتُداوى الجرحى، ويستعيدَ الناجون أنفاسهم.

وكان في جيش طالوت أربعة إخوة، هم أبناءٌ لرجلٍ من بيت لحم يدعي إيشا. عاش هذا الأب مع أولاده آمناً وادعاً، سعيداً في حياته، لا يُنكِّد عليه الحياةَ إلاَّ الذُّلّ الذي لقيه قومه على يد الكنعانيّين.

فلمّا استنفَر طالوت أبناء إسرائيل لإعداد جيشه، وكان إيشا قد تقدمت به السنّ، ولم يَعُد قادراً على حمل السلاح، لم يَر أحسن من أن يدفَعَ بثلاثةٍ من أبنائه لينضووا تحت لواء القائد الجديد، ذوداً عن الديار، واستعادةً للشرف والاعتبار. ثم اختار أصغر أولاده ليكون عوناً لإخوته، فيحمل لهم الطعام والشراب، ويقوم على خدمتهم.. وكانت وصيّة الأب لهذا الولد أن يُحاذر الاقتراب من المعركة عندما ينشبُ القتال، وأن لا يتدخّل في غماره ساعة يشتدّ الصدام، فهو ليس من رجاله، ولا من فرسانه، لأنه ما يزال صغيراً طريَّ العود، ولا يقدر على حمل سيفٍ، أو طعنٍ برمح.. وعمل هذا الفتى بنصيحة أبيه، فظلَّ بعيداً عن المعركة، يرقُبُ ما يجري وفي نفسه لَهفة، وفي قلبه

لوعة. . إنه في جانب الميدان، ولا يحيد بناظريه عن إخوته، وهم في حومة الوغى. كان يقدّم لهم ما يحتاجونه، وبودّه لو يحمل عنهم بعض ما يعانونَه. وفوق هذا الاهتمام بإخوته، كان في توقٍ لمعرفة النتيجة قبل أن تحين، وفي شوقٍ لرؤية النصر. وساءهُ ما سمعهُ من إخوته عن قوة العدوّ، وشدَّة مراسِه، وقدرته على الوغى. وشعر أن حلمَهُ بالنصر يكاد أن يفلت من يده، وهو لا يستطيع شيئاً، وليس أمامهُ إلاّ الصبر والترقُّب.

كان قد مضى شطر طويل من ذلك اليوم، قبل أن يَشُقَّ الأسماعَ صوتٌ يدوِّي في وسط الميدان منادياً للمبارزة. وشدَّ الصوتُ الفتى، فإذا به يرى فارساً ضخم الجثَّة، عريض المنكبين، يتحصَّنُ بدروع حديدية، ويمتشقُ سيفاً ورمحاً، ويتنقّل على صهوة جواده، بغطرسةٍ وكبرياء، وهو يعاود المناداة:

ـ أنا جالوت! . . . هل من مبارز، هل من مناجز؟!.

وسأل الفتى إخوته بجانبه:

ـ هل هذا الفارس منّا؟

قيل له: لا، إنه قائد الأعداء.

ارتجف الفتى للخبر، وخاف على إخوته منه، ولكنَّ خوفه كان أشدّ على النصر الذي يؤمّل أن يراهُ لبني قومه. وراح يُحدّق في الفارس من جديد فإذا به عملاق، وهو يتحدّى الأشاوس في جيش طالوت، ويتهكَّم على شجعانه. وكان يدعو إليه الفوارس والأبطال، ولكن ما من مجيب، أو مُنازل.

وعاد الفتى يسأل إخوته:

ـ ما اسم هذا الفارس؟

وجاءه الرّدُّ بعصبيّة وحدَّة:

ـ أَلم تسمَعهُ يُعلن اسمهُ، إنه جالوت قائد عدوّنا!. ما من أحدٍ قابله إلا وأرداه قتيلاً، فكُفَّ عن السؤال أيها الفتى.

وكأنَّ مرأى هذا الصنديد قد أنسى الفتى اسمهُ، فسكتَ على مضضٍ، ولم يُجبْ..

وكيف له أن يهدأ والجزع قد هيمن على الجنود، فبات كلّ فردٍ منهم منكّسَ الرأس، خائرَ العزيمة..

وقام يسعى ناحية طالوت، فوجده ينتقّل من جماعة إلى أخرى، يَحثُّ أصحاب الشجاعة على المنازلة، ويُثِيرُ في الأبطال روح الهمَّة، ولكن ليس من مُجيب، ولا من مِقدام.. وبدا على طالوت اليأسُ، فأعلن في قواده وجنوده، أنَّ مَنْ يُنازِل ذلك الفارس ويُخلِّص القوم من شرّه، فإنه سيفوز بابنته، ويتولى الملك بعده.

وعلى الرغم من هذا الجزاء العظيم الذي يثير الحماسة في نفوس الجند، فإن أحداً لم يَهبَّ لتلبية النداء، أو يبديَ رغبةً في النزول.

وحملَقَ الفتى في كل وجهٍ لَقيهُ، وتفرَّس في كلّ سحنةٍ مرّ بها، فلم يجد راجلاً، ولم يرَ فارساً متحمساً للنزال.. ثارتْ حفيظةُ نفسه، وهاجتْ حميّةُ قلبه، وشقَّ عليه أن يرى عملاقاً كافراً يتحدّى حزب الله، فاندَفَعَ إلى طالوت، يطلبُ منه الإذنَ في منازلةِ جالوت..

ونَظَرَ إليه طالوتُ، فإذا هو فتى أغرُّ، طريّ العود، نحيل الجسم، لم يكد يبلغ حدّ الرجولة بعد. فكَبُرَ عليه ما يَعرِضهُ هذا الفتى المقدام، فأخذهُ برفقٍ في يده، وهو يقولُ له:

ـ خلِّ عنك هذا الأمر يا بنيّ، ودَعْهُ لمن عساهُ أن يكون أكبرَ منك سناً، وأقوى ساعداً. .

وسكتَ برهةً ثم عاد يسألُهُ:

ـ ولكن ألا تُخبرني من أنت يا بنيّ؟

ـ إنني داود بن إيشا، من بيت لحم. .

ـ بوركتَ يا داودُ، ولسوفَ يكونُ لك شأنٌ في مستقبل حياتك! . .

وردَّ عليه الفتى:

ـ إنني لا أرنو إلى المستقبل يا سيّدي إلاَّ بنصرٍ لبني إسرائيل، فخذني جندياً في هذا الجيش، وادفعني إلى ملاقاة جالوت.

ـ هوّن عليك يا داود، فإن لم يَقُم منّا فارسٌ أو شجاع، فأنا مُنازِلٌ ذلك الرجل بإذن الله.

ـ لا يا سيّدي فأنت القائد وأنت الملك، ولا يجوز أن تُترك البلاد والجيش بلا قائد أو ملك. إني أطلبُ منك الإذنَ، ولا يخدعنَّك مظهري، ولا يصرفنَّك عن مطلبي صغرُ سنّي. . ولا تخفْ أيها الملك، فأنا قادرٌ على القتال. بالأمس أهاجَ ذئبٌ غنمي، فَعَدوتُ وراءه حتى قتلته، ولقيتُ مرَّةً دبّاً شرساً، فحاذَرْتُ حتى تمكَّنتُ منه وأرديته. .

تفرَّس طالوت في وجه الفتى، فإذا يقينٌ يداخلُهُ بصدقِ لهجته، وإذا عزمٌ يحثُّهُ على استجابة طلبِهِ، فتفكر مليّاً ثم قال له:

ـ هاكَ سيفي، وهذه خوذتي ودرعي، فانزل إلى عدوّ الله، والله كفيلٌ بأن يحفظك ويرعاك. .

وتقدَّمَ منه، يُلبسُهُ عُدَّة القتال، ثم يأمُرُ أن يُؤتوه بحصانه ليُركبه عليه. .

ولم يعرف داود كيف يرتدي لباس المعركة، فقامَ مَنْ حولُه يُلبِسونه. . . وأراد أن يمتطيَ الجواد، فلم يستطع الحراك في ذلك الحديد. لقد شعرَ أنه أثقل منه، وأحسَّ أن جسمه ينوء بحمله. فطلَبَ من طالوت أن يخلعَ عنه ما يُكبِّلهُ ويُضيّق عليه الخناق. وكالبرق الخاطف بعد أن نزعوا كل ما عليه، راح داود يجمعُ الحجارة ويملأ بها جرابَه، ثم امتشق مقلاعهُ، وحَملَ عصاهُ، واندفع أمام عينيْ طالوت، وهو من مضاء عزمه في أمنع حرز، ومن صدق إيمانه في أقوى حصن.

. . . واندفع الفتى نحو ساحة الميدان، والأعناق تشرئبُّ إليه، والعيون تتعلَّقُ به، والقلوبُ تهفو إليه وهو يعدو ويعدو، حتى صارَ على مسافةٍ من جالوت، فوقف ينظر إليه متأمّلاً، متفحّصاً.

ورأى جالوت أمامَهُ فتىً أقربَ لأن يكون غلاماً. إنه لا يحملُ سيفاً، ولا يتنكَّبُ قوساً، وظنَّهُ رسولَ القوم إليه، يحمِلُ عهد الاستسلام، فقال له:

ـ هات ما عندك أيها الغلام. . .

وسكتَ داود ولم يُجب، فعادَ جالوت يسألُه:

ـ لِمَ قدمتَ أيها الولدُ إلينا، وماذا في جُعبتكَ تلك؟ هل أرسلكَ طالوتُ تحملُ خبرَ هزيمته، ونبأ انتصارنا عليه. فقدّم إليَّ ما أنتَ آتٍ لأجله، وإلاَّ أخذته منك عنوةً. .

وردَّ داود عليه برباطة جأش، وثبات جنان:

- بل أرسلني طالوت لقتلك . .

وعلت من جالوت قهقهاتٌ رعناءُ وهو يسمعُ قول الفتى، ثم أمسك عن الضحك وقال له:

- ألَمْ يَعُدْ في جيش بني إسرائيل رجالٌ حتى يبعثوا بفتيانهم إلى الموت؟ إنها لمهزلةٌ وسخريةٌ في العالمين . . عُد إلى ذلك الرجل وقلْ له أن يأتيَ إليَّ صاغراً، وإلاَّ قطَّعتُ جسمك إرباً إرباً . .

وأجابه داود ونبرات صوته لم تتغيّرْ:

- أتظنُّ جبروتك يحميك منّي، وسلاحَك يمنعك عنّي؟ لقد خاب ظنُّكَ يا جالوت. إني آتيك باسم الله رب العالمين، وسترى أن قولك هراء، وفؤادك هواء، وسيفك كليل . . وستعلَمُ هذه البوادي، وتعرفُ هذه القفارُ أن أمر الله تعالى هو الغالب، وأني سأُخضِّبُ هذا التراب بدمك، وأُخلِّصُ المؤمنين من شرّك.

وصرَخَ فيه جالوتُ بصوتٍ كالرعد:

- إذن خذها ضربةً قاضيةً تودي بك إلى الفناء أيها الولدُ اللعينُ . .

وهجَمَ جالوتُ على داود يريدُ أن يُطيحَ برأسه بضربةٍ واحدة. ولكن الفتى كان أسرع منه، فقفزَ جانباً وراح يدور حول الفارس الجبار، وهو يعدُّ مقلاعه ويضع فيه حجره، حتى صار في المدى الذي يستطيع أن يقذف منه فيصيب، فوقف بثبات وأعدّ مقلاعه، ثم صوَّب نحو جالوت برميةٍ هي أمضى من السهم، فإذا حجر مقلاعه يخترق جبهته، ويكسر جمجمته، وينثر دماغه، فيتمايل الجبّار فوق

جواده فاقدَ الوعي ثم يهوي على الأرض جثَّة هامدة، تروي التراب بدمها الفوّار! . .

ووقف داود فوق رأس جالوت، وهو يلهثُ من التعب، بعدما أعياهُ الركض والدوران. كان قد رسم خطةً تدلّ على نباهة وخبرةٍ لا تتوفران إلا لفارسٍ متمرّسٍ على فنون القتال. . لقد جعلَ عدوّه في وسط دائرة، وأخذ يلفُّ من حوله بطريقة لولبية، وبخفّةٍ ورشاقة، لا يمكّنانه من الدنوّ منه، ويتيحان لمقلاعه المدى، فيصلُ الحجر كأسرعَ من رصاص البنادق، وأمضى من شفرات السهام. وها هو الآن يقف فوق هذا الرأس الدامي، وصوتُهُ يشقُّ عنان الفضاء منادياً: الله أكبرُ، الله أكبرُ. .

وتعالت صيحاتُ التكبير والتهليل في جيش طالوت، وامتلأت حناجر جند جالوت بالغُصص. .

لقد ارتاعَ قوم جالوت لرؤية قائدهم يهوي على الثرى، وتسكن حركته، وتخمد أنفاسه. . وهلّل قوم طالوت لرؤية فتاهمُ وهو يقف على الملأ يكبِّرُ. فكان في موتِ قائدٍ وفي حياةِ فتىً، نصرٌ من الله لبني إسرائيل، وهزيمةٌ لعدوّهم. . .

وذاعَ صيتُ داود في أرجاء البلاد حتى صارَ حديثَ القوم، ومحطَّ الأنظار. وأسكنهُ طالوتُ قصرَه، وقرَّبه من نفسه، ورعاه بقلبه، حتى بلغ أشدُّهُ، فزوَّجه ابنته مكيال. وحقَّت كلمة ربّك بداود، فجاءه فتحٌ مبينٌ، وفوزٌ كبير من لدنه. . إنه فضلُ الله، وفضلُ الله واسعٌ يؤتيه من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

أقامَ داود بين ظهرانَيْ صموئيل النبيّ، وطالوت الملك، حتى

وافاهما الأجلُ، ورحلا عن هذه الدنيا. وكان داود خلال تلك الردحة من الزمن، يتعلَّم من الرجُلَين الصالحين مناهج الأخلاق القويمة، وقواعد العدل السويّ، ويتعرَّف إلى حاجات الناس ورغباتهم، حتى اجتمع لديه علمٌ غزيرٌ وحكمة بالغة. ثم جاءته النبوَّة بعد صموئيل، وآل إليه الملكُ بعد طالوت، وأتمّ الله نِعَمهُ عليه كما أتمَّها على النبيّين والمرسلين الذين سبقوه في العهود الماضية.

الطير والجبال يُسبِّحْنَ مع داود عليه السلام

وزادَ في هذه النِّعَمِ ما آتاه الله من صوتٍ حنون، استخدمه في التسبيح للباري في عليائه، وتمجيده في قدسيته، حتى أن الجبال كانت تردد تسبيحه وتقديسه.. ودأب على الخلوة إلى نفسه، والاعتكافِ عن الناس كلما كانت تسنحُ له الفرصة بالراحة. فكان يصعدُ إلى الجبال أو يذهب إلى البراري، وهناكَ يجدُ نفسهُ بين أحضان الوجود البكر، فيُحيي الليالِيَ بالإنابة إلى الله، عازفاً على مزماره، شادياً بألحانه. تسمَعهُ الجبالُ والطيرُ، فتطربُ للشدو، وتأنسُ للَّحن، وتردّد معه آيات التسبيح والتعظيم. فسبحان الله الذي حمل الطير على الشدو، وأنطقَ الجبال بالتقديس الذي أشارت إليه الآية في سورة الأنبياء في القرآن الكريم، إذ يقول الله عز من قائل:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1].

وسبحان الله يزيدُ في مكرماته، فيؤتي داودَ عليه السلام الزبورَ كتاباً مقدَّساً: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

فما أعظم هذه الآيات، وما أجلَّ تلك المكرمات! إنها تدلُّ على أن داود النبيَّ معدنٌ بشريٌّ من نسيج خاصّ، ونفسٌ إنسانيةٌ من حبكٍ مميّز. . بَلَغَ شفافيةً في النفس، وسموّاً في العبادة، حتى أزاحَ الفروقات بين الكائنات، فاستجابت النباتاتُ والأشجار وراحت تترنَّمُ بصوته، وتمازجت ذرّاتُ الجبال تتغنّى بشدوهِ، وسالتْ نفوس الطيور تصدحُ للحنه، حتى امتزج الضمير البشريُّ بقلب الطير والوحش، وفي صميم الحجر والمدر، فاستوتْ تتآلفُ، وتتناغمُ، وهي تُقدِّس الخالق وتُمجّده. . . إنها وحدةٌ عجيبةٌ حقاً، تعرَّتْ فيها الجبال من إطار جمادها، وخلعتِ الطيرُ نطاق لغاتِها، فباتتْ مع الإنسان خلائقَ سويّةً، في نغم تسبيح الخلود لله تعالى، الحيِّ القيومِ، الواحدِ، الصمد. .

ورغم هذه الميزات العظام، كان داود عليه السلام يعيشُ حياة الناس العادية، فيأكل من عمل يده، ومن نتاج صناعته، ويضيف إلى صفحات سجلّه، صفحةً جديدة في ابتغاء الخير. وهو ما سوف يقوم به بعد عهود عديدة النبيُّ محمد ﷺ فيؤكّد هذه النَّظْرة في كسب الرزق، كما جاء في الحديث الشريف:

«ما أكل ابن آدم طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن أخي داود كان يأكل من عمل يده»[1].

وعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي تلقّى العلمَ عن النبيّ محمد ﷺ حتى صارَ بابَ مدينةِ علمِهِ يؤكد نفس النظرة حول فضل داود عليه السلام في العمل فيقول: «وإن شئتُ قلتُ عن داود عليه السلام

(١) ابن ماجه كتاب التجارات.

صاحب المزامير، وقارىء أهل الجنَّة، فقد كان يعمل سعائف الخوص[1] بيده، ويقول لجلسائه: أيكم يكفيني بيعها؟».

عاش داود عليه السلام في ذلك الأفق من التفكير، وفي تلك النظرة إلى الحياة، وكانت صناعتُهُ الحديد، يُقطِّعهُ ويُشكِّله، ويُوصِّله، ويعمل منه الدروع. وقد بلغ في تلك الصناعة مهارةً فاق بها صُنَّاع عصره، وجعَلتْ لدرعه ميزةً خاصةً، بحيث تتيحُ للمحارب حرية الحركة، وفي الوقت نفسه، تُبعِدُ عنه حدَّة السيوف، وقوَّة الخناجر والفؤوس فلا تقوى على كسرها، ولا تتمكّن من فلّها، وصاحبُها غير مكبَّل بثقلها، أو رازح تحت عبئها. .

لقد اشتغل داود عليه السلام بصناعة الدروع. وتليين الحديد لا يكون إلا بعد انصهاره في النار وتذويبه. فسبحان الله الذي هداه إلى هذا الاكتشاف، ومن ثم إلى صناعة الدروع فقال عنه في القرآن الكريم: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾[2]، (والسابغات هي الدروع). وبذلك يكون عليه السلام أول مكتشف لذوبان الحديد.

فداود عليه السلام من أفذاذ البشرية حقاً. فهو ملكٌ يقوم على الفصل والقضاء بين الناس، وعلى إدارة شؤون الملك، وتدبير أمور الحكم. وهو نبيّ لا يترك يومه ينصرم إلا وفيه وعظ وإرشاد وبيان وهديٌ، وهو إنسانٌ يعرف ربَّه حقَّ المعرفة، فلا يمرّ وقت بلا عبادة، ومناجاة، وتسبيح. يوزِّعُ أوقاته بين رعاية الناس، وتزكية نفسه،

---

(١) سعائف الخوص: جريد وأوراق النخل.

(٢) سورة سبأ، الآيتان: ١٠ و١١.

وتقديس ربّه، بدقة وانتظام. إنه يُعَدُّ بحقّ مثالاً صادقاً للإنسان الحكيم.

داود عليه السلام يحكم بين الخصمين

وأراد الله تعالى أن يزيده حكمةً وعلماً بفصل الخطاب، فأرسل إليه ملكين من الملائكة تسوَّراً المحراب ودخلا عليه، فخاف منهما، وقد وجدهما قاعدين أمامه بلا استئذان أو طلب دخول عليه..

أجفلَ وخافَ، ولكنّه اطمأنَّ وهما يبديان خصومةً جاءا يحتكمان بها إليه.. وبادَرَهُ أحدهما قبل أن يعرض القضية بالقول:

ـ لا تُشططْ (أي لا تتجاوز حدّ العدل) واهدنا إلى سواء الصراط.

ووجَدَ داود نفسه أمام أمرٍ واقعٍ فرضَهُ هذان الخصمان بالمجيء إليه، دون أن يكون في مجلس القضاء أو على استعداد للفصل في الخصومات... ومع ذلك فقد طلب إليهما الكلام وإبداء ما عندهما:

فقال أحدهما: «إن هذا أخي، له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة. ولكنه زاد في طمعه، حتى غلبَهُ هواه، فطلب النعجة الوحيدة التي أملك. فجادلته في أمرها، وأبديتُ عذري في الامتناع عن تركها، وأبَنْتُ له الفارق بين غناه وفقري، ولكنه كان أوسعَ حيلةً منّي، فغلبني بنقاشه، وأقنعني بحجّته، لأنه رجلٌ أفصحُ لساناً، وأقوى جدالاً، وأغنى بياناً.

وتراءى لداود عليه السلام أنَّ الحجّة التي يمتلكها الرجلُ الآخر قد أدّت إلى ظلم أخيه، فبادر بالحكم قائلاً:

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ

بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ﴾[1].

فالتفت إليه الخصم الثاني وقال له: هذا حكمٌ جائرٌ، فما عدلتَ. كيف تستبيح لنفسك الفصل في خصومةٍ لم تستمع فيها إلاّ إلى أحد الفريقين المتداعيين دون الفريق الآخر؟ ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ﴾[2] إلى الله تعالى، ثم أطرق ممعناً في التفكير، فوجد أن خوفاً استقرَّ في قرارة نفسه، وجزعاً يُمسك بداخلِ كيانه. فقد أُخِذَ على حين غرّة، وعاش لحظات حرجة، وكل ذلك لمرأى هذين الرجلين، ولكن ما كان يَجْدُرُ به أن يتسرَّع في الحكم، وأيقن أن حكمه قد جاء بلا روية كما يبدو لأول وهلة. ولذلك عادَ يُسائل نفسه:

«من هما هذان الرجلان؟ وكيف اقتحما خلوتَه وليس الوقت وقتَ قضاء، وبدون أن يأذن لهما أحد بالدخول؟؟».

وأدرك من فوره أنهما من غير البشر. فإذن هما ملكان من الملائكة، وقد بعثهما الله لاختباره.. وجاءَهُ الوحيُ معاتباً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[3].

فداود نبيٌّ، ومهمتُهُ كمثل سائر الأنبياء، تهذيبُ النفس البشرية. ومتى سادَ هذا التعامل، استطاعت البشرية تحقيق إنسانيتها، بكل ما تحمله تلك الإنسانية من مفاهيمَ ساميةٍ، وقِيَم عُليا..

وسلوك الأنبياء وعملهم، وقولُهم، هذه كلها المثال الذي يجب

(١) سورة ص، الآية: ٢٥.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٤.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.

أن يقتديَ به البشر في تطلُّعِهم نحو إثبات إنسانيتهم. ولما كانت النفسُ البشريّةُ نزّاعةً نحو الهوى، وكان الأنبياء من بني البشر، فإن الله سبحانه وتعالى يبتلي أنبياءهُ بنوع من الاختبارات والتجارب، للتدليل على تلك النزعة، ووصف العلاج الشافي لها.

وحادثةُ الملكين مع النبيّ داود عليه السلام، إنما كانت ترمي إلى معالجة الهوى النفسيّ بنظرة شمولية لا تتوقَّف عند حدود زمان ومكان معيّن، بل تستمر ما دام البشر قائمين على هذه الأرض.

وهكذا كان الأنبياء يُختصُّون بأحداث معيَّنة، تُعبّر عن الميول والنزعات البشرية، وذلك من أجل أن ترسم للإنسان الطريق الذي يتبعه في جهاده لكبح جماح عوامل الضعف عنده، وليدأب على معالجة نفسه، والانتصار على ما تأمر به من السوء، من أجل الوصول إلى أسمى المراتب التي يجب أن تكون عليها تلك النفس.

وليس داود عليه السلام وحده، من بين الأنبياء ابتُلي بمثل تلك الأحداث، بل جميعُهم وقعوا بمثلها، وكان يجب أن يقعوا بها طالما أنهم هم القُدوة لبني البشر، والنماذج المعبّرة عن كمالِ الحياة الإنسانية.. وهذا النبيّ محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسَلين لا تخلو سيرته من تجربةٍ يقيمُها الله سبحانه وتعالى عليه. ففي غزوة الأحزاب جاءهُ نفرٌ من المسلمين يستأذنونه بالذهاب، فقال الله تعالى له: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. لقد أعطاه الله حريّة التصرّف الكامل، ليأذَنَ للرجال إن شاء، أو يمنعَ الإذن إن شاء بدليل قوله تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. وها هو في غزوة تبوك، يأذن لرجالٍ جاؤوه في طلب الذهاب. فيأتيه عتابٌ من الله على هذا الفعل، لأن المعركة كانت على أشدّها مع الروم، وظروفها لا تسمح بالتفريط بأيّ جزءٍ من

القوّة. وكان عتابُ الله على صورة العفو، فنزلَت الآية الكريمة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾[1]. ولو تبصَّرنا قليلاً لرأينا أن عتاب الله تعالى للنبيّ محمد ﷺ، لم يكن عتاباً له البتَّة، بل كان توبيخاً صارخاً للمتخلِّفين والمستأذنين بالبقاء في المدينة..

إذن فالتجربة حدثٌ يقوم به النّبي، أيُّ نبيٍّ.. وحكْمُ داود، وإذْن محمد ﷺ، كانا تنبيهين لهما في ظاهر القول على شكل عتاب من الله لأنبيائه، وأولى أن لا يفعلوه... وهو في الحقيقة وواقع الأمر تنبيه لبني البشر، للناس جميعاً لكي يُصلحوا أنفسهم، وليعرفوا حدود ما أنزل الله تبارك وتعالى.

واعترافُ الأنبياء بحجَّة الله عليهم حثٌ للإنسان أن يعرف نفسه، ويُقِرَّ بكوامن الضعف فيها. واندفاعُهم في الاستغفار وهم غير مذنبين، وفي طلب الرحمة وهم أولى بها من سائر الناس، وأبعد المخلوقات عن الوقوع في الإثم.. كلّ ذلك يجعل منهم القدوةَ الحسنة للناس في التخلُّص من الشوائب التي قد تعتريهم..

فأيةُ تربية أجمل من تلك التربية للنفس الإنسانية؟!..

الأنبياء، وهم معصومون عن الوقوع في الخطأ، يُبْتَلَوْنَ بتجاربَ في حياتهم، لا لشيء إلا لتكون تلك التجاربُ دليلاً للإنسان على السلوك الذي يجب عليه اتباعهُ كي يُحقِّق المثل العليا والمبادىء السامية..

وبعد تلك الفتنة، والتجربة التي وقع فيها النبيّ داود لم يغلب عليه هوىً قطُّ. وهذا بديهيّ، لأن الأساس للتربية المقصودة قد

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

وضِع، والدرس قد أعطي... فعاش حياته يرعى شؤون قومه، ويتدبَّرُ أمورهم، بعقل الإنسان المؤمن الحكيم، فعمَّ الرخاءُ والازدهار في البلاد، واستوى العدلُ مشرعَ الأبواب في أنحاءِ الديار. وهل أملُ المجتمعات البشريّة، في كل زمان ومكان، إلا أن يسودها العدلُ الذي هو كفيلٌ بحلّ كل المشكلات التي قد تتخبَّط فيها؟!..

داود يختار ولده سليمان لخلافته

ولم ينسَ داود عليه السلام وقد تقدَّمتْ به السِّنُّ، مصيرَ الأمة من بعده. فدأب على اختبار رجالات بني إسرائيل، القاصي منهم والداني، علَّهُ يقع على القائد الذي يتسلَّمُ مقاليد الحكم من بعده، ويكون حافظاً للعهد، عاملاً على خير الأمة وصلاحها. ولكنه لم يجد من يُضاهي ابنَهُ سليمان علماً وحكمة.. ولم تكن قناعته تلك بدافع صلة القربى، ولا أواصر الرحم، بل هي نابعةٌ من هدفه في الاطمئنان على الأمة ومستقبلها..

فسليمان، بدت عليه ملامحُ النضوج منذ حداثته، وظهرت أمارات نبوغه في فتوته.. فقد كان يحرص على رعاية مصالح الناس إلى جانب أبيه، ويجهد في مدّ يد العون لهم، ومساعدتهم في حوائجهم بروح ملؤها التضحية والإخلاص.. يُواكب أباه في تجواله وهو يتفقد الناس في أمورهم، وفي سفره وهو يختبر الرجال في مجالات حياتهم.. إن أعطى رأياً كان فيه وعيٌ وصواب، وإن قام بعمل كان فيه صدقٌ ووفاء. ينتقد، ولكن بقصد الإصلاح والبناء، ويُفْتي بين الناس ولكن بروح العدالة السمحاء...

وقد بانت عليه دلائلُ الحاكم الذي يُريده أبوه، فاطمأنّ

داود عليه السلام إلى غده البعيد، وراح يؤهلّه ليكون خليفتهُ على بني إسرائيل. ولكنَّ هذا التدبيرَ لم يُرضِ أخاهُ الأكبر إيشالوم، فبات يعمل في الخفاء على الخلاص من أخيه سليمان.

فتـــنة إيشالوم

عمد إيشالوم إلى الحنكة والدهاء، فاندسَّ بين الناس، يتعرَّف إلى ميولهم فيُلبيها، ويطَّلع على رغباتهم فيؤمِّنها. وتمادى في مداهنته حتى بلغَ به الحدّ أن يقف على باب أبيه الملك، يستقبلُ كل آتٍ إليه، قاضياً حاجته تارةً، وصارفاً إيّاه تارةً أخرى، حتى بات الناس فئتين: إحداهما تميل لإيشالوم وتُقدّر أعماله معها، وأخرى تحقدُ على أبيه وتُندّد بإبعادها عنه..

وتأكّد لإيشالوم أن الوقت قد حان لتنفيذ خطّته، وكان قد أعدَّ العدّة لذلك، ودبَّر المكيدة بدقة، فأرسل بطانته إلى الناس تدعوهم إلى الثورة على الملك، والخلاص من حكمه. ثم جاء أباه محتالاً عليه بأنه يودّ الخروج إلى مكان يقال له جدون، لوفاء نذرٍ كان قد أقامه على نفسه.. وهناك اجتمع بأعوانه وأنصاره الذين بثّهم في البلاد للدعوة إلى تأييده، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد، ونادى إلى الالتفاف حوله، ومبايعته في الحكم..

وثارَ الشعبُ، واشتدت الفتنةُ، حتى جاءت الريحُ على بيت المقدس هوجاء، توشكُ أن تأكل الأخضر واليابس.

فاجتمع داود عليه السلام إلى قادة الجيش، وأصدَرَ الأوامر بعدم مقاتلة الثائرين لئلاّ يهرقَ الدمُ البريءُ، وتزهقَ الأرواحُ الطاهرةُ بلا ذنب اقترفته، أو خطيئة ارتكبتها. ولكنه عندما رأى أن الخطر أصبح

حالاً لا محالة، طلبَ إلى أتباعِه الخروجَ من بيت المقدس، فكان الارتحالُ الكبيرُ عن الديار، وعبر الناس نهر الأردن، ثم صعدوا إلى جبل الزيتون، بانتظار ما سوف تؤول إليه الأمور!.

دخل إيشالوم بيتَ المقدس بعد خروج أبيه، واستولى على الحكم. ولكي يتمكَّن من السيطرة، وضبط زمام السلطة في يده، راحَ يمعنُ في الناس بطشاً وتقتيلاً، وفي الأرزاق نهباً واستيلاءً، وفي ظنِّه أنه يزرع الرعب في نفوس مناجزيه، وينشر الدمار والخراب في بيوتهم، حتى يهابوه ويبايعوه.. ولكنَّ حسبانه كان في غير مؤمّله، إذ لم يطق الناسُ صبراً على استبداده، فانقلبت الثورةُ ضدَّهُ، ودارت الدائرةُ عليه، وأجمع الكلّ على أنَّه الابنُ الجاحد، الذي يشقّ عصا الطاعة على أبيه، ويسلبه العرش رغم عدله وصلاحه، فلا خير فيه للرعية. وكان مصيره القتل على يد الثوار، من غير أن يعرف أحدٌ من قتله تحديداً.

خمدت الفتنةُ بقتل إيشالوم، ورجع داود عليه السلام إلى بيت المقدس ومعه ابنه سليمان عليه السلام. وعرف الناس جميعهم أن خليفة نبيّهم وملكهم داود هو سليمان، فأحبّوه وتقرّبوا إليه، والتفّوا من حوله. ولم يمض على هذه الأحداث زمنٌ طويلٌ حتى توفّى الله داود عليه السلام، فحزن عليه بنو إسرائيل حزناً كبيراً وشيّعوه بجمع غفير وواروه جدث الرحمة. ولم يسبق لهم أن حزنوا على أحد أنبيائهم وملوكهم بعد موسى وهارون حُزنَهم على داود عليهما السلام. (فسلام الله على داود في العالمين إنه كان نبياً من الصالحين).

وهذه آيات الله تعالى التي تَقُصُّ علينا أحسنَ القصصِ عن نبيِّ الله داود كما أوحى بها العزيزُ الحكيم في كتابه المبين.

ففي سورة «البقرة» قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ
لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ
ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا
وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ
ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ
ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ
بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ
كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ
(٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا
دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١)﴾ .

وفي سورة «الإسراء»:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

وفي سورة «سبأ»:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى[1] مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ[2] وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[3] ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

وفي سورة «ص»:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) أوّبي معه: أي يا جبال ردّدي معه التسبيح، أو رجِّعي معه التسبيح.

(٢) أن اعمل سابغاتٍ: أي اعمل من الحديد دروعاً تامات.

(٣) وقدِّر في السَّردِ: أي عدِّل في نسج الدروع. ومنها قيل لصانعها سرّاد وزرّاد، والمعنى: لا تجعل المسامير دقاقاً فتكسر، ولا غلاظاً فتفلق الحَلَق.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗا
وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٢٥) يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا
جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ (٢٦) ﴾.

سليمان عليه السلام

سليمان عليه السلام

عاش سليمان في كنف أبيه داود عليه السلام وقد بدَتْ عليه، منذ الصغر، منّةُ الله عليه من الفهم والفطنة، كما ظهَرت في أقواله وأفعاله بواكِيرُ السيادة والقيادة.. فإنه عندما كان في الحادية عشرة من عمره، كان من عادته أن يقعد إلى جانب أبيه في مجلسه لكي يستمعَ إلى قضائه في الناس، ويتعلّم منه ما يحقق العدل في الرعية.

وصادف أن جاء مرةً رجلان يحتكمان، وقد برزت على قسمات وجهيهما ملامحُ الغضب والنفور.

جلس الرجلان أمام داود عليه السلام، وبدأ أحدهما يدّعي على الآخر وهو يقول:

ـ أيها النبيُّ إن لي زرعاً قد آتى ثمرهُ، ودَنَتْ قطوفُه. فلما صار بهجةً للناظرين، انتشرت فيه غنم هذا الرجل (وهو يشيرُ إلى خصمه) دون أن يردَّها رادٌّ، أو يحبسها راعٍ، فعاثت في الزرع نهاراً، وسرحتْ فيه ليلاً، حتى أهلكته وأتت على آخره، فصار أثراً بعد عين.

أنهى المدَّعي كلامه، فأشارَ داود عليه السلام إلى المدّعى عليه كي يُبديَ دِفاعه، إن كان لديه من دفاع.. فأجاب الرجل، مُقراً بحقِّ خصمه وهو يقول: إنني صاحبُ الغنم، وما أبداهُ صاحبي فهو حقٌّ

وصدقٌ، وليسَ لديّ ما أدفعُ به التهمة، فاحكم بيننا عدلاً، واقض حقّاً كما علّمك الله.

تروّى داود عليه السلام قليلاً ثم قال يفصل في الخصام: يأخذ صاحبُ الزرع الغنمَ عوضاً عمّا حاقَ به من خسارة. فيكون ذلك تعويضاً له، وجزاءً لإهمال صاحبها الذي تركها ترعى في أرض الغير، تتلِفُ رزقَهُ، وتأتي على ثماره.

وكان سُليمانُ يستمعُ إلى حكمِ أبيه، بِأُذُنٍ صاغيةٍ، وانتباهٍ متيقِّظ. ورأى أن حكمه هذا لم يراعِ مصلحة الفريقين، بل إنَّه وإن عوَّض الخسارة على صاحبها، وأنالَ الجانيَ جزاءَهُ، إلاَّ أنَّه لا يحقق العدل الكامل.. فنظَرَ إلى الرجلين، وقد همَّا بالخروج، مُشيراً إليهما بالبقاء في الجلسة، ثم التفت إلى أبيه، وقال له:

- يجب أن يكون الحكم أقرب لمصلحةِ الخصمين...

ودُهِشَ الجمعُ لجرأة هذا الفتى، فران على المجلس صمتٌ عجيبٌ، ولكنَّ داود عليه السلام قطع الصمت بصوته وهو يقول لابنه:

- هاتِ ما تراهُ يا سليمان..

وظهرت حجّةُ ابنه التي فهّمه إيّاها الله تعالى، فقال:

- تُدفعُ الغنمُ إلى صاحب الزرع، ينتفعُ هو وأهله بألبانها وأصوافها وخلفها عدة سنين، يقومُ فيها صاحب الغنم على رعاية شؤون الأرض وإعادة غرسها من جديد، والانتفاع بنتاجها من المزروعات حتى يستويَ الغرسُ ويعود كما كان. عندها تُرَدُّ الغنمُ إلى صاحبها الأول، وتعاد الأرضُ وغرسها إلى مالكها. وهكذا لا يكون بينهما غرمٌ ولا غنمٌ..

كان هذا الحادث إيذاناً بخلافة سليمان على بني إسرائيل بعد موت أبيه داود. وكان ذلك فعلاً بإرادة الله وحكمته، إذ لم تأخذ المنيّة داود حتى اعتلى ابنه سليمانُ العرش، فوهَبهُ الله النبوَّة إلى جانب الملك، وجعلهُ أحد مبعوثيه إلى بني البشر، يُكمِّل ما جاء به أسلافُهُ، ويؤسِّس لمن يأتي بعده، في العقيدة الواحدة، وفي النهج القويم..

قام سليمان على رعاية القوم، يدبِّر شؤونهم، ويسوسُ أوضاعهم بالحكمة التي عُهدت فيه، وبالعدل الذي عُرِفَ عنه. وفي الوقت نفسه كان يعمل على تقوية دعائم السلطة التي أرسى قواعدها أبوه من قبل..

وكانت الحروب متواصلةً بين الناس في ذلك الزمان وقوامُها الرجال، وعدَّتها الخيول، والسيوف، والرماح والدروع.. فاهتمَّ سليمان عليه السلام بجيشه حتى صار من أقوى الجيوش في عصره، ولشدَّة اهتمامه بهذا الجيش، صارَ عندهُ هوىً بالخيل. فكان يُخصص كل يوم وقتاً للإشراف عليها، وهو يجدُ في هذا الإشراف، ما يُمتِّعُ ناظريه، ويؤنسُ نفسهُ. فإن صهلت تذكَّر عدْوَها في السهول والبطاح، وإن حمحمتْ تخيَّل صولاتها في المعارك والكفاح. لقد ملكتْ عليه بعض فؤاده حتى كانت له فتنةً...

وفي عصر أحد الأيام، وفيما كان يقوم على استعراض الخيول كعادته، نَسيَ واجبهُ، فأدركهُ الغروب، وتوارت الشمسُ في الحجاب وهو لم يُصلِّ فريضة العصر. لقد شغَلَتْهُ الخيول عن ذكر ربه، فاشتعلت نفسه بالغضب، ونالتْ منه شدة الانفعال، فنادى بمن حوله:

- أبعدوها عني، لقد ملكت عليَّ نفسي، حتى فتنتني، وأنستني

ذكر ربي. . أبعدوا هذه الخيول، ولا أريدُ أن أراها بعد اليوم أبداً. .

وهذا مصداقُ قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾[1].

وكانت الخيلُ هي الوسيلةَ الفعّالةَ في الحروب. وسليمان الذي آتاهُ الله النبوَّة، لا يمكن أن يقعُدَ عن نشر الدعوة، ومحاربة الكافرين من أجل إدخالهم في عقيدة التوحيد. ونتيجةً لإبعاد تلك الوسيلة صارَ عاجزاً عن إتيان ما أوكل إليه. فكيفَ يقوم بغزوٍ، أو يُعلِنُ حرباً، وليست عنده الفوارس الأشاوسُ تركبُ خيولها، وتندفِعُ تحت قيادته وإمرته، حتى تنشر دين الله في الأمصار؟.

إن الواقعَ يوحي بأن جنود سليمان، الذين كان يعتمد عليهم في الجهاد، قد تفرَّقوا عنه، بعدما تخلّى عن الخيل. ففقد الوسيلةَ التي كان يستخدمها، وأضاعَ القوَّة التي كان يعملُ بها.

ولشدّة حزنه على ما أصابَهُ، ولفرطِ هَلَعِه منِ أن يقعُدَ عاجزاً عن أداء رسالة ربّه، أصابهُ ضعفٌ شديد، حتى هزل جسده، وخارتْ قواهُ، وصار جسداً مُلقىً على كرسيّه، لا حول له ولا طول. .

وفي هذه الهدأة، انقطعَ سليمان إلى ربِّه، يدعوهُ أن يزيلَ عنه تلك الفتنة التي حلَّتْ به، وذلك الهزال الذي أصاب جسدهُ.

ويستغفرُهُ تائباً مُنيباً، راجياً أن يغفر له وأن يُعيد له الصحَّة، حتى يمكنه القيامُ بالواجب الملقى على عاتقه. .

---

(١) سورة ص، الآيات: ٣١ ـ ٣٣.

وكان هذا الأمرُ ابتلاءً من الله وفتنةً لسليمان عليه السلام لسببٍ يتعلّق ببعض تصرّفاته في الملك والسلطان. وهو ككل ابتلاء من الله لأنبيائه غايتُهُ أن يوجههم ويرشدهم، ويبعدهم عن الزلَل. وقد أناب سليمان عليه السلام إلى ربه، فطلب المغفرة، واتَّجه إلى الله بالدعاء والرجاء:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾[1].

وقد استجاب له ربّه، فأعطاه فوق الملك المعهود، ملكاً خاصّاً لا يُعطى لغيره مدى الزمان: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾[2].

نعم أعطى الله لنبيه سليمان عليه السلام مُلكاً لم يُعطه لأحد من قبله ولا من بعده. فقد سخّر له الريح ذلولاً، يستقلّها على بساطٍ خاصٍّ فتحمله حيث أراد، معوّضاً له عن الخيل، التي كان يمتطيها فيما مضى، ويستعملها وسيلة في الحروب والجهاد. وأفاض عليه من نعمائه، فجعل له الشياطين (الجان) خدماً وعبيداً، يأتمرون بمشيئته، ويعملون وفق إرادته في البناء، وفي جمع اللآلىء والثروات من أعماق البحار، وآخرين منهم يقومون على صناعة المحاريب، والتماثيل، والقدور من النحاس تسيلُ به عين القطر، وهي تقذفه من باطن الأرض. . . كلهم يقومون على خدمته وطاعته، ومَنْ عصاهُ كان عقابه شديداً وقاسياً: يُكبّل بالأصفاد، ويظلّ سجيناً، رهيناً بما يُريدُه به سيدُهُ

---

(١) سورة ص، الآية: ٣٥.

(٢) سورة ص، الآيات: ٣٦ ـ ٣٨.

أو يشاء له. وفوق ذلك وهبةُ نعمة فَهْمِ لغةِ الطيور، وهي لغة تختلف باختلاف أنواعها، يخاطبها بلغاتها، وينتفعُ بمواهبها، فتنقلُ له الأخبار، وتُعطيه الأمارات والدلالات...

إنه سلطانٌ لا يُحَدّ، ونِعَمٌ لا تُقدَّرُ... الرياح وسائلُ نقل، والطيور أتباع مجد، والجان خُدَّامُ سيّد.. يأمرها كلها، ويسيّرها بأمر الله العليّ القدير، فتطيع صاغرة، حامدة.. فسبحان من وهب لسليمان عليه السلام هذا السلطان، وأمدَّهُ بتلك المعجزات والعجائب!..

سليمان عليه السلام يبني الهيكل

واعترافاً بفضل الله سبحانه عليه فقد شاء سليمان أن يجعل على الأرض آيةً تدلُّ على ذلك الفضل العظيم.. وليس أحسنُ لذلك من بيتٍ يُعبَدُ فيه الله تعالى، ويذكر اسمُهُ - عز وجل - على الملأ..

نعم أراد النبيّ سليمان عليه السلام أن يُقيم هيكلاً للعبادة والتوحيد، ومحجَّةً للمؤمنين والمتَّقين، ورمزاً للقيَم والمثل.. فكان هيكلُ بيت المقدس تلك الآية الرائعة، التي بذل على بنائها وزخرفها من الجهد والمال، ما وسعه من فضل الله... فقد قيل بأنه شارك في هذا الصرح الضخم ما يزيدُ على مائة وثمانين ألفاً من الرجال من بنائين، وصناعيين، وفنانين. وجيءَ له بالذهب من ترشيش، وبالأحجار الكريمة من اليمن، وبالخشب من أرز لبنان. وتفانى أهل الصناعة والفن، في ترصيع حجراته وجدرانه بالنقوش، وبتزيين ردهاته بالتماثيل من الطير والحيوان، حتى استوى آيةً عظمى من آيات الله في ذلك الزمان..

أقام سليمان عليه السلام الهيكل في بيت المقدس، وجعلَهُ محجَّةً

للناس، يتعبَّدون فيه، ويوفون النذور، وكان هو أولَ حاجّ إلى ذلك البيت، حيث أقام فيه الصلوات والابتهالات، فترةً طويلةً، قربى إلى الله رب العالمين.

وهكذا، وبعد أن اطمأن إلى عمله العمرانيّ في سبيل مرضاة الله، عادَ إلى سابق عهده في الجهاد والبذل، وكانت غايته أن يُقيم دين الله في كل قطرٍ يصلُهُ، ويكون أهله على عبادة الأصنام..

سليمان والنملة

وها هوذا عليه السلام يركبُ في حشدٍ ضخم من الإنس والجان والطير، ويذهبُ في سبيل الغاية التي يرومها. فَيمرُّ في زحفه، على وادٍ فيه نملٌ كثير.. وتنظرُ نملةٌ إلى الحشود القادمة، فتخافُ على بني جلدتها، وعلى الفور تدعو جحافِلَ النمل لتلافي الخطر، وهي تُعلن لهم: ادخلوا مساكنكم، لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون..

وسمع سليمان عليه السلام نداء النملة لبني قومها، وأدرك ما قالته، فهشَّ له وانشرحَ صدرهُ بإدراك ما قالت، كما يهشُّ الكبير للصغير الذي يُحاول النجاة من أذاه وهو لا يُضمر له أذىً. وهذه هي نعمةٌ من الله عليه، تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستحالةِ التفاهم معها. وإنها لعجيبةٌ من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع!.

أدرك سليمان عليه السلام هذا ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[1].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

وسرعان ما هزّته هذه المشاهدة، وشكر الله تعالى الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة، وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه. اتَّجه إلى ربّه في إنابةٍ يتوسَّلُ إليه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(1).

وحريٌّ بسليمان عليه السلام أن يشكر ربّه على ما آتاهُ من النِّعم، حتى جعلَ النملة، وهي من أصغر مخلوقات الله تُدرك أن الأنبياء لا يتعمَّدون الأذى ولا يقصدونه..

وهذا الشكر الذي صدر عن قلبه في تلك اللحظة، يصوّر نوعَ تأثُّرِهِ، وقوَّة توجهِهِ، وارتعاشة وجدانِه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل عليه وعلى والديه، ويحسّ النعمة والرحمة في خشوعٍ وابتهال.

ولا يكتفي سليمان عليه السلام بشكره لربّه، بل يدعوه أن يجعله قادراً على العمل الصالح، الذي هو كذلك فضلٌ من الله يوفِّق إليه من يشكر نعمته، وأن يدخله في عباده الصالحين.. وهكذا نرى سليمان عليه السلام يدعو ربَّه ويضرعُ إليه، وهو النبيّ الذي سخَّرله الجنَّ والإنس والطير، خائفاً أن يُقَصِّر به عمله، وأن يُقَصِّرَ به شكرهُ. وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته، والتشوّق إلى رضاه ورحمتِهِ في اللحظة التي تتجلَّى فيها نعمتُهُ، كما تجلَّت بحادثة النملة التي تنذر جحافل النمل بالخطر، وسليمان عليه السلام يُدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه..

---

(1) سورة النمل، الآية: ١٩.

سليمان والهدهد وبلقيس

ويترك سليمان عليه السلام واديَ النمل ويتابعُ مسيرته، ولكنه وهو القائدُ الحكيم، يريدُ أن يتفقَّد جيشهُ حتى يطمئن على تماسكه، وتقيُّده بالنظام والانضباط. وأثناء هذا التفقد، استرعى انتباهَهُ وسط حشد الطير، غيابُ الهدهد فقال: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾[1].

وما هي إلا فترة حتى جاء الهدهد فمكث غير بعيد فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾[2].

إنَّ الهدهد قد جاء بما يجيِّش سليمان عليه السلام من أجله الحشد العظيم، ليلاقي به أهل الكفر والوثنية، الذين لا يعبدون الله الواحد الأحد، حتى يردهم عن الضلالة ويهديهم سواء السبيل.

فقد أخبرهُ بأن في جنوب الجزيرة في اليمن مملكةً تقوم عليها امرأة أوتيت من كل شيء، ملكاً وثراءً وحضارة وقوَّةً، وأن تلك الملكة وقومها يسجدون للشمس من دون الله. وقد زيَّن لهم الشيطان عملهم هذا وأضلَّهم، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليّ العظيم.

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٢٠ و٢١.

(٢) سورة النمل، الآيات: ٢٢ ـ ٢٦.

أبدى الهدهد حجَّةً بيِّنة لغيابه، ولكنَّ سليمان عليه السلام لم يبَّت بأمره، شأنه في ذلك شأن النبيّ العادل، والملك الحازم فقال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾[1].

ويذهب الهدهد، ويلقي إلى بلقيس، ملكة سبأ، بكتاب النبيِّ سليمان عليه السلام . .

وترى الملكةُ كتاباً بين يديها، وتدهشُ لهذا الكتاب، وهي لم ترَ من ألقاهُ إليها، فتفتحهُ على عجل وتقرأ ما فيه:

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[2].

. . . وتجمع الملكةُ ملأها من الوزراء والأمراء، والقادة، وكلِّ ذي شأن أو نفوذ في المملكة، تستشيرهم في أمر هذا الكتاب ـ وهي تصفُهُ بالكتاب الكريم، نظراً لما كان لسليمان عليه السلام من صيتٍ ذائعٍ في الأمصار ـ وتعرض لهم وجوب عدم الاستعلاء على صاحبه، والذَّهابِ إليه مسلمين لله الذي أرسل الكتاب باسمه، وهو الله الرحمانُ الرحيم . .

ويبدو أن بعض الوزراء والقوّاد قد أبدوا التشدُّد، مُذكِّرين بما عندهم من قوَّةٍ عظيمة، وبأسٍ شديد. ولكنهم في خاتمة النقاش تركوا للملكة أن تقرّر ما تراه في مصلحة القوم . .

فقالت الملكة، وهي تبيّن طبائع الملوك في الغزو والحرب:

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٢٧ و٢٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٣٠ و٣١.

ـ إنَّ الملوك إذا دخلوا بلدةً، هدّموا البنيان، وعمّموا الخراب، وجعلوا أهلها أذِلَّة دونما فرقٍ بين الحاكم والمحكوم. وإننا نحن بغنًى عن هذا المركب الخشن. فلسوف أرسل لسليمان هديةً، ثم أرى بما يرجعُ به إلينا المرسلون.

ووافق القوم على رأي الملكة، وانطلق الرُسُل من اليمن وهم يحملون المال الوفير، والهدايا الثمينة، ولكنهم ما إن وصلوا إلى مجلس الملك سليمان ورأى ما جاؤوا به من الهدايا حتى صرخ فيهم قائلاً:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[1].

أكرم الملك سليمان وفادة أولئك الرسل، ولكنه حملهم التهديد والوعيد، بغزو بلادهم، فعادوا إلى مليكتهم يصفون لها ما رأوا من ملك سليمان، وما ينزع إليه من إتيانهم بجنود لا قبل لهم بها، فتأكدت ملكة سبأ من صدق الكتاب، وما انطوى عليه من الرضوخ لأمر سليمان والقبول بدعوة الإسلام التي حملها كتابه إليهم. فكان لا بد من دعوة مجلسها للانعقاد من جديد، والتشاور فيما يجب عليهم القيام به.. فاستقر الرأي أخيراً على الرضوخ لدعوة النبيّ سليمان والذهاب إليه مستسلمين لله ربِّ العالمين.

وما إن وصلت أخبارهم إليه، وما عزموا عليه، حتى جمع بدوره قادة الرأي والحكمة، وأهل العلم والمعرفة في بيت المقدس، وطلب إليهم أمراً ما كان أحد يتوقعه، عندما قال:

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ٣٦ و٣٧.

ـ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟

. . . أما قصد سليمان من استحضار عرش الملكة قبل مجيئها مع قومها، فكان التأثير في قلب الملكة ومن يتبعها، حتى يقودهم هذا التأثير إلى الإيمان بالله، والإذعان لدعوته. ويكون هذا الاستحضارُ معجزةً من رب العالمين تعرِّفهم عظمةَ النبوَّة، وحقيقة الإيمان بدين الله عز وجل. .

وسكت الملأ إلاَّ عفريتٌ من الجن، فقد انبرى مستجيباً وهو يقول له: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك!

وقبل أن يجيب سليمان، قال الذي عنده علمٌ من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك؟!.

وقد قيل: إن هذا الرجل كان آصف بن برخيا، وقد علَّمه الله تعالى أَحدَ أسمائه الحسنى. وإن الإقرار بأحقية أسماء الله الحسنى، ومعرفة بعض أسرارها، يقتضي أن يكون الإنسانُ قادراً أن يأتيَ بالخوارق التي تعجز الإنس والجن. .

وتمَّت المعجزة، واستُحضرَ عرش الملكة إلى بيت المقدس، وبمثل طرفة العين، ووضع في المكان الذي أشار إليه سليمان؛ ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

سرّت النبيَّ سليمانَ عليه السلام هذه المفاجأةُ الضخمة، وأعجبه أن يحقّق الله تعالى مطلبه على هذا النحو المعجز. . لذلك قدَّر أن مثل

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

هذه النعمة ومثل هذا الفضل لا يمكن أن يستشعر المؤمن حيالها إلاَّ الابتلاءَ العظيم، الذي يحتاج فيه المبتلي إلى يقظةٍ ليجتازه، وإلى عونٍ من الله تعالى ليقدر على احتماله. ويحتاج أيضاً إلى معرفة النعمة، والشعور بفضل المُنعم ليعلم الله تعالى صدق عبده فيتولاّهُ..

وكان قد سبق هذا الحدثَ المعجزَ رجوعُ النبيّ سليمان إلى بيت المقدس منذ أن علم بقدوم قوم سبأ إليه مسلمين، لكي يستقبلهم في قصره، ويأخذهم إلى الهيكل يؤدّون فرائض العبادة والدخول في دين الله.

وأراد سليمان أن يطمئن إلى ملكة سبأ، وحكمها على الأمور، وليعلم ما تتمتع به من معرفةٍ، فأمر جنوده أن يغيروا معالم عرشها، ليرى أتهتدي إليه أم تكون من الذين لا يهتدون..

فلما جاءت الملكة استقبلها في مكانٍ خُصِّص لذلك. ثم قال لها وهو يشير إلى عرشٍ قائمٍ بجانبه: أهذا عرشُك؟

قالت: كأنه هو... ولم تعرفْهُ، ولكنها لم تنفِ أن لا يكون هو. إنها لا تنفي ولا تثبت دلالةً على ما لديها من فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة. فقد تمعَّنت في العرش، فإذا فيه شبهٌ كبيرٌ لعرشها. ولكنها في قرارة نفسها قالت: «هل يُمكن أن يؤتى بعرشي من اليمن إلى بيت المقدس في مثل هذا الوقت القصير؟ وكيف يأتون به وعليه من الحرس والجند حشدٌ كبير؟».

والمهم أن الملكة قد أبدت ذكاءً خارقاً، فكان جوابها: «كأنّه هو»..

ويكشف لها سليمان عليه السلام عن المفاجأة، ويقولُ لها: بل هذا هو عرشك.. فتذهل وتدهش..

ثم يأمر بأن يدخلوها إلى الصرح الخاص في قصره، حيث كان قد أقامَ فيه ردهاتٍ مغشَّاةً بالبلَّور الذي تجري من تحته المياه، فلما دخلتْ ملكةُ سبأ الجناحَ البلّوريَّ من القصر، حسبتْ أنها ستخوضُ في اللجة، فكشفت عن ساقيها، خوفاً من الابتلال.. وبذلك تمت المفاجأة الأخرى التي أعدّها لها سليمان عليه السلام، فتقدم منها قائلاً: إنه ليس ماءً، بل هو صرح ممرد من قوارير.

فأدركت الملكة أنها أمام عجائب تُعجز البشر، ولكنها تدلُّ على أن سليمان عليه السلام قد أُوتي قدراتٍ عظيمةً من لدن قادرٍ عظيم. وأدركت أن القادر هو الله وحده، فرجعت إلى الله، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة الشمس، معلنةً إسلامها لله رب العالمين على يدي سليمان عليه السلام.

موت سليمان عليه السلام

وكان من عادة سليمان عليه السلام أن يعتكف في بيت المقدس تعبّداً لله في أوقات معينة من السنة. وقد تطول فترة تلك العبادة أو تقصر بحسب ما يقدِّره عليه ربُّهُ من القيام بالطاعات.

دخل سليمان عليه السلام الهيكل وقام على عبادة الله، وكان قد بلغ آنذاك الثالثة والخمسين من العمر. وجاء أمر الله فأدركه الموت وهو متكئٌ على عصاهُ. وكانت الجنُّ تروح وتجيء مسخَّرة فيما كلَّفها به من عمل شاقّ، ولم تدرك أنه مات. وظلَّ على هذه الحالة زمناً لا يعرف مداه إلا الله، حتى نخرت السوسة العصا التي يتكيء عليها فخرَّ على الأرض، وعندها فقط علمت الجنُّ موته وظهرت حقيقة جهلهم للغيب. قال الله تعالى الذي هو وحده عالم الغيب والشهادة: ﴿فَلَمَّا

قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾(١).

وهكذا يجعل الله أنبياءَهُ، في حياتهم ومماتهم، مثالاً وعبرةً لكل من يدَّعي علماً أو حكمة. فقد كان الجنُّ يدّعون عِلْمَ الغيب وهذه فتنةٌ منهم للناس، أشاعوها بعدما عرفوا قليلاً من علم الله الواسع، فكانوا يدَّعون الإتيان بالخوارق. وكان هذا الادعاء سبباً في اعتقاد الناس الخاطىء عن قدرات الجنِّ حتى الآن.

فالجنُّ لا يعلمون الغيب، ولا هم قادرون على إتيان المعجزات والخوارق. وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر للناس كافة، بطلانَ ما يدَّعيه الجنُّ، فجعَل نبيّه سليمان يموت وهو مستند إلى عصاه، والجنُّ تنظر إليه وتظنّهُ ما زال حيّاً، فتستمر في القيام بما عهد إليها من أعباء ومسؤوليات. حتى إذا نخرت الأَرَضةُ عصاه وخرَّ على الأرض جثَّةً هامدة أدركت الجنّ عندئذٍ خطَلَ ادّعائها، وتبيَّن للناس أن الجنّ لو كانوا يعلمون الغيبَ لكانوا علموا الوقت الذي مات فيه سليمان عليه السلام، وَلَمَا لبثوا في العمل الشاقّ والعذاب المهين.

وهكذا كان موت سليمان عليه السلام دلالةً على نسف فكرة علم الغيب من الكائنات التي خلقها الله، بشراً كانوا أم جاناً، إلاَّ من آتاه الله علماً محدوداً من الرسل أو أطلعه على أحداثٍ معيّنةٍ سوف تقعُ في علم الله تعالى في المستقبل. أما في الأصل وفي الحقيقة فلا يعلم الغيب إلا الله عزّ وعلا..

(١) سورة سبأ، الآية: ١٤.

سلام الله على سليمان الذي فضّله ربُّه على كثير من عباده المؤمنين.

داود وسليمان عليهما السلام في القرآن الكريم

في سورة «الأنبياء»:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

وقد أتى الله سبحانه وتعالى على ذكر داود وسليمان عليهما السلام في سورة «النمل» بقوله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ

(١) نَفَشَت: بفتح الفاء وسكونها: أي انتشرت الإبل والغنم ترعى بلا راع.

ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ
ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا
شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ
سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ
تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ
مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ
أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا
دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ
إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ
فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى
بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن
مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن

يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ(1) قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وفي سورة «سبأ»:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي سورة «ص»:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ

---

(1) صَرْحٌ مُمَرَّدٌ من قوارير: أي صَرْحٌ مُمَلَّسٌ من الزجاج.

﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ
مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً(١) حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾
وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ
أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

(١) رُخاءً: أي ليّنةً سهلةً.

الأنبياء بشر يتكاملون

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

أي أنه يهدي إلى الطريق الذي هو أكثر استقامة، وإلى الكلمة التي هي أشدّ صواباً وأثراً..

ولولا القرآنُ الكريمُ لما عَرَفنا قصص الأنبياء على حقيقتها، بعيدة عن التفسيرات والتأويلات التي تعرَّضت لها. فوقع كثيرٌ من المفسرين، عن قصد أو غير قصد، بخطأ أدّى بهم إلى التحريف والتزييف بما يجافي سير الأنبياء، وأخلاقهم، وسلوكهم، وفق ما أبانها القرآن الكريم، الذي نزَّه رسُلَ الله وأظهرهم على حقيقتهم أئمة للهدى، يُحلِّقون في معارجَ من الكمال الخلقيّ، لا يمكن معه بحالٍ أن يقعوا في الخطأ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أن اختارهم واجتباهم واصطفاهم عصمهم عن الخطأ ليكونوا للناس، وخاصةً للمؤمنين، قدوةً يقتدى بهم، ويهتدى بهديهم.

وإذا كان الله تعالى يُعاتب أنبياءه أحياناً فقد كان ذلك من باب

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

أنهم تركوا الأَوْلى وفعلوا ما دونه، وإن كان الذي فعلوه لا يُعَدّ ذنباً ولا جرماً.

ولمّا كان الأنبياء هم أكثرَ الناسِ معرفة بالله عز وجل، فإن واجبهم يقتضيهم دائماً أن يشعروا بالتقصير في حقّه تعالى، لأن الإنسانَ المؤمنَ العاديَّ يشعر أنه عاجز عن أداء شكر الله على نعمةٍ واحدة من نعمه حتى ولو استدام على الطاعة والعبادة آلاف السنين، فكيف بالأنبياء الذين تكون معرفتهم على قدرهم حتى أنهم ليجدون أنفسهم مقصّرين بالشكر عما يستحقه الله سبحانه وتعالى الذي بعثهم بالنبوّة..

إن خاتم النبيين وسيد المرسلين، سيدنا محمداً ﷺ حين نزلت عليه هذه الآية من سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1] سُئل: أتستغفر يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟. فقال ﷺ أوليس أكون عبداً شكوراً؟..

فاستغفار الأنبياء شكر، وشعور منهم بأنهم مقصّرون بحقّ المنعم عزّ وجلّ.. فهذا هو معنى ذنوب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وإذا أردنا أن نعرض لشيء من التحريف، أو نتعرَّف على الإدخال المصطنع الذي أتَتْ به الإسرائيليات، فإننا لا نقع إلا على أمثلة من تأويلات المؤوّلين، وتفسيرات المفسّرين، وهي كما سيتبيّن تُعبّر عن الهوى أكثر مما تدلُّ على العقلانية، وتوافق المقاصدَ الخبيثةَ بدلاً من التدليل على الحقيقة. ومن تلك الأمثلة ما يلي:

---

(١) سورة النصر، الآية: ٣.

أولاً: حادث الملكين مع النبيّ داود عليه السلام

زعموا أن داود عليه السلام اشتهى امرأةً كانت لأحد قادته، أوريا بن حيّان. ولكي يصل إلى تلك المرأة، بعث بزوجها ليشنَّ حملةً كان يعرفُ من قبلُ أنها خاسرة لا محالة، وأن أوريا سوف يقتل فيها، فيكون له ما أراد. واعتمد المفسّرون، للتدليل على هذه الحادثة، تأويلاً، مليئاً بالشطط، للآيات القرآنية الكريمة التالية:

﴿۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾.

فقالوا: إن داود عليه السلام كان متزوجاً من تسع وتسعين امرأة (تسع وتسعون نعجة) إذ النعجةُ في اللغة العربية هي الأنثى من الضأن والظباء والبقر الوحشيّ. وكانت العرب تكنّي بالنعجة أو الشاة عن المرأة. وعليه تكون كنية النعجة هي لزوجة أوريا، الذي تعمّد نبيّ الله - والعياذ بالله - قذفه في أتون المعركة، حتى يظفر بزوجته. وهذا يعني أن داود ارتكب جريمة قتل عن سابق تصوّر وتصميم، اندفاعاً وراء شهواته، غير مُكترث لقيم، أو هيّاب لمبادىء، أو مُراعٍ لحرمات.

---

(١) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٥.

وبالأخص حرمة أحد المقرَّبين منه.

فانظر أيها القارىء الكريم أيّ مستوى أنزلوا إليه الأنبياء. وقد تمادوا فقالوا: إن استغفار داود لربّه كان عن ذلك الذنب العظيم - قتل أوريا - وأن الله سبحانه وتعالى قد غَفَر له..

فكيف نوازن بين غفران الله لداود وبين قوله في محكم كتابه الكريم: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾(1).

ونحن هنا أمام واحدة من حقيقتين:

- إمّا أن الله سبحانه وتعالى يجعل للحادثة الواحدة حكمين: فيقبلُ من داود أن يقتل نفساً ثم يغفر له، ويعود في موضع آخر فيقول بأن من قتل نفساً فكأنّما قتل الناس جميعاً، وحاشَ لله تعالى. وإننا نستغفره إن زلَّ بنا العقل أو اللسان..

- وإما أن يكون داود قد قام بعملٍ أو قولٍ غير القتل، وهذا العمل أو القول قابل للغفران، فغفر الله له. وهذا أقرب إلى المنطق، وإلى الإيمان بقدسية كلمة الله، وبأنه سبحانه هو الحق..

هنا لا بد من العودة قليلاً إلى قصَّة داود عليه السلام فقد رأينا أن وجود الملكين في مجلسه، وفي ظرف لم يكن يستقبل فيه أحداً، قد جعل قلبه يهلع خوفاً، ويؤدّي به هذا الخوف لإصدار حكم على غير الموازين الشرعية بنظرنا القاصر، لأنه استمع لأحد الخصمين، ونطق بالحكم قبل أن يسمعَ بيان الخصم الآخر. إلاّ أن هذا الحكم، لم

(1) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

يؤتِ مفاعيله بعد، فإنَّهُ لم يَضُرّ بأحد الخصمين. ذلك أن داود عليه السلام قد رجع فوراً عن حكمه، بعدما أعلن الخصم الآخر أنَّه لم يُبْد ادّعاءه، فانتبه داود عليه السلام لنفسه، وعادَ فاستمعَ إليه، ثم أعلن الحكم العادل بينهما، وخرَّ راكعاً لله، منيباً تائباً، عمّا سوَّلت له نفسه من خوفٍ أوقعه في سرعة الحكم.

مثل هذا التقصير بفعل الأَوْلى - إذا صحَّ أن نسمّيه ذنباً، مع أنه في حقيقته بلاء من الله تعالى ليبنيَ على أساسه إحدى قواعد العدل بين الناس - حين اقترفهُ داود عليه السلام كان قابلاً للغفران، خاصةً كما قلنا، بأن الحقيقة قد ظهرتْ وأنصف داود عليه السلام المتخاصمين بأن أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. ولمَّا كان في ظنِّه أنه فُتِنَ، فقد نَدِمَ على ما فعلهُ. ولشدَّة ندامته وضراعتِه، ولكثرة استغفاره، غفر الله له، وأنعم عليه بالزلفى وحسن المآب... ولم يقف استغفار داود عليه السلام عند حدّ الركوع والإنابة، ولا عند حدّ التذلُّل والضراعة، بل عَكَفَ، طوال عمره، على الصيام، يقوم به يوماً، وينقطع عنه يوماً، كما هو ثابتٌ في حديثٍ عن الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال: «**أفضلُ الصيام صيامُ داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً**»[1]. ومن فرط ندمِه على ما جنحت إليه نفسه، كانت قراءته للزبور مناجاةً، يبكي فيها نفسه، فيُبكي معه الكائنات من جبل وشجر وطير وإنسان، وهي تردّد صوته، فيتلاقى صداه، في الأودية ما بين الجبال.

إن داود عليه السلام هذا الإنسان الذي تذوب نفسهُ حسرةً من خوفٍ داخلَهُ وجعله ينطق بذلك الحكم، وترقّ حالُه بعدلِ ظنَّ أنه لم يؤمِّنه،

---

(١) كنز العمال الجزء الثامن رقم ٢٤١٤٤.

فيروح يركعُ، ويسجدُ، مستغيثاً من هوى النفس، مستجيراً بالله الرحيم، وينوح وفي نفسه ألمٌ، ويبكي وفي ضميره إشفاقٌ، ويناجي ربَّه طالباً الغفران والرحمة.. هذا الإنسان الذي يذوب من خشية الله تعالى، هل يمكن أن يجعل جمال امرأة، مهما كانت عليه من الفتنة، أو مهما بلغت من السحر، يطغى عليه، ويترك جمال طاعة الله والسعادة في اللجوء إلى أمانه؟!

وهل يعقل أن يكون عبداً لغرائزه، وهو صاحبُ النيّة النقيّة، والنفس الشفافة، التي ترتفعُ عن دنيا الأرض، وتصعدُ في معارج السماء لحناً، وشدواً، وبكاءً، لا ترى إلا جمال طاعة الله، ولا تروم إلاَّ حبّه ونجواه؟!..

إن صفات داود عليه السلام، وخصائصه، وهي أنعمٌ من الله تعالى موهوبةٌ له، لا يُمكنُ أن تعرِّضه للوقوع في الخطيئة، التي تجعله يقدم على ارتكاب القتل من أجل إشباع شهوة. وإن في قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه وهو إمام العارفين، لأكبرَ دليل على تسفيه الإسرائيليات التي حاولتْ أن تُلصِق بداود عليه السلام، وهو نبيٌّ مكرَّمٌ، تهمةً رعناءَ، عاريةً عن الصحة والحقيقة. فقد رويَ أنه قال: «لا أُوتى برجل يزعمُ أن داود عليه السلام تزوَّج امرأة أوريا إلاَّ جلدته حدّين: حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام».

وأخيراً نتساءلُ، وبكل بساطة: لماذا يمتنعُ أن يكون الداخلان على داود خصمين من الناس. وإذا أردنا أن نجزم بأنهما ملكان من عند الله تعالى، وبأنهما جاءا داود في امتحان من الله سبحانه وتعالى، والله يختبرُ أنبياءه بالابتلاء حتى يُظهِرَ للناس مكانتهم، فلماذا لا نجزم

بأن موضوع الخصومة كان نعاجاً، وأن ذكرها يجب أن يحمل على الحقيقة دون الكناية؟.

ثم هل يعقل لرجل واحد عادل، ومهما كانت قدراته أو صفاته أن يتزوَّج تسعاً وتسعين امرأة، يعيشُ معهنَّ، ثم لا يكتفي فيطلب المرأة المائة؟!..

سؤال إجابته بالبداهة نفيٌ قاطع.

ثانياً: حادثة الخيل في حياة سليمان والردّ على بعض الإسرائيليات

وَرَدَ في سورة «ص» من القرآن الكريم: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾(١).

زعموا في تفسير هذه الحادثة أن سليمان عليه السلام كان يُحبّ الخيل كثيراً، وزادَ في حبّه لها، أنه كان يستخدمها في الجهاد والقتال. وذات يوم رأى أن يستعرض الصافنات الجياد، أي الخيل الكريمة السريعة العدو، الواسعة الخطى، فانشغل بها حتى نسيَ صلاة العصر،

(١) سورة ص، الآيات: ٣٠ ـ ٤٠.

وكانت الشمس قد توارت في الحجاب (المغيب). ولمّا تذكَّر أنَّه لم يُصلِّ، غَضِب وحنق وقال: إني أحببتُ حب الخير (حبَّ الخيل لأنها السبيل إلى الخير أي إلى الجهاد) عن ذكر ربي، حتى ألهاني هذا الحب عن القيام بصلاتي. ردّوها عليّ. فلما جاؤوه بها أمسك السيف وراح يُقطِّع سيقانها وأعناقها حتى قتلها جميعاً...

هذه الرواية إن هي إلا تفسيراتٌ إسرائيلية، وتأويلاتٌ لا سندَ لها. ويكفي لدحضها أن نذكر قصة سليمان عليه السلام مع النمل حتى نرى كم كان هذا النَّبيّ الكريم بعيداً عن إنزال الأذى حتى بمخلوقات هي من أصغر مخلوقات الله.

فقد حشد سليمان عليه السلام جيشاً من الإنس والجن والطير، فهم يوزعون ـ للتدليل على الموكب العظيم والحشد الكبير لئلا يتفرّق وتدبّ فيه الفوضى ـ حتى إذا أتى وادي النمل قالت نملةٌ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[1].

إن هذه الحادثة قد وردت في القرآن الكريم، فلا من رادٍّ لها، أو من قادر على نفيها... وهي تدلُّنا على أن سليمان عليه السلام قد امتلأ قلبُه سروراً وهو يسمعُ النملة تنادي أصحابها للدخول إلى مساكنهم حتى لا يُقتلوا بسنابك خيل سليمان وجنوده، وهم لا يعلمون بوجودهم. فهذا التعبير القرآنيّ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يؤكد أن

---

(١) سورة النمل، الآيتان: ١٨ و١٩.

سليمان عليه السلام لو عرف، أو شعر بوجود النمل لأوقف جيشه عن السير حتى لا يؤذيه.

... ويبرز سليمان عليه السلام في حادثة النمل إنساناً أبعد ما يكون عن إتيان الظلم، وهو يبتهلُ إلى الله، شاكراً له تلك النعمة الكبيرة التي جعلته يعرف لغة الحشرات، حتى كانت تلك المعرفة سبيلاً لعدم ظلمه بقتلها عن غير قصد. فهذا الربطُ بين المعرفة التي أوتيها وبين الغاية منها، لا يقفُ عند حدّ البعد عن الظلم، ولو لكائنات صغيرة من خلق الله، بل يتواصلُ في دعائه سليمان عليه السلام ألاّ يعملَ إلا صالحاً يرضاه الله. وأن يدخله الله برحمته وفي عداد عباده الصالحين.

فإذا كان سليمان عليه السلام لا يُقدم على قتل نملة في واد، فالأَوْلى به ألاّ يُقدم على قتل الخيل، وهي خيرٌ له.. وعليه فإن تفسير الحادثة يكون بأن سليمان عليه السلام عندما شغلَه عن صلاته اهتمامه بالخيل، غضب من نفسه لتأخير الواجب الإلهيّ، ودفعهُ غضبهُ لأن يضربَ الخيل على سيقانها وأعناقها بيديه أو بسوط كان بيده، يطردها برفق من أمامه بعدما ألهته عن ذكر الله. ويمكن أن يكون الأمر مطوياً على حبّه لبعض الجياد، وهي التي كان يأنس بالنظر إليها ومداعبتها، فلما أن توارت الشمس وتذكر أنه لم يؤدِ صلاته، طلب إبعادها عنه، وإلا فما معنى قوله: «ردُّوها عليّ» وعندما عادت طفق يمسح على سوقها وأعناقها بكلتا يديه في تلمسه الأخير لها، قبل أن يتخلى عنها بصورةٍ نهائيةٍ لا رجعة فيها، حتى لا يقع في نسيان طاعة الله، فينسى الصلاة مرة أخرى. ولذلك عَقَد عزمه على ألاّ تكون له مركباً بعد ذلك اليوم.

ومن هنا يأتي السياق القرآنيّ، فيكمل الحادثة ويرينا أن سليمان عليه السلام من شدّة الأسى الذي لازمه لعدم قيامه بفريضة صلاةٍ

واحدة في وقتها قد امتنع عن الطعام والشراب حتى نحَل جسدهُ، وهزَلَ بدنه، فصار جسداً ملقى على كرسيه، لا يقدر على الحركة إلا بشقِّ النفس!.

ويورد بعض المفسّرين ـ في هذا الأمر بالذات، أي عندما بات هزيلاً، نحيلاً، يلقي نفسه على كرسيّه ـ أن سليمان كان يطوف على الناس داعياً الفرسان للجهاد في سبيل الله. ولعلَّه قد سعى لغرضه هذا دون أن يبديَ توكُّلاً على الله أو اعتماداً عليه، فكان أن امتنع الرجال عنه، ولم يستجب لندائه إلا امرأةٌ أتته بشقٍّ رجل ـ أي كسيح مشلول ـ وألقته على كرسيّه. فَعَرَف سليمان أنه فُتِنَ عن ذكر الله، لأنه لم يتوكَّل على الله ولم يقلْ: «إن شاء الله»، عندما خرج في تجواله ومناداته للفرسان. فكانت هذه الفتنةُ سبباً لآلام برَّحت جسده، وألقته في عذاب نفسيّ شديد.

وسواء كان الجسد الملقى على كرسيّ سليمان، هو سليمان نفسه لشدَّة عذابه وآلامه، أم كان شِقَّ رجل أتت به امرأة، فمما لا شك فيه أن سليمان عليه السلام قد وقع في أَزْمَةٍ نفسية، جعلته يندمُ كثيراً، ويتوب إلى الله مستغفراً مُنيباً. فيدعو الله أن يغفر له، وأن لا يؤاخذه على ما سلف منه ـ وهذا هو عتاب الأنبياء عليهم السلام عندما يتركون الأَوْلىَ وإن كان حين حصول الأمر جادّاً في سبيل الله ومن أجل مرضاته. فنيَّةُ سليمان عليه السلام صافيةٌ، وإن حدثَ معه ما حدث، ونفسه طاهرةٌ وإن داخل بعضَ المفسّرين هذا الوهمُ وأمثالُه من الظنون التي تنال من مراتب الأنبياء. فرجوعه عن ذلك، وتحميله لهوى النفس جريرةَ ما حصل، ثم اندفاعُهُ كليةً إلى الله بالدعاء والإنابة والاستغفار، كل ذلك أتاح له استجابةً عند الله، فغفرَ له وأثابه عمّا فقده.

وكان الثواب هبةً لا يحلمُ بها بشريٌّ على وجه الأرض، إذ سخَّر الله له الريحَ تجري بأمره أينما أراد، معوّضاً له عن استعمال الخيل كأدوات للجهاد. وسخَّر له الجانَّ يُقيمون له ما يريده من صناعة أو بناء أو أعمال، أو يأتونه بالخيرات من قعر البحار، كي يبنيَ ملكاً لم يعرفه أحدٌ من قبل... فهل هذا الجزاء كلّه يُعطيه الله للعاصي المذنب المخالف لأمره؟. ما بال الناس يذهب الشيطانُ بأحلامهم؟. وهكذا يبدو جليّاً أن ابتلاء الله لأنبيائه يجعله في أنفسهم، حتى يكونوا قدوةً للناس. فالله تعالى قد ابتلى آدم عليه السلام بمعصية ابنه قابيل وقتلِهِ لأخيه هابيل. وابتلى أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأكثرَ من محنة، وكان البلاء العظيم عندما تلقَّى الأمر من ربه تعالى بأن يذبح ولده إسماعيل عليه السلام. ونوح ابتليَ بخيانة زوجه وكفر ابنه. ولوط ابتليَ بخيانة زوجته. وأيوب ابتليَ بالمرض العضال لسنين عديدة وبفقدان الأولاد والمال. ويعقوب ابتلي بإبعاد ابنه يوسف عنه. ويوسف كان بلاؤه عظيماً من إخوته ومن نسوة مصر.. مما يدل أن كل نبيّ كان له ابتلاء معين، للتأكيد على أن الحياة هي ابتلاء للإنسان، وعليه الصبر والإنابة لربه تعالى.

وكان كل نبيّ ما إن يُبتلى بمحنة أو بفتنة حتى يرتدّ على نفسه معاتباً، ثم يلجأ إلى الله تائباً، منيباً مستغفراً. وهذه هي الغايةُ من تلك المحن أو الفتن... فالإنسان العاديّ معرَّضٌ في كل وقت للخطأ. فإن أدرك خطأَهُ، وتابَ إلى الله، فإن الله توّابٌ رحيمٌ، يغفر له ما ارتكب. وإن تمادى في الغيّ، وفي الضلال، فإن الله شديدُ العقاب.

هذا ما تبسطه لنا هذه الحوادثُ عن رُسُل الله ببداهة، ليدفعنا خطأنا حين نقع فيه إلى اللجوء إلى الله واستغفاره والتوبة إليه.

وإن سرّ الابتلاء القائم على الاستغفار والإنابة من جانب العبد والذي تقابله، ولا ريب، رحمة الله تعالى ورأفته بالعباد، قد غاب عن البعض الذين أمعنوا في الضلال فراحوا يؤوّلون آياتِ الله بحسب أهوائهم، ويستعملون التزوير في القصص القرآنيّ، والتحريف في مدلولاته. ففي قصة الجسد الذي أُلقي على كرسيّ سليمان عليه السلام، زعم هؤلاء المحرّفون أن سليمان عليه السلام تزوَّج امرأةً مشركةً ولم يستطع أن يحملها على التوحيد بالله. فعبدت الصنم في داره لمدة أربعين يوماً. وبوجودها في بيته جاءه شيطان اسمه حقيقٌ راحَ يُزيّن له الهوى، فاستطاب سليمان عليه السلام لقاءه، واستعذب حديثه، فسأله مرَّةً: كيف تفتنُ الناسَ يا حقيق؟.

فضحك الشيطان وقال له: أعطني الخاتم الذي بيدك، أدُلَّك على الطريق الذي أسلكه في الغواية.

وناوله سليمان عليه السلام خاتمهُ، فإذا بالشيطان يقذفه بالبحر. وما إن اختفى الخاتم حتى ذهب الملكُ عن سليمان عليه السلام وجلس الشيطان حقيقٌ مكانه على الكرسيّ. فكان في تفسيرهم أنه هو الجسد الذي أُلقي على كرسيّه.

ويتابع الغاوون تضليلهم فيقولون: وكان الناس يَرون حقيقاً ويحسبونه سليمان عليه السلام.. إلاَّ أن الله مَنَعَهُ نساء سليمان عليه السلام فلم يقربهنّ. وكان سليمان عليه السلام قد نُبِذَ، حتى لم يَعُد يُطعَمُ إذا استطعم. وظلَّ على هذه الحال مدَّة من الزمن. فجاء يومٌ وأعطته امرأةٌ حوتاً (سمكة)، فشقَّ بطنه وإذا خاتمه في جوفه فَرُدَّ عليه ملكُهُ، وطَرَد الشيطان.

لله ما هذا الانحطاطُ الفكريّ، والتضليلُ العقليّ، والدَّسُّ

الخبيث، والجرأةُ على أنبياء الله وصفوة خلقه!. وهل بلغت النبوَّة هذا الحدّ حتى تكون قائمةً على خاتم في يد، إن ضاعَ ضاعتْ، فلا نبوَّة ولا أنبياء، وإن وجد عادت النبوَّة إلى صاحبها وعاد المُلك الذي لم يكن لأحدٍ من قبل سليمان ولا من بعده، بما أُوتيَ فيه من هبات الله وعطاياه؟!..

هل يجوز لمؤمن، أو لأيِّ إنسان مهما كان مُعتقدُهُ، أن يتصوَّر بأن الله سبحانه وتعالى يتيحُ للشيطان مجالاً كي يتمثَّلَ بصورة نبيّ، فيجلس على كرسيّه، ويحكم ويفصل بين الناس بالعدل والحق؟ إذن أين الغاية من الرسالات السماوية التي تقوم على تهذيب النفس الإنسانية، وتقويم الأخلاق، واتِّباع طريق الحقّ والخير والهداية، وأين رحمة الله ورأفتُهُ بعباده؟!..

إنه تصوُّرٌ أخرق ولا شكَّ. ولا نظنُّ أن مكابراً مهما بَلَغَ في مكابرته أو عناده يقبلُ بمثل تلك التأويلات.. إنها زور وقح، وبهتان فاضح، وُضِعَ لغاياتٍ خبيثة لا يُراد منها إلا الدَّسُّ لانتهاك حرماتِ الله وقُدسِ أقداسه..

عصمة الأنبياء عليهم السلام

ونعود إلى أول الحديث فنقول بأن سير الأنبياء، وقصص حياتهم، قد تعرَّضت، قبل بعثة النبيّ محمد ﷺ، لعبث العابثين، وتضليل المضلّلين، لدرجةٍ لم تحفظ للأنبياء وقارهم، ولم تُقدّر عصمتهم. فأين عصمة الأنبياء من ذلك التضليل، وهي كفيلةٌ بأن تمنع عنهم ارتكاب الأخطاء؟.

... فعصمة الرسل تتعلَّق بالعقيدة. ودليل هذه العصمة عقليٌّ

قبل أن يكون نقلياً. فحتى نقول أو نوقن بأن هذا الإنسان هو نبيٌّ ورسولٌ لا بدَّ أن تكون لنا القناعة العقلية على صدق النبوَّة والرسالة، ومتى تحقَّق ذلك كانت له العصمة.

فالنبيّ الرسولُ مُكلَّف بالتبليغ عن الله سبحانه وتعالى. وهذا يعني أنه معصومٌ في هذا التبليغ، وممنوعٌ عليه النقل بأقلِّ تحريف، إذ لو تطرَّق الخللُ إلى إمكانية عدم العصمة في مسألة واحدة لتطرَّق الخلل إلى جميع المسائل التي يُبلِّغها، وحينئذٍ تنهار الرسالة، وتنهار النبوَّة كلها. فثبوت أن هذا الشخص نبيٌّ لله، وأنه رسولٌ من عند الله، يعني أنَّه معصوم فيما يُبلّغه عن الله. وعصمته حتمية، والكفرُ بها كفرٌ بالرسالة التي جاء بها. وعليه فإن من المميّزات أو الصفات التي يُحتّم العقلُ وجودها في كل نبيّ رسولٍ أن يكون بعيداً عن الخطأ فيما يُبلِّغ.

أمّا عصمة الأنبياء والرُّسل عن الأفعال المخالفة لأوامر الله ونواهيه، فالدليل العقليُّ قائم على أنه معصومٌ عن الكبائر والصغائر حتماً، فلا يفعلُ الصغائر ولا الكبائر مطلقاً، لأن فعل أية صغيرة يعني ارتكابَ المعصية. والطاعة في الأصل لا تتجزأ، وهكذا المعصية أيضاً لا تتجزّأ.

فإذا تطرَّقت المعصية إلى العمل، تطرَّقت إلى التبليغ، وهذا ما يُناقض النبوَّة والرسالة. وما دام الأنبياء والرّسل معصومين في التبليغ عن الله، فإنهم ولا شك معصومون عن الكبائر والصغائر.

أمّا العصمة عن الصغائر، فإنَّه قد اختلف العلماء بشأنها. فمنهم من قال إنهم غير معصومين عنها لأنها ليست معصية، ومنهم من قال بأنهم معصومون عنها لأنها معصية بحدّ ذاتها.

والحقّ أن كل ما كان مطلوباً فعله، أو مطلوباً تركه، فهم معصومون عنه. أما ما كان لهم حرية الاختيار فيه من المباحات فيجب أن يكون على أعلى مستوى من التقدير الشخصيّ. وهذا ما يسمى من باب الأَوْلى لهم تركه، أو من باب الأَوْلى لهم عمله، لأنهم القدوة والأسوة الحسنة لبني البشر. وهذا ما يحتمّه العقل والمنطق، إذ إن القائد يظلّ دوماً الرائد في العمل.

والرسل عليهم السلام يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من رضى وغضب وخوف، وما إلى ذلك من الانفعالات النفسية، أو من مظاهر العواطف الإنسانية. ولكنهم يختلفون عن سائر الناس بأن الانفعالات أو العواطف لا تثور فيهم من أجل أغراض ذاتيّة أو أنانيّة، بل من أجل المهام التي نُدبوا لها، وفي سبيل الله ومرضاته.

فمثلاً الخوف هو مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء، ولما كان كذلك فإنه يعتري جميع الناس، بمن فيهم الأنبياء. ولكن هذا الخوف تختلف مفاهيمه باختلاف بواعثه وغاياته، وباختلاف التركيب البيولوجيّ والنفسانيّ عند الإنسان. ويبرز الخوف في معناه النفسيّ التربويّ بوجوه ثلاثة: فالبعض يخاف نفسه ويخاف الناس، من خلال علاقاته الشخصية والاجتماعية. والبعض الآخر يخاف الله. ومنهم من يخاف الناس ويخاف الله في علاقاته الشخصية والاجتماعية والروحية. وهذا البعض الأخير منه ما يغلّب خوف الناس على خوف الله، ومنه ما يغلّب خوف الله على كل خوف.

والرسل وهم بشرٌ، هم من الفئة الصالحة التي تُغلِّبُ خوف الله وحدهُ. لأنهم هم الذين يُبلِّغون رسالات الله ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلا الله.

وما خوف داود عليه السلام وهو في مجلس القضاء إلا برهان على خشية الله، لأن الحاكم مأمورٌ بالعدل والإنصاف، وإلا كان مؤاخذاً من الناس، ومن الله.

وما قلناه عن الخوف، قد ينطبق في قليل أو كثير على الغضب عند الأنبياء. والمشاعرُ التي تُظهر الغضبَ منها ما هو محمودٌ، ومنها ما هو مذموم. فالغضب المذموم ما كان في غير الحق. أما محموده فهو ما كان في جانب الخير الخاص والعام، ومن أجل الدين.

وليست الخلائق وحدها هي التي تغضب، فالله سبحانه وتعالى، وهو الخالق لكل الكائنات، يغضبُ. ويظهر غضبهُ في سَخَطه على من عصاهُ، وفي عذابه لمن أضرَّ بخلائقه.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يغضبُ، فهل غريبٌ أن يغضب الأنبياء؟ ومتى كان غضب الأنبياء إلا في سبيل الله، ومن أجل طاعته ومرضاته؟.

نعم، إن الأنبياء يغضبون، ولم تخلُ حياة نبيٍّ من غضب، لأنَّ المهامَّ التي نُدبوا لها من الله تعالى كانت تصطدم دوماً بالتكذيب والإنكار فوق ما يرافقها من الصعاب والشدائد..

وإذا أردنا أن نعطيَ أمثلة عن غضب الأنبياء، فإنها كثيرة، ولكننا نكتفي ببعض منها دلالةً وتعبيراً: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. (النون هو الحوت) وذو النون أي صاحبه هو النبيّ يونس بن متّى عليه السلام.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

وروي أنَّ عيسى عليه السلام صعد إلى أورشليم، في وقت قَرُبَ فيه الفصحُ عند اليهود، فوجد في الهيكل باعة البقر والخراف والحمام والصيارفة على موائدهم، فصنع سوطاً من الحبال وأخرج الجميع من الهيكل مع حيواناتهم وطيورهم، ونثَر دراهم الصيارفة وقلَب الموائد. وقال لباعة الحمام: ارفعوا هذه من هنا ولا تجعلوا بيتَ الله بيتَ تجارة. لقد غضب عيسى عليه السلام من هؤلاء القوم الذين جعلوا بيت الصلاة بيتاً للتجارة، فكان غضبه في سبيل الله..

ويأتي في هذا السياق غضبُ النبيّ محمد ﷺ في حادثة العسل. فقد كان من عادته ﷺ أن يشرب العسل المُذاب بالماء عندما يكون عند زوجه زينب بنت جحش. وساء ذلك اثنتين من نسائه، فاجتمعتا واتَّفقتا على أن تُكرِّهاً إليه المكوث عند تلك الزوجة. ورأتا أن يكون شرابُ العسل الذي يتناوله هو السبيلَ لتلكَ الكراهية، فتواصتا أن تقول كلٌّ منهما للنبيّ عندما يدخل عليها: «إني اشمّ منك رائحة المغافير يا رسول الله» (والمغافير هو صمغٌ كريه الرائحة). وهكذا نفَّذت الزوجتان ما تواصتا عليه، فقالت كل واحدة منهما عندما دخل بيتها: ما هذه الرائحة يا رسول الله أأكلت المغافير؟.

وبدون أن تكون لديه أية أبعاد عن طرح هذا السؤال كان عليه الصلاة والسلام يردُّ على كل واحدة: لا، بل شربتُ عسلاً.

ولكنَّ إحداهما زادت إصراراً فقالت: يبدو أنك يا رسول الله تشربُ العسل الذي امتصّته النحلة من العرفط (المغافير)؟ وهنا تذكر ﷺ رائحة المغافير وقال: لا أطعمُهُ بعد اليوم أبداً. وحرَّمه على نفسه..

فتحريم العسل لرائحته، لم يكن في سبيل نفسه، بل في سبيل

الله. فهو يأنف إلاَّ أن يكون طيّب الرائحة وهو يؤدّي الصلاة، وعندما يلاقي جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ. وإنه بطبعه لا يحبّ أن ينفِّر الناس من رائحة تنبعث منه..

والحقيقة البعيدة عن التأويل، أن النبيَّ ﷺ فعل ذلك ليضرب مثلاً رائعاً في السلوك الاجتماعيّ والعلاقة الزوجية، إلى جانب أنه يعرف أكثر مما نعرف أن وراء القصة أشياءَ غير المغافير لأنه لم يشمَّ هو رائحة المغافير من قبل، ولم يتذوَّق طعمها. وهو على كل حال يحرّم ذلك على نفسه بانتظار ما سوف يتنزِّل عليه من حكم من لدن ربه تعالى، مما تجده في بقية القصة من سورة التحريم. فما هذا السلوكُ النبويُّ العظيم؟.

فالإسلام هو طلبٌ من الله سبحانه وتعالى، والطلبُ يتضمَّن معنى الأمر والنهي. والأمر يكون وجوبياً أو استحبابياً. فحتى يكون الأمر وجوبيّاً، يجب أن تكون هناك قرينة تدل عليه كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]. ومن قرائنه الدالَّة على الوجوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾[3].

وأمّا الأمر الاستحبابيّ فهو كمثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة الماعون، الآيتان: ٤ و٥.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

إذن فيكون الأمر الوجوبيّ فرضاً واجباً، وهو ما يُثابُ الإنسان على فعله ويُعاقبُ على تركه.

وأمّا الأمر الاستحبابيّ فهو الأمر بشيء مندوبٍ أو مستحبٍ أو نافلة، مثل الصدقة من غير الزكاة، أو الصيام في غير أيام رمضان، أو في غير الواجب منه، أو في الصلاة لغير الفريضة الواجبة، أو الحج مرة ثانية.. فالمندوب أو المستحب هو الأمر الذي يُثاب الإنسان على القيام به ولا يُعاقب على تركه.

وأمّا النهيُ الوجوبيُّ فهو الذي يُعاقب الإنسان على فعله ويثابُ على تركه مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾(١).

وقرينةُ تحريمه والعقابِ عليه هي في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وأمّا النهيُ الاستحبابيُّ الذي ينشد الكمالَ الدينيَّ والخلقيَّ فهو النهيُ عن اللغو. فالله سبحانه وتعالى مدحَ تاركي اللغو فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٣). والله سبحانه وتعالى لا يعاقب مرتكب اللغو بدليل قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾(٤) فيكون اللغو مكروهاً. والمكروه هو الذي لا يعاقب الإنسان على فعله ولكنّه يثاب على تركه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

وبين الأمر والنهي يأتي المباح.

وبذلك لا تخرج الأحكام الشرعية عن خمسة:

الواجب، الحرام، المندوب، المكروه، والمباح.

ومن خلال هذه الأحكام الخمسة لا يكون عند المسلمين حرية العمل، بل حرية الاختيار في المباح. ومن هنا لا توجد حرية مطلقة للمسلم. بل إن المسلم، والإنسان عامة، مقيَّدٌ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

وإذن باستطاعتنا القول إن في الإسلام إباحةَ عمل لا حرية عمل.

فالنبيُّ محمد ﷺ عندما كان يتناول شراب العسل، إنما كان يأتي عملاً مباحاً. وحين حرَّمه على نفسه لم يُبدّل حكماً ولم يُحدث سنَّة، وإنما دار في فلك المباح. ومع ذلك كان التحريم سبيلاً لمعاتبةِ الله تعالى له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٢). وهو عتابٌ موحٍ بشيء هامّ. فلا يجوز أن يحرّم المؤمن على نفسه ما أحلَّه الله لهُ من متاع. والرسول ﷺ لم يحرّم العسل بمعنى التحريم الشرعيّ، ولكنه قرَّر حِرمان نفسه منه. فجاء هذا العتابُ يوحي بأن ما جعله الله حلالاً لا يجوز حرمان النفس منه عملاً، ولا قصداً إرضاءً لأحد... والتعقيب: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، يوحي بأن هذا الحرمان ليس من شأنه أن يستوجب المؤاخذة وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، لأن المغفرة لا تكون إلاّ على الرجوع في العهد، وهو إيحاء من الله اللطيف الخبير.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١.

ففي هذا الحادث نرى أن النبيّ ﷺ قد غضب ـ من الواقع الذي حدث ـ حتى حرّم أكل العسل على نفسه. ولكنه، وهو النبيُّ القائم على الأمر الجلل ليس له أن يمتنع عن مباح ويحرّمه على نفسه، لأن في سلوكه، وفعله وقوله، قدوةً وسيرةً لسائر بني البشر، فإن كان هذا السلوك قويماً فحريٌّ بالنّاس اتّباعه، كي تستقيم الحياة نمواً ورفعةً وتطهراً. وبذلك يحافظ الدين الذي يدعو إليه الرسول الأعظم على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم، الذي يهيىء الأنفس في الدنيا لمستوى نعيم الآخرة، ويعدُّ المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود.

وهكذا نرى أن الأنبياء يخافون، ولكن من أجل الحقيقة، ويغضبون، ولكن في سبيل الإيمان، وفي سبيل الله وقدسيته. ومن أجل ذلك نرى الله سبحانه وتعالى يخاطبهم بالعتاب، ويزيّنهم بالتقوى، ويزيدهم في الرفعة والثواب.

ولقد قلنا: إن خوف الأنبياء أو غضبهم، إنما ينجم عن الانفعالات والعواطف التي تشكّل عبئاً ثقيلاً على جوارحهم، خصوصاً وهم يحملون عبئاً أكبر وهو التكليف الذي يختارهم الله تعالى له. وكل ذلك ليكون الطريقُ لتنوير الأذهان، وتربية النفوس وهداية القلوب، طريقاً مستقيماً لا عوج فيه.

لقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لهذا العبء حين عرض الأمانة على الجبال، فأبت أن تحملها على الرغم مما هي عليه من الصلابة والقوّة. فلما عرضها على الإنسان قَبِلَهَا، وتحمَّل مسؤوليتها. وإن من يتحمَّلُ مسؤولية التكليف الكبرى، التي هي النبوة أو الرسالة، لخليقٌ به أن يكون بعيداً عن الشطط، والوقوعِ في الخطأ والمعصية.

ومن كان على هذا النحو من الخصائص والقدرات، حريٌّ به أن يرتفع عن نقد بني البشر، مهما تصوَّر الناقد نفسه فذاً من أفذاذ العلم، أو جهبذاً من جهابذة الفكر. .

إننا نجزم بصورة قاطعة، أن من يتعرَّض للأنبياء بالنقد، أو بالإدخال والوضع والتزوير في سير حياتهم هو مختلِقٌ كاذبٌ وذو أغراض دنيئة. لأنه لا يجوز له أن يتقوَّل على الأنبياء بما ليسوا فيه، ولم يكونوا أبداً فيه! .

فالإنسان عندما يُبعثُ نبيّاً يكون الله تعالى قد اختاره وهو على درجة فائقة من الكمال، ومستوى من الرفعة في شخصيَّته، لا يضاهيها شخصية إنسان، ولا يفوقها إلا كمال الخالق ورفعته، الذي عزَّزه بتلك الشخصية.

وإذا كان عتاب الله لأنبيائه، هو في ظنّ البعض سبيلٌ يمكن أن يدلف منه لحبك الأضاليل، فإن هذا البعض قد أخطأ ولم يُصِب، سواء فهم ذلك العتاب والقصد منه، أم لم يفهم.

فالله سبحانه وتعالى عندما يعاتب أنبياءه ورسله، إنما يفعل ذلك من أجل الوصول بهم إلى مستويات أعلى مقاماً وأجلّ شأناً، كما قلنا، ومن أجل أن يضرب للناس المثل في كل ناحية هامة من نواحي الحياة الخلقية أو الاجتماعية.

فنحن نشعر برهبة ـ وهذا فخارٌ لنا ـ أمام إنسان عالم يأتي بعلم جديد، أو يطلعُ على العالم بمعرفة لم تكن مكشوفة من قبله. وقد قدَّرنا كثيراً تلك العقول النيّرة التي دفعت الإنسان ليحطّ قدميه على سطح القمر.

ولم يكن ذلك التقدير في الحقيقة إلا للعلم الذي به تحقق هذا

الحدث. والإنسان بما آتاه الله من ملكات وقدرات ذاتية، قادمٌ على تحقيق إنجازات لا يمكن تصوّرها الآن. فقد يغزو الكواكب الأخرى غير القمر، مهما بلغت المسافات عنها بُعداً. . . وقد يتوصَّل إلى اختراعات على سطح الأرض، أو اكتشافاتٍ في بطون البحار، مما قد يقلب المفاهيم السائدة، ويغير النواميس المتعارف عليها. . ونظرتنا هذه، التي يؤكدها التطوّر المتعاقب، مصدرها أيضاً الإيمانُ بقدرة الإنسان للوصول إلى عهودٍ من العلوم والمعارف كبيرة ورائعة. .

فإذا كانت للإنسان ـ وهو المخلوق ـ هذه القدرات، فكيف يجب أن يكون الخالق؟ ألا إن الله هو العليُّ العظيم، القادر المقتدر، وهو على كل شيء قدير.

وهل يمكن القياسُ بين معرفةٍ لجزئيات من الكون، وبين معرفةٍ للكون بكليَّته، وبكل ما فيه من مخلوقات وكائنات؟

والحقّ أنه لا يمكن المقارنة بين معرفة الإنسان الجزئية، وبين علم الله الواسع. وهو سبحانه وتعالى من أجل أن يُشعِرنا بعلمه الذي لا يحدُّه عقل الإنسان يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[1]. ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[2]. ثم بقوله تعالى: اليقين القاطع ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] أي بالنسبة لعلم الله سبحانه.

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

ومن فضائل الأنبياء ـ ولو لم يكن لهم إلا هذا الفضلُ لكفاهُم ـ أنهم يعرفون الله. وميزةُ تلك المعرفة أنها خصيصة النبوَّة. . فالنبيُّ له صلةٌ خاصة بالله عن طريق معرفته به. . وهي صلةٌ لا تتسنَّى لبني البشر العاديين إلا بمقدار، ولفئة معيَّنة من الراسخين في العلم. وبحسب القرآن الكريم فإن العلم يكون:

ـ لله تعالى العليم الخبير.

ـ لملائكة الله الذين علَّمهم الله عز وعلا ما يليق بمكانتهم في العبادة والطاعة والاعتراف بوحدانيَّته.

ـ ولأولي العلم من أهل الأرض وهم الراسخون في العلم الذي أتاهم من لدن عزيز حكيم، وهم العلماء الذين يوحدون الله سبحانه بالفطرة وبالدليل. وقد قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾[1].

ومن هنا كان ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾، وبما وهبهم الخالق من العلم هم أحق الناس بمعرفة الله وقدسيته سبحانه وتعالى، وهم أكثر الناس خشيةً من الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[2].

والأنبياءُ، وهم العلماء الحقيقيون العارفون بالله، هم أكثر ما يكونون في حياتهم عبادةً، وتقديساً، واستغفاراً لله. . فهم الفئةُ الصالحة، والثَّلة المختارة، التي لو تعرَّفنا على شذرات من أطراف حياتها، لأُنبئْنا بأنها الأكثرُ تعلُّقاً بحب الله والأكثرُ التزاماً بطاعته، والأكثرُ استغفاراً له.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

فهذا الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ يأمره الله أن يكون مستغفراً له، وذلك حبّاً به وزيادة في تكريمه، وقد صَدَر هذا الأمرُ إليه في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾(١). ولم يُعرَف النبيّ محمد ﷺ بعد نزول تلك الآية إلا مستغفراً..

واستغفار الأنبياء والرسُل هو شكرٌ. والشكرُ يكون على النعمة والهبة والعطية. وقد كانت أولى أنعم الله، على أنبيائه ورسله، ومن أعظم هباته، وأكبر عطاياه لهم، ما منحهم من معرفة، وما جعلهم عليه من صلة وثيقة به.

نعم هذا هو استغفارهم، وتلك هي «ذنوبهم» التي يستغفرون منها عندما يختارون من المباح ما قد يكون فيه عظة لغيرهم، حتى ولو بدا في الظاهر أنه قريبٌ من الخطأ، أو الذنب وهو في الحقيقة ليس ذنباً كما يتبادر إلى الذهن الساذج. وليس استغفارهم إلاّ من باب عمق معرفتهم بالله، وحبهم له، وشكرهم إيّاه.. ومن أجل ذلك كان العتابُ من الله لهم، في بعض الأحيان، حتى تقوى الصلة وتكبر، ويزداد الاستغفار ويكثُر..

وإذا كان الأنبياء والرسل، قد جُعلوا على درجات، فذلك لحكمةٍ أرادها الله تعالى واقتضاها. إلا أن العباد جميعاً، وخاصةً المؤمنين منهم، مأمورون بالوقوف عند حدّ التقدير والطاعة لجميع الأنبياء والمرسلين، دونما أي تمييز أو تفريق بين أحدٍ منهم.

وأما تقدير الله وتعالى، وحكمه فيما يقدر ويحكم فمن أجل مراعاة مصالح بني البشر، رأفةً بهم ورحمةً، بحيث لا يُخاطبون إلا

(١) سورة النصر، الآية ٣.

بمقدار ما هم عليه من قدرات عقلية ونفسية، وبمقدار ما فيهم من طبائع تتحمَّل أمر الله عزَّ وعلا . .

ففي عهودها الأولى كانت البشرية تمرّ بطور الطفولة من حيث الوعي والإدراك. وكان من الطبيعيّ أن تتأثر، أكثر ما تتأثّر بالأشياء المحسوسة، الملموسة، قبل تأثُّرها بالأمور الفكرية والنظرية. فساق الله تعالى المعجزاتِ على أيدي الأنبياء والرُّسل، لتسترعيَ انتباه الناس، وتوقظ مداركهم. فكانت تلك المعجزاتُ تلبيةً لنداءاتهم الفكرية، ولحاجاتهم النفسية . . .

وهكذا كان كلُّ رسولٍ أو نبيٍّ، يأتي بما يتناسب وحالَ قومه، أو بما يتوافق وعلومَ عصره. وكثيراً ما كانوا يضعون القواعد العامَّة التي ترمي إلى تقرير السلوك الإنسانيّ المتكامل. . . وهذا ما تؤكّده قصص الرّسل الأنبياء، والأنبياء الذين يعملون بشريعة الرسل، كما دلَّ عليه القرآن الكريم باعتباره كتابَ الله الجامع لما تقدَّم وتأخَّر. والبراهين كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

ـ معجزة النبيّ موسى عليه السلام فيما سمّوه سحراً: فقد كان قوم فرعون أهلَ علوم رياضية وطبيعية وفلكية. ورغم انتشار هذه العلوم في أيامهم، فقد كانوا يتأثرون بالسحر. فلمّا جاءهم نبيٌّ من الله، يدعوهم إلى طريق الحقّ والصواب، كان أن حاجّوه بالسحر. وآتى الله موسى معجزة تتفوّق على ما يُحاجّونه به، فألقى عصاهُ فإذا هي حيّة تسعى وتلقف كل ما صوَّروه بسحرهم. فالذي كان أكثرَ شيوعاً في ذلك العهد، والذي كان الناس أشدَّ تأثراً به، وهو السحر، تفوَّق به موسى على كل السحرة حتى تكون له القدرةُ على التأثير في العقول والنفوس . .

وما أتى به النبيّ موسى في تلك الحادثة بدا للناس لأول وهلة، وفي ظاهره أنه سحرٌ. ولكنه في الحقيقة معجزة من رب العالمين آمن بها السحرة أنفسهم. وهو سرٌّ أعطيَهُ النبيّ حتى يمكّنه الله من التغلُّب على المعتقدات السائدة، والتأثير في الناس بما يشدّهم إلى الحقيقة التي يدعو إليها..

- ومثلها قدرة النبيّ عيسى عليه السلام على إحياء الموتى، وشفاء الأبرص والأكمه. فمن المعروف أن الرومان كانوا سادةَ عصرهم في الطب آنذاك. وكما كان مفروضاً على موسى أن يجابه قومه بما يدَّعونه من السحر، فقد كان على النبيّ عيسى ابن مريم أن يجابه الناس بالشيء الأكثر أهمية في حياتهم. ومن أجل ذلك حلَّت معجزة الله الكبرى حين وهب لنبيِّه عيسى المسيح القدرةَ على إحياء الموتى، وشفاء الأبرص والأكمه. وذلك من صلب الطب وصميمه. إلا أن الطبَّ مهما بلغ من قدرة، فإنَّه كان وما زال عاجزاً عن إحياء ميّتٍ، أو شفاء أبرص أو أكمه. فالطبُّ بمختلف فروعه واختصاصاته يطأطىء مذعناً أمام الحقيقة الباهرة المدهشة التي قام بها فعلاً عيسى ابن مريم عليه السلام، وهي إعادة الحياة إلى ميتٍ، أو شفاء مريض بالبرص، أو إعادة السمع إلى أصمٍّ أو النطق إلى أكمه..

- وقسْ على هذين الحدَثَين الكبيرين، العظيمين، أحداثاً أخرى في أعمال الرسل والأنبياء:

فداود عليه السلام تشدو لغنائه ومزماره الجبالُ والطيرُ والشجر..

وسليمان عليه السلام تُسخَّر له الرياح مطايا تحمله وتنقله حيث شاء، تماماً كما نركب اليوم الطائرة أو الصاروخ..

وإبراهيم عليه السلام لا تحرقه النار، وهي كالبركان تستعرُ حرّاً، وتتأجّج لهباً. وابنُه إسماعيل عليه السلام يتفجَّر الماء بقدميه وهو طفلٌ، في أرضٍ نضُب ماؤها، وجفَّ رملُها. وهو نفسه إسماعيل الذي لا تقطع السكينُ الحادةُ رقبته عندما شرع أبوه بذبحه إنفاذاً لأمر ربهما تعالى.

ولوط عليه السلام تندثرُ مدائنُ قومه في لحظات، وتصبح في بحيرة مُميَّزةٍ عن سائر بحار الأرض ومحيطاتها وبحيراتها بمائها المالح الثقيل.

ويوسف عليه السلام يُباعُ ويُشترى سلعة بخسةً، ويُسجنُ من بعدها، ثم يصيرُ سيّد القوم، ووزيراً يوزّع الطعام في أرض مصر ويعطي المِيرةَ لأهل الأمصار من حولها خلال السنوات العجاف، حتى أنَّ إخوته الذين كادوا له وأودعوه بطن الجبّ قد افتقروا إلى خيره وَبِرِّهِ فجاؤوا من فلسطين يطلبون المؤن.

وهكذا جاء الأنبياء والرُسُل، بأفعالٍ تتناسبُ وظروف الزمان والمكانِ التي عاشوها، وإن كانت الغاية التي بُعِثوا من أجلها واحدة، وهي تخليص الناس من عبادة الأوثان والأصنام، ودعوتهم إلى حقيقة الإيمان بالله الواحد الأحد، وتربيتهم على القيم الرفيعة والمُثُل السامية التي تنير عقل الإنسان، وتهذّب نفسه، وتساعدُ على نقاوة ضميره، بما يحقق تكامله على الأرض، وخلودَهُ في الآخرة.

من هذا السياق الوجيز، يتبيَّن أن البشرية قد تقدمت، على مرّ العصور والأزمان، حتى بلغت النُضجَ الفكريَّ الكامل. فلم تعد بحاجة إلاّ إلى الكلمة، ومن هنا صارت الكلمةُ هي مفتاحَ الحياة،

وصار العلمُ هو سيّدَ الكون، وصار الكتابُ هو قدسَ الأقداس، لأنه ينطوي على الكلمة والعلم..

والأنبياء والرُّسلُ أدُّوا رسالات ربهم، ودخلت البشريةُ في ذروة نضوجها الفكريّ، فلم يبقَ إذن إلا الختام. ويتحقَّق ما يريده الله، ويكون محمد بن عبد الله ﷺ هو خاتمَ الأنبياء، ويكون القرآنُ الكريم هو كلامَ الله في رسالته الأخيرة إلى الأرض.

وهذا القرآن، هو بذاته معجزة، بل معجزات: آيته معجزة، وسورته معجزة، ومبناه معجزة، ومعناه معجزة. ومعجزته الكبرى أنه كائنٌ حيّ لا يموت... فقد يفنى الإنسان، ويذهبُ من هذا العالم، ولكنَّ هذا الكتاب يبقى لأنه تبارك وتعالى قال عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1] ولأنه قول الله، والله أزليّ، سرمديٌّ، فقوله باقٍ ومحفوظٌ بأمره جل وعلا.

من هنا، ومن مضامين هذا الكتاب المنزَّل بالوحي من الله، نستطيع أن نستشفّ قصص الأنبياء والرُّسل على حقيقتها بعيدةً عن كل تحريفٍ أو إدخالٍ أو نَحْلٍ أو وضعٍ مكذوب.

ولله الأمرُ والنهي، من قبلُ ومن بعد، ويومئذٍ يفرح المؤمنون المخلصون الصادقون بوعد الله سبحانه وتعالى الذي لا يخلفُ الميعاد.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

الیاس علیہ السلام

إلياس عليه السلام

لقد خَلَفَ موسى عليه السلام بعد موته على بني إسرائيل يوشع بن نون عليه السلام. وكان وصيَّه من بعده، يقوم على تدبير شؤونهم على الرغم من أنهم كانوا موزعين إلى اثني عشر سبطاً، ومتفرقين في بلاد الكنعانيين وعلى أراضيهم.

وكان في بعلبك، وهي من أعمال بلاد الكنعانيين، ملكٌ ظالمٌ، فتنَ الناس وجرَّهم إلى عبادة صنم يقال له «بعل». وعكف أهلُ تلك الديار على عبادة هذا الصنم من دون الله سبحانه. ولكنَّ رأفة الله تعالى بعباده، ورحمته بخلائقه لا تنقطع أبداً. فقد بعثَ إليهم أحد رُسُله إلياس عليه السلام يدعوهم إلى التقوى، وإلى عبادة الله أحسن الخالقين. وذلك مصداقُ قوله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1].

وخاف الملكُ الطاغيةُ على ملكه من دعوة النبيّ إلياس، فأضمَرَ له الشرّ وأراد قتلهُ، فأرسل خمسين رجلاً من حاشيته، إلى الجبل

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ١٢٣ ـ ١٣٢.

حيث يقيم، وحيثُ كان يأوي من جفوة الناس، واضطهاد الملك له.. جاءه هؤلاء الرجال، يحتالون عليه ويدَّعونَ أنهم آمنوا. وكانت وصية الملك لهم: لا تقتلوه حين يصلي، ولكن اطلبوا ملاقاته خارج صَوْمعته، فإذا خرج فاقضوا عليه. ولكنّ رجلاً مؤمناً، كان على دين الله، قد سمع تآمر القوم عليه، فجاءه وأخبره بأمرهم، وحذَّره من الخروج لملاقاة الرهط الكاذب، وبذلك لم تنفع مداهنتهم له، ولم تنطلِ عليه أيةُ حيلةٍ لهم، فظلَّ عاكفاً داخل صَوْمعته. ولما يئسوا منه انصرفوا عنه خائبين..

وعزَّ على إلياس عليه السلام أن يدعوَ الناس إلى دين الله فلا يستجيبون، بل إنهم يأتمرون به ليقتلوه. ومع هذا، لم ييأس في دعوته، وظلَّ على سيرته، حتى جاءت سنةٌ حُبِس فيها المطر عن تلك البلاد، وحلَّ الجفاف والقحط والجوع بأهلها وزروعهم، مما جعل الموت يسرع مهرولاً إلى منازلهم يتخطفهم، ويهلكهم. وعمّتِ البلية القومَ جميعاً، فتنادت فئةٌ مؤمنةٌ أن كفُّوا الأذى عن الياس!! ثم ذهب إليه هؤلاء المؤمنون يطلبون أن يضرع إلى الله تعالى كي يصرف عنهم البلاء!

واستجاب الله عز وجل لدعاء نبيّه، فجاءهم المطر بعد انحباس طويل، وأنبتت لهم الأرض بعد يباسٍ شديد... عندها صَلُحَ أمرهم وأقام إلياس عليه السلام بينهم يعلِّمهم ويهديهم إلى طريق الحقّ حتى توفاه الله تعالى.

سلام الله على إلياس إنه كان من عباد الله المخلَصين.

وقد أتى الله تعالى على ذكره في سورة الصافات بقوله:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ
﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

اليسع عليه السلام

اليسع عليه السلام

اليسع عليه السلام هو على الأشهر ابن عمّ إلياس النبيّ، وقد استخلفه على بني قومه من بعده.

قام إليسَع عليه السلام على توجيه الناس لعبادة الله، والإيمان به. وقد اصطفاه الله العليم وجعله من الأخيار، نظراً لما عاناه من بني قومه في شرودهم عن العقيدة، وحنينهم إلى عبادة الأصنام، ونزوعهم إلى هذه الدنيا، وعزوفهم عن الدار الآخرة.

والقرآن الكريم لا يحكي قصة اليسَع عليه السلام، ولكنه يذكره في سورة «ص» على أنه من الأخيار الذين جاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده، وتحمّلوا من أجل هذا الجهاد السوء والأذيَّة، ولكنَّهم ظلُّوا صابرين، لا يتخلّون عن الدعوة، حتى لو كان بذلُ النفس دونها.

فقال تعالى عزَّ من قائل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾(1).

---

(1) سورة ص، الآيات: ٤٥ ـ ٤٩.

فالله سبحانه يصف: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، بأنهم أولو الأيدي والأبصار، كناية عن العمل الصالح بالأيدي والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار. وكأنَّ من لا يعمل صالحاً لا يَدَ له، ومن لا يفكِّر تفكيراً سليماً لا عقل له، أو لا نظر له!.

كما يذكر أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليدركوا نعيم الدار الآخرة، ويتجرَّدوا من كل شيء سواها: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ . . . فهذه ميزتهم التي رفعتهم وجعلتهم عند الله أخياراً: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ .

وكذلك يشهد الله العظيم - لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذي الكفل عليهم السلام - أنهم من الأخيار. ويوجّه خاتم أنبيائه وخير رُسُله محمداً ﷺ ليذكرَهم، ويتأمل صَبرهم ورحمة الله بهم، كي يصبرَ على ما يلقاهُ من قومه المكذِّبين الضالِّين. وهذا دليلٌ على أن اليسَع عليه السلام قد لاقى من قومه نصباً ومعاناة، ولكنه صبَرَ وتأسّى حتى جعله الله تعالى من الأخيار.

سلام الله على اليسع إنه كان من المصطفَيْن الأخيار.

يونس عليه السلام

يونس عليه السلام

كان أهل نينوى في أرض الموصل من العراق، لا يختلفون عن غيرهم من الأمم الغابرة في المعتقد والتفكير، إلا بما انطوت عليه البيئة، أو فرضتهُ سُبُل العيش. . فقد عبدوا الأصنام، ووقعوا في حمأة الجهل والشِّرك، حتى قصّرتْ حياتهم الفكرية عن إدراك الحقائق السامية، والارتقاء إلى المُثُل العليا. .

ولئن كانت حياة بني البشر في تلك الأزمان، قد قامت على الوثنية، إلاّ أن الله سبحانه وتعالى، وهو خالق السماواتِ والأرض، وما فيهنَّ، لا يترك عباده يهيمون في مهاوي الضلالة والبغي، وفي دياجير الظلمة والضياع. فقد تجلَّت رحمته، وعظمت نعمته ببعث النبيّين والمرسَلين، هُداةً لأهل الأرض حتى يخلّصوهم من أوزارهم، فينعموا برضى الرؤوف الرحيم.

وحتى لا يكون لأهل نينوى حجّةٌ على خالقهم، كمثل أهل الأرض كلهم، فقد بعثَ فيهم نبيّاً، يحمل إليهم رسالةَ التوحيد، ويدلهم على طريق الإيمان الصحيح. .

جاء نبيّ الله يونس عليه السلام، يدلي لبني قومه بحجَّةٍ ملؤها الحكمة والبيان، ويدفع ببيّنةٍ قوامها الدليل والبرهان. . جاء يُحذِّرهم

من هوى النفس حتى يطيعوه، ويهديهم إلى الصراط المستقيم الذي إن اتَّبعوه قادهم إلى الفوز والفلاح.

اعتمد في دعوته على دلائل العقل والمنطق، وعلى مشاعر النفس والوجدان.. فأراد للقوم أن يتفكَّروا بما هم عليه من الخَلق، وأن ينظروا إلى ما حولهم، فيدركوا بأن وراء هذا الكون خالقاً ومُدبّراً، ويؤمنوا بأن هذا الخالق واحدٌ لا شريك له، يختصُّ وحده بالعبادة، وله الأسماء الحسنى، وهو الملك القدوس العزيز الحكيم.

إنها دعوةٌ للعقول والقلوب. فمن شاء اهتدى وظفرَ، ومن جهلَ ضلّ وخسر.. وأخذ يذكِّرهم بأن الله قد بعثه رحمةً لهم، ورأفة بهم، كي يدلَّهم على آثار رحمة ربّه التي هي كفيلةٌ بأن تهديَهم إلى نِعَمه وآلائه، وإلى حقيقة تقديره وتدبيره. فاستَمَعَ القومُ ليونس عليه السلام، وهو يقول كلاماً لم يألفوه من قبل..

ولكنهم دُهشوا وهو يدعوهم لعبادة إله لا يرونه، وذُهِلوا وهو يُسفِّه الآلهة التي كانوا يعكفون عليها مثل آبائهم وأجدادهم.. فلم يتقبَّلوا منه ذلك، وكبُر عليهم أن يكون هذا الداعية منهم وهو يخرج على المألوف من معتقداتهم، وينقم على الموروث من عاداتهم وتقاليديهم.. سيما وأن يونس كان من العامة فيهم، لا من ذوي الشأن والنفوذ..

استغرب أهل نينوى من هذا الرجل تنصيب نفسه رسولاً عليهم، مدَّعياً هدايتهم، فأظهروا له العداوة، وجاهروه بالسفاهة، وهم يقولون:

- هذيانٌ وبهتان ما تدَّعيه يا يونس.. أنتخلّى عما نشأنا عليه في الديار؟ إلى دينٍ ابتدعته وتريد أن تُجاهدنا فيه؟!..

رأى يونس عليه السلام أن يدفع التهمة التي يصمونه بها، وهم أولى بالاتهام بما يدّعون عليه زوراً وبهتاناً، فارتفع صوتُهُ مندّداً بجهالتهم وصرخ فيهم:

ـ يا قوم! ارفعوا غشاوة التقليد عن عيونكم، ومزِّقوا نسيج الأوهام عن عقولكم، وإنني كفيلٌ بأنّكم ستجدونَ هذه الأصنام التي تتوجّهون إليها صباحَ مساءَ تافهة. إنكم تعتمدون عليها في قضاء الحاجات، وهي لا تدفع عنكم شرّاً، ولا تجلب لكم نفعاً.. إنها لا تشفي مريضاً، ولا تردُّ ضالاً. وهي لا تخلق مولوداً، ولا تُحيي ميّتاً.

يا قوم!.. ما لكم تُعرِضون عن دينٍ يأمر بتقويم أموركم، واستقامة أوضاعكم، ورفع أخلاقكم؟!.. وما بالكم ترفضون ما فيه صلاح الأمّة والفرد فيكم، وما يفضي بكم إلى شاطىء الأمان في حياتكم؟..

لقد شاء يونُس أن يجادلهم بالحقّ، وأن يُبيِّن لهم طريقَ الصواب، ولكنه لم يظفر منهم إلا بتعنّت الجاهلين. فقد أنكروا عليه دعوته، وراحوا يؤلِّبون القريب والبعيد، حتى يحقِّروه ويذمّوه. فها هُم يتعمدون النيل منه بالتهكُّم والسخرية، ويتقصَّدون أذيَّته بالاحتقار والإذلال. إنهم يريدون أن يُظهروه للملأ مناوئاً لمعتقداتهم بادّعاءٍ كاذب، وخارجاً على عاداتهم وتقاليدهم برأيٍ فاسد. وتمادَوا في محاولاتهم تلك حتى ينكفىء عنهم، إلا أنهم لم يفلحوا، لأنه ظلَّ يتحمَّل كلَّ ما يبدون وما يضمرون بصبر الحليم، وأناة الحكيم من أجل الدعوة إلى الله تعالى.. وكانوا كلما نزلوا في مهاوي الضلال زاده ذلك إيماناً وعزماً على إصلاحهم. ولجأ إلى التهديد والتحذير من سوء عاقبة ما يفعلون، وهو ينذرهم قائلاً:

ـ يا قوم! لقد دعوتكم ونصحت لكم، وما جادلتكم إلاَّ بالتي هي أحسن كما أوصاني ربي تعالى. فإن قبلتم دعوتي وأيقنتم بصدقها في قرارة نفوسكم فإنه الخير الذي أرجوه لكم والإيمان الذي ينجيكم، وإلاَّ فإني أنذركم عذاباً واقعاً، وبلاءً نازلاً، وهلاكاً قريباً سترون طلائعه، وستصل إليكم دلائله.

قالوا: يا يونس ما نحن بمستجيبين لدعوتك، ولا خائفين من وعيدك، فأْتِنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

ولم يطق يونس صبراً عليهم، بعدما قطع منهم الرجاء وضاق بهم ذرعاً، فدعا الله تعالى أن ينزل عليهم العذاب علَّهم يرعوون، وإليه سبحانه يرجعون. ثم خرج من بين أظهرهم ليتنحّى عن مكان سخط الله وغضبه.. ولم يكد يبتعد قليلاً عن نينوى حتى وافت أهلها نُذُرُ العذاب، واقتربت منهم طلائع الهلاك. لقد اغبَّر الجو حولهم، ونظروا إلى أنفسهم فوجدوا أن ألوانهم قد تغيَّرت ووجوههم قد تشوَّهت، فأخذهم الخوف، واستبد بهم القلق. وعندها فقط، ولمَّا رأوا ما حلَّ بهم، أيقنوا أن دعوةَ يونس عليه السلام هي حقّ، وإنذارَهُ صدق، وأنه سيصيبهم ما أصاب الأمم السالفة من الهلاك والدمار، فآمنوا بالله العليّ العظيم، واستغفروه، وتابوا إليه.. بل وخرجوا إلى شعاب الجبال وبطون الأودية يضرعون ويبكون، ويتوسلون أن يتقبَّل الله توبتهم، وأن يرفع عنهم العذاب. ووصلت بهم الحال إلى أن فرَّقوا الأمّهاتِ عن أطفالها، والإبلَ عن فصلانها، والأبقارَ عن عجولها، والأغنامَ عن حملانها.. وأعول الجميعُ لفراق الأولاد: فصاحت الأمهات، ورغت الإبل، وخارت البقر، وثغت الغنم، حتى تلاشت النفوس وصغرتْ، وذابت الغطرسة وامَّحتْ. ومرّت أوقاتٌ رهيبة..

ولكنها آلت إلى خيرٍ، فقد بسط الله تعالى عليهم جناحَ الرحمة ورفع عنهم سحائب النقمة، إذ كانوا في توبتهم صادقين، وفي إيمانهم خالصين لله رب العالمين. وبلغ من توبتهم أن بدأوا بردّ المظالم بينهم حتى أن الرجل كان يأتي الحجرَ وقد وضع عليه أساسَ بنيانه فيقتلعه ويردّه إلى صاحبه. فحبس الله عنهم العذاب، ورجعوا إلى دورهم آمنين مطمئنين، وودّوا أن يعود إليهم يونس عليه السلام ليعيش بينهم رسولاً ونبيّاً ومعلِّماً وإماماً.

يونس في بطن الحوت

ولكن يونس كان قد ذهب مُغاضباً.. ورحل عنهم يائساً..

وقد فارقهم وترك ديارهم طمعاً بأن يجدَ القومَ الذين يفهمون رسالته ويستجيبون لدعوته... وأخذ يضرب في الأرض، ويجدّ في السير حتى انتهى إلى البحر، وهناك وجد جماعة يعبرون، فسألهم أن يصحبوه معهم، ويحملوه في سفينتهم، فقبلوه على ارتياح للطفِ سؤاله، وإشراقةِ وجهه. وأنزلوه بينهم منزلاً كريماً ومقاماً عزيزاً. ولكنهم ما إن ابتعدوا عن الشاطىء وجاوزوا اليابسة، حتى هاجت الأمواج، وهبَّت الأعاصير، وتوقَّع الراكبون في السفينة سوء المصير، فزاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوبُ الحناجر، وظنَّ كلٌّ منهم أنَّه هالك، وفي جوف البحر غارق. ففكروا بأمرهم فلم يجدوا سبيلاً إلى نجاتهم، إلاَّ أن يخفِّفوا من حمولتهم، فقالوا كيف؟.

واتفقوا على المساهمة فيما بينهم، ووقع السهم على يونس عليه السلام... ولكنهم ضنُّوا به تكريماً لما رأوه منه. فعادوا للمساهمة وعاد السهم فوقع على يونس فضنوا به نظراً لمكانته الرفيعة

التي احتلها من نفوسهم. وكانت المرة الثالثة، ووقع السهم عليه أيضاً فعلِمَ يونس أن هذا ما شاءه الله عزّ وجلّ، وأن من وراء ذلك سِراً، وأن لله في ذلك تدبيراً. . ثم أدرك أنه استعجل في تركه لقومه، قبل أن يأذن الله سبحانه له بالهجرة، لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا عندما يداهمُ قومَهم العذاب، لا يخرجون من بين ظهرانَيْهم إلاَّ بأمر من الله.

لقد كان على يونس أن ينتظر قضاء الله تعالى في بني قومه، بعد أن أوحى له ربُّهُ عز وجل أنه معذِّبهم بعد ثلاثة أيام. وعندما تذكّر ذلك، قام يدعو الله تعالى، ثم وقف على حافة السفينة، وألقى بنفسه في البحر، وهو يسلِّم أمره لرب العالمين. وفيما كانت الأمواج تقلّبه بين طياتها، وتحشره بدياجير ظلمائها إذا بحوتٍ ضخم يدنو منه، ويبتلعه تحقيقاً لأمر الله تعالى الذي سخَّره لذلك، وأمرهَ أن لا يأكل لحمه ولا يهشِّم عظمه لأنه نبيٌّ كريم تعجَّل في مفارقة قومه من غير أن يأذن الله تعالى له، فليكن في بطن الحوت فترة حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولاً. . ابتلعه الحوت وراح يشقُّ الأمواج ويهوي إلى الأعماق، فضاق صدرُ يونس عليه السلام وفزع إلى الله يستغيثه استغاثةَ الملهوف ولجأ إليه لجوء المكروب، فنادى في الظلمات: أن لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجاب الله له دعاءه وأوحى إلى الحوت أن اصعدْ إلى سطح الماء، واقتربْ من الشاطىء، وألقِ بضيفك في العراء. فألقاه الحوتُ على الشاطىء سقيماً هزيلاً مريضاً عليلاً. فتلقاه الله برحمته الواسعة، وأنبت فوقَ رأسه شجرةً من يقطينٍ أكل من ثمرها واستظلَّ بورقها حتى بدأت تعودُ إليه العافية.

ولما استوى سليماً ورجع إلى سابق عهده، أوحى الله إليه أن ارجع إلى بلدك وموطن قومك وعشيرتك، فإنهم آمنوا فنفعهم

الإيمان، ونبذوا الأصنام. وهم الآن يتحسَّسون مكانك ويرقبون مجيئك.

عاد يونس إلى قومه وحمد الله وشكره على نِعَمِه لأنه فارقهم وليس فيهم شاكرٌ للرحمٰن، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر ربِّ الأكوان.

سلام الله على يونس إنه كان من المرسلين المسبِّحين.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى يونس في سورة الأنبياء فقال:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ(١) إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ(٢) أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾.

وفي سورة الصافات

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

وفي سورة يونس

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾.

---

(١) النون: الحوت. وذا النون: أي صاحب الحوت.

(٢) الظلمات: ظلمةُ بطن الحوت. وظُلمة قاع البحر. وظلمة الليل.

زكريا عليه السلام

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ
يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾(١)

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٩ و٩٠.

زكريا عليه السلام

الحيّزُ المكانيُّ بيت المقدس في فلسطين، والعهدُ الزمانيُّ أحد عهود بني إسرائيل الذي عاش فيه النبيُّ زكريا عليه السلام.

وقد كان ذلك العهدُ مليئاً بالتناقضات والمفارقات إلى أقصى الحدود وأبعدها.. فالشعب اليهوديّ، يعيش مثلَ عادتِهِ منذ وجوده، الإقبالَ على أمور الدنيا وزخرفها، والاندفاعَ على أسباب العيش الماديّ وسُبُلِهِ.. لا يأبه للوسيلة طالما أن الغاية تبرّرها. فأية وسيلة، ومهما كانت خبيثة أو دنيئة، هي مبرَّرة، إذا كانت تؤدّي لتحقيق المآرب والمنافع، وتؤمِّنُ المصلحة الخاصة.. إنها حياةُ شعب، يعشش في نفوس أبنائه الفسقُ والفجور، تماماً كما يتفشَّى الربا في تجارته، والغشُّ في أسواقه، والرياءُ في علاقاته، والخداعُ في معاملاته!..

فئةٌ قليلةٌ ظلّت محافظةً على تعاليم موسى عليه السلام. تلك هي ذرّية هارون التي صارت إليها سدانة الهيكل في بيت المقدس. ووجود تلك الفئة الصادقة في إيمانها، هو الذي جعل تلك الحقبةَ في تاريخ بني إسرائيل تحفل بالتناقض، لأن أفعالها وأقوالها كانت على عكس ما يفعل الباقون ويقولون. وبفضل قيامها على خدمة الهيكل ورعاية

شؤون الدين، أصبح كلُّ شيء يتصارعُ مع ضدّه: الحقُّ في مقابل الباطل ليدمغه، والنورُ في محاربة الظلام ليطرده، والحقيقة في مكافحة الكذبِ ليدحضه. فالفريقان في بني إسرائيل على طرفيّ نقيض: التجار وذوو النفوذ والشأن في جهة، وذرّيَّة هارون، وعلى رأسها سيد الهيكل آنذاك زكريا، في الجهة الثانية. .

كان زكريا قد ترعرع منذ حداثته في وسط هذا الخضمّ المتلاطم من الاتجاهات المختلفة، وعاش منذ فتوّته على الوفاء بالعهد، قائماً على الدعوة، حافظاً للعقيدة. همُّه الوحيدُ طاعةُ الله وعبادتُهُ، وأملُهُ هداية الناس وردُّهُم إلى جادة الصواب. . وكان دأبُهُ التنقُّل بين محرابه وحانوته، سعياً وراء الرزق الحلال، فإن أصابَ مالاً سدَّ رمق الجائع، ومسحَ دمعة البائس، وقضى حاجة المضطر. ثم رجع إلى محرابِهِ فارغَ اليدين إلاَّ من فضل الله، صامتاً إلاَّ عن ذكر الله. .

هكذا عاش زكريا عليه السلام حياةً رائعةً، حافلةً بالمآثر الفاضلة والمزايا الحسنة. فقد كان قنوعاً، رضيّ النفس، نقيّ الضمير، لا تُحرِّك دواخلَهُ نزعاتُ النفس البشرية، ولعل أهمَّها الرغبةُ في الذريَّة والامتداد، تلك الرغبة التي لا تموتُ حتى في نفوس العباد الزهّاد، الذين وهبوا أنفسهم للعبادة ونذروها للهيكل. . لقد اكتفى من حياته بالقيام على خدمة الهيكل، ورعاية شؤون الدين، فلم يؤرقْهُ كِبَرُ سنه، وهو بلا ولد، بل كان يجدُ غنىً كبيراً وهو عاكفٌ على العبادة، والتضحية في شؤون الدنيا من أجل الآخرة، التي هي بغية كل مؤمن صادق. .

وكان زكريا عليه السلام قد صار في سنّ الشيخوخة، وبلغَ من العمر التسعين عاماً، ووهن العظمُ منه واشتعلَ رأسُهُ شيباً عندما راودتهُ فكرةُ

احتلَّتْ حيِّز تفكيره، وملكت عليه مشاعره.. فقد صار قابَ قوسين أو أدنى من الموت، وبين يوم وآخر قد يَحلُّ أجلُهُ، وتنطوي صفحتُه من الحياة الدنيا. وهذا سرٌّ في علم الغيب ولا ريب، ولكنها الحقيقة التي تَمثُلُ أمام عينيه وتؤرقهُ، وهو لا يجد من يرثُ حكمتَهُ، ويضطلعُ بأمانةِ الدعوة إلى الله من بعده... إنه يخافُ على الدين، وهو يرى مواليَه وأبناءَ عمومته، وأكثرهم من الأشرار، لا وازع عندهم، ولا رادع لديهم.. فقد يتركون الشريعة، وقد يعملون على محو آثارها، ولا يتورعون عن نشر الفساد، وتغيير معالم الكتاب إن تُركوا وشأنهم، ولم يُقمْ بينهم إمامٌ عادلٌ يسير على دربه، ويتمشَّى على نهجه، ويقيسُ الأمور بمقاييسه.

لقد كانت تلك الأفكار تجول في خاطره، وتضطرب. ولكنه ظلَّ صابراً متجملاً إلاَّ من زفراتٍ يلفظها إذا جنَّ الليل، أو دعواتٍ يرفعها إلى الله كلما احتوته الوحدةُ والعزلةُ.

كان حتى ذلك العمرِ بلا ولد، فامرأته عاقر لم تنجب له من يستطيع أن يلقِّنه العلم والحكمة ليحفظ بهما الشريعة. ذلك كان قضاء الله في زكريا عليه السلام، لم يرزقْهُ ذريةً لحكمةٍ يجهلها عبدهُ الصالحُ، ولا يستطيعُ إدراك كنهها.

ويذهب زكريا عليه السلام يوماً إلى المحراب كعادته. ويدخلُ على كفيلته مريم بنت عمران في محرابها الخاصّ في الهيكل فيجد عندها رزقاً.

ويسأل تلك العابدة، النائية عن خلق الله كلهم، عن مصدر رزقها، ويسمعُها بعفوية خالصة تقول له: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هنالك دعا زكريا ربَّــه

إنه إنسانٌ مؤمنٌ، صادق وقانِعٌ، ولكنه يريدُ أن يعهَد بالأمانة إلى من يؤدّيها. وما دام الرزقُ هو من عند الله، والإنجاب والنسل، هو رزقٌ من الله، فلِمَ لا يدعو زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّهُ أن يرزقَهُ ولداً يوكِلُ إليه حمل الرسالة من بعده..؟!.

إنه يثقُ بربِّه، ويَثِقُ برحمتِهِ ورأفتِهِ التي لا حدودَ لهما، وهو قادرٌ سبحانه على كل شيء..

واشتعلت في نفس زكريا الرغبةُ في المولود. فاعتكَفَ في محرابه بعيداً عن الناس، وعن كل الوجود الأرضيّ، ورفع يديه إلى السماء، وسرح في إشراقةِ النفس وهو يناجي ربَّه في الخفاء، ويقول: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[1].

فما أجمل مناجاة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم، وفي غرفة منفردة، يخلص فيها لربّه، ويكشف له عمّا يثقل صدره من همّ، لأنه يضيق بوجود أولئك الموالي من بعده. وهو يخافهم، لأنه يخاف على العقيدة منهم. وها هوذا ينادي ربه تبارك وتعالى عن قرب، وبلا واسطة، حتى أنه لم يستعمل حرف النداء. فهو على يقين بأنه لم يكن يوماً ليشقى بدعاء ربّه، بل كان يستجيب له سبحانه كلما دعاه. وها هو الآن يناجي ربَّه، وربهُ يسمع ويرى سواء

(١) سورة مريم، الآيات: ٣ ـ ٦.

بدعاء أو من غير دعاء، وإن كان المكروبُ يستريحُ عادة إلى البثِّ، ويحتاجُ إلى الشكوى.. والله الرحيمُ بعباده، يعرف ذلك من فطرة البشر، فيُستَحبّ لهم أن يدعوه وأن يبثّوه ما تضيق به صدورهم، فيوصيهم: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[1] ففي الدعاء إراحةٌ لأعصابهم من العبء المرهق، واطمئنانٌ لقلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر... وإنهم ليستشعرون صلتهم آنذاك بالله العزيز الحكيم الذي لا يضام من يلجأ إليه، ولا يخيب من يتوكل عليه..

تلك كانت حالةُ زكريا عليه السلام، وهو يشكو إلى ربّه ما أصابه من وهن العظم واشتعال الرأس بالشيب. وهو على يقين بأن ربه قد عوَّده على أن يستجيبَ له إذا دعاه، فلم يشْقَ مع دعائه لربّه وهو في فتوَّته وقوته، أي لم يعصِ ربَّهُ في شبابه، فكان الله سبحانه وتعالى ولم يزل، يجيب دعوة الصالحين الطائعين من عباده، أما العاصون المفسدون فهم الأشقياء الذين لم يستجبِ الله لهم دعاء. وزكريّا الآن هو في هرمه، وهو في أشدِّ الحاجة إلى أن يستجيبَ الله له، ويتمَّ نعمته عليه.

وترتسم في حياة ذلك الكهل الفاني لحظةُ الاستجابة في رعايةٍ وعطفٍ ورضى، لأن ربَّهُ في الملأ الأعلى، يستجيب له، فتنادي الملائكةُ زكريا عليه السلام وهو قائمٌ يصلّي في المحراب: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[2].

إنه فيض العليِّ القدير، الرحيم الكريم، يُغدِقُه على عبده الذي دعاهُ في ضراعةٍ، وناجاهُ في خيفة، وكشف له عمّا يخشى، وتوجَّه

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧.

إليه فيما يرجو. وكان في ذلك كله صادقَ النية، فأنعم عليه ربُّهُ تبارك وتعالى وأرضاه. وبشَّرته الملائكة بغلام، اسمه «يحيى». وهو اسم غير مسبوق إليه.

والله سبحانه لم يقف كرمُهُ عند حدّ الاستجابة، بل تخطّاه إلى تبشير عبده الصالح بأنه سيرزقه الولد، وبأنه اختار اسم هذا الولد وفقاً لرغبة أبيه.

وهل كانت رغبة زكريا إلا أن تبقى العقيدة قائمة حيَّة، وهل اسم «يحيى» إلا ما يُشير إلى حياة تلك العقيدة وحاملها من بعد حافظها ـ سبحانه وتعالى ـ.

لقد اختارَ الله اسمَ الغلام ليدل على استجابته لعبده في نجواه، وليريَهُ من آياته الاختيارَ الفريدَ الذي لم يسبقه اختيارٌ في الأرض كلها، ومنذ وجود البشرية حتى ذلك التاريخ..

وتغمر زكريا حرارةُ الرحمة والفضل، ولكنه وهو يثق بوعد الله، يريد أن يعرفَ كيف يكون تحقيقه، وهو رجل شيخ، بلغ من الكِبَرِ عتياً، وامرأته عاقر في مثل سنّه، ولم تلدْ له في فتوّته وصباه. فقال ليطمئنَّ قلبه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾(١).

ويأتيه الوحي بالاطمئنان: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾(٢).

نعم إنه أمر هيّن على الله وسهلٌ. وقد ذكَّر عبدهُ بمثلٍ قريبٍ في

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ٩.

نفسه وهو إيجاده وخلقُه. وهو مثلٌ يُضربُ لكل كائنٍ حيٍّ، ولكل شيء في هذا الوجود، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[1].

إنه المثل الحيّ الناطق في كلٍّ منّا، فنحن جميعاً لم نكُ شيئاً قبل أن يريد الله سبحانه لنا الوجود لأنه ليس عنده - عزّ وجلّ - هيّن وصعبٌ في الخلق. إنها كلمة واحدة تقول للشيء: كن... فيكون...

ويشاء الشيخ أن يزيد اطمئناناً، فيطلب آيةً وعلامةً على تحقق البشرى فعلاً... ويعطيه الله سبحانه الآية التي تناسبُ الجوَّ النفسيّ الذي كان فيه الدعاءُ، وكانت فيه الاستجابةُ، ليؤدّيَ بها حقّ الشكر لله الذي وهبَهُ على الكبر غلاماً زكياً..

وتلك العلامةُ هي أن ينقطع زكريا عليه السلام عن الناس، ويحيا مع الله، ثلاث ليالٍ، لا ينطلق لسانُهُ إلاّ بالتسبيح لربه، عازفاً عن التكلّم إلى الناس أياً تكن شؤونهم وشجونهم، لأن الأمر يتعلق بمستقبلهم ومستقبل أبنائهم من خلال الحفاظ على شريعتهم. فكان قول الله له، عزَّ من قائل: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[2].

وكان ذلك!..

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ١٠.
(٣) سورة مريم، الآية: ١١.

خرج زكريا يشير إلى الناس بأن يسبحوا الله، ويشكروه على ما أنعمَ عليه وعليهم، ويحثهم على أن يعيشوا في مثل الجو الذي يعيش فيه، حتى يحسّوا معه رونقَ الإشراق، ويذوقوا حلاوةَ طعم العبادة والإيمان. .

ويكون ما شاء العليُّ العظيم، ويولد يحيى، ليحمل الأمانة فيحيا فيها وتحيا هي فيه، حتى يكونَ من بعد زكريا من يواصلُ الدعوة إلى الحق، كي تظلَّ قائمةً على مرّ الدهور والأزمان.

فسلام الله على زكريا إنه كان عبداً نقياً تقيّاً.

يحيى عليه السلام

يحيى عليه السلام

.. ويترعرع يحيى في أحضان النبوَّة، ويشبّ على النحو الذي أراده له أبوه زكريا، وعلى السبيل الذي وهبَهُ له خالقُهُ.

وأولُ ما حصل ليحيى، بعدما صار مؤهلاً قادراً، انتدابُهُ ليحمل الأمانة، حينما أتاه الوحيُ من ربِّه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1].

وكتابُ بني إسرائيل «التوراة» يقوم عليه أنبياؤهم من بعد موسى عليه السلام وبه يعملون ويحكمون. ويحيى عليه السلام الذي اصطفاه الله واختارهُ ليحمل الرسالة، قد أمدَّه بالمؤهلات التي يفقه بها الكتاب، وبالمزايا التي تُظهرُ فيه العلمَ والحكمة، فآتاهُ الحكمَ صبيّاً...

هذه هي المؤهلات التي زوَّدَ الله بها يحيى، وأعدَّهُ وأعانهُ على احتمال ما كلَّفه به عندما ناداه لحمل الكتاب.. آتاه الحكمة صبيّاً، فكان فذّاً في زاده كما كان فذّاً في اسمه وفي ميلاده. فالحكمة تأتي متأخرة، ولكن يحيى قد زُوِّدَ بها وهو ما زال صبياً. وآتاهُ الحنانَ، هبةً لَدُنِيَّةً، لا يتكلَّفُهُ ولا يتعلَّمُهُ، إنما هو مطبوعٌ عليه ومطبوع به. والحنانُ

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٢.

صفة ضرورية للنبيّ المكلَّف برعاية القلوب والنفوس، وتآلفها واجتذابها إلى الخير في رفق. وآتاه الطهارة والعفَّة، ونظافة القلب والطبع، يواجهُ بها أدران القلوب، ودنس النفوس، فيطهِّرها ويزكِّيها.

وجعله تقيّاً، موصولاً بالله، سيداً حصوراً يخشى ربه، ويستشعر رقابته عليه في سرّه ونجواه.

ذلك هو الزادُ الذي آتاه الله ـ سبحانه ـ ليحيى في صباه، وهو ما درج عليه طوال حياته، فقد انكبَّ على العلم والعبادة، حتى صارَ منهك الجسم، ضامرَ الوجه يبدو الإرهاق والتعب على ملامحه.. وقد استطاع أن يقومَ على كتاب التوراة، وأن يجلوَ ما غمض على الناس فيه، وأن يحيط بأصول الشريعة وفروعها، حتى صار فيصلَ أحكامها. واشتهر بين بني إسرائيل بأنه العالم الوحيد الذي يحقّ له أن يطلق الأحكام المعقولة منها والمنقولة.

وهكذا شهد بنو إسرائيل يحيى نبياً يجهر بالحق وبالدعوة إليه، ويشتدّ على الباطل، دون أن يخشى في الله ـ تعالى ـ لومة لائم، أو يخاف عتوَّ ظالم. فقد كان صلباً متشدّداً في قضايا العقيدة، ولكنه في حياته مع الناس، ومعاملته لهم، أكثرُهم عطفاً ورحمة. يشفق على الفقراء بلا حدود، وتمتدّ شفقته لتطال الحيوانات الصغيرة، فكان يسعى إليها ويطعمها ما تيسَّر له، وهو يفضِّل أن تأكل تلك الأعاجمُ زادهُ، فتشبع وترتوي، وإن بات هو على الطوى، وإذا اشتدَّ به الجوعُ فإنَّه كان يلوذُ بورق الشجر فيأكله.

وكان لشدّة إيمانه بالله، ولكثرة ما شهدت نفسه من أسرار الخلق والكون، يقف داعية بين الناس، حتى يبكي ويبكيهم معه. فيا لعظمة تلك التقوى، ويا لبهاء ذلك الصفاء!.

هيروديا تطلب قتلَ يحيى

ومن مآثره في حياته موقفُهُ من هيرودوس حاكم فلسطين في عهده.. فقد تناهى إلى مسامع يحيى أن ذلك الحاكم قد عشق ابنة أخيه هيروديا، وأنها قد شغفته حبّاً، وفتن بمحاسن جمالها حتى عزم على الزواج منها، تساعده في ذلك أم الفتاة وذوو قرباها.

عَرَف النبيُّ هذا الأمر فأبدى استنكاره له، وأعلنَ أنَّه سيكون زواجاً باطلاً لا تقرّه الشريعةُ، ولا يعترف به الكتاب، لأنهما يحرِّمان زواج العم من ابنة أخيه.

وشاعَ رأيُهُ في هذا الزواج بين خاصَّة الناس وعامّتها، فعرفه خدام الهيكل ورجال الدين، كما عرفه الباعة في الأسواق، وتناولته الألسن في النوادي والمجالس، وفي القصور والساحات.. وتناهت معارضةُ يحيى إلى مسامع هيروديا، فحزنت واغتمَّت، وهي تعرفُ مقدار ما لرأي يحيى من أهمية وتأثير على حياة الناس. ولكنها لم تدع الحزن يسيطر عليها، بل بدَّلت الغمَّ بالغضب، والكرب بالحقد، وأضمرت أن تنال من يحيى ما وسعها من كيدٍ وشرّ..

لقد خافت هيروديا أن تذهب فتوى يحيى بمعسول رجائها، وأن تحول بينها وبين الزواج من عمها الحاكم، فأسرعت وهي تتسلَّح بمفاتنها، وتتمنطق بإغوائها إلى قصره، وقد بدت على أحسن ما تكون عليه من جمال، وأناقة، وفتنة.

ودخلت على هيرودوس، وهي على ما هي عليه من سحرٍ، فهبَّ من مكانه يستقبلها، وقد أخذت منه العقل وسلبته الإرادة، وارتمى أمامها وهو يقول لها:

أهلاً بسيدة الجمال، لقد جئتِ عاشقاً ينحني على يديك، وأتيت والهاً يركع على قدميك. إني طوع بنانك، مُريني بما تحبّين وتشتهين، وستجدينني عبداً طائعاً، لا يخيّب لك رجاءً، ولا يخالف لك رغبة! . .

وألقت الفاتنة بدلالها عليه، وعهرت ببكائها أمامه، حتى أفقدته صوابه. ولما أحسَّت أنه مستعدٌّ لتلبية رغباتها، قالت بحزم: لئن كان الملك يصبر على ظلمٍ يأتيه، أو على خزيٍ يناله، فإني أربأ أن أكون زوجةً له. . .

وعجب هيرودوس مما تقوله له، وهو يعلم أنَّ لا أحدَ بين الناس من يستطيع أن يرفع بناظريه نحوه، فكيف يسمع أن هناك من يتطاول عليه. . . وهل يعقل ذلك؟! . .

فتبدَّلت سحنتُهُ فجأة، وقال لها غاضباً:

ـ أفصحي عما في نفسك يا هيروديا قبل أن أجعل الخيلَ تدوس بسنابكها جميع الناس في هذه المدينة.

وانتظرت قليلاً، وهي تروم زيادة حماسه وغضبه، ثم أعقبت:

ـ لئن ارتضى سيدي الملك بأن يتطاول عليه يحيى بن زكريا، فإني أقبلُ بحكمه، وأرضخُ لمشيئته.

لقد أوغرت صدرَه بالحقد على يحيى، وملأتْ رأسه بالحنق عليه، حتى أعمته الشهوة عن كل نداء للعقل، وعن كل صوتٍ للضمير، فأوعز إلى حرسه بأن يأتوه برأس يحيى على سنان الحراب.

ولم يمضِ إلاّ قليلٌ من الوقت حتى كان الرأسُ الشريفُ بين

يديْ هيروديا، تطفىء بمرآه الغيظَ الذي أكل نفسها، وتروي بمنظره الحقدَ الذي أعمى قلبها. .

لقد توهمت هيروديا بأنها استأصلت مصدر همها، ونزعت قيد سعادتها، ولكنها لم تدر أنَّ ما فعلته كان أبعدَ من جريمةٍ اقترفتها يدُ آثم، وحاكتها نفسٌ خبيثةٌ، وأن ما قامت به كان أكثرَ من خزيٍ وعارٍ على جبين بني إسرائيل، فقد حلَّت لعنة الله عليهم خزياً في الدنيا والآخرة. بينما كان يحيى عليه السلام مكرَّماً عند ربّه، مبوّءاً مكاناً رفيعاً. . .

فسلام عليه يوم وُلِدَ ويوم مات ويوم يبعث حياً.

مريم بنت عمران عليها السلام

مريم بنت عمران عليها السلام

كان في بيت المقدس منزلٌ فقيرٌ، عاشَ أهلُهُ على الحزن والتعاسة، بلا ولد وبلا أنيس.. فقد كانت الزوجة عاقراً، وطالَ بها وبزوجها العمرُ، وهما على نفس تلك الحال من الشقاء والألم بسبب عدم الإنجاب. ذلك هو بيت عمران الذي كان من سلالة هارون.

أجل كانت امرأة عمران تعيش حرقة الحرمان بلا ولدٍ، وتقاسي لوعة العقم بلا إنجاب، فإن التقت أمّاً تحمل طفلها، أو رأت عصفورةً تحنو على فراخها، هاجَ بها الوجدُ، واشتدّ بها الحنين، ووقعتْ مريضة لعدة أيام.. كذلك وهي تعاني من شدَّة المرض كان يتراءى لها خيالُ الولد فلا يفارقها... وكم تصوَّرت تلك المرأة، وهي تقضي الليالي مؤرقةً لو أنها تكون ساهرة بجانب السرير، تكحُل عينيها بمرأى طفلها وهو يرنو إليها بنظراته، ويقبل عليها بابتساماته. بل ولكم توهمت أنها تتلقَّف طفلها بين ذراعيها، أو أنها تعتصر مولودها إلى صدرها لتُفرغ عليه من الحنان، والعطف، ما ينمّي جسده، ويسمو بنفسه، حتى يشبّ فيصير ملء سمع الدنيا وبصرها..

وتنقضي الشهور، وتنطوي السنون والمرأة ترقب رجاءً تريده أن يتحقق. ولم تكن لتقنط أو تيأس، على الرغم من تقدم العمر بها،

وعلى الرغم من المخاوف والهواجس التي تكاد تقتلها، دأبت على مناجاة ربها والتضرّع إليه. كانت تخلو إلى نفسها ساعاتٍ طويلة وهي قائمة في الصلاة والعبادة، وقلبها يلهج بالدعاء إلى الله سبحانه كي يمنَّ عليها بمولود يملأ عليها كيانها. .

وفي ساعة من ساعات تلك المناجاة والابتهال، نذرت إلى الله سبحانه، إن هو حقق رجاءها، أن تهب طفلها إلى العبادة، وأن تجعله خادماً في بيت المقدس، سادناً فيه، حتى يكون لها ذخراً عند الله تعالى. . وأخذتِ العهد على نفسها ألاَّ تستخدم مولودها في شيء، أو تَشْغَلَهُ في أمرٍ، بل سوف تجعله محرراً لخدمة بيت الله، مخلصاً لسدانته.

وكما يستجيب المولى الكريم لعباده الصالحين، فقد استجاب سبحانه لدعاء امرأة عمران وآتاها سُؤلها، فلم تمضِ بضعة شهور حتى أحسَّت بالجنين يتحرَّك في أحشائها. وكان هذا الإحساسُ نقطة تحوّل في حياة تلك المرأة، إذ استبدلت العبوسَ بالإشراقَ، والكآبة بالفرح. فأقبلت على الحياة بصدرٍ منشرح، وبنفسٍ راضية، وقلبٍ هانىء. تجالس زوجها فتؤنس وحدَته، وتقومُ على خدمِتِه فتشيع في أجوائه السعادة والفرح. والزوج في ذلك كله قانع، راضٍ، يحمد الله على ما أنعم على بيته بردّ زوجته إليه بعدما كان قد يئس من حالها، وجعل الأيام تقبل عليهما وهي تحمل البشرى السعيدة. وصارت نشوة الاطمئنان تغمر الزوجين استبشاراً بما سيتمّه الله عليهما من أنعمه، وبما سيهبهما من مولود بعدِ طول صبر وانتظار.

وطافت بأرجاء البيت علائم السرور، فأنْستِ الزوجين ما قاسيا من الآلام، ومسحت ما علق في نفسيهما من الأشجان والأحزان. .

ولكنَّ تلك الهناءة لم تدم، إذ سرعان ما تبدلت الأحوال وكأنها اشتاقت لمألوفها في هذا البيت. فبينما كانت الزوجة تعدّ العدَّة لوليدها، وتنتظرُ بفارغ الصبر ساعة قدومه، يموتُ زوجها فجأة وتعود إلى سابق عهدها من الحزن. ولكنَّها في هذه المرَّة لا تدعُ الحزن يَتَغَلَّبُ عليها، لأن هذا ما شاءه الله تعالى، فأمره محتوم، ولا رادَّ لقضائه..

وهكذا بقيت زوجة عمران، يعمر قلبَها الإيمان، ويراودها الأملُ الجميل، حتى حان الموعدُ، ووضعت حملَها، فإذا هي أنثى..

خاب رجاء هذه المرأة، فيما نذرت لله تعالى.. لقد رغبت في أن يكون لها وليدٌ ذكرٌ، فجاءتها أنثى، وليس الذكرُ كالأنثى في القيام على شؤون العبادة وخدمة الهيكل.

وأحسَّت بالخجل حيال ربّها، فنادته بضراعة وابتهال: ربِّ إني وضعتها أنثى..

والله أعلم بما وضعت... ولذلك جاءها الإلهام، من خلال هتافٍ داخليٍّ يقول لها: أوفي النذرَ، فلا حرج عليها وإن كانت أنثى.

ولم تجدْ زوجةُ عمرانَ بداً من الامتثال، فأسمتْ وليدتها «مريم» أي العابدة، ثم لفَّتها في الرداء، وحملتها إلى بيت المقدس، تُقدِّمها للأحبار وهي ترجوهم أن يرأفوا بها، وأن يقوموا على رعايتها بما يتلاءم مع رغبتها في أن تكون مكرَّسةً لخدمة البيت المقدس..

وتركتِ الأرملة وليدَتها، ثم قفلت راجعة إلى بيتها، مستسلمة لقضاء الله وقدره، تريد بذلك وفاءَ نذرها، وأداءَ الشكر لله على استجابة دعائها. إنها فقدت في الأمس القريب زوجها، وها هي اليوم

تسلّمُ فلذة كبدها إلى سدنة البيت وخدمِهِ، ولكن كل ما يهمّها هو أنها برَّت بالوعد وحفظت العهد.. فتقبّل الله ابنتها بقبول حسن.. ولو أن تلك الأمَّ علمت آنذاك، بأن الله سبحانه قد آثرَ ابنتها بالمكرمة دون غيرها من نساء العالمين، وأنها ستكون أمّاً لأحد أنبيائه المصطفين، لما كان للهمِّ أن يدخلَ قلبَها، ولما كان للحُزْن أن يسيطر عليها..

زكريا يكفلُ مريم

وهكذا حلَّتْ تلك الطفلةُ الصغيرةُ ضيفةً على سدَنةِ البيت المقدس، فخفّوا إليها مسارعين، وتنازعوا في كفالتها متبارين.. كلٌّ يريد أن يكون مدبِّراً لشؤونها، قائماً على تربيتها. وكان زكريا رئيسَ الكهنة، وسيّد الهيكل آنذاك، فرغب في أن يوكَلَ إليه أمرُ كفالة الطفلة، لأنه أولى بها من الباقين. فهو زوج خالتها، وأوثقهم صلةً بها، وأقربهم رحماً إليها، فكيف لا يكون إذن أشدَ الكهنة حدباً على تلك الطفلة، وأكثرَهم رغبة في كفالتها؟..

وأبدى زكريا عليه السلام حُجَجهُ أمام سدنة الهيكل، ولكن هؤلاء رفضوا كل حجَّةٍ أدلى بها، حتى طالَ الحوار بينهم، وكثر الجدل والنقاش، دون أن يتمكنوا من الاتفاق على رأي قاطع.. وأخيراً، رأوا أن يقترعوا فيما بينهم، فحفر كل واحد اسمه على قلمه، واتّفقوا أن يلقوا أقلامهم في النهر، فمن طفا قلمُهُ فوق الماء وسار عكس التيار كان هو أحقَّ برعاية الوديعة والقيام على خدمتها.. وجرف التيارُ الأقلام التي أُلقيت في ماء النهر، ولم يطفُ منها إلا قلمُ زكريا عليه السلام الذي سار عكس التيار. وكان ذلك إيذانا بقطع الجدل فيما بينهم، وبالانصياع إلى أمر الله تعالى الذي غلب عنادَ الرجال وإصرارَهم.

ورأى زكريا عليه السلام في حضانة تلك الطفلة زلفى إلى ربّه، وزيادةً في تقرّبه من خالقه، فشاء أن يجعل لها مقاماً رفيعاً في غرفةٍ عاليةٍ من الهيكل، كي تكون المكفولةُ بعيدةً عن عيون الناس، وعَنَ ضوضاء الحياة وضجيجها، ولكي يستطيع هو أن يقوم على خدمتها بما يناسب تنشئتها وتربيتها، فلا يزعجه أحدٌ كلما تفرَّغ لرعايتها.

ومرَّت سنواتٌ، وزكريا عليه السلام لا يتعبُ من صعود السلم، يحمل إلى مريم الماء والطعام، ويزودها بعد أن كبرت بالحكمة والعلم، ويرشدها إلى أمور العبادة والطهارة.

الرزق يأتي مريم من عند الله

وذات مرةٍ، دخل عليها المحرابَ فوجَدَ عندها رزقاً.. وتأمل فيما يرى فإذا هي فاكهة الصيف، بينما كان الفصل شتاءً. فانتظر قليلاً يتفكّر، فلم يجد إلا الاستغرابَ يحوّم في عقله، فيتساءل في نفسه: من أين أتى مثلُ هذا الرزقِ للفتاة، وعهدُه بها أنه لا يدخل أحدٌ عليها، أو يطرق باب حجرتها طارقٌ غيرُهُ؟ وكي يدفَعَ ما أشكل عليه، تقدَّم من الفتاة، وسألها برفق: أنَّى لكِ هذا؟! وأجابت بلا تردُّدٍ، وببراءة الطهر وعفوية الصديقين: هو من عند الله، إنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب.

وكان زكريا عليه السلام يعرف قوَّة إيمان هذه الفتاة، ويدرك مقدار طهارتها، وصدق لهجتها، فآمن على التوّ بما قالت، وأكبرَ عظمة الخالق، الذي خصَّها بتلك المنزلة الرفيعة، وبوَّأها مكاناً اصطفاها به على نساءِ العالمين.

وترعرعت مريمُ عليها السلام في ظلال بيت المقدس، حتى اشتدَّ

ساعدُها، وقوي عودُها. وكان مقامُها في ذلك المكان الشريف سبيلاً لحمْلِ نفسها على الصلاح ولتطهير فؤادها بالتقوى، فعاشت أيامَها عابدةً، قانتةً، تأكلُ من رزق الله الذي يرسلُهُ إليها مع ملائكةٍ كرام يوماً بيوم. وكان زكريا عليه السلام يرى بأمِّ عينه تلك العطيَّة العظيمة لها، إذ كلما دخل عليها المحرابَ وجد عندها رزقاً من طعام الجنة وثمارها فيخرجُ ويخبرُ الناس بأمرها، حتى شاعتْ سيرتُها على الملأ، وصارت مضرباً للأمثال في الطهارة والصفاء، ونبراساً في التقوى والعبادة.

عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام

عاشت مريم بنت عمران في ظلال الإيمان الرحبة. وكانت في إحدى الليالي قد أطالت في الصلاة والابتهال، وأكثرت من التسبيح والدعاء، حتى انفصلت عن كل ما حولها، واتصلت نفسها بأجواء الصفاء الكونيّ حيث أناشيد الإيمان الخالص تردّد الآيات التي تمجّد الخالقَ في عظمته، وتتلو الابتهالاتِ التي تزيد في نِعمِهِ.

وبينما هي غارقةٌ في ذلك الإشراق، سابحةٌ في تلك التأمُّلات، إذا بخلجاتٍ شديدةٍ تهزُّ جسدها، واضطراباتٍ قويَّةٍ تحرّك نفسها. وتنظر فيما حولها فتقع عيناها على مخلوق بشريّ قائم بالقرب منها، فتتملَّكها الرهبة، وتحدِّثها نفسُها بالهرب، إذ دخلَ في روعها أن الرجل قد يكون معتدياً أثيماً، غافَلَ سكان الهيكل وتمكن من التسلل إلى حَرَمها... إلا أنها برغم هول الواقعة عليها، أمسكت بعنان مشاعرها، ونزعت وسوسةَ الشيطان من نفسها، وأبت أن تخاف، لأنها التقيةُ النقيةُ الطاهرة، والعفيفةُ المصونة..

وتتطلع إليه باستفسار، فيدرك ما يخالجها، ويقول لها:

ـ «لا تخافي ولا تحزني» ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[1].

(١) سورة مريم، الآية: ١٩.

وأجابته مستوضحة:

- ومن تكون؟

- إني جبرائيل الأمين.

سمعت مريمُ قول جبرائيل، فغشيتها سحابةٌ من الخشوع، وطافت بها موجةٌ من المخاوف.. إلا أنها لم تدع وقعَ الخبر يفقدها الرشد، ولم تجعل المفاجأة تعقدُ لسانها، وإن كانت تُحِسُّ بقواها منهكة.. فحدَّقت به ثم استجمعت قواها وقالت له:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾(١)؟!.

وأجابها:

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٢).

وتقدَّم جبرائيل عليه السلام يمسح بيديه على رأسها، ويتمتم بكلمات غير مسموعة، ثم نفخ في وجهها نفخةً قويَّةً، واختفى..

ففكرت مريمُ في جلستها تلك، تسترجع ما جاءها به جبرائيلُ دون أن تدرك له كُنهاً. ولكنها تتساءل: كيف يكون لها غلام وهي عذراء؟ وكيف تحملُ وتَلِدُ من غير بعل؟!..

ويؤَرِّقُها آتي الأيام بما ستواجهُ به الناس، وبما سيُخالط نفوسهم من الشكوك والظنون..

ودفنت السرّ الرهيبَ في قلبها، وعاشت الشهورَ التوالي،

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٠.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢١.

مكظومةً ملتاعةً خائفةً من غدها، لأن ألسنة الناس لا ترحم حتى الأبرار الأطهار.

ولكي تتخفّى عن عيون جميع الناس، اختارت مريم أن تنتقل من اعتكافها في بيت المقدس، إلى اعتكاف جديد اختارته في مسقط رأسها الناصرة. وصمّمت أن تضعَ حملها في ذلك البيت الريفيّ، الذي خلا من كل بهجة ورونق، إلاَّ من بهجة التقوى، فاتَّخذته جُنَّةً لها، تستتر فيه عن عيون الرقباء والمتطفلين.

لقد أرادت مريم أن تنأى عن قومها، فلا تخالط أحداً منهم، ولا يتصل بها أحدٌ ولو كان كفيلها زكريا بالذات. وكانت غايتها أن لا تثير اللغط حولها، وأن لا تلوكها الألسنُ الخبيثة، حتى لا تنهار الفضيلة في أنظار الناس، وهي مثالها ونموذجها الرائع..

وكان أملُها أن يستجيب الله لدعواتها، وأن يتقبَّل ابتهالاتها، فلا يظنَّ أحدٌ بها سوءاً، وما كانت أمّها بغيّاً، وهي على نفس الدرب سائرة، وقد اختارها الله لتكون العابدة المصطفاة، فهل يجوز أن تكون موضع تهمة وهي لم ترتكب إثماً، ولم تقترف ذنباً؟!..

إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ما شاء الله تعالى وقدّر.. فلا خلاص لها إذن من هذه الضائقة، إلاَّ أن تسلّم أمرها لبارئها، وهو العليّ القدير، الرؤوفُ بعباده، الرحيمُ بمن تمسَّك بحبله.

اقتربت ساعةُ الوضع، وشعرت بألم المخاض، فانسلَّت من القرية، متوجّهة إلى البريّة. وهناك أوت إلى جذع نخلةٍ كبيرة، تمسك بها من ألم الطلق، وهي وحيدة، فريدة، لا يدَ تشفق عليها فتساعدها، ولا قابلة تحنو عليها فتعالجها، ولا ترى سبيلاً لتخفيف معاناتها إلا أن

تردد: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[1].

وحانت الساعة، ووضعت العذراء البتول طفلها..

نظرت إلى الطفل، فحزَّ في نفسها أن ترى هذه الثمرةَ الإنسانيةَ تتفتَّح على الوجود في عزلةٍ وانحباس. وتأمَّلَتْهُ ملياً، فإذا هي تأنس لمرآه، ولكنَّ الكآبة كانت أقوى في نفسها، فتمنَّت له الحياة، ولها قبراً يضمّها، فتفارق هذه الحياة الدنيا، وينساها العالم..

ها هي ذي مرتبكةٌ بحالها، لا تدري ماذا تفعل بالطفل، ولا ما تفعل بنفسها، فلا طعامَ تتغذى به حتى ترضع الوليد، ولا ماءَ يسدّ رمقها، ولا أنيسَ يؤنسُ وحدتَها.. وفيما هي في تلك الغمرة من الارتباك والحسرة، إذا بصوت يناديها من تحت النخلة التي تمسكت بجذعها حين الطلق: ألاّ تحزني قد جعل ربُّك تحتكِ سرياً (نهراً صغيراً يجري ماؤه عذباً سلسبيلاً)، ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾[2].

وفي لحظات تتغيَّر كل المعالم حولها. فالبقعة الجرداء يسري فيها الماء، والنخلة تنزّل عليها رطباً حلوة الطعم، شهيَّة المأكل. وفوق ذلك، وأهمّه، أن الهتاف يدعوها للاطمئنان في الأعماق، وللارتياح في قرارة النفس. ويزيدُ في دعوتها للدعة، ذلك الصوتُ الخارقُ صوتُ جبرائيل عليه السلام، وهو يؤانسها في وحشتها، ويشير عليها بألاّ تكلّم أحداً في يومها هذا: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٣.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٢٥ و٢٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٦.

فقد أوصاها: ألاّ تردَّ على المارة بجانبها، وألاّ تأبهَ لدهشتهم عندما يَرَوْنَ الطفل في أحضانها، بل عليها أن تمتنعَ عن كل قولٍ حتى صبيحة اليوم التالي..

وأتت به قومها تحمله، وتقدمه لهم على أنه هبةُ الله الذي نفخَ فيها من روحه، ليجعله آيةً للناس، ورحمةً للعالمين، بأمره المحتوم، وقضائه المبرم.

قدمته بين يدي حجّتها أمام القوم، لتدافع عن شرفها وعفافها. ولكنهم أنكروا عليها ما تحمل بين يديها، واتهموها بأسوأ اتهام قائلين: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[1]. ولم يقف اتهامهم عند هذا الحد، بل أرادوا أن يظهروها على غير ما كان أهلوها عليه، فأكملوا قائلين: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2].

فالقومُ جهلةٌ لا يدركون الحقيقة الثابتة الأزلية، وهي أن الله على كل شيء قدير. حاولت أن تدافع عن نفسها، فلم تجد لديهم الآذان الصاغية. ولكنها تملك سلاحاً لا يقوى عليه أحدٌ، وتتحصَّنُ بِملاذٍ لا يقدرُ عليه باغٍ..

فوقفتْ أمام القوم، وقد أزفت الساعة لتبرئة ساحتها، وأشارت إلى الغلام، دون أن تنبسَ ببنت شفة..

وتطايرت النظراتُ من وجهٍ إلى وجهٍ، وتناثرت الأفكارُ بين إشارة الأم والوليد الجديد، واستغرَبَ القومُ، ووقفوا حيارى وكأنهم يحسون نوعاً من الاستهزاء بهم، فأخذهم الوجوم، ولكن أحدهم خرج عن سكوته، فقال لها بلهجةٍ ساخرة:

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٢٨.

ـ وكيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً؟

وجاء الردُّ كالصاعقة تنزل بهم بلا نذير.. ولم يكن لسان الأم هو الذي أذهل القوم، بل هو الغلام، الوليد، يحرّك شفتيه، ليخاطبَ من كان حاضراً ذلك المشهد المروِّع، ببيانٍ يعجزُ عنه عباقرة البلاغة والفصاحة، وبإدراكٍ يتسامى فوق كل فكر، ليرسم حقيقةَ واقعِهِ، والغايةَ من مولدِهِ، وليرفعَ عن أمه تهمةَ السفهاء..

... ونطق الغلامُ، فإذا جوانبُ الكون كلها أصداء تردد على المسامع ما قاله غلامٌ وليدٌ، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾(1).

ولم نَسمع في غابر الزمان أن بشراً، مهما حباهُ الله من المزايا والصفات، قد أمكنه النطقُ وهو ما زال في المهد صبيّاً كعيسى عليه السلام. ولم تشهد الإنسانية كلّها أن طفلاً يولد، فيحدد كيفية وجوده، ومضمون حياته، إلا عيسى ابن مريم عليه السلام لأنه فذٌّ في مولده، فذٌّ في رسالته كما أرادهُ الله أن يكون. والله وحده قادرٌ على أن يجعله على ذلك الكمال، تماماً كما أنه كان قادراً على خلقه من غير أب..

لقد كان في نطق المولود حدثٌ بهرَ عقولَ الناس قبل أن يُدهشَ أسماعهم. فكُفّت الألسنُ عن لوم أمه، والتقت الآراءُ على أنه سيكون

(1) سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

له شأنٌ خطيرٌ في مستقبل الأيام.. ولكنَّ فئةً قليلة، كانت جهالتها أقوى من البيّنات الناطقات، لأن الضلال الذي طغى على بصيرتها أفقدها القدرة على الإدراك، وعلى الإيمان بأن الله إذا أرادَ شيئاً فإنَّه يقول له: كن... فيكون... فالحقد قد أوغر صدورَ تلك الفئة، وحملها على مجافاة الحقيقة، فلم تَرعَوِ، ولم ترتدعْ عن اللغط والدسّ. ولكن هل يهمّ وجود فئة قليلة ما دامت الغالبية الساحقةُ من الناس ترى بأم العين تحوِّلَ المعجزة الخارقة إلى واقعةٍ محسوسة؟!..

أقامت مريم في قريتها، تُعنى بطفلها، وتربيه، وقد قرَّت به العينُ وانشرح الصدرُ، فأوكلته إلى عناية الله، يحفظه ويرعاه كما يجب له أن يكون.. وفي هذا الجو الصافي، نشأ عيسى عليه السلام، بخلاف ما ينشأ عليه سائر الأطفال.. فهو نسيجٌ فريدٌ من نوعه، لا يذهب إلى معلِّم المدرسة كأترابه يتلقى العلم والحكمة كيما يُعطاهما، بل وهبه الله العلم والحكمة بحيث لا تنبو عنه شاردةٌ ولا واردة.

وتنتقل به أمّه إلى بيت المقدس وهو لما يبلغِ الثانية عشرة من عمره بعد، وهنالك لم تبهره المدينة بزخرفها ورونقها، ولم تأخذْهُ باختلافها عن الريف، حيث لا توجد مظاهرُ خلاَّبة، ولا مشاهدُ رائعة، ولا أمورٌ جذّابة لمن كان في سنِّه..

لقد كان يغضي عن ذلك كله، ويلقي بنفسه في ميدان التفكُّر والتبصُّر.. يراقب أهلَ الحكمة، ويُنصِتُ إلى الكهنة وقد تكاثرت حولهم الجماعات، وضمتهم المنتديات. فلم تَعجبْهُ تلك المشاهد، ولم ترقْه تلك المظاهر.. فالكل يُنصت ولا يبدي نقاشاً أو استفساراً.. والكل يأخذ ولا يعطي، وكأنَّ ما يقوله الكهنة آياتٌ منزلاتٌ عند الناس يصدِّقونها بلا أدنى تمحيص.. فانبرى في كل

مجالٍ وُجِدَ فيه، يبدي التساؤل والاستيضاح، وينطقُ بالحكمة والصواب، مفرّقاً بين الحق والباطل، ومميّزاً بين الخير والشر، حتى بات حديثَ الناس، ومدارَ مجالسهم . .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن يحضرَ مناظرةً في إحدى الساحات، وأن يتدخلَ في النقاش. ويدورُ الجدلُ بينه وبين جماعة المتناظرين، حتى يعجزوا عن إجابته، فتثور جماعةٌ منهم، وقد ضاقت به ذرعاً، وأنكرت عليه جرأتهُ حين صالَ على أهل العلم والمعرفة. . . ولكنه لم يأبه بمجابهتهم، بل كان همّه الأوحدُ نشرَ كلمة الحق، وإظهارَ الحقيقة ليس إلا، وأن يجعلَ من يدَّعون قيادة الفكر على طريقٍ قويم . .

وكان وقتُ الظهيرة قد أفَلَ، ولم يرجع عيسى بعدُ إلى البيت. وانتظرته أمه طويلاً، وخافت أن يلحق به الأذى، فخرجت مسرعة تبحث عنه، فوجدته بين جمهرةٍ من أهل الفكر والرأي، يقف في وجه ضلالهم، ويتحدَّى أفهامهم، ويفحمُ عقولهم، ويدحضُ حُججهم . .

فلمْ تدهش أمه، وهي تراه على تلك الحال، ولكن خافت عليه من ذوي النفوذ والسلطان، فآثرت أن تعودَ به إلى الناصرة . .

عيسى والروح الأمين عليهما السلام

عيسى والروح الأمين ﷺ

ظلَّ هذا دأبُ عيسى ابن مريم ﷺ، وهو يتنقل بين الناصرة وبيت المقدس، حتى بلغ الثلاثين من عمره.

في تلك السنّ، هبط عليه الروحُ الأمين، يحمل من ربّه الكتابَ الذي جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ومبشِّراً برسولٍ يأتي من بعده اسمه أحمد ﷺ.

وكانت فاتحةُ الوحي، وكان بدءُ الرسالة.. فأخذ يؤذِّنُ في الناس داعياً إلى الإيمان، ساعياً أن يردّ اليهودَ عن الزيغ، وأن يصدّهم عن الضلال، لأنهم ابتعدوا عن جادة الصواب، وانحرفوا عن الصراط القويم إذ كانوا يحرِّفون الكتابَ عن مواضعه، ويلهثون وراء جمع المال..

ومن أسوأ ما اعتاد عليه الكهنة عندهم آنذاك، أنهم كانوا يحرّضون الناس على أن يقدّموا للهيكل ما استطاعوا من النذور حتى يتمكَّنوا من جمع الذهب في خزائنهم، وحَشْوِهِ في مخابئهم، وبذلك يكونون قد استلبوا هذا المال مِمَّن هم بأمسّ الحاجة إليه.. أولئك الفقراء الذين كانوا يعيلون به الآباء، ويربّون بواسطته الأبناء..

وأسوأ من ذلك أن اليهودَ كانوا قد أصبحوا طوائفَ متضاربةً في

النزعات والأهواء. فأنكرت طائفةٌ منهم القيامة، واستبعدت الحشر، وكذبت بالحساب والعقاب، بينما أوغلت طائفة أخرى في أمور الدنيا، وانغمست في ملاذها وشهواتها. هذا عدا الجوِّ العامِّ الذي شاع بين القوم أجمعين: فقد سيطر الدهاء، وعمَّت المراوغة، وتفشّى الرِّبا والابتزاز.. كلُّ ذلك ولا من يردع أو ينصح!..

هكذا كانت حالُ اليهود عندما بزغ نجم عيسى عليه السلام وأشرقت شمسُه.. لقد بُعِثَ ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، ونُدب ليدلّهم على طريق الحق والهداية، فلم يترك سبيلاً من أجل ذلك إلاَّ سلكه، أو باباً إلا طرقَه. وشعرَ رجالُ الدين بأن التيارَ يوشك أن يجرفهم، وبأن الخطر سوف يداهمهم، فأجمعوا أمرهم بينهم، على مناوأته أينما حلَّ، وعلى تكذيبه أيّان ذهب..

وعَرَفَ بأمرهم، وما يحيكون له في الخفاء، فلم يَغْنِهِ أمرهم بشيء، ولم يبال بجمعهم ولا بكيدهم ولو مجتمعين. ولم تهزّه مناوأتهم، ولم يثنه عن عزمه نصبُ العداوة له، بل ثَبتَ على دعوة الصدق، وراحَ يتنقَّل بين القرى، وهو يفنِّد دعوات المضلِّلين، ويكذِّبُ أباطيلَ الدَّساسين، ويدعو إلى سبيل الله العليّ العظيم.

ولكي تكون له الغَلَبَةُ على أولئك المكذبين من خلق الله، ولكي يؤمنَ برسالته الناس، فقد أيّدهُ الله بالمعجزات الخارقات، وآزره بالبيّنات، فصار يخلق من الطين كهيئة الطير، ويبرىء الأكمَهَ والأبرص، ويحيي الموتى بأمر الله وإذنه..

فقال الذين أعماهُم الحقد: إنْ هذا إلاَّ سحرٌ مبين..

وقال الذين آمنوا: إن هذا إلا نصرٌ من الله، يؤيد به عبادَه الصالحين.. ولكي يكون للدعوة مداها، وللرسالة مجالاتها، قصد

عيسى عليه السلام رجال الكهنوت في الهيكل، واختار لذلك يوم عيدهم، حيث يَفِدُ الناسُ جماعاتٍ جماعاتٍ من شتى أنحاء البلاد، ليشهدوا الاحتفالَ الدينيَّ الذي يُقام في تلك الفترة من كل عام. .

وهنالك وقف يجابهُ رجالَ الدين بسوء سلوكهم، ويسفّه الطقوس التي يزيّنون بها للناس أهواءهم. . . وقف يعلن على الملأ تحلّل أولئك الكهنة من أمور الدين، وينكر عليهم حقهم في إغواء العامّة، في حين أنهم لا يتوخّون إلاّ مصالحَ ذاتية، ولا يبتغون إلاّ مآربَ دنيوية. .

وكان لوقفته تلك أثرٌ حاسمٌ في نفوس الكثيرين ممن حضروا تلك الواقعة، إذ رأى في وجوه القوم ما ينمّ عن الإيمان بأقواله، وما يصرّح عن الاعتقاد برسالته، فأعلن صارخاً:

﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1]؟.

قال الحواريون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾[2]! . .

لقد قصد عيسى عليه السلام من تلك الصرخة المدوّية أن يشدّ أزره بمن يُبعد عنه الرقباء، ويذود عن حياضِهِ الأعداء، الذين كانوا في أكثريتهم من رجال الدين. .

فقد أراد عيسى ابن مريم عليه السلام أن يكون لله حزبٌ بين اليهود، لأنَّه في الأصل من أسرة قلَّ مُعينها، وعزَّ نصيرها، وخمدت جذوة العصبية فيها، وللعصبية آنذاك أثرها في الأقوام. والدليل على ذلك ما قاله قومُ شعيب لنبيّهم:

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾[1].

إذن كانت تلك الصرخةُ المدويَّةُ سبيلاً للحواريين حتى يؤازروا النبيَّ الكريم، فخرج بهم، يجوب الديارَ والأقاليم، عاملاً على دَكِّ صروح الظلم، وطمس معالم الشرك، ليعيدَ إلى النفوس تقواها، وإلى القلوب إيمانها، فيستقر الإيمانُ، وتعلو راية التوحيد..

ارتحل عيسى عليه السلام وأنصاره، يتنقلون من مكان إلى مكان، حتى وصلوا إلى بقعة مترامية الأطراف، قد أقفرت جنباتها، وأجدبت أرضُها، فنزلوا يرتاحون من وعثاء المسير على غير ماء وطعام، وقد خارت منهم القوى، ووهنَ العزم.. وكان عيسى عليه السلام دائم اليقظة، حاضر البديهة، فرأى ما في القوم من عناء وكلل، فقام يخطبُ فيهم، ليحييَ الآمال، ويخففَ الآلام.. وكعادته، انبرى يبيّن لهم ما استغلَقَ عليهم فهمُه، ويوضح ما صعب عليهم حلُّهُ، يريد بذلك أن يزيدهم إيماناً، وأن يشدَّهم عزماً..

الله سبحانه ينزّل مائدة من السماء

ورغبتْ فئةٌ منهم أن تُعرِب عما كان يجيشُ في صدرها من ذي قبل، وقد وجدت الفرصة سانحةً لخلوّ الناحية من المأكل، فقام بعضهم يعرضُ عليه أن يؤمّن لهم القوتَ، فإن لم يقدر، فليطلب إلى الله أن ينزّل عليهم مائدةً من السماء، تكون آيةً جديدةً من آياتِ الله يرتوون منها ويشبعون بعد الجوع والظمأ...

وقال لهم عليه السلام وهو يعجب من أمرهم: يا جندَ الله، ويا

---

(١) سورة هود، الآية: ٩١.

أنصاري في دين الله، إياكم والظنون، واحذروا أن تقترحوا أمثال هذه المعجزات، لئلاً تكون فتنةً لكم، وسبباً في إفساد أمركم. . أو لم تروْا في ما جئت به من قبل ما يطمئنُ قلوبكم، ويجعلكم توقنون برسالةِ اللهِ إليكم؟

وأجابوه قائلين:

- يا نبيّ الله، لقد كنا صادقين في إيماننا، مخلصين في إسلامنا، ولن نشكّ على الإطلاق في رسالتك. . ولكن ما حَمَلَنا على طلب المائدة هو حاجتنا إلى الطعام. ألم تَرنا وقد خَوِتْ منّا البطونُ، وأصبحنا لا نجدُ ما يُمسكُ رمقنا ويخفف من سَغَبِنا؟. . . لقد علمنا ما حباك الله تعالى به يوم مولدك، ويومَ شفيتَ الأبرصَ والأكمه، ويوم أحييتَ الموتى، وكنّا شاهدين مصدّقين. . فإن جئتنا بما نرجوه ازداد في قلوبنا اليقين، واطمأن في نفوسنا الإقرار، ولسوف تكونُ تلك المائدة آيةً جديدة، ونكونُ لأمرها مُذيعين ولخِبرها معلنين، فيكثر المؤمنون ويزداد التابعون. .

وكمثل عادتِهِ، أقبل عيسى عليه السلام، على خالقه بنفسٍ صافيةٍ، وقلب طاهرٍ، يدعوه أن يُنزلَ على القوم مائدةً من السماء، تكون لهم آيةً، وعيداً، وأن يرزقهم من خيره فهو خير الرازقين. .

ويستجيب ربُّهُ لدعائه، فيوحي إليه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وتنزل المائدةُ على الحواريين، ويراها عيسى عليه السلام فيدعو ربَّه أن يجعلها رحمةً لهم، ونعمةً عليهم، لا فتنةً لذوي النفوس الضعيفة،

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

والقلوب الواهنة... فيقف في الجمع، ويقول لهم: ها هي ذي المائدة قد أنزلها الله عليكم، فكلوا ما طاب لكم، واشكروا الله ليزيدكم من فضله، والله يعلم ما تصنعون.

وذاعَ خبرُ المائدة في شتى الأنحاء، فآمَنَ خلقٌ كثير بالمسيح عيسى ابن مريم نبياً من عند الله، ورسولاً مذكِّراً بالتوراة والإنجيل، وهادياً إلى دين الله الواحد ومبشِّراً بالإسلام..

وانتشرت رسالة عيسى عليه السلام، وتناهتْ غَلَبَةُ الحق إلى مسامع الكهنة، فروّعهم ما رأوا من تألُّب الناس عليهم، وانصرافهم عنهم. وأيقنوا أن عيسى إذا ما ظلَّ على هذه الحال، فلسوف يجهّل آراءهم، ويسفِّه أحلامهم، وإذا ما بقي على هذه الوتيرة يشعُّ نور دعوته كالنجم الساطع، ولسوف تحلُّ الكارثةُ بهم، وستكون نهايتُهم المحتومة، لأنه قادرٌ على أن يقود ثورةً إيمانيةً تجتاح كلَّ كياناتهم، وتكتسحُ كلَّ قوامِ وجودِهِم..

وتنادَوا فيما بينهم إلى أمرٍ طارىء، وعقدوا الاجتماعات والخلوات، وهم يبحثون في الطُّرُقِ التي تُمكِّنهم من عيسى ابن مريم، فيقضون عليه، ويستريحون من الهموم التي حملوها، ومن المذلَّة التي اكتسبوها بعد ظهوره وانتشار دعوته..

ولم يجدوا أفضل من أن يؤلِّبوا عليه الحكَّام، وذوي السلطان، فراحوا يوغرون صدورهم بالحقد عليه، ويصوّرون لهم الخطر الذي يدفعهم إليه، حتى لتكادُ الواقعةُ أن تحلَّ بهم..

وتوافقت أهواء الكهان والحكام، فعقدوا العزمَ جميعهم على قتل عيسى ابن مريم والخلاص منه... ولكي يُحكِموا المكيدة التي

يدبرونها له، بثّوا العيون عليه في كل مكان حتى يعرفوا مسالكه ودروبه، ويتأكدوا من قيامه وقعوده.. وكان سبيلهم إلى إغواء المضلّلين، الوعودَ والأمانيَّ، وإغداقَ الأموال والثروات عليهم، إن استطاعوا أن يرصدوا مكانهُ، وأن يعلموا كل ما يقوم به..

الخيانة

وكان الناس، في غمرة الإيمان، يقبلون على الدعوة راضين، بينما الكهنة في بيت المقدس على لظى الحقد يتألمون. وها هم في اجتماع واسعٍ لهم يتذاكرون، ويخططون للقضاء على عيسى عليه السلام، وكلٌّ فَي فكرهَ همٌّ، وفي صدره غمٌّ. وبينما هم في ذلك الاجتماع وقد ضاقت عليهم السُّبل، وسُدَّت في وجوهم المنافذ، إذا برجلٍ يدلف إلى الحارس، ويُسرُّ إليه، في خوفٍ وحذر، بأن لديه أمراً هامّاً يريد أن يفضيَ به إلى المجتمعين..

ودِخل ذلك الرجلُ الغريبُ على الكهنة في خلوتهم، وكانت المفاجأةُ التي لم ينتظروها، إذ كان الآتي إليهم يهوذا الأسخريوطيّ، أحد تلامذة المسيح، وقد جاءهم بالخبر عن مكان وجود معلمه في تلك الليلة، حيث يقيم عشاءً سرّيّاً مع تلامذته، في أحد بيوت الله..

ولم يخجل ذلك الأسخريوطيّ الخائن من أن يطلب الجائزة التي كان الكهان يعلنون عنها لكل من يدلُّهم على عيسى ابن مريم، أو يقودهم إلى مكانه..

وما كاد يهوذا يُتِمُّ وشايته، حتى تنفَّسَ الجميع الصعداء بعد احتقان، وعلا البشرُ وجوههم بعد اكتظام، فقاموا إليه يبسطون له أوسع الآمال، ويطمئنونه بأن سرَّه لن يُذاع، وأن حياته لن تُضام..

. . . وانفضَّ الاجتماع على عجل، وذهب نفرٌ من أولئك الكهنة إلى الوالي، يقصّون عليه خبر الأسخريوطيّ وينبّئونه بمكان وجود عيسى عليه السلام مع تلاميذه. . . أمّا يهوذا فقد انسلَّ مع الخارجين، وأسرع ليوافيَ رفاقه وهم يجتمعون مع المعلم. ودخل، فوجدهم مجتمعين حول مائدة العشاء السرّيّ، فجلس في المكان المعدّ له، وأقبل على الطعام بنفسٍ نهمَة، وعينٍ فارغة، قبالة معلمه وسيده بالذات، وراح يأكل من زاده، دون أن ينبس ببنت شفة. ولكنه قبل أن يقوم من مكانه، نظرَ إليه معلّمه ثم قال موجّهاً كلامه للجميع:

ـ اسمعوا يا أبنائي، لقد أرادَ الله أن ينشرَ الدينَ القويمَ، وأن يثبِّت الإيمان في النفوس. وعليكم من بعدي تقع المهمة الجسيمة، والمسؤولية الكبرى، فتابعوا الرسالة، ولا تحيدوا عن طريق الحق والصواب. . .

ثم أطال عليه السلام حديثه، وأفاضَ في نصائحه وإرشاداته حتى منتصف الليل، وحينذاك، وقبل أن يلقيَ على تلاميذه تحيةَ الوداع قال لهم:

ـ لن يصيح الديك إلاَّ وأحدكم قد وقع في سوء خيانته، وشرِّ ضغينته. .

وصدق المعلم فيما قاله. . إذ قُبَيْل الفجر، سمع تلامذةُ السيد المسيح جلبةً وضوضاء في الخارج، فنظروا إلى ما يدور حولهم، فإذا الجند يحيطون بالمكان من كل جانب، يُشرعون أسلحتهم ويمتشقون سيوفهم وسهامهم. وراعهم ما رأوْا، فانفضّ عقد الاجتماع، وتفرَّق كلٌّ منهم في ناحيةٍ لينجوَ بنفسه، بينما ظل يهوذا الأسخريوطي وحده، وهو مطمئن إلى خيانته.

الله يرفع عيسى عليه السلام

وكان السيد المسيح يعلمُ بوحيٍ من ربه تعالى ما فعله يهوذا الأسخريوطي، ويدرك حقد الحكام والكهنة عليه، ولكنه كان على يقين بأنَّ الله ربه، الذي اختاره واصطفاه، لن يدعه إلى أعدائه كي يشفوا غليل حقدهم منه، ويمثِّلوا به ما شاء لهم سوءُ جهالتهم وبشاعةُ كيدهم..

وفي تلك الساعة الرهيبة، ساعة الفصل، يتجلَّى قدر الله المقدور، فيرفع عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء لِيُنَجِّيَهُ من كيد الكافرين.

ويدخل الجنود، وتقعُ أبصارهم على رجل شديد الشبه به، ويحسبونه عيسى ابن مريم، فينقضُّون عليه، ويأخذون بتلابيبه، ويسوقونه إلى الوالي فيأمر بأن يأخذوه إلى المكان الذي أعدّوه له، على رأس الجبل، حيث أقاموا خشبة الصليب، ليربطوه بها، بعدما عذَّبوه لمّا أمسكوا به عذاباً لم يخطر على بال أحد من الناس..

وأراد ذلك الرجل، الخائن يهوذا، الذي شُبِّه بالمسيح تشبيهاً، أن يظهر للناس حقيقة أمره، وأن يدفع عنه البلاء الذي أوقع نفسه به، ولكن أنَّى له النجاة من الجماهير، وانفعال الجماعات واضطرابها، وهي تندفعُ في فورة الغليان، لا تعرف حقيقة ولا تستكنه أمراً.. فقد مشت وراءه ومن حوله، تقذفه بالحجارة، وتضربه بالأشواك والكهان أمامهم يحثونهم، ويزيدونهم حماساً في أذاه...

لقد أراد الأسخريوطي أن ينال الجائزة الكبيرة بدلاً عن رأس عيسى عليه السلام، فكان جزاؤه أكبرَ من أيَّةِ جائزة على وجه الأرض. لقد جاءه الخزيُ في الدنيا وهو في الآخرة من الأخسرين.

ورُفِعَ يهوذا على خشبة الصليب، وظنَّ الكهنة والحكام والناسُ جميعاً أنه المسيح عيسى ابن مريم، ولكن ما دروا أنه زعمٌ باطل، فعيسى عليه السلام قد رفعه الله العزيز الحكيم إليه، وهو ما زال حيّاً يرزق. . لقد أراد اليهود قتله، ولكن الله تعالى ربَّ اليهود، وربَّ عيسى، وربَّ العالمين أجمعين يؤكد عدم قتل عيسى عليه السلام، كما يؤكد عدم صلبه، لأن الذي حَمَلَ خشبة الصليب، ورُفع فوق الجبل على الصليب كان يهوذا الأسخريوطي، الذي شُبِّه للناس بأنه المسيح، فيقول الله العزيز الحكيم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(1).

صدق الله العظيم. . وهو أصدق القائلين. . .

فعيسى ابن مريم لم يُصلَب، ولم يُقتَل. . . لأنه ليس بعد كلام الله ـ جلت عظمته ـ أيّ كلام لبني الإنسان. .

فسلام الله على المسيح عيسى ابن مريم يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعثُ حياً.

وهذه آيات القرآن الكريم، التي تنزِّه عيسى ابن مريم عليه السلام عن كل تجديفٍ وتأويل، وتضعه في المكانة التي اختاره ربُّهُ تعالى لها. .

فقد جاء في سورة «آل عمران»:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي

(1) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧ و١٥٨.

نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا(١) فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا
قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا
مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا
رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ
حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ
سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ
مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا(٢) وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ
يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ
﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ
وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ
ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ
وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ
لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ
﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ
مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا
وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ
يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ

---

(١) مُحرَّراً: أي خالصاً لطاعتك.

(٢) حصوراً: أي ممتنعاً عن النساء وعن جميع الشهوات. حصر نفسه عن الشهوات: أي منعها.

وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ
أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ
وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ(١) وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا
تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقٗا لِّمَا
بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم
بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا
صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٥١) ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى
ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ (٥٢)
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُواْ
وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (٥٤) إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٥٦)
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ
(٥٧) ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ
كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ
ٱلۡمُمۡتَرِينَ (٦٠) ﴾ .

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ
جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ

(١) الأكمه : أي الذي وُلِدَ أعمى.

ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ(1) قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

وفي سورة «النساء»:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾.

وفي سورة «المائدة»:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ

---

(1) إصري: أي عهدي.

أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ
عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾
قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا
مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ
إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ
قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾
مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ
فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ
فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ
ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ۞ .

وفي سورة «التوبة»:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ
ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ
أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ
وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

وفي سورة «مريم»:

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ
نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ
بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا
فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
(٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةًۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً
وَعَشِيًّا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ
يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ

أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ
لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠
رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى
بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا
قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ
نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ
فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا
﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ
نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا
﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾
وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

وفي سورة «الأنبياء»:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا
وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

وفي سورة «المؤمنون»:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

وفي سورة «الزخرف»:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

وفي سورة «الحديد»:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي سورة «الصف»:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

الخاتمة

وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا
لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا
أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا
إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا
لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا
وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ
فَرْدًا

سورة مريم

المسيح

بين كونه إنساناً أم إلهاً
من
أهداف قصص الأنبياء في القرآن الكريم

الشمسُ تُعطي النورَ، وفي البحر يوجدُ الماءُ.. حقيقتان لا تقبلان الجدلَ. وهكذا كانت الحقيقة الأولى التي أُعطيتْ للأرض عندما خلقَ الله الإنسان، وجعلهُ خليفةً فيها. إذ لا يمكنُ لأحدٍ أن يُنكِرَ بأن الإنسان مخلوقٌ قد ميَّزهُ خالقُهُ، عن سائر الكائنات، بما حباهُ من ملَكاتٍ وطاقاتٍ ومزايا، واختصَّهُ بها وحده، كي يتمكَّنَ من القيام بأعباء الخلافة، ويقدِرَ على تحملّ مسؤولياتها، ويؤكِّدَ بالتالي أهليَّته للاستخلاف.

وإذا كان كلّ ما في الكون، مما تدركه الأبصارُ والبصائرُ، يُنبىءُ عن وجود خالقٍ لهذا الكون، يدبّره وينظمه بكل دقَّة وإحكام... فإنَّ بعثَ الأنبياء والمرسَلين، لم يكنْ في حقيقته إلاً دعوةً لبني البشر للإيمان بأن هذا الخالقَ الحقَّ هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، مع ما يستتبعُ ذلك من تفتُّحٍ للعقول والقلوب، لكي تكونَ قادرةً على تلقي الإيمان بحقيقة وجودِ الله تعالى، وتستطيعَ بالتالي وضعَ المبادىء والقواعد التي تحكم تصرفات الإنسان في علاقاته مع نفسه، ومع غيره من بني جنسه، لأن علاقته بخالقه يحكمها في الأصل مبدأ الدين الحق، الذي أراده الله تعالى لبني البشر. ولا شكَّ بأنَّ ذلك كله يشكلُ

عقيدةً واحدة، ذاتَ جوهرٍ واحدٍ، عمل جميع الأنبياء والمرسلين، منذ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحتى النبيّ محمد ﷺ على إيصالها إلى بني البشر، وإن اختلفت الأساليب، أو تنوَّعت السبلُ التي اعتمدوها، بما يتلاءم مع تطور الظروف والأزمنة.

وإذا كانت قضيَّةُ الإيمان بالله الواحد، قد استنكفت عنها الجماعات البشرية، ولا سيما في عهودها الأولى، فإنَّ مهمة رسُل الله إنما كانت تستهدف التصدِّيَ للجهالة في العقول، ونزعَ بواعث الشرّ من النفوس، لتستقرَّ تلك القضية على حقيقتها في الأذهان، ولترفرفَ ألوية الحق والصلاح في المجتمعات على تعددها واختلافها.. من هنا كانت سِيَرُ المبعوثين من الله ـ عزّ وجلّ ـ تكاد تكون متشابهة، أو تبدو وكأنها سلسلةٌ مترامية الأطراف، تتوثَّقُ حلقاتها ببعضها البعض كي توجّه الإنسانَ وفقاً لما يجب أن يكون عليه في مسيرته على هذه الأرض، بل وفي حياته الآخرة.

وتؤكِّدُ هذا التشابهَ الكتبُ السماويةُ، كما يؤكِّدهُ التاريخُ البشريّ.. وعلى هذا الأساس كان كلُّ نبيّ أو رسول، ما إن يكاد يبدأ دعوته، حتى يجدَ أن العالمَ كلَّهُ قد انقلب ضدَّهُ، وقامت في وجهه الصعوبات والمشقَّات، تلاحقُهُ في حياته الخاصة، كما تجابهُهُ في حياته العامة..

وهكذا عانى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أبيه، ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من ابنه، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ من زوجته، معاناةً شديدةً.

أما على صعيد الحياة العامَّة، فإنَّه ما من نبيّ أو مبعوث إلاَّ وثارَ عليه بنو قومِهِ، يعرّضونه للهزء والسخرية حيناً، أو لخطر الموت حيناً آخر. ومثاله قتلُ بني إسرائيل النبيين بدون حق، حتى ليمكن القول، بأن أي

مبعوث من رب العالمين إنما كان يعيشُ حياةً حافلةً بالعداء، تهاجمه مختلفُ الفئات التي يعيش بين ظهرانَيْها، ويظلُّ المبعوث ثابتاً على دينه، حتى يُمكِّنَ الله له في النهاية، ويؤيّدهُ بالنصر على القوم الكافرين.

وإذا قمنا بمحاولات لتقصّي حياة رُسُل الله إلى الأرض، لوجدنا أنهم قَبْلَ البعثةِ، كانوا يعيشون في أمانٍ وسلام... فظاهرُ حياتهم يدلُّ على أنهم يمتازون عن سائر أبناء قومهم، بالصفاتِ الفاضلة، والأخلاق القويمة، وبما توفِّرهُ تلك المزايا من محبّة الناس واحترامهم لهم، وتقديرهم إيّاهم.

وبعيداً عن المظاهر، وفي صميم النفس، كان كلٌّ منهم يعيشُ حالاتٍ من المشاعر الخاصّة.. يُحِسُّ منذ تفتَّحت مداركه على الوعي بأن قلقاً يلازمُهُ، ويشعُرُ بأن أمراً معيَّناً ينتظرُهُ، ولكنه لا يدرك كنهَهُ.. ويظلُّ على هذا النحو حتى يأتيه الوحيُ ويُنتَدَبُ للتكليف، وإذ ذاك ترتفِعُ الحَيْرةُ من نفسه، ويذهبُ عنه القلقُ، ويعرفُ السرَّ الذي كان يُعاني منه.. في هذا الوقت بالذات، وعندما تنعمُ روحُ مبعوث الله تعالى بالسلام الداخليّ، يبدأ الاضطراب في أمنِهِ الخارجيّ، حتى يُصبحَ هذا الأمنُ وكأنه شراعٌ تتقاذفه أنواءُ الأهواء والنزعات، وتتجاذبه أمواجُ الأحقاد والانفعالات من الناس الذين جاء لهدايتهم!..

نعم، يكونُ أحدهُم مكرماً في بني قومِهِ، يَرون فيه الحليم، الرشيدَ، الصادقَ، الأمينَ، المستقيمَ، حتى يُعلنَ دعوَتَهُ.. عندها تبدأ العواصف، وينقلبُ كلُّ شيء ضدَّهُ، وفجأةً يتحوَّلُ في أعين الناس، من تلك الصفات التي كان عليها، إلى مجدِّفٍ على المعتقدات، مسفِّهٍ للآراء، مزدرٍ للعادات والتقاليد. ويصبحُ أيضاً وبصورة فجائية، ذلك المجنونَ، أو الساحرَ، أو المارقَ من عقائدهم السخيفة..

إنّ النبيَّ أو الرسولَ، والحقُّ طريقُهُ، لا بدَّ أن يكون النصرُ حليفَهُ في النهاية، مهما تألّبتْ عليه قوى الشرّ، أو تضافرتْ ضدّه جيوش الباطل. ولكن قبل أن يصلَ إلى مرحلة النهاية، وفي سعيه المتواصل من أجل إفهام الناس وإقناعهم بأحقية ما يدعوهم إليه، تَفرضُ عليه مُستلزماتُ الدعوةِ أن يأتيَ بأعمال، يظنُّها الناس معجزاتٍ أو خوارق، بينما هي في الحقيقة، وكما نفضل أن نسمّيها، آياتٌ بينات، وشواهدُ حيّة على أن الله العليّ القدير يمنحُها لمبعوثه، أو يأذن له بإتيانها، حتى يتمكّن من أداء الرسالة على الوجه الأكمل..

لقد اعتبر الناسُ، أن تلك الأعمال أو الأحداث التي عايشوها على يد المرسلين هي خوارقُ أو معجزات.. وهذا أمرٌ طبيعيّ، لأن القانونَ الذي يحكُمنا نحن بني البشر، والذي يُقيِّد عقولَنا بما نقدِرُ عليه، ويكبّل إدراكنا بما يمكننا الوصول إليه، لا نستطيع تخطِّيَه أو تجاوزه. والأمثلة على ذلك لا يمكن أن تقع تحت حصر.. مثال أن النارَ لها خاصية الإحراق، وأن العصا اليابسة لا تأكل لعدم وجود حاجة عضوية فيها لطلب الطعام.

ومن البديهيّ أن يكون هذا القانون صحيحاً بالنسبة لنا نحن بني البشر، نظراً لتركيبنا الفيزيولوجيّ والعصبيّ والإدراكيّ والنفسانيّ، وكلها تعجز عن إعطاء كلٍّ من النار أو العصا، خصائصَ تختلف عن خصائصها الطبيعية التي وجدت فيها. ولكنَّ هذا القانون لا يطبَّق على الله سبحانه، لأنَّ جميع القوانين تخضعُ في الأصل له - عزّ وجلّ - إذ إنه هو خالق كل شيء، وهو الذي يضع الخصائص لكل شيء. ومن كان قادراً على خلق شيء ما، فهو قادر على التحكُّم فيه، وتبديل خصائصه وفق ما يشاء أو يريد.. هكذا وبمثل هذا المنطق يكون الله

قادراً على أن يسلبَ النارَ خاصيةَ الإحراق، إذا أراد أن ينجيَ نبيَّه إبراهيم عليه السلام من كيد أعدائه، ويكون سبحانه قادراً على أن يعطيَ العصا خاصيةَ الحياة حتى يُصبح بإمكانها أن تسعى بنفسها وتلقفَ كل ما يأتي به السحرة، أو أن يجعل في تلك العصا قوّةً تفلقُ البحرَ حتى يُغرِقَ فيه أعداءَه وأعداء الإنسانية.

إذن ليس مستغرباً أن يقفَ الناسُ أمامَ أحداثٍ كهذه، مشدوهين، مأخوذين، ويندفعوا إلى وصف الحادثة بأنها معجزةٌ أو خارقة.. وليس علينا جميعاً حرجٌ، إذا أطلقنا عليها ذلك الوصف، ما دمنا نرى بأم العين واقعاً وحادثاً، يفوقُ طاقتنا وقدرتنا، ويبعدُ كثيراً عن إدراكنا إذا حاولنا محاكاتَهُ مع ضعفنا وعجزنا عن الإتيان بمثله...

ومن هنا كان علينا أن نؤمن، بأن الأنبياء والمرسلين لا يجترحون المعجزات، وإنما يأتون بإذن الله، في مناسبات معيَّنة، وفي أحوال خاصَّة، أفعالاً لا تتَّسم بالطابع العاديّ مما يعرفه بنو البشر..

وقد يسألُ سائلٌ: ولماذا لا يكون في أيامنا هذه مثلُ تلك الخوارق والمعجزات، ونحن في أمس الحاجة إليها، كي تعيدنا إلى طريق الإيمان الصحيح؟..

والجواب سهل وبسيط جداً، فالرسالات المنزلة إلى أهل الأرض اختار الله تعالى لحملها ثلةً من عباده الصالحين يحملون للناس الهداية، ويدلُّونهم على الطريق المستقيم. فإذا كانت تلك الثلَّةُ المختارةُ قد أُعطِيَتْ وحدها الامتيازَ كي تتحققَ على يديها تلك الأفعالُ التي يعجز الناسُ عن الإتيان بمثلها، فإنَّه من الطبيعيّ أن لا نرى في وقتنا الحاضر، مثل تلك الأحداث، تؤتى أو تتحقق وبنفس الطريقة التي جرت وحصلت فيها على أيدي أصحابها..

ثم إن هنالك سبباً آخرَ جوهرياً، وهو أن الإنسان قد بلغَ من النضوج الفكريّ، والعمق العقليّ، ووصل إلى مدى من المعرفة والعلم، يمكنه معها من إدراك ما في هذا الكون، وذلك بعدما أرشدتْه الكتبُ السماوية إلى السبل التي يستطيع بواسطتها إدراك المعاني والمفاهيم الروحانية، والوصول إلى معرفة تركيب الكون. ولعلَّ فيما حقَّقه العقل البشريّ، وما هو قادرٌ على تحقيقه في المستقبل أكبرَ دليلٍ على ما أعطى الله الإنسانَ من معرفةٍ باتت تصنعُ أحداثاً لو جاءت في وقتٍ مضى لاعتُبِرت بمثابةِ خوارقَ أو معجزات. فلو كان عقل الإنسان قادراً على أن يستوعب أمور اختراق الفضاء والوصول إلى الكواكب الأخرى، وأعطى الله لأحد أنبيائه قدرةً على أن يوفِدَ إلى القمر إنساناً ثم يعيده إلى الأرض، والله قادرٌ على ذلك، كما قلنا، لأنه خالق كل شيء، وقادرٌ على كل شيء، فإن ذلك كان يُعَدُّ معجزةً أو خارقةً في ذلك الوقت. وهذا ما حصل بالفعل ولكنَّ المشركين والكفار لم يصدقوه، وذلك عندما حصل الإسراء والمعراج، الذي يُعَدُّ في جوهره وحقيقته اختراقاً للفضاء، وصعوداً إلى السماوات العلى. وربما غير المؤمنين الصادقين حتى اليوم لا يقرون بحصول الإسراء والمعراج، لأنه يُعَدُّ معجزة بالنسبة لعقل الإنسان بينما هو آية من آيات الله العظمى التي يؤتيها سبحانه من يشاء، وكيفما يشاء.. بل وحتى في عصرنا الحاضر، ما زالت هنالك فئاتٌ واسعةٌ في البلاد المتخلفِّة لا تصدّق بأن الإنسان قد وطأ بقدميه سطحَ القمر، وتعتبرُ ذلك تجديفاً على الخالق، لأن في ظنها أن ذلك نوعٌ من الخارقة أو المعجزة التي لا يستطيعها الإنسان.

إذن لا مجال بعدُ على الأرض لبعث الأنبياء والمرسلين، ولا

جدالَ في أن الإنسان قد بلَغ من العلم والمعرفة ما يستطيع به أن يستوعب قضيةَ الإيمان بالله الواحد، وأن يسعى لاكتشاف مكنونات الكون، بما يؤمن مصالحه، وفق ما يراه! . .

على أنه بالغاً ما بلغ الإنسان علماً ومعرفةً ونضوجاً فإنه ما زال وسيظلُّ عاجزاً، عن معرفة شيء واحد، هو سرّ الحياة. ومن جملة ما استهدفت قصص الأنبياء، التأكيدُ على أن ذلك السرّ هو من خصائص الخالق التي اخْتُصَّ بها سبحانه وتعالى وحده، تماماً كما هو علم الغيب من تلك الخصائص. وقد يكون سر الحياة هو من علم الغيب، ولذلك لم يُعطَهُ الإنسانُ. . ولكن ما أمكننا معرفته، نحن بني البشر، وما دلَّتنا عليه قصص الأنبياء، كما وردت في القرآن الكريم، هو أن الله يخلق الإنسان، بالطريقة التي يريدها، ووفق ما يشاء سبحانه ويقدّر. فقد خلق آدمَ من تراب، ونفخ فيه من روحه فكان بشراً سوياً. . ثم جعل للخلق قاعدة تقوم على التقاء الذكر والأنثى، وعلى اجتماع بويضة الأنثى بخليَّة التذكير، فمتى حصل ذلك تمَّ الإنسان ونشأت الحياةُ التي تظهر للوجود بعد مدة محددة. . هذه سنَّةُ الله في خلقه.

وعندما شاء الله القادر أن يخرق تلك القاعدة، اختارَ انثى بمفردها، هي مريم بنت عمران سلام الله عليها، ونفخَ فيها من روحه - تماماً كما نفخ من روحه عند خلق آدم عليه السلام - ومن تلك النفخة التي تلقتها مريم من روح الله سبحانه، نشأت الحياة في أحشائها، وولدت ابنها عيسى، عليه وعليها السلام.

إذن لقد حقَّت كلمةُ الله الذي يقول للشيء: «كن. . . فيكون» فكان عيسى ابن مريم عليه السلام مخلوقاً لله تعالى الذي ينشىء الحياة على أي سبيل يشاء: من تراب، من التقاء الذكر والأنثى، من أنثى

وحدها. . كلٌّ شيء عنده هيّنٌ، وما ذلك على الله بعسير. .

وسواء سمَّينا ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام خارقةً أو استثناءً أو معجزةً، أليست تعود إلى الاعتقاد اليقينيّ بأنها من صنع الله تعالى الذي لا ينازعه فيها كائنٌ؟ أي أن الله هو وحده القادر على إتيان الخارقة أو الاستثناء كما هو قادر على رسم القاعدة، وليس غيرُهُ بقادرٍ على ذلك. . وما أجملَ وأروعَ أن يقرأ الإنسانُ، بعد التفكير والتأمُّل، سورة الإخلاص في القرآن الكريم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

نحن ندرك إذن أن الله تعالى قادرٌ على أن ينشىء الحياة على غير مثال، وليس بضارٍّ أن نجهل ماهية هذه الحياة. كذلك ليس يُعيقُ هذا الأمر قدرتَنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الأرض، ما دام إنشاءُ الحياة لا يدخل في تكليف الاستخلاف. . لذلك فإننا نقولُ لك أيها القارىء العزيز، وبكل تواضع وبساطةٍ، إنه يجب ألاَّ يشتبه عليك الأمر، أو أن تأخُذَكَ الشكوك بعيداً، إذا ما وجدتَ في ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام ما هو غير مألوف، ما دام أن ذلك قد تمَّ بأمرِ الله تعالى. . .

ولعل في قول الله عزّ وجلّ، ما يُدخِل الإيمانَ إلى القلب، وما يُنبىءُ عن قدرة الله وعظمته، وهو يرسلُ النبيين إلى بني البشر، ومنهم رسولُه إلى بني إسرائيل المسيحُ عيسى ابن مريم عليه السلام فلنستمع إذن إلى قول الله تعالى في عيسى وأمّه الصديقة مريم، ولْنَتَتَبَّعْ بعده بإيجاز، ما حدث لذلك الرسول الكريم بعد أن رفعهُ الله عزّ وجلّ إليه.

يقولُ الله سبحانه في محكم كتابه العزيز، وفي سورة «المائدة»:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾(١).

فأوّلُ ما تؤكِّد هذه الآيات عليه هو إنسانية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنَّهُ كانَ هو وأمُّه بشرين يأكلان الطعام، مثل باقي بني البشر. أما الغاية الجوهرية من إيراد هذه الميزة «يأكلان الطعام» فهي للتدليل على أن الإنسان عندما يتناولُ الطعامَ إنما يستتْبِعُهُ إخراجُ الفضلات، وحاشَ لله سبحانه وتعالى أن تكون له تلك الصفة، لأنه ليس معقولاً أن يكون الأكل وإخراج فضلات الطعام من صفاته عزّ وجلّ.

ولقد جاء التأكيدُ بعدما طالَ الجدَلُ، وكثُرَ النقاشُ حول طبيعة المسيح: هل هو إله أم إنسان. فكان لا بدَّ من دحض ما قيل بأن المسيحَ هو إله، ولا بد من بيان صفته بأنه إنسانٌ مثل كل الناس في طبيعته، ولكنه رسول الله إلى بني إسرائيل، وللرسول عادة عند الله خصائصُ ومزايا يخصُّهُ بها، ويميّزه بموجبها عن سائر مخلوقاته، لأنه واحدٌ من تلك الثلّة التي يختارُها الله لقيادة الناس وتوجيههم إلى ما تحمله الرسالات السماويّة..

ولقد جاء هذا التأكيد في آخر كتابٍ سماويّ لآخر رسالةٍ سماويَّة تُبعثُ إلى الأرض. وهو كتابٌ يحتوي كلام الله سبحانه الذي أنزل

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦ و١١٧.

بلسان عربيّ. وما دام هذا الكتابُ، ونعني به القرآن الكريم، قد قطعَ بصورةٍ لا جدالَ فيها، أن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام هو إنسانٌ، وهو رسولٌ من الله إلى بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾(1). ما دام القرآن الكريم قد قطع كل غموض حول طبيعة السيد المسيح بصورةٍ جازمةٍ، فلا يجوزُ لنا بعدُه، إلاَّ أن نوقِنَ بما يقولُهُ، لأن القرآن كما أثبتنا أكثر من مرّة، وكما تأكّدَ للملأ كلِّه، منذ ١٤٠٠ سنة ونيّف، كان ولا يزال معجزةً بذاته، ولا يمكنُ لأيّ بشرٍ أن يأتيَ بمثِلِه، لأنه قولُ الله سبحانه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هذا هو إيماننا بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: إنه إنسانٌ بعَثهُ الله نبيّاً لبني إسرائيل. وهذا ما تثبته حياتهُ التي عاشها في بيت لحم من قرى فلسطين. فقد عاش على مرأى جميع بني عصره، يأكلُ ويشربُ، ينامُ ويقومُ، يروحُ ويجيءُ، مثلَ كل الناس، حتى جاءَهُ التكليفُ الذي أُعِدَّ له منذ البداية، وحمَلَ الرسالَةَ التي نُدِبَ لها في الأصل..

وهذا إيمانُ عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، فهو يقول فيه: «وإن شئتُ قلتُ في عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد كان يتوسّدُ الحجَرَ، ويلبسُ الخشِنَ، ويأكلُ الجَشِبَ. وكان إدامُهُ الجوعَ، وسِراجُهُ بالليل القمر، وظلالُه في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها. وفاكهتُهُ وريحانُهُ ما تنبتُ الأرض للبهائم. ولم تكن له زوجةٌ تَفْتِنُهُ، ولا ولدٌ يُحزِنُهُ، ولا مالٌ يَلفِتُهُ، ولا طَمَعٌ يُذِلُّهُ. دابَّتُهُ رِجلاه، وخادمهُ يداه».

---

(1) سورة الصف، الآية: ٦.

وفي سبيل إثبات الحقيقة، وحتى لا تظلَّ لأحد حجَّةٌ فيما يدَّعي، فلنعد إلى الحوار الذي يوردهُ القرآنُ الكريمُ بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ. والمسيح عليه السلام على شكل عتاب يراد منه إقناعُ أتباع السيد المسيح بحقيقته التي خلقه الله تعالى عليها، فيقول له عزّ من قائل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(1).

فماذا يكون جواب المسيح عليه السلام؟

إنَّه من الطبيعي، وهو رسولٌ كريمٌ ألاَّ يُجيبَ خالقه إلاَّ بما قاله للناس حقّاً، وبما قام عليهم فيه شهيداً طوال قيامه بالرسالة. فكان جوابُهُ سلامُ الله عليه: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(2).

سلامُ الله عليك يا سيّدي يا عيسى ابن مريم وأنت تناجي ربّك بتلك الآيات البيّنات التي تؤكِّد بها أنه هو الله الخالقُ الرازقُ المدبِّرُ لا إله إلا هو، وأنه ربُّك وربُّ العالمين أجمعين، والتي تؤكد بها امتثالك لأوامر ربك عز وجل ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ والعبادة لله هي دليل عبودية الإنسان له سبحانه وتعالى، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد.. وسلامٌ عليك يا سيدي يا رسول الله وأنت تبدي للخالق أنك قد دعوتَ بني إسرائيل لعبادة الإله الواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا ولد، وأثبتَّ لهم ما أمرَكَ الله به، تصديقاً لما جاء في توراة موسى عليه السلام، وشهدتَ عليهم أنَّكَ بلَّغتهم وأجزلْتَ في البلاغ، وبقيتَ الشهيدَ

(1) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(2) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

الرقيبَ، حتى توفّاك ربّك ورفعك إليه، يا صاحبَ المقام الرفيع . .

هذا هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما دلَّ عليه القرآن الكريم بالحجَّة الواضحة والبرهان القاطع بأنه كلمةٌ من الله بشَّرت بها الملائكةُ أمَّهُ مريم ليكونَ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرَّبين إلى الله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾(١). والكلمةُ كما قلنا هي: «كن . . . فيكون». وقد رادفتِ الكلمةُ النفخةَ من روح الله، فكان المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

أمّا الروح، لفظاً، وكما وردت في القرآن الكريم، فقد حملت معانيَ متعددة: فأريد بها جبرائيل عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾(٢) أي نزل بالوحي. وأريد بها الشريعة الإسلامية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾(٣). وأريد بها أمر الله ومشيئته: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾(٤). وأريدَ بها سرّ الحياة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٥). وفي ذلك تأكيدٌ جديدٌ على أن سرّ الحياة لا يعرفُهُ إلا الله تعالى.

هذه المعاني للروح، توحي يقيناً بأن المسيح عليه السلام هو من روح الله، أي أن الله ـ جلت عظمته ـ قد خلقه بأمره، ووفقاً لما يشاء من خلْقه، وقد اختار الله أمَّهُ مريم واصطفاها على نساء العالمين كي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

ينفُخَ فيها من روحه، ويُنشيءَ حياةً من تلك النفخة المباركة. أمّا ذلك الاختيارُ لمريم فقد كانت له مقوّماته بلا شك. فقد نُذِرَتْ، وهي في بطن أمها لتكون عابدةً، قائمةً على خدمة بيت الله. وقد رُبّيتْ في كنف زكريا عليه السلام، على الإيمان والتقوى الخالصة لوجه الله، فلم تركعْ لصنم، ولم تعبدْ مادةً كما كان يفعلُ بنو إسرائيل، حيث وصل عندهم حبّ المال إلى درجة العبادة، بل وأصبح مقياسَ الفضائل في نظرهم. وعاشت في ذلك الصفاء، وفي ذلك الطهر، دون أن يمسّها بشرٌ، أو يُدنِّسها اتِّصالٌ، فكانت الفتاةَ العذراءَ البتولَ، وكانت المرأةَ التي حَبلَتْ بلا دنسٍ، وكانت الأمَّ التي ولَدَتْ وهي عذراء..

أَوَلَيْسَ في تلك المزايا ما يجعلها الأمَّ المختارةَ لرسولٍ خَلَتْ من قبله الرسُلُ؟ وذلك الرسُولُ ابنُها، المسيحُ عيسى ابن مريم عليه السلام، ألم يكن رسولاً فريداً في زمانه، فأَعطيَ ما لم يُعطَهُ رسولٌ قبلَهُ؟ أليس هو، من نفخَ في الطين فصارَ طيراً، وشفى الأبرَصَ (المصاب بمرض جلديّ) والأكمه (الأعمى) وأحيا الموتى، وكلّ ذلك بإذنه تعالى.

ألا لو أمعنَ الإنسانُ النظرَ بتلك العطايا الساميات، التي وُهِبَتْ للمسيح عليه السلام، لأيْقَنَ فوراً، وبلا ترددٍ، أنها لا يمكن أن تكونَ إلاّ لذي منزلةٍ رفيعةٍ عند الله.

وبالفعل، فقد كان للمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام تلك المنزلةُ السامية عند ربِّهِ، بحيث شكّلتْ حياتُهُ منذ ولادته وإلى حينِ رفعَهُ الله إليه، وحدةً من نسيج فريدٍ، فكانت ولادته بنفخةٍ من روح الله، وكانت أفعالُهُ بمثابة خوارقَ أو معجزات، تدليلاً على عظمتها وقوّتها، وكانت وفاتُهُ رفعاً إلى الله، حتى يكون في ذلك كلِّه وجيهاً في الدنيا والآخرة، وعند الله من المقرّبين.

هذا هو المسيحُ عيس ابنُ مريم ﷺ، ذلك الإنسان الرسولُ الذي امتاز بخصائصَ من ربه، كانت له وحده دون غيره، فجاءَ الناسُ من بعده يختلفون فيه، ويمعنون في الاختلاف بطبيعته، وفي تعاليمه التي ضمَّها الإنجيل، وعلَّمها لتلاميذه ولبني إسرائيل، وفي قيامه بالدعوة والتكليف، وفي ناحية موته أم بقائه حيّاً.

وفي القرآن الكريم ورد قولُهُ تعالى على قضية وفاة السيد المسيح وحياته في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾(١) وكان اختلافٌ في التفسير عندما قالوا بأن الله قد توفّى المسيح ﷺ كما يتوفى سائرَ الناس، أي أماته، ثم رَفَعَهُ إليه، أو عندما قالوا بأن وفاته حصلتْ جسداً ثم رفعه الله إليه روحاً... ونحن نرى بأن الله سبحانه وتعالى قد رفع المسيح عيسى ابن مريم إليه جسداً وروحاً، لأنَّ الوفاةَ تحمل في القرآن الكريم معنى اللقاء في النوم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾(٢) وبدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(٣). وهذا يعني أن الوفاة هي اللقاء، وهي غير الموت، لأن الوفاة تحصل للإنسان كلما غاب بوعيه عن وجوده، بينما الموتُ هو الذي يُغيِّبه بصورة نهائية عن حياته الدنيا، والفارق كبير بين الحالتين: حالة وفاة الأنفس حين موتها، وحالة وفاة الأنفس في منامها، والتي ليس فيها موت.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

من هنا نرى أن المسيح ما زال حياً، ولم يُصِبْهُ الموتُ لا جسداً ولا روحاً، وهذا معنى الرفع.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾..

أما فيما يتعلق برسالته وكما بيّنا من قبل فقد بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام إلى بني إسرائيل، بعدما بَعُدوا عن التوراة التي أنزلها الله على موسى هدىً ونوراً، وعقيدةً وشريعةً، وكان الانحراف في حياة بني إسرائيل، عندما زهدوا في الدين وانصرفوا إلى الدنيا، تطغى على سلوكهم المادة، ويسود في علاقاتهم الربا والفحشاء، ناهيك عن الظلم والعدوان، واستباحة المحرمات.

ولما كان الله رؤوفاً بعباده، حليماً، رحيماً، فقد أرسل لبني إسرائيل المسيحَ عليه السلام، ليُعيدَهُم إلى جادَّةِ الحق والصواب، التي ناضل في سبيلها أنبياؤهم المختارون: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (إسرائيل) ويوسف، وموسى عليهم السلام... فبعثُ عيسى يجعلُهُ آخرَ رسولٍ لبني إسرائيل، ليصدّق ما وردَ في التوراة، وليكمّل أصول العقيدة الواحدة، التي نادى بها جميع الأنبياء والمرسلين..

«لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموسَ والأنبياء، ما جئتُ لأنقض بل لأكمّل» (إنجيل متّى ٦:١٧)، ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾(١).

جاء عليه السلام ليعيد اليهود إلى حظيرة الإيمان، فلاقى منهم الجهلَ والعنتَ، بمقدار ما لاقى الظلم والاضطهاد. ورغم ذلك ظلَّ

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

وفياً للعهد، وبلَّغَ ما أُنزلَ إليه من ربه تبارك وتعالى، حتى استقرَّت العقيدة في القلوب والأذهان، عقيدةً دينيةً، منزَّلةً من عند الله تعالى، بما يتوافقُ مع ما جاءَ قبلَها، ومع ما سيأتي بعدها. .

ولكن، وكما فعلَ اليهودُ بانحرافهم عن التوراة، هكذا دخلتْ على النصرانيّة النظرياتُ التي سادت بعدها، حتى طمسَتْ معالمها الأصلية، وجعلتْها أبعدَ ما تكونُ عن رسالة عيسى ابن مريم عليه السلام، كما نادى بها، ونشرَها على الدنيا. وهذا ما دفع المؤرخ أرنولد توينبي ليقول عن المسيحية ـ والمقصود فيها النصرانية ـ في كتابه (المسيحية بين أديان العالم): «بأنها تركيب يجمع بين اللاهوت اليهوديّ والفلسفة الإغريقية». ولما كان الإغريق وثنيين، فإن تداخل نظرياتهم الفلسفية بالعقيدة النصرانية، جعل هذه الأخيرة غيرَ قادرةٍ على المحافظة على ما جاءت به في الأصل. وكان ذلك مدعاةً للانقسام في الفكر المسيحيّ حول طبيعة السيد المسيح: فقال مؤتمر نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ميلادية بألوهية المسيح، في حين أن الآريوسيين أنكروا تلك الألوهيّة، واعتبروا المسيح إنساناً مثل كل الناس، ولكنه رسولُ الله إلى بني إسرائيل.

وانعقدت بعد ذلك مجامعُ أخرى كثيرة، ومنها المجمع القسطنطينيّ الأول سنة ٣٨١ ميلاديَّة الذي أضاف إلى ألوهية المسيح روحَ القدس، تأثُّراً بالأفلاطونية الحديثة التي قالتْ بأن أولَ شيء صَدَرَ عن المنشىء الأول للكون هو العقلُ. وقد صَدَرَ عنه لأنَّهُ متولدٌ منه، ولهذا العقل قوَّة الإنتاج، ولكن ليس كمثل من تولد عنه. . ومن العقل انبثقت الروح التي هي وحدةُ الأرواح، وعن هذا الثالوث يصدرُ كل شيء، ومنه يكون التدبيرُ والخلق. .

هذا ويرى بعض المفكِّرين أن النصرانية قد بَعُدَتْ عن جذورها

الأولى بفعل تعاليم بولس وتفسيراته، وأن تلك التعاليمَ والتفسيراتِ هي التي وصلتْ إلى أوروبا وتمسَّحت على أساسها، وليس على أساس العقيدة الأصلية كما نادى بها المسيح عليه السلام.

وإذا كان كثيرٌ من الباحثين والمؤرخين الغربيين أمثال العلامة درابر، وتوينبي، وجيبون، وغيرهم، يعتبرون بأن التفسيرات التي طرأت على المسيحية (كما يسمونها) قد انحرفت بها عن أصولها كرسالة سماوية، فإننا نرى أن اختلاف النظر إلى القضايا الهامَّة التي تتعلَّق بالتفسير والاستنباط إنما هو سبيلٌ لبلوغ الأحسن والأكمل، بما يتلاءمُ مع التطوّر الحضاريّ المستمر، إلاَّ ما كان متعلّقاً بجوهر الرسالة السماوية، أي العقيدة، فإنه لا يجوز أن يطرأ عليها تعديلٌ أو أن تخضعَ لتأويلٍ يبعدها عن حقيقتها. . ويبقى أن الإنسان، إذا سعى من أجل الصالح العام، فإنَّه خيراً يفعل، فإن أخطأ فلهُ أجرٌ، وإنْ أصابَ فله أجران، إلاَّإذا تعمَّد أن يُدخل في العقيدة ما ليس منها، فإنه حينئذٍ يبتعد عن الحقائق التي يريدها الله الواحد الأحد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً.

وخلاصة البحث، أن الجدَلَ والنقاش، واختلافَ الآراء كان قد بَلَغَ حداً كبيراً في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، مما جعل النفوسَ قلقةً، لا تستقرُّ على فكرٍ معيَّنٍ يبعثُ على الاطمئنان الكامل. فإذا أضفنا إلى ذلك أنَّ الرسالاتِ السماويَّة قد جاءتْ من أجل خير الإنسان، وفي سبيل صالحه العام، وأنه كان قد ظَهَرَ منها ما اصطلح الناس عليه باليهودية والمسيحية، فإنَّ مثل تلك الأجواء كانت تهيىء لمجيء رسالةٍ سماويةٍ أخرى، لا تنقُضُ ما جاء قبلها، بل لتكمّل وتُوفِي، وتضعَ الأمور كافة في نصابها الحقيقي. . وأوّل تلك الأمور

التأكيد على أن الله واحدٌ أحد، وهو خالق الكون ومن فيه، وأن جميع الأنبياء والرُّسلُ، هم بشرٌ اختارَهُم الله لإيصال رسالاته إلى الأرض، وأنهم وإن اختلفت بهم العصور، وباعدت بينهم الأمكنة، فإن العقيدة الإسلامية التي نُدبوا من أجلها هي واحدةٌ لا يمكن أن تتجزأ. ولذلك كانت الرسالاتُ السماوية السامية مكملةً بعضَها البعض. .

أما لماذا كان الإسلام في نهاية المطاف، فلأن المفاهيم التي جاءت بها الرسالات السابقة قد اختلطت على الناس، فكان لا بدَّ من رسالةٍ جديدةٍ تصحح تلك المفاهيم ومن بينها التأكيد على الفوارق العميقة بين الألوهية والنبوَّة، وبين الخالق سبحانه وتعالى وبين مخلوقاته، وعلاقاته ـ عز وجل ـ بالعالم والكون والبشر. .

وهكذا كان لا بدَّ من الاختتام. فكان الإسلامُ هو آخرَ رسالةٍ سماويةٍ إلى الأرض، وكان النبيّ محمد ﷺ هو خاتمَ الأنبياء والمرسلين.

وممّا تميَّز به المسيحُ عيسى ابن مريم عليه السلام عن غيره من مبعوثي الله تعالى، أنّه هو الذي بشّر بالنبيّ الذي يأتي من بعده في مصداق قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾(١). وفي التأكيد على مَنْ سيكون هذا النبيّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾(٢).

---

(١) سورة الصف، الآية: ٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

البشارة بالنبيّ محمد ﷺ

وكانت البشارةُ حقاً.. للإنسانية جمعاء، وعلى لسان نبيٍّ من أنبياء الله العظام. ومن أحقّ بهذه البشارة التي أضاءت الأكوان من سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؟

وتحققت البشارةُ، وبعثَ الله محمداً نبياً ورسولاً.. بعثه بالهدى ودين الحق ليخرجَ الناسَ من الظلمات إلى النور، وليشفيَ عباد الله من أمراضهم النفسية والعقلية، ويزيلَ عنهم ما عَلِقَ بهم من أدران الوثنية.

إنَّ هذه البشارةَ بمحمد ﷺ وما كان من أمر إرساله إلى الناس كافة، وما انطوت عليه سيرةُ هذا الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ هو ما تجدونه في «كتاب خاتم النبيين» الذي صدر حديثاً في طبعته الثالثة، وهي مزيدة ومنقحة، صدرت بعون الله وقوته، والحمد لله دائماً وأبداً والشكر على معونته وهو وليُّ التوفيق.

المراجع

* القرآن الكريم
* نهج البلاغة
* مجمع البيان ــــــــــــــــــــــــ للإمام الطبرسي
* في ظلال القرآن ــــــــــــــــــــــــ للسيد قطب
* السيرة النبوية ــــــــــــــــــــــــ لابن هشام
* البداية والنهاية ــــــــــــــــــــــــ لابن كثير
* لسان العرب ــــــــــــــــــــــــ لابن منظور
* قصص القرآن ــــــــــــــــــــــــ للأساتذة محمد جاد ـ محمد إبراهيم
محمد البيجاوي ـ السيد شحاتة
* أنبياء الله ــــــــــــــــــــــــ أحمد بهجت
* قصة الإيمان ــــــــــــــــــــــــ للشيخ نديم الجسر
* إعجاز القرآن ــــــــــــــــــــــــ للشيخ مصطفى صادق الرافعي

فهرست المحتويات

موسوعة الأحكام الشرعية الميسّرة

بين يدي القارىء الكريم مصنف جديد في بابه، يتفيّأ مصنفه - بصريح اللفظ والنية - تناولَ الإسلام ديناً كاملاً. ولهذا ركّز وأكّد - على ضرورة الرجوع في استنباط الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة، اللذين اكتملت بهما أحكام الشريعة، ولم يبق أمام أهل العلم والاختصاص إلاّ تتبع هذين المصدرين فحسب، وأن ينفسح المجال لذوي العقل والنُهى في أيامنا أن يعالجوا اجتهادهم. وكأنه يؤيد المقولة المشتهرة: (نحن رجال وهم رجال)، فمثلما كان معظم الصحابة أهل علم واجتهاد، نحن بأمسّ الحاجة إلى الصحوة على الإسلام كما رَضِيَه الله - تعالى - للناس ديناً، ولسنا بحاجة إلى الصحوة على إسلام المذاهب والطوائف، لأن المذهب - أيّاً كان - يَحْجُرُ على معتنقه أن يتفلّت منه. وإذاً: فلينفتح المسلم على كل جديد وحديث، ويعتمد على نفسه في فهم الأحكام الشرعية واستنباطها.

ويرى المصنِّف أنّ الاجتهاد ليس بالسهل الميسور، إلاّ أن يكون المجتهد الحديث على اتساع بمعرفة اللغة العربية وعلوم القرآن والحديث والشريعة، وبشرط الوقوف على مجالات الاجتهاد وشروطه كما قررها علماء التراث، وأن يحققها في نفسه، إلاّ أنه يبقى ميسوراً لمن اشتدت همته وصحّت عزيمته.

ولدى المصنِّف قناعةٌ واقتناعٌ بانبعاث هذا المجتهد المعاصر الذي يستند في اجتهاده إلى الأصلين - الكتاب والسنة -. ولذا أمدّ موسوعته هذه، وزكّاها بدعواته وحماسته. ونسأل الله له - ولنا - التوفيق والسداد.

الدكتور محمد السعدي فرهود
رئيس جامعة الأزهر

AT-TAFSÏR AL-MAWDOU'Ï LIL-QURAÂN AL-KARÏM

2

SECOND VOLUME



SAMIH ATEF AL-ZEIN

DAR AL-KITAB AL-LUBNANI ● DAR AL-KITAB AL-MASRI